

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



لَمَّا خَرَجَتْ أَطْلُبُ الْأَصْلَاحَ فِي أُمَّتِي

الْإِصْلَاحُ الْحُسَيْنِيُّ

مَجَلَّةٌ فِصْلِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ تُعْنَى بِالتَّهَضُّبِ الْحُسَيْنِيِّ وَأَفَاتِهَا الْفِكْرِيَّةِ

تَصَدَّرَ عَنْ

مُؤَسَّسَتِهِ وَأَرْشَادَاتِهَا لِلدُّنْيَا التَّحْصِيصِ التَّهَضُّبِ الْحُسَيْنِيِّ

الْعَنْبِيَّةِ الْحُسَيْنِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ

العدد الحادي والثلاثون

السنة الثامنة (١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠ م)

الإصلاح الحسني

مجلة فضلية علمية تعنى بالنهضة الحسينية وافتها الفكرية



الهيئة الاستشارية

آية الله السيد عادل العلوي
آية الله السيد منير الخباز
العلامة الدكتور الشيخ محمد باقر المقلسي

آية الله الشيخ محمد السيد
آية الله الشيخ محمد جواد فاضل النكراني
آية الله السيد رياض الحكيم

العلامة الشيخ عبد المهدي الكربلائي



الإصلاح الحسيني

*.....الإشراف العام:

سماحة العلامة الشيخ عبد المهدي الكربلائي

*.....التنسيق العام:

السيد صالح التنكابني

السيد مالك البطاط

أ.م.د. علي البديري

زيد فرج الله الأسدي

د.مريم هادي الياسري

*.....إدارة المؤسسة:

الشيخ باقر الساعدي (النجف الأشرف)

الشيخ رافد التميمي (قمر المقدسة)

*.....معاونة المؤسسة:

الشيخ عباس الحمداوي (النجف الأشرف)

الشيخ حيدر الأسدي (قمر المقدسة)

*.....رئيس التحرير:

الشيخ صباح عباس الساعدي

*.....مدير التحرير:

الشيخ عدنان الطائي

*.....هيئة التحرير:

الشيخ ثناء الدين الدهلكي

د.الشيخ ميشم الربيعي

د.الشيخ أسعد السلطان

د.الشيخ رغدان المنصوري

*.....تقويم النص:

الشيخ عصام السعدي

*.....الإخراج الفني:

الشيخ حسين المالكي

*.....التصميم والجرافيك:

عبد الزهرة الطائي

السيد صادق الحيدري

*.....معمد الترجمة الإنجليزية:

الشيخ حيدر علي البهادلي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٩٢٤) لسنة ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: 7-240-984-964-978-ISSN

هوية المجلة

مجلة فصلية علمية تخصصية تُعنى بالبحوث المتخصصة في مجال النهضة الحسينية، تصدر عن مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية في النجف الأشرف وقم المقدّسة.

اهتمام المجلة

تتمّ المجلة بنشر معالم وآفاق الفكر الحسيني، وتسليط الضوء على تاريخ النهضة الحسينية وتراثها، وكذا إبراز الجوانب الإنسانية والاجتماعية والفقهية والأدبية في تلك النهضة المباركة.

فالمجلة تتطلّع لاستيعاب جميع المجالات المهمّة والحسّاسة في أبواب النهضة الحسينية، شريطة أن تكون البحوث والدراسات متضمّنة لجوانب من الإبداع والحداثة والتجديد، مع حفظ روح الأصالة والتأسيس.

ضوابط النشر

تدعو (مجلة الإصلاح الحسيني) الأساتذة والباحثين والمحققين الفضلاء، وكلّ مَنْ لديه اهتمام في مجال الكتابة والبحث العلمي، إلى رفدها بنتائجهم القيّمة فيما يرتبط بالإمام الحسين عليه السلام ونهضته المباركة، على أمل ملاحظة الأمور التالية:

- أن يكون البحث مرتبطاً باختصاص المجلة وأركانها.
- ألا يكون منشوراً أو بصدد النشر في كتاب أو مجلة أو موقع إلكتروني.
- أن يحتوي على المنهجية العلمية المتبّعة (مقدمة، محتوى، خاتمة، خلاصة، قائمة المصادر).
- أن يراعي الباحث أصول البحث العلمي والتأليف.
- اعتماد اللغة العلمية الرصينة.
- أن يكون بحثاً مبتكراً فيه نوع من التجديد والإبداع.
- أن يحتوي البحث على نتائج وتطبيقات مهمّة ومثمرة.
- الاعتماد على المصادر الرئيسية في البحث قدر الإمكان.
- ترتيب المصادر المثبّته في هوامش البحث بالطريقة التالية: (اللقب، الاسم، عنوان الكتاب: الجزء، الصفحة).
- المجلة غير ملزمة بنشر ما يقلّ عن (١٥) صفحة ويزيد على (٣٠) صفحة.
- كل (٢٥٠) كلمة تُحتسب صفحة واحدة.

تنويه

- يُسَلَّم البحث على قرص ليزري حضورياً أو يُرسل عن طريق البريد الإلكتروني للمجلة مع السيرة الذاتية.
- يخضع البحث للتقويم العلمي من قبل لجنة مختصة.
- للمجلة حق إعادة نشر البحث في كتاب أو ضمن كتاب منفصل، مع الحفاظ على نصّه الأصلي.
- لا يُعاد البحث إلى صاحبه نُشر أم لم يُنشر.
- من صلاحيات المجلة إجراء التعديلات اللازمة على المقال.
- يخضع ترتيب البحوث لاعتبارات فنية.
- المجلة تتبّع نظام المكافآت لأصحاب البحوث.
- حقوق النشر محفوظة.
- الأفكار المطروحة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

مراكز النشر

* النجف الأشرف: شارع الرسول ﷺ - المعرض الدائم للعتبة الحسينية المقدّسة.

* النجف الأشرف: الجديدة الثانية - مكتبة دار الهلال.

* النجف الأشرف: سوق الحويش - مكتبة دار الغدير.

* النجف الأشرف: سوق الحويش - المكتبة العلمية.

* كربلاء المقدّسة: المعرض الدائم في العتبة الحسينية المقدّسة.

* إيران / قم المقدّسة: شارع معلم - سوق ناشران - معرض العتبة الحسينية المقدّسة.

* إيران / قم المقدّسة: صفائية - سوق الإمام المهدي ﷺ - مكتبة فذك.

* إيران / قم المقدّسة: سوق كذرخان - مكتبة الهاشمي.

المحتويات

مقال التكرير

الحضور القرآني في بيانات الإمام الحسين عليه السلام (٣) .. آية قضاء النجب والانتظار أنموذجاً

الشيخ صباح عباس الساعدي ١٣

ملف العصور

الأبعاد القرآنية في نهضة الإمام الحسين عليه السلام (٢)

حوارية : عوامل النصر الإلهي في القرآن الكريم ودورها في نجاح النهضة الحسينية وديمومتها

العلامة السيد صدر الدين القبانجي ٤٣

عاشوراء وحقيقة الخلاص .. مقارنة قرآنية نقدية لنظرية الفداء (القسم الأول)

الشيخ ثناء الدين الدهلكي ٧١

احتجاج الإمام الحسين عليه السلام بالقرآن الكريم .. دراسة دلالية

د. الشيخ عبد المجيد فرج الله ١٠٩

مفهوم الفتح في ضوء الآيات القرآنية والخطاب الحسيني

الشيخ عمّار الجويبرايوي ١٢٩

الآيات المؤولة بالإمام الحسين عليه السلام .. دراسة وتحليل (القسم الأول)

السيد شهيد طالب الموسوي ١٥٣

التناصّ القرآني في خطاب المسيرة الحسينية . . مرحلة الأشرأ نموذجاً (القسم الثاني)

أ. م. د. زهراء البرقعواوي ١٧٩

الأثار المعنوية لنهضة الإمام الحسين ؑ في ضوء الآيات القرآنية . . دراسة وصفية تحليلية (القسم الأول)

د. الشيخ أسعد السلطان ١٩٩

الحوار القرآني عند الإمام الحسين ؑ . . دراسة تحليلية

الشيخ حيدر العريضي ٢٤٣

رمزية الحرف في توظيف الإمام الحسين ؑ للنص القرآني . . الفاء والواو أنموذجاً

الشيخ وسيم راقم الوائلي ٢٦٩

در أسأت حسيبة

النهضة الحسينية والبعثة النبوية . . القسم الأول: دراسة مقارنة في الخلفية والأهداف

العلامة السيد سامي البدري ٢٩٣

قراءة في كتاب: (الحسين ؑ وبطلة كربلاء) للشيخ محمد جواد مغنية

م. م. هبة الأسدي ٣١٩

خلاصة المقالات

خلاصة المقالات باللغة العربية والإنجليزية ٣٤٥

مَقَالُ التَّحْرِيرِ

الحضور القرآني

في بيانات الإمام الحسين عليه السلام (٣)
آية قضاء النحب والانتظار أنموذجاً

الحضور القرآني في بيانات الإمام الحسين عليه السلام (٣) آية قضاء النجب والانتظار أنموذجاً

الشيخ صباح عباس الساعدي*

المقدمة

من الأمور التي اتفق عليها جميع العلماء والمؤرخين - والتي لم يشكك فيها أحد من المسلمين وغيرهم - هو أن الأشخاص الذين ناصروا الإمام الحسين عليه السلام في نهضته المباركة، ووقفوا إلى جنبه في مهمته الصعبة هم أفراد قلائل من المجتمع، خصوصاً إذا كان النظر بالقياس إلى الكم الهائل من المسلمين الذين عاصروا الإمام الحسين عليه السلام، واطَّلَعُوا على مجريات نهضته وتفصيلها، فضلاً عن المقارنة بينهم وبين العدو الذي وقف في وجه الإمام الحسين عليه السلام.

وبما أن تلك الكوكبة المباركة قد اختارت هذا الطريق من بين سائر المسلمين، فهذا يعني أن لهم مميزات وخصائص إيجابية، أعمّ من الدينية والإنسانية - فكرية، وأخلاقية، وروحية... جعلتهم مؤهلين لهذه المهمة الصعبة من جهة، ودعت الإمام الحسين عليه السلام لأن يسعى جاهداً - وبطرق وأساليب متعدّدة - لبيان المقام السامي الذي وصل إليه أولئك الأشخاص الذين شاركوا معه في هذه المسيرة الإلهية، وللإفصاح عمّا في مكنونه عليه السلام تجاههم من جهة أخرى.

وقد تجلّت رؤية الإمام الحسين عليه السلام حول مكانة أهل بيته وأصحابه، والأبعاد الإيجابية التي يحملونها، ضمن أقواله تارةً وأفعاله أخرى؛ فمن الناحية العملية قام

* رئيس تحرير مجلة الإصلاح الحسيني.

الإمام عليه السلام بأفعال وسلوكيات لا يمكن تفسيرها إلا بالدلالة على علو مقام أصحابه، وقرب منزلتهم لديه، ورضاه عنهم، ذلك الرضا الذي يدل على رضا الله عز وجل ^(١)، فيجد الباحث أنه عليه السلام تارةً يمشي إلى مصرع غلامه التركي، ويضع خده على خده؛ فيتبسّم الغلام فرحاً بما صنعه معه إمامه وقائده ^(٢)، وأخرى يمسح التراب عن وجه الحرّ الرياحي ويرثيه بكلمات خلّدت ذكره ^(٣).

أمّا الأقوال التي وُجِدَتْ في هذا الصدد، فإنّها حافلةٌ بالحقائق المهمّة، وتستدعي من الباحثين والمحقّقين وقفةً جادّةً ضمن دراساتٍ معمّقة للكشف عن دلالاتها المعرفية، فقد ذكر عليه السلام كلمات وأقوالاً في حقّهم ملؤها الإطراء والثناء، واختار المفردات البليغة والواضحة في إيصال صورة متكاملة عن هذه الشخصيات العظيمة؛ من أجل إبراز الجوانب الإيجابية الواسعة النطاق في شخصياتهم المرموقة، سواء في كلماته عليه السلام الخاصّة ببعض أهل بيته وأصحابه الشهداء ^(٤)، أم الإشارات العامّة التي يدخل في دائرتها جميع من استشهد تحت رايته عليه السلام.

ولو لم يصل إلينا من كلامه عليه السلام إلا قوله: «... فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي؛ فجزاكم الله عني خيراً...» ^(٥)

(١) فضلاً عن النصوص الكثيرة التي سعى النبي صلى الله عليه وآله جاهداً لبثّها بين المسلمين، والتي تدلّ على هذه الحقيقة، نجد أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد صرّح بذلك في قوله: «رضا الله رضانا أهل البيت». ابن نما، جعفر بن محمد، مثير الأحران: ص ٢٩.

(٢) أنظر: الخوارزمي، الموفق محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٢٨.

(٣) أنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٦١.

(٤) كما في قوله عليه السلام لأبي ثمامة الصائدي: «ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلّين الذاكرين...». الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٣٤. أو قوله عليه السلام لسعيد بن عبد الله الحنفي: «أنت أمامي في الجتّة». ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٦٤. وغير ذلك من الكلمات التي جاءت لبيان منزلتهم.

(٥) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٩١. وأنظر: أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبين: ص ٧٤.

- الذي يحمل معاني كثيرة استوقفت العلماء والباحثين على مرّ العصور - لكان في ذلك غنى للباحثين لإثبات مقامهم السامي، ومنزلتهم الرفيعة، فكيف بنا ونحن نقف أمام كمّ هائل من النصوص الواردة عن الإمام الحسين عليه السلام في حقهم؟ فضلاً عما ورد عن الأئمة المعصومين عليهم السلام ضمن الزيارات ^(١) والروايات ^(٢) التي سلّطت الأضواء على الخصائص التي أهلتهم لأن يكونوا في عداد أولياء الله وأحبابه.

ومن أهمّ النصوص التي اعتمدها الإمام عليه السلام هي الآيات القرآنية التي وظّفها في بياناته المباركة، مبيّناً بذلك انطباقها الواضح على أصحابه وأهل بيته، وفق نظرية الجري والانطباق التي تقدّم الحديث عنها في بحث سابق ^(٣).

وفي هذا البحث نريد أن نسلّط الضوء على هذا الجانب؛ لبيان بعض السبل التي انتهجها الإمام الحسين عليه السلام لإبراز جوانب من خصائصهم، بالاستناد إلى كلام الله عزّ وجلّ، ولكون الآيات التي اعتمدها الإمام عليه السلام متعدّدة وكثيرة؛ فإننا سوف نقتصر على ذكر بعض الآيات القرآنية التي تمّ توظيفها من قبل الإمام عليه السلام بشكل متكرّر في بيان حقيقة أهل بيته وأصحابه، والمنزلة التي وصلوا إليها.

مبّرات البحث

مع أنّ الأهداف والمبّرات التي سوّغت للباحث تناول هذا الموضوع قد تبدو واضحة للقارئ الكريم، ولا تحتاج إلى ذكر، ولكننا نُشير إلى بعضها ضمن نقاط:

١- إعطاء رؤية واضحة عن أهمية القرآن الكريم ومحوريته في محاكمة الإمام

(١) كما نقرأ في الزيارة الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام: «السلام عليكم يا أولياء الله وأحبابه، السلام عليكم يا أصفياء الله وأوداءه، السلام عليكم يا أنصار دين الله...». الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتعجب: ص ٧٢٣.

(٢) أنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢٦٥.

(٣) أنظر: الساعدي، صباح عبّاس، مقال (مدخل إلى الحضور القرآني في بيانات الإمام الحسين عليه السلام)، مجلّة الإصلاح الحسيني، العدد ٢٩، ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م: ص ٣٧.

الحسين عليه السلام للأحداث والمواقف؛ ولذا فإنه عليه السلام يستند إلى كلام الله عز وجل في بيان قيمة الشخصيات التي شاركت معه في نهضته المباركة، ومكانتهم المرموقة عند الله ورسوله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

٢- إبراز الدور الذي يؤديه القائد الناجح بواسطة الكلمات التي تحفز المقاتلين أو الثائرين، وتشجعهم على الإصرار والثبات على المبدأ الذي آمنوا به.

٣- الاعتقاد بأن لمعرفة هذه المميزات دوراً بارزاً في ارتقاء المجتمعات؛ إذ إن ذكر الخصائص والمميزات لهذه الكوكبة والبرهنة عليها قرانياً يكون حافزاً للأجيال على الاقتداء بهم على مر التاريخ.

٤- يراد لهذا البحث أن يثبت للقراء الكرام أن ما قام به الإمام الحسين عليه السلام من إطراء وإشادة بالأشخاص الذين تفاعلوا مع حركته الإصلاحية، إنما هو نتيجة طبيعية وردة فعل حتمية من قائد وقف على خصائص أصحابه.

٥- البرهنة على أن ما نصنعه في حقهم من تخليد وإحياء لذكراهم ما هو إلا جزء قليل من استحقاقهم، فكل من يسمع أو يقرأ كلمات الإمام الحسين عليه السلام في حقهم، ويقف على حقيقة مقامهم ومنزلتهم، يكون - بلا شك - معتقداً بضرورة احترامهم، ولزوم تخليد ذكراهم، بعد أن يتوصل إلى أنهم من عظماء الأمة وشخصياتها البارزة.

الموضوع

وبما أننا قد أسلفنا في الأسطر المذكورة آنفاً أن بعض الآيات التي تضمنتها كلام الإمام الحسين عليه السلام في نهضته المباركة قد تكرر توظيفها من قبله عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾^(١)؛ إذ تم استحضارها في كلام الإمام الحسين عليه السلام في مواطن متعددة وحوادث مختلفة، حسب ما أفادت النصوص التاريخية القائلة: بأن الإمام الحسين عليه السلام قرأ هذه الآية عند توديعه لجميع أصحابه

(١) الأحزاب: آية ٢٣.

حين خروجهم للقتال^(١)، كما أنه عليه السلام قرأها أيضاً عند مصرع مسلم بن عوسجة^(٢)، مضافاً إلى قراءته عليه السلام لها قبل يوم عاشوراء حينما بلغه نبأ استشهاد بعض أصحابه الذين أرسلهم إلى الكوفة^(٣)؛ ما يكشف لنا مدى الانطباق الواضح لهذه الآية المباركة على أهل بيت الإمام عليه السلام وأصحابه الكرام، والشبه الكبير بينهم وبين الأفراد الذين نزلت الآية الكريمة في حقهم^(٤)، فقد دعانا هذا التأكيد من قبله عليه السلام إلى التوقف عندها، وتسليط الضوء عليها من بين سائر الآيات الأخرى، آمليْن أن نتناول بقيّة الآيات المرتبطة بهذه الكوكبة المباركة ضمن دراسة مستوفية مستقلة.

وبما أننا قد ذكرنا في بحث سابق أن إثبات صحّة هذه الفرضيات تبني على البحث عن المعنى التفسيري للآية الكريمة، والخصائص التي اتصف بها أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، ثم المقارنة بين الأشخاص الذين نزلت الآية المباركة في حقهم وبين أصحاب الإمام الحسين عليه السلام لمعرفة مدى إمكانية انطباقها عليهم؛ لذا سوف نعلم الخطوات الآتية:

الخطوة الأولى: المعنى التفسيري للآية الكريمة

حينما نمّر على هذه الآية المباركة ونقرأها بطريقة عابرة تبدو لنا وكأنّها مألوفة الألفاظ وواضحة المعنى، إلّا أنّ النظرة المتأنّية والصبورة في محتواها تكشف لنا أنّ هناك مساحات واسعة في مفرداتها قد وقع الاختلاف حولها بين المفسرين، وعلى سبيل المثال: فإنّ مفردة (النَّحْب) التي وردت في هذه الآية المباركة، والتي يبدو أنّ

(١) أنظر: الخوارزمي، الموفق محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٢٩. وأيضاً: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ١٥.

(٢) أنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ١٠٣.

(٣) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٠٦.

(٤) لا يفهم من كلامنا أعلاه أنّ الآيات التي لم يتمّ تكرارها ليس لها ذلك الوضوح والانطباق على أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، أو لم يكن انطباقها ملحوظاً للباحث، وإنّما نقصد من ذلك أنّ الآية مورد البحث أكثر وضوحاً من سائر الآيات التي تمّ توظيفها في كلامه عليه السلام.

المراد منها هو الموت، قد ذكرت لها تفسيرات عدّة، وناقش بعضهم في صحّة القول بأن المراد منها هو الموت، قائلاً: «وأما ما قيل من أن النّحب استعير للموت؛ لأنّه كنذر لازم في رقبة كلّ حيوان، فمسخ للاستعارة وذهاب برونقها، وإخراج للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلية»^(١). وهذا ما يحتم علينا إعادة النظر في قراءة الآية من جديد؛ لكي نتمكّن من فهم مدلولها، ولا أقلّ للوقوف على المعاني التي ذكرت في صدد تفسيرها؛ ولذا سوف نتناول ذلك ضمن الفقرات الآتية:

١- قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ...﴾:

استُخدمت مفردة (المؤمنين) - وكذا اشتقاقاتها المتنوّعة - في موارد كثيرة من القرآن الكريم، وقد اقترن بعضها بالمدح والثناء على مصاديقها، والبشارة والتطمين لهم في موارد متعدّدة، كما في الآية مورد البحث وغيرها من الآيات^(٢)، بينما جاء بعضها الآخر مقروناً بالذم واللوم والعتاب على ما صدر منهم من أفعال اقترفوها، أو كلمات صدرت منهم، من قبيل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ...﴾^(٤)، فيما جاء صنف ثالث من الآيات لكي يحثّ المؤمنين على بعض الأفعال، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٥)، إلى غير ذلك من الخطابات التي وجّهت إلى المؤمنين أو خصّصت للحديث عنهم.

(١) أبو السعود، محمد بن محمد، تفسير أبي السعود: ج ٧، ص ٩٨.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: آية ٢٢٣). أو قوله تعالى: ﴿... يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: آية ١٧١).

(٣) الصف: آية ٢.

(٤) التوبة: آية ٣٨.

(٥) البقرة: آية ١٥٣.

ويبدو أن هذه الكلمة في القرآن الكريم إذا وردت على إطلاقها فإنها تنطبق على كل من آمن بالنبي ﷺ ظاهراً، وأقرّ بذلك بلسانه، وإن لم تكن أفعاله متناسبة مع صفة الإيمان، فتشمل هذه الكلمة حينئذٍ الذين آمنوا حقاً، وغيرهم من الأفراد الذين أظهروا إيمانهم، وإن كانوا غير مؤمنين في واقع الأمر، وهذا هو الحال في كثير من الآيات القرآنية^(١)، أو تنصرف إلى خصوص الذين لم يؤمنوا إيماناً حقيقياً^(٢)، بخلاف الآيات التي تضمنت مدحاً صريحاً أو بشارَةً؛ نتيجة العمل الصادر عن بعض المؤمنين، كما هو الحال في الآية مورد البحث، إذ يفهم منها أن المراد من المؤمنين خصوص الأفراد الذين تحمّض في قلوبهم الإيمان، وانعكس على سلوكهم الخارجي.

٢- قوله: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾:

تضمنت هذه الفقرة من الآية الكريمة مفردتين محورتين في فهم سياق الحادثة والأشخاص الذين خصّهم الله ﷻ بالذكر، إذ يُعدّ (الصدق بالمعاهدة)، أو (الوفاء بالمعاهدة) من أهمّ الصفات التي تميّز العطاء، وتؤهلهم لكي يتخذهم الناس مثلاً يُقتدى به، فقد أمر الله تعالى في كتابه أن نذكر نبيّه إسماعيل، حينما قال: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ...﴾^(٣)، كما أنّهما من لوازم الإيمان^(٤)؛ ومن هنا خصّص الله ﷻ هذه الآية للحديث عن هؤلاء المؤمنين الذين صدقوا في معاهدتهم مع الله ﷻ، وثبتوا على هذا الأمر إلى آخر لحظات حياتهم.

(١) أنظر: القمّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمّي: ج ٢، ص ٣٦٥. وأيضاً: آل الشيخ، صالح بن عبد العزيز، تحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل: ص ٤٠٤.

(٢) فقد وردت روايات عن الأئمة عليهم السلام ذكرت أنّ الله ﷻ إنّما سهاهم مؤمنين بإقرارهم. أنظر: القمّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمّي: ج ١، ص ٣٠. وكما روي عن ابن عباس أنّه قال: «ما نزل في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا وعلي أميرها وشريفها، ولقد عاتب الله المؤمنين في القرآن في غير آية ما فيها من عيب». الحسكاني، عبيد الله بن أحمد، شواهد التنزيل: ج ١، ص ٦٧.

(٣) مريم: آية ٥٤.

(٤) أنظر: الخوئي، أبو القاسم، التنقيح في شرح المكاسب - الخيارات، (موسوعة السيّد الخوئي):

ج ٣٨، ص ٩٣.

ويراد من هاتين المفردتين (أي: الصدق، والمعاهدة) في الآية الكريمة: البيعة لله تعالى بواسطة مبايعة رسوله، والوقوف إلى جنبه في هذه المهمة الإلهية التي كلفه الله بها، والصدق والثبات على هذه البيعة إلى نهاية الطريق، ويستفاد هذا المعنى مما ذكره بعض المفسرين، ومن جملتهم الطبرسي رحمته الله؛ إذ ذكر ذلك بقوله: «**مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**»، أي: بايعوا أن لا يفروا، فصدقوا في لقائهم العدو...»^(١). وبما أن المعاهدة والبيعة التي تُفهم من هذه الصياغة إنما تكون في نظر العرف العام بين طرفين^(٢)، فهل يفهم من قوله تعالى: (عاهدوا) أن المعاهدة وقعت بين طرفين، وهما: الله رحمته الله والأشخاص الذين عاهدوه، بمعنى أن يكون هناك عهد من قبل الله رحمته الله لمن ينصر الله ورسوله، أو أن المعاهدة مع الله تختلف عن المعاهدات العرفية، فتكون المعاهدة من قبل المؤمنين ابتدائية، وغير مسبقة بتعهد من قبل الله تعالى؟

لعل بعض الآيات القرآنية تؤكد هذا المعنى، كما في قوله تعالى: «**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**»^(٣)، وكذلك قوله تعالى: «**يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصِرُوا اللَّهُ يُنصِرْكُمْ وَيُنصِبْ أَقْدَامَكُمْ**»^(٤)، وغيرهما من الآيات الكثيرة التي تحفز المؤمنين على الثبات والوقوف إلى جنب رسول الله صلوات الله عليه وآله في كل الأحوال، وإعطاء العهود والمواثيق له صلوات الله عليه وآله أو للأئمة من خلفائه عليهم السلام.

٣- قوله تعالى: «**فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ**...»:

سبق أن نقلنا عبارة لبعض المفسرين توحى إلى وجود اختلاف في فهم مفردة (النَّحْب) الواردة في الآية الكريمة، وحينما نراجع المجاميع التفسيرية حول هذه الآية

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٨، ص ١٤٥.

(٢) أنظر: الأصفهاني، محمد حسين، حاشية المكاسب: ج ١، ص ٢٩٣.

(٣) العنكبوت: آية ٦٩.

(٤) محمد: آية ٧.

المباركة نجد أن هناك مجموعة من الأقوال ذكرت حول هذه المفردة، وتجتمع المعاني المحتمل إرادتها من هذه الكلمة في قول الطبرسي عليه السلام في تفسير مجمع البيان: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾، أي: مات، أو قُتل في سبيل الله، فأدرك ما تَمَنَّى، فذلك قضاء النَّحْبِ، وقيل: قضى نَحْبَهُ: معناه فرغ من عمله، ورجع إلى ربه، يعني مَنْ اسْتَشْهَدَ يَوْمَ أَحَدٍ، عن محمد ابن إسحاق، وقيل: معناه قضى أجله على الوفاء والصدق، عن الحسن. وقال ابن قتبية: أصل النَّحْبِ النذر، وكان قوماً^(١) نذروا إن يلقوا العدو أن يقاتلوا حتى يُقتلوا، أو يفتح الله، فقتلوا، فقيل: فلان قضى نَحْبَهُ: إذا قُتِلَ^(٢).

وعلى رأي بعض العلماء أن جميع هذه المعاني محتمل هنا^(٣)، إلا أن قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾، قد يحدّد المقصود ببعض المعاني المذكورة آنفاً؛ بعد أن ذكروا أن المراد منه أن بعض المؤمنين ينتظر الموت على الوفاء بالميثاق^(٤)، فيكون المراد منها هو الموت أو الاستشهاد على العهد الذي عاهد الله ورسوله عليه، وهذا ما سوف يتضح لنا من خلال الروايات الواردة في بيان سبب نزولها.

٤ - قوله تعالى: ﴿... وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾:

يُشير قوله تعالى: ﴿... وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ إلى الحالة الإيجابية التي تحلّت بها هذه الفئة من المؤمنين؛ إذ تعدّ صفة الثبات وعدم تغيير المواقف وتبدّل الآراء من الصفات الممدوحة لدى العقلاء، وبخلاف هذه الصفة تكون صفة التقلّب والتأرجح والتذبذب، فإنّها من الصفات المستقبحة، ويكون صاحبها عرضة للنقد والذم^(٥).

(١) هكذا وردت الكلمة (بالنصب) في المصدر المنقول عنه، والصحيح أنّها مرفوعة، كما في (غريب القرآن)، لابن قتيبة: ص ٢٩٩.

(٢) الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان: ج ٨، ص ١٤٥.

(٣) الكاشاني، محمد محسن، الوافي: ج ٥، ص ٧٩٩.

(٤) أنظر: المصدر السابق.

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (النساء: آية ١٤٣).

والمعنى المقصود في الآية الكريمة هو أنّ هؤلاء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه... لم ولن يغيروا في نواياهم تجاه العهد، ولم يبدلوا مواقفهم وأفعالهم كذلك^(١)، وقد ألفت الفيض الكاشاني النظر إلى الفائدة المهمة من ذكر الله عز وجل هذه الجملة قائلاً: «... وفيه تعريض بمن بدلوا من أهل النفاق ومرضى القلب...»^(٢)، وهو ما يُفهم أيضاً من الروايات التي سيقت لبيان شأن نزول الآية المباركة، وسيأتي ذكرها بعد قليل.

النصوص الواردة في شأن نزول الآية

من النقاط المحورية في تفسير الآية المباركة هو تعيين الأشخاص الذين نزلت في حقهم، أو ما يُعبّر عنه بشأن نزول الآية في المصطلح التفسيري، وقد ذكر المفسرون بعض الأسماء التي ادّعي أنها نزلت فيهم، أو قرئت في حقهم؛ إلا أنّ أكثر النصوص الواردة في هذا الصدد تُشير إلى أنّ هؤلاء الأشخاص هم أمير المؤمنين عليه السلام وبعض أهل بيته الذين استشهدوا مع النبي صلى الله عليه وآله، وهذه النصوص هي:

(١) النصوص المصرحة بنزول الآية في حق أمير المؤمنين عليه السلام

١- ما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «... ولقد كنت عاهدت الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله أنا وعمّي حمزة، وأخي جعفر، وابن عمّي عبدة، على أمر وفينا به الله عز وجل ولرسوله، فتقدمني أصحابي، وتخلّفت بعدهم لما أراد الله عز وجل؛ فأنزل الله فينا: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾...»^(٣)، وقريب منه ما نقله القاضي النعمان المغربي مع اختلاف في بعض الألفاظ التي لا تؤثر في المعنى الذي فهمناه من الرواية^(٤).

(١) أنظر: الكاشاني، ملاحظ الله، زبدة التفسير: ج ٥، ص ٣٦٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ص ٣٧٦. وأنظر: المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص:

ص ١٧٤.

(٤) أنظر: القاضي المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار: ج ١، ص ٣٥٣.

٢- ما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً، وقد ذكره ابن حجر العسقلاني بقوله: «وسئل وهو على المنبر بالكوفة عن قوله تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾. الآية. فقال: اللهم غَفراً، هذه الآية نزلت في، وفي عمي حمزة، وفي ابن عمي عبيدة بن الحرث بن عبد المطلب، فأما عبيدة فقتل نحبه شهيداً يوم بدر، وحمزة قضي نحبه شهيداً يوم أحد، وأما أنا فأنتظر أشقاها يخضب هذه من هذه - وأشار إلى لحيته ورأسه - عهد عهده إليّ حبيبي أبو القاسم»^(١).

٣- ما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام كذلك، وهو ما ذكره القاضي المغربي في باب وصايا أمير المؤمنين عليه السلام في أواخر عمره، فقد قال عليه السلام في معرض حديثه مع الناس: «اللهم، إنك شهيد - وكفى بك شهيداً - أتى بايعت رسولك وحببتك في أرضك محمدًا عليه السلام، أنا وثلاثة من أهل بيتي على أن لا ندع لله أمراً إلا علمناه»^(٢)، ولا ندع له نهياً إلا رفضناه، ولا ولياً إلا أحببناه، ولا عدواً إلا عاديناه، ولا نولي ظهورنا عدواً، ولا نملُّ عن فريضة، ولا نزداد الله ولرسوله إلا نصيحة. فقتل أصحابي، (رحمة الله ورضوانه عليهم)، وكلهم من أهل بيتي: عبيدة بن الحارث قُتل بيدر شهيداً، وعمي حمزة قُتل يوم أحد شهيداً، (رحمة الله عليه ورضوانه)، وأخي جعفر قُتل يوم مؤتة شهيداً، (رحمة الله عليه)، فأنزل الله في وفي أصحابي: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾، أنا - والله - المنتظر، ما بدلت تبديلاً»^(٣).

٤- ما رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام حينما سئل عن قوله تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا...﴾، قال: علي، وحمزة، وجعفر. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾، قال: عهده، وهو: حمزة وجعفر. ﴿مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ قال: علي بن أبي طالب...»^(٤).

(١) ابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمد، الصواعق المحرقة: ص ١٤٣.

(٢) يبدو من السياق أن الأصح (عملناه)، كما أثبتها بعض المحققين. أنظر: المحمودي، محمد باقر، نهج السعادة في مستدرک نهج البلاغة: ج ٨، ص ٣١٩.

(٣) القاضي المغربي، النعمان بن محمد، دعائم الإسلام: ج ٢، ص ٣٥٤.

(٤) ابن شهر آشوب، علي بن محمد، مناقب آل أبي طالب: ج ٢، ص ٢٨٩.

٥- ما رُوي عن الإمام العسكري عليه السلام في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام يوم الغدير بقوله: «... وفي مدح الله تعالى لك غني عن مدح المادحين، وتقريظ الواصفين، قال الله تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾. ولما رأيت قد قتلت الناكثين والقاسطين والمارقين، وصدقك رسول الله صلى الله عليه وآله وعده، فأوفيت بعهده...»^(١).

٦- ما رُوي من إقرار عمرو بن العاص بفضائل أمير المؤمنين عليه السلام في قوله لمعاوية ابن أبي سفيان: «... وقد علمت يا معاوية، ما أنزل الله تعالى في كتابه من الآيات المتلوّات في فضائله التي لا يشركه فيها أحد، كقوله: «... ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾...»^(٢).

وهذه الروايات والنصوص الدينية والتاريخية تبين أن شأن نزول هذه الآية الكريمة والأفراد الذين نزلت في حقهم هم: أمير المؤمنين عليه السلام، وحمة، وعبيدة، وأضيف في بعضها جعفر بن أبي طالب عليه السلام.

كما تثبت لنا أن هذه الخصلة وهذه الصفة من الأهمية بمكان، بحيث استحق المتصفون بها الذكر العلي من الله عز وجل في كتابه الكريم، للإشادة بموقفهم النبيل هذا، والتعهد بمجازاة الصادقين الجزاء الحسن نتيجة صدقهم.

٢) الآراء القائلة: بأنها نزلت في حق غير أمير المؤمنين عليه السلام

نجد في التراث السني المفسر لهذه الآية أنّ الذي نزلت في حقه هو أنس بن النضر، وهو ما ذكره الطبري في تفسيره، حينما تخلف عن معركة بدر، فندم على ذلك، ونذر أن ينصر النبي صلى الله عليه وآله فيما لو خرج مرة أخرى لمواجهة المشركين^(٣)، فيما ذكر بعض

(١) المشهدي، محمد بن جعفر، المزار: ص ٢٨١.

(٢) الخوارزمي، الموفق محمد بن أحمد، المناقب: ص ٢٠٠.

(٣) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج ٢١، ص ١٧٧.

آخر منهم أنّ النبي ﷺ قرأها في حقّ مصعب بن عمير حينما مرّ ﷺ به في معركة أحد فرآه مقتولاً^(١)، فضلاً عن الرواية التي ينقلها الترمذي عن طلحة بن عبيد الله، والتي تقول: إنّ النبي ﷺ قد طبّق هذه الآية على طلحة حينما سأل النبي ﷺ أعرابياً عن المراد من قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾^(٢).

إمكانية الجمع بين الروايات

بعد أن اتّضح لنا الأشخاص الذين ذكروا في صدد شأن نزول الآية، فإنّ السؤال الذي يواجهنا هو أنّه: كيف يمكننا معرفة حقيقة الأمر بعد أن تضاربت الروايات حول الأشخاص الحقيقيين الذين عُنيت هذه الآية بالإشادة بموقفهم؟ ويمكن أن نجيب عن هذا السؤال: بأنّ هذه الروايات - وبغضّ النظر عن صحّة الروايات الأخرى - ليست متصادمة أو متعارضة فيما بينها، وإنّما تكون الروايات المصرّحة بنزولها في حقّ أمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيته صادرة لكي تثبت نزولها في حقّهم عليه السلام، وأمّا الروايات الأخرى فيمكن أن يكون صدورها وفق نظرية الجري والانطباق على الأسماء الواردة فيها؛ استناداً إلى دلالة الألفاظ الواردة في الروايات التي تمّ نقلها، ففي الرواية القائلة: بأنّ رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مرّ على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عنده عليه السلام ودعا له، ثمّ قرأ هذه الآية^(٣)، هذا يعني أنّ الآية لم تكن نازلة لتوّها لتكون نازلة في حقّه، وكذلك الرواية الأخرى التي

(١) أنظر: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤، ص ١٥٩. وأيضاً: الثعلبي، أحمد بن محمد، تفسير الثعلبي: ج ٣، ص ٢٠٥. وأيضاً: الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک: ج ٢، ص ٢٤٨.

(٢) أنظر: الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي: ج ٥، ص ٣٠٩.

(٣) أنظر: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤، ص ١٥٩. وأيضاً: الثعلبي، أحمد بن محمد، تفسير الثعلبي: ج ٣، ص ٢٠٥. وأيضاً: الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک: ج ٢، ص ٢٤٨.

تنصّ على أنّ النبي ﷺ قال حينما رأى طلحة بن عبيد الله: «هذا ممن قضى نحبه»^(١)، وهو ما يجعلنا جازمين بأنّها لم تكن نازلة في حقّهم، وإنّما طبّقها النبي ﷺ عليهم، فكما أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد طبّقها على أصحابه الذين استشهدوا في نهضته المباركة، كذلك يكون النبي ﷺ قد طبّقها على الذين استشهدوا في معاركه التي خاضها ضدّ المشركين، غاية ما في الأمر يكون وجه الشبه والاشترك في فئة أكثر من بقيّة الفئات الأخرى الذين طبّقت الآية الكريمة عليهم، ولا يبقى أمام الروايات المصرّحة بنزولها في حقّ أمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيته سوى الرواية التي ذكرها الطبري في حقّ أنس بن النضر، وهي رواية واحدة مخالفة لما عليه المشهور من علماء المسلمين الذين صرّحوا بأنّها نزلت في حقّ أمير المؤمنين عليه السلام^(٢).

والسؤال المهم في هذا الصدد: ما هو السرّ في نزول قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ بحقّ حمزة سيّد الشهداء... وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ بحقّ أمير المؤمنين عليه السلام على وجه التحديد، ولم لا تشمل بعض الصحابة الذين أثبتوا حبّهم وولاءهم و.. للنبي الأكرم ﷺ؟

مع أنّ الله عزّ وجلّ هو أعلم بحقائق الأمور، إلّا أنّ الوثائق التاريخية والنصوص الروائية الكثيرة تبرهن لنا أنّ هؤلاء الأشخاص الذين ذكروا في شأن نزول الآية الكريمة قد أثبتوا صدقهم ووفاءهم في عهدهم وبيعتهم، ولم يبدّلوا في ذلك على مختلف الصّعد، وفي جميع مراحلهم الحياتية مع النبي ﷺ، بخلاف غيرهم الذين تأرّجحوا في مواقفهم، سواء في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته.

(١) أنظر: الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي: ج ٥، ص ٣٠٩.

(٢) أنظر: العاملي النباطي، علي بن يونس، الصراط المستقيم: ج ١، ص ٢٥٦. وأيضاً: الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٨، ص ١١٣.

الخطوة الثانية: سيرة أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الشهداء

كثيرة هي الجوانب المشرقة في سيرة أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الكرام الذين استشهدوا بين يديه؛ إذ لا يجد الباحث أحداً من أئمة السير والتاريخ يقدح في شخصية من هذه الشخصيات، بل لقد شهد بفضلهم العدو والصديق، كما يقف على ذلك كلٌّ من راجع الموسوعات الرجالية وكتب السير والتاريخ، بل نجد بعض الكلمات الصادرة ممن كان في الجبهة المعادية - وفي أثناء المعركة - جاءت للإطراء عليهم؛ فقد روى المؤرخون أن عمرو بن الحجاج قد خاطب أصحابه بقوله: «يا حمقى، أتدرون من تقاتلون؟ تقاتلون فرسان أهل مصر، وأهل البصائر، وقوماً مستميتين، لا يبرز منكم إليهم أحد إلا قتلوه على قلتهم...»^(١)، فإنَّ خطابه هذا وإن كان لغرض تحذير أصحابه من التواني والتهاون في مواجهتهم؛ إلا أنه يحمل دلالات كثيرة عن سمو منزلتهم ومكانتهم في المجتمع، والحالة الإيمانية التي بلغوها في مسيرتهم.

ولسنا في صدد الحديث عن جميع الجوانب المشعة في سيرتهم العطرة بقدر ما نروم تناول الجانب المرتبط بسيرتهم التي لها علاقة بالمفردات الواردة في الآية مورد البحث، أي: (الصدق، الوفاء بالمعاهدة، قضاء النَّحب، الانتظار)، تاركين الجوانب الأخرى من سيرتهم العطرة وجوانبها المشرقة إلى دراسة مستقبلية حول الآيات التي طبَّقها الإمام الحسين عليه السلام عليهم؛ لنرى مداليل هذه الآيات القرآنية ودرجة انطباقها عليهم.

وفي صدد الحديث عن الجانب المرتبط بالعهود التي أبرمت من قبل الأمة في عصر النهضة الحسينية، والتفاعلات التي أبدتها المجتمع مع حركة الإمام الحسين عليه السلام فإنَّه يتحتّم علينا أن نتناول ذلك من جهتين:

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ١٩.

الجهة الأولى: العهود التي أخذت على الأمة في حق الإمام الحسين عليه السلام

إنّ العهود والبيعة التي أخذت للإمام الحسين عليه السلام من الأمة الإسلامية كانت على نمطين:

أ. العهود العامة

يمكن أن نعدّ المعرفة المسلمّة والواضحة لدى الأمة بمكانة الإمام الحسين عليه السلام واستحقاقه لمنصب الإمامة التي نصّ عليها النبي صلى الله عليه وآله في مواطن متعدّدة ومناسبات مختلفة^(١) بمنزلة نداء صريح من قبل الله ورسوله، ودعوة سابقة للمسلمين لأجل مناصرة الإمام الحسين عليه السلام، والاصطفاف إلى جانبه، وفي هذه الحال سوف يكون الجميع مدعواً للخروج مع الإمام عليه السلام ومحاربة الظلم والظالمين.

وفي ضوء ذلك؛ فإنّه وإن لم تكن في بادئ الحركة الحسينية - وحينما أعلن الإمام الحسين عليه السلام رفضه لمبايعة يزيد - هناك دعوة صريحة من قبل الإمام عليه السلام للانضمام إلى ركبه المبارك والمتكّون من أفراد عائلته وأهل بيته المصمّمين على الموت من أجل نصرته عليه السلام، إلّا أنّ الدعوة السابقة والبيانات المؤكّدة - التي أسلفنا الحديث عنها - تبقى شاهد صدق ودليلاً واضحاً لإدانة الأمة التي وقفت متفرّجة، واختارت الحيادية تجاه الإمام الحسين عليه السلام ونهضته المباركة، فضلاً عمّن وقف في وجهه وشارك في قتله بكلمة أو فعل، وليس لأحد من المسلمين الذين شهدوا نهضة الإمام عليه السلام العذر في التخلف عن ركبه المبارك، ما لم يدلّ دليل على وجود مبرّر ومعذوريته في ذلك؛ ومن هذا الدافع والشعور تحرك كلّ من ناصر الإمام الحسين عليه السلام ووقف إلى جنبه، خصوصاً أهل بيته الكرام الذين بادروا إلى الانضمام إلى ركبه منذ الانطلاقة الأولى للإمام الحسين عليه السلام.

(١) كحديث الثقلين الدال على وجوب التمسك بالأئمة عليهم السلام، وهو حديث متواتر بين المسلمين. أنظر: الميلاني، علي الحسيني، حديث الثقلين (تواتره - فقهه): ص ٣٤. والحديث الذي احتج به الإمام الحسين عليه السلام على الأمة بقوله: «... أو لم يبلغكم ما قال رسول الله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنة؟!». المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٩٧.

ب. العهود الخاصّة

هناك نمط آخر من العهود التي أبرمت من قِبَل الأُمَّة الإسلاميّة تجاه الإمام الحسين عليه السلام ونهضته المباركة، وهي البيعة والعهد الذي تولّد عن المكاتبات والمناشدات المتكرّرة من قِبَل جمع غفير من الناس، تلك المناشدات التي تحثّ الإمام عليه السلام على المطالبة بحقوق المسلمين؛ بصفته الإمام الشرعي، وأولى الناس بالتغيير، وأجدرهم بتصحيح المسار، وقد كانت انطلاقة هذه المكاتبات والمناشدات المتكرّرة منذ شهادة الإمام الحسن عليه السلام، وانتقال الإمامة إلى الإمام الحسين عليه السلام في عصر معاوية بن أبي سفيان^(١)، وصولاً إلى المكاتبات والبيعة التي حصلت في خضم نهضة الإمام الحسين عليه السلام، والتي انتهت باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه الذين وفوا ببيعته^(٢)، وتعدّ هذه المكاتبات - سواء ما كان جاداً منها وصادقاً في نواياه، وما لم يكن كذلك - تجديداً للمعاهدة السابقة، والبيعة التي أخذت للإمام عليه السلام في أعناق المسلمين سلفاً.

الجهة الثانية: الواقع الخارجي للوفاء بالعهد

من المفارقات الغربية في المجتمع المعاصر للإمام الحسين عليه السلام هو عدم التوازن في موقفهم تجاه الإمام عليه السلام ونهضته المباركة، فإنّهم وعلى المستوى النظري يُقرّون بأنّه عليه السلام الأحقّ والأولى بالإمامة والخلافة من غيره، ولكن على المستوى العملي لم يتفاعل مع الإمام الحسين عليه السلام ونهضته المباركة، سوى بعض البلدان التي كاتبته الإمام الحسين عليه السلام، وطلبت منه القدوم.

ولم تكن هذه الازدواجية والتأرجح مختصّين بموقف المسلمين تجاه الإمام الحسين عليه السلام فقط، بل ترى أنّ هذه هي السمة العامّة في موقفهم تجاه الأُمَّة عليه السلام في كلّ الأزمنة والعصور. هذا على مستوى المجتمع ككل.

(١) أنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٣٢.

(٢) أنظر: المصدر السابق: ص ٣٦.

وأما على المستوى الفردي، فإنه لم يثبت على موقفه تجاه النهضة الحسينية سوى أفراد قلة من المجتمع المسلم؛ إذ لم يسجّل لنا التاريخ سوى بعض الأسماء والشخصيات القليلة التي تفاعلت مع هذه النهضة العظيمة، بعد أن التقوا الإمام الحسين عليه السلام، ورأوا منه ومن أهل بيته الذين خرجوا لنصرته، وبعد أن بيّن لهم حقيقة الأمر، وما ستؤول إليه الأمور فيما لو ترعّب يزيد بن معاوية على عرش الخلافة.

ولعلّ استماتة أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وثباتهم على موقفهم الحاسم في نصرته عليه السلام كان لها الدور في تشجيع كلّ من التحق بهذا الركب المبارك؛ ولذلك يمكننا أن نعتبر أنّ أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام هم النواة الأولى للفئة التي أعلنت تضامنها ونصرتها للحقّ من جهة، وكذلك ساهموا في تحفيز عنصر المناصرة وتجديد البيعة في نفوس المسلمين الذين تفاعلوا مع النهضة الحسينية، ورجبوا في الانضمام إليها من جهة أخرى.

ويختصر لنا هلال بن نافع الجملي الموقف الذي كان عليه المسلمون حينما خاطب الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «يا بن رسول الله، أنت تعلم أنّ جدك رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقدر أن يشرب الناس محبته، ولا أن يرجعوا إلى أمره ما أحب، وقد كان منهم منافقون يعدون بالنصر، ويضمرون له الغدر، يلقونه بأحلى من العسل، ويخلفونه بأمر من الحنظل، حتّى قبضه الله إليه، إنّ أباك علياً رحمة الله عليه قد كان في مثل ذلك، فقوم قد أجمعوا على نصره وقاتلوا معه الناكثين والقاسطين والمارقين، حتّى أتاه أجله، فمضى إلى رحمة الله ورضوانه، وأنت اليوم عندنا في مثل تلك الحالة، فمن نكث عهده، وخلع بيعته، فلن يضرّ إلا نفسه، والله مغنٍ عنه، فسرّ بنا راشداً معافاً^(١)، مشرقاً إن شئت، وإن شئت مغرباً، فوالله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربّنا، وإنّا على نياتنا وبصائرنا، نوالي

(١) كذا في المصدر، والصحيح: (معاف) كما في بعض المصادر الأخرى. أنظر: البحراني، عبد الله، العوالم: ص ٣٣٣.

مَنْ والاك، ونعادي مَنْ عاداك»^(١)، فيتينّ من خلال استعراضه للحال التي كان عليها المسلمون آنذاك - في هذه الوثيقة التاريخية المهمة - أنّ تبدُّل المواقف لدى المجتمع في زمن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن حالة مستغربة، ولا مفاجئة لعقلاء الأمة، فضلاً عن الإمام الحسين عليه السلام العالم بالنتائج التي تؤول إليها الغالبية العظمى من الناس، بل إنّ هذه الصفة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ الإسلامي، ومنذ زمن النبي صلى الله عليه وآله مروراً بأئمة المؤمنين عليه السلام، ولا تقف عند حدٍّ أو مجتمع معيّن، غاية ما في الأمر قد تختلف من زمن لآخر، من حيث الشدّة والضعف.

ولذا؛ فقد كانت المحصلة النهائية في الواقع الخارجي هو ثبات ثلّة طيبة من المؤمنين الذين وصفهم الإمام الحسين عليه السلام بأنهم: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، وخلدوا أسماءهم في سجل شهداء الإسلام الذين ضحّوا من أجل الدين، بعد أن أذن لهم بالانصراف في أكثر من موقف^(٢)، إلّا أنّ جوابهم له عليه السلام قطع الشك والريب في نفوس المتربّصين والمرجفين، فقد تكلموا بكلمات ملؤها الثبات والمعرفة بحقّ إمامهم وابن بنت نبيهم صلى الله عليه وآله، حتّى كان كلام معظمهم - إن لم يكن كلام جميعهم -: «... أنفسنا لك الفداء، نفيك بأيدينا ووجوهنا، فإذا نحن قُتلنا بين يديك نكون قد وفينا لربنا، وقضينا ما علينا...»^(٣)، أو بقولهم: «... والله، لا نخليك حتّى يعلم الله أن قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك...»^(٤)، أو بالقول: «لا والله، يا بن رسول الله، لا نخليك أبداً حتّى يعلم الله أنا قد حفظنا فيك وصية رسوله محمد صلى الله عليه وآله...»^(٥)، وغيرها من الكلمات الكثيرة التي تحمل من المعاني العميقة التي تنمُّ عن معرفتهم لإمامهم،

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٨٢.

(٢) أنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ص ٧٦، و ص ٩١. أيضاً: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤٣، ص ٤٣. أيضاً: ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٥٦.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٥٦.

(٤) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٩٢.

(٥) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٥٦.

وثباتهم على نهجه وطريقه، والتي يترجمها قول بعض المؤرخين - في ختام الكلمات المفصلة لأهل بيت الحسين عليه السلام وأصحابه في ليلة العاشر من المحرم، تلك الكلمات التي نقلنا بعضها آنفاً -: «... وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد...»^(١)؛ حتى احتلوا المرتبة الأولى بين الأصحاب الذين ناصروا الأئمة عليهم السلام على مر التاريخ، وحازوا شرف الشهادة في سبيل الله عز وجل.

ومن هنا نقرأ في بيانات الإمام الحسين عليه السلام التأكيد الملفت لهذه الجهة المحورية في حياة الفرد المؤمن، ألا وهي صفة الوفاء بالوعد، فقال كلمته الخالدة: «... فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي؛ فجزاكم الله عني خيراً...»^(٢).

فهذه النصوص - وغيرها الكثير - قد جيء بها لتبين لنا هذه الحقيقة المهمة في سيرة أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الكرام البررة، وتثبت لنا أن الوفاء الذي حرصوا أن يحافظوا عليه في مسيرتهم مع إمام زمانهم إنما هو مرتبط بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم مع الله ورسوله، كما صرحوا به في قولهم: «... نكون قد وفينا لربنا...»، وكذا قولهم: «حفظنا فيك وصية رسوله محمد صلى الله عليه وسلم»، وهي صفة تستحق الوقوف عندها والتأكيد عليها من قبل الإمام الحسين عليه السلام وبأساليب وطرق متعددة؛ إذ إنهم ثبتوا على ما عاهدوا الله عليه في زمان قل فيه الموفون بعهدهم، وشح فيه المخلصون لدينهم.

ومن هنا نعرف السر الذي من أجله جعل الإمام الحسين عليه السلام يكرر الآية المباركة التي جعلناها محوراً في البحث، فإن تكراره عليه السلام لها إنما كان لانبهاره بتلك الروح الإيمانية والعقيدة الراسخة التي يحملها هؤلاء الأبطال، إلى درجة أنهم يتسابقون إلى القتل بين يدي إمامهم وقائدهم.

(١) المصدر السابق: ص ٩٣.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٩١.

الخطوة الثالثة: المقارنة بين المعنى التفسيري للآية والموارد التطبيقية لها

إنَّ المعنى التفسيري للآية المباركة يوصل الباحث إلى أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أشاد بموقف فئة قليلة من الناس الذين صدقوا في عهدهم وبيعتهم مع الله عزَّ وجلَّ، من خلال مناصرة النبي ﷺ والوقوف إلى جانبه في مسيرته الرسالية، وأنَّ هؤلاء الأشخاص الذين نزلت في حقِّهم هم أفراد معدودون جدًّا، لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، وهم: (أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وحمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث، وجعفر بن أبي طالب)، بل حتَّى لو ضممنّا إلى هذه الأسماء بقية الأفراد الذين ادَّعي تطبيق الآية عليهم من قبل النبي ﷺ، فإنَّ ذلك لا يزيد في عددهم سوى بعض الأشخاص القليلين أيضًا.

وبما أنَّ معنى الآية الكريمة هو ما ذكرناه آنفًا، فما هو وجه الشبه والعلاقة بين الأفراد الذين نزلت في حقِّهم وبين أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، بحيث دعت الإمام عليه السلام إلى تكرارها بعدد الأفراد الذين استأذنوه للقتال، مضافاً إلى تلاوته التطبيقية لها على الأفراد الذين بلغه نبأ استشهادهم، كما ذكرنا في بدايات بحثنا؟ إذ لا بدَّ أن تكون هناك علاقة ووجه اشتراك في الخصائص التي دلَّت عليها الآية الكريمة، وبين من يراد تطبيقها عليهم، وما هي المداليل الأخرى التي أرادها الإمام الحسين عليه السلام من توظيفه لهذه الآية الكريمة؟ ولذا فمن الضروري جدًّا أن نذكر النقاط الآتية:

النقطة الأولى: يُستفاد من المقارنة التي أُجريت من قبل الإمام الحسين عليه السلام أنَّ ديمومة نهضته مضمونة ومتكفَّلة من قبل السماء، كما كانت ديمومة نهضة جدِّه المصطفى ﷺ؛ إذ إنَّه عليه السلام يعدُّ كلَّ بيعة أو عهد صدر من الأمة تجاه نهضته المباركة وحركته الإلهية إنَّما هي بيعة لله عزَّ وجلَّ، وهذا الأمر كان من المرتكزات الواضحة واليقينية في نفوس أهل بيته وأصحابه الذين ناصروه، فكما أنَّ المعاهدة كانت مع الله ورسوله من قبل أهل بيت رسول الله ﷺ (أمير المؤمنين عليه السلام، وحمزة، وعبيدة، وجعفر)،

كذلك كانت معاهدة أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه؛ فإن حقيقتها كانت مع الله ورسوله والأئمة المعصومين عليهم السلام، وهذا ما نستفيده أيضاً من النصّ الوارد في زيارتهم، حينما نخاطبهم: «... السلام عليكم يا أنصار دين الله، السلام عليكم يا أنصار رسول الله، السلام عليكم يا أنصار أمير المؤمنين، السلام عليكم يا أنصار فاطمة...»^(١).

وعلى أساس هذا المركز جاءت أجوبة أهل بيت الحسين عليه السلام وأصحابه حينما سمح لهم بالانصراف قبيل المعركة، وحينما أصبح البقاء مع الإمام عليه السلام معناه القتل الحتمي، فكان جوابهم أنهم يريدون الوفاء بالعهد والبيعة التي أعطيت لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله.

النقطة الثانية: نستفيد من تطبيق الآية القرآنية المفسرة بمعنى الصدق بالعهد والوفاء به من قبل خيرة أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وهم: (أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وحزمة، وعبيدة، وجعفر عليه السلام)، أن أصحاب الإمام الحسين عليه السلام كانوا قد عاهدوا الله ورسوله على نصرته إمامهم عليه السلام عن معرفة ويقين راسخين؛ فأوفوا بعهدهم بثبات وصلابة منقطعة النظر؛ حتى وصفهم عمرو بن الحجاج حينما خاطب أصحابه بقوله: «... تقاتلون فرسان أهل مصر، وأهل البصائر، وقوماً مستميتين، لا يبرز منكم إليهم أحد إلا قتلوه على قتلهم...»^(٢).

وقد قضى بعضهم نحبه صابراً محتسباً، فيما بقي من بقي منهم ينتظر أجله على الوفاء بالعهد؛ لأنهم أهل البصائر، والقوم المستميتون في نصرته الإمام عليه السلام والشهادة بين يديه؛ وهذا هو السرّ الذي جعل الإمام الحسين عليه السلام يشهد لهم بأنهم أوفى الأصحاب وخيرهم، وهو ما دعاه أيضاً إلى تكرار الآية الكريمة: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾، لتأكيد صفة الوفاء في نفوسهم، وأنهم بمصافٍ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله الذين نزلت الآية في حقهم، فمع ما لهؤلاء من مميزات ومؤهلات كثيرة إلا أنّ وفاءهم بعهدهم كان مثار إعجاب جميع من يستعرض مواقفهم النبيلة.

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتعجل: ص ٧٢٣.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ١٩.

النقطة الثالثة: من بين الدلالات المهمّة - التي نستفيدها من تطبيق الإمام الحسين عليه السلام للآية المباركة على أهل بيته وأصحابه - هي الإشارة إلى أن أنصاره ثلّة قليلة من المؤمنين، وأنهم المؤمنون حقّاً، كما كان أنصار النبي صلى الله عليه وآله الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه هم المؤمنون الحقيقيون كذلك، وهم الأسماء التي ورد ذكرها في الروايات الواردة في تفسير الآية، وهذه الإشارة منه عليه السلام تأخذ بالقارئ الكريم إلى مظلومية الإمام الحسين عليه السلام، وغرته بين أفراد الأمة، تلك الغربة التي عبّر عنها في قوله عليه السلام: «... ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلّة العدد، وكثرة العدو، وخذلة الناصر»^(١).

النقطة الرابعة: كذلك يُبيّن لنا التوظيف التطبيقي للآية المباركة أنّ أصحاب الإمام الحسين عليه السلام لم يكونوا على شاكلة بقيّة الناس الذين شهدوا نهضة الإمام الحسين عليه السلام؛ إذ إنهم لم يبدّلوا تبديلاً، فإنّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ ذمّاً لمن بدّلوا تبديلاً، وانتقاصاً منهم، كما ذكر بعض المفسّرين في صدد تفسيره لهذه الآية قائلاً: «... ﴿وَمَا بَدَلُوا﴾ العهد، ولا غيروه ﴿تَبْدِيلًا﴾ شيئاً من التبديل، وفيه تعريض بمن بدّلوا من أهل النفاق ومرضى القلب...»^(٢).

ومّا يؤكّد هذه الدلالة أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد قرأ بعض الآيات التي تشير إلى ذمّ المخاطب الذي وجّه الإمام الكلام في الجواب على اعتراضه ومحاولته لثني الإمام الحسين عليه السلام عن مسيره إلى العراق، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾^(٣)، كما يتّضح لمن قرأ الآيات السابقة واللاحقة لها^(٤)، وهكذا نستفيد من قراءة الإمام الحسين عليه السلام للآية مورد البحث في مواقف متعدّدة؛ فإنّها تتضمّن الذمّ الواضح لمن بدّل وغير في موقفه تجاه الإمام الحسين عليه السلام.

(١) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٤، ص ٢١٩.

(٢) الكاشاني، ملا فتح الله، زبدة التفسير: ج ٥، ص ٣٦٠.

(٣) التوبة: آية ٥١.

(٤) لعلنا نوفق لبحث هذه الآية في دراسة مستقلة تستوفي جميع الآيات التي وُظفها الإمام عليه السلام في نهضته المباركة؛ ليتبيّن لنا صحّة دعوى الذمّ للقوم الذين اعترضوا على قرار الإمام عليه السلام، فضلاً عن القوم الذين خذلوه أو قاتلوه.

خاتمة: المعنى التأويلي للآية الكريمة

إنّ ما تقدّم معنا في الخطوة الأولى إنّما كان عبارة عن المعنى التفسيري المستفاد من ظاهر الألفاظ التي تضمّنتها الآية الكريمة، والروايات الواردة في شأن نزولها، وهناك معنى آخر نستفيده من خلال إحصاء الروايات التأويلية للآية الكريمة، فقد وردت بعض النصوص عن الأئمة المعصومين عليهم السلام تشير إلى أنّ هذه الآية تنطبق على جميع الأشخاص الذين أثبتوا ولاءهم وطاعتهم للأئمة عليهم السلام، ولم تتغيّر مواقفهم ومعتقداتهم بأئمّتهم عليهم السلام، كما في الرواية الواردة عن أبي عبد الله عليه السلام؛ إذ قال: «المؤمن مؤمنان: فمؤمن صدق بعهد الله، ووفى بشرطه، وذلك قول الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، فذلك الذي لا يصيبه أهوال الدنيا، ولا أهوال الآخرة، وذلك من يشفع ولا يشفع له، ومؤمن كخامة الزرع، تعوجّ أحياناً وتقوم أحياناً، فذلك من تصيبه أهوال الدنيا وأهوال الآخرة، وذلك من يشفع له ولا يشفع»^(١)، أو الحديث الآخر الذي أورده الكليني رحمته الله أيضاً، بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي، من أحبّك ثمّ مات فقد قضى نجه، ومن أحبّك ولم يمت فهو ينتظر، وما طلعت شمس ولا غربت إلّا طلعت عليه برزق وإيمان...»^(٢)، وغير ذلك من النصوص التي وظّفت الآية الكريمة لبيان الحقائق الدينية المرتبطة بمفهوم الوفاء بالعهد مع الله عز وجل. وفي ضوء ذلك لا بدّ من معرفة المسوّغات لتوظيفها في النصوص المتقدّمة؛ فقد يكون مراد الأئمة عليهم السلام أنّ المقصود من هذه الآية المباركة وفق الجوانب المختلفة في هذه الروايات هو المعنى التأويلي لها، كما يمكن أن يكون مرادهم عليهم السلام أنّ الوفاء بالوعد والعهد في الآية أشمل وأوسع من البيعة والمعاهدة على نصرتهم عليهم السلام في ساعة العسر، والوقوف إلى جنبهم في ساحات القتال، بل إنّها تنطبق على كلّ مؤمن وفي

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٢٤٨.

(٢) المصدر السابق: ج ٨، ص ٣٠٦.

بيعته لإمام زمانه، تلك البيعة المفترضة على كل مسلم، حتى وردت روايات كثيرة عن النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ تؤكد أن: «من مات وليس عليه إمام حيّ يعرفه مات ميتة جاهلية»^(١)، وأن الاعتقاد بالأئمة ﷺ والإيمان بأحقيّتهم يؤهل المكلف لأن يكون قابلاً للاندرج تحت مفهوم الصدق بالعهد؛ فنستفيد من هذه الروايات أن الآية قابلة للانطباق على المؤمنين في جميع الأزمنة، كما يساعدنا على هذا الفهم بعض الروايات التي ذكرها أمير المؤمنين ﷺ في شأن نزول الآية الكريمة أيضاً.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- ١ - إتخاف السائل بما في الطحاوية من مسائل، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
- ٢ - الاختصاص، محمد بن محمد المفيد، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ.
- ٣ - الإرشاد، محمد بن محمد المفيد، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، لبنان - بيروت، ١٤١٤هـ.
- ٤ - بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، مؤسّسة الوفاء، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ.
- ٥ - تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ.
- ٦ - تاريخ مدينة دمشق، علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ.
- ٧ - تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

(١) الحميري، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد: ص ٣٥١.

- ٨ - تفسير الثعلبي، أحمد بن محمد الثعلبي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، ١٤٢٢ هـ.
- ٩ - تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، مطبعة النجف، ١٣٨٧ هـ.
- ١٠ - تفسير مجمع البيان، الفضل بن الحسن الطبرسي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ.
- ١١ - التنقيح في شرح المكاسب - الخيارات، (موسوعة السيّد الخوئي)، أبو القاسم الخوئي، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، الطبعة الأولى قم - إيران، ١٤٢٥ هـ.
- ١٢ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ.
- ١٣ - الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٥ هـ.
- ١٤ - حاشية المكاسب، محمد حسين الأصفهاني، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.
- ١٥ - حديث الثقلين (تواتره - فقهه)، علي الحسيني الميلاني، مركز الحقائق الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠ هـ.
- ١٦ - الخصال، محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم - إيران، ١٤٠٣ هـ.
- ١٧ - دعائم الإسلام، القاضي النعمان بن محمد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣ م.
- ١٨ - زبدة التفاسير، ملا فتح الله الكاشاني، مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى، قم - إيران، ١٤٢٣ هـ.
- ١٩ - سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ.
- ٢٠ - شرح الأخبار، القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة الثانية، قم - إيران، ١٤١٤ هـ.

٢١ - شواهد التنزيل، عبيد الله بن أحمد الحسكاني، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٢٢ - الصراط المستقيم، علي بن يونس العاملي النباطي، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ.

٢٣ - الصواعق المحرقة، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، مكتبة القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م.

٢٤ - العوالم، عبد الله البحراني، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام بالحوزة العلمية، الطبعة الأولى، قم - إيران، ٧٠٤١هـ.

٢٥ - قرب الإسناد، عبد الله بن جعفر الحميري، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، قم - إيران، ١٤١٣هـ.

٢٦ - الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الخامسة، طهران - إيران، ١٣٦٣هـ. ش.

٢٧ - الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.

٢٨ - اللهوف في قتلى الطفوف، علي بن موسى بن طاووس، أنوار الهدى، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٩ - مثير الأحزان، جعفر بن محمد بن نما الحلي، المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف، ١٩٥٠م.

٣٠ - المزار، محمد بن جعفر المشهدي، القيوم، الطبعة الأولى، قم - إيران، ١٤١٩هـ.

٣١ - المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

٣٢ - مصباح المتهجد، محمد بن الحسن الطوسي، مؤسسة فقه الشيعة، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، ١٤١١هـ.

- ٣٣- مقاتل الطالبين، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، المكتبة الحيدرية ومطبعتها، الطبعة الأولى، النجف الأشرف، ١٣٦٥هـ.
- ٣٤- مقتل الحسين عليه السلام، الموفق محمد بن أحمد الخوارزمي، أنوار الهدى، الطبعة الخامسة، ١٤٣٢هـ.
- ٣٥- مناقب آل أبي طالب، علي بن محمد بن شهر آشوب، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٥٦م.
- ٣٦- المناقب، الموفق محمد بن أحمد الخوارزمي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٤هـ.
- ٣٧- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشمي الخوئي، بنياد فرهنگ الإمام المهدي عليه السلام، الطبعة الرابعة.
- ٣٨- نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.
- ٣٩- الوافي، محمد محسن الكاشاني، مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام العامة، الطبعة الأولى، أصفهان - إيران، ١٤٠٦هـ.

المجلات

- ٤٠- مجلة الإصلاح الحسيني، مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية، النجف الأشرف - العراق، العدد ٢٩، ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م.

ملف العدد

الإبعاد القرآني في نهضة الإمام الحسين (ع) (٣)

- ◆ حوارية: عوامل النصر الإلهي في القرآن الكريم ودورها في نجاح النهضة الحسينية وديمومتها
- ◆ عاشوراء وحقيقة الخلاص.. مقارنة قرآنية نقدية لنظرية الفداء.. القسم الأول
- ◆ احتجاج الإمام الحسين (ع) بالقرآن الكريم.. دراسة دلالية
- ◆ مفهوم الفتح في ضوء الآيات القرآنية والخطاب الحسيني
- ◆ الآيات المؤولة بالإمام الحسين (ع).. دراسة وتحليل.. القسم الأول
- ◆ التناسس القرآني في خطاب المسيرة الحسينية.. مرحلة الأسر أنموذجاً.. القسم الثاني
- ◆ الآثار المعنوية لنهضة الإمام الحسين (ع) في ضوء الآيات القرآنية.. دراسة وصفية تحليلية..
القسم الأول
- ◆ الحوار القرآني عند الإمام الحسين (ع).. دراسة تحليلية
- ◆ رمزية الحرف في توظيف الإمام الحسين (ع) للنص القرآني.. الفاء والواو أنموذجاً

حوارية:

عوامل النصر الإلهي في القرآن الكريم ودورها في نجاح النهضة الحسينية وديمومتها

العلامة السيّد صدر الدين القبانجي*

استثمرت مجلّة الإصلاح الحسيني فرصة الحوار مع سماحة السيّد صدر الدين القبانجي (حفظه الله)؛ وذلك إيماناً منا بضرورة عرض النتاج الفكري للمحقّقين والباحثين المتخصّصين، مع مراعاة أصول البحث العلمي والحوار الرصين؛ للوصول إلى الحقيقة بكلّ عقلانية ووضوح، فكان لنا معه هذا الحوار:

الإمام الحسيني: ابتداءً نشكركم - سماحة السيّد - على إتاحة هذه الفرصة، ونبدأ معكم بالسؤال الأوّل: ما هو مفهوم النصر في ضوء الآيات القرآنية؟
(السيّد القبانجي): بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على محمّد وآله الطيّبين الطاهرين. بعد الشكر لكم ولإدارة المجلّة وكادرها، نرجو لكم مزيداً من العطاء والتقدّم والتوفيق للعمل على تثقيف الناس على المفاهيم الحسينية.

في معرض الإجابة عن السؤال المتقدّم نقول: هناك مجموعة آيات ترتبط بهذا الموضوع يمكننا أن نستعرضها، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

* أستاذ في الحوزة العلمية، من العراق.

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْنَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي * إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٤).

من هذا نفهم أنّ النصر لمسيرة الإيمان هو قرار إلهي، وحتمية تاريخية، لكنّ السؤال المطروح هو: كيف نفسر - إذاً - قتل الأنبياء والرسل، وتعذيب المؤمنين وسجنهم؟ والجواب هو: أنّ كلّ ما ورد من الآيات في هذا المجال يدلّ على أنّ النصر بالمفهوم القرآني يختلف عن النصر بالمفهوم الشكلي الظاهري، وعليه نستطيع أن نقول: إنّ هناك مفهومين للنصر:

المفهوم الأوّل: النصر الشكلي الظاهري

ويمكن تسميته أيضاً بالنصر الآني الفوري، أو المقطعي، أو المادّي، أو النصر على المدى القصير، وكلّها تسميات صحيحة، وقد ورد في القرآن الكريم أيضاً النصر بهذا المفهوم، كما في قوله تعالى: ﴿الْمَرْءُ * غَلِبَتِ الرُّومُ * فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾^(٥)، وهي غلبة ماديّة مؤقتة.

والإمام الحسين عليه السلام يعي أيضاً هذا المفهوم اللّغوي المستعمل في الأدب العربي، ولدى المجتمعات الإنسانية كلّها؛ إذ يقول: «ربّ إن تكن حسبت عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير، وانتقم لنا من هؤلاء القوم الظالمين»^(٦). إذاً؛ الحسين عليه السلام يدرك أنّ هذا النصر - بالمعنى الشكلي المقطعي المادّي - محبوس عنه.

(١) الروم: آية ٤٧.

(٢) غافر: آية ٥١.

(٣) الصافات: آية ١٧١ - ١٧٣.

(٤) المجادلة: آية ٢١.

(٥) الروم: آية ١-٣.

(٦) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ١٠٨. وأنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم

والمملوك: ج ٤، ص ٣٤٢.

المفهوم الثاني: النصر العميق

إلى جانب ذلك المعنى الأول يوجد معنى آخر للنصر في المفهوم القرآني، وهو النصر الحتمي، أو النصر العميق، وهو عبارة عن تحقيق الأهداف على المدى البعيد، فعندما تتحقق الأهداف يتحقق النصر.

نعم، إنَّ النصر بمعناه اللغوي أيضاً هو تحقيق الهدف، فمن يحقق السبق في المضمار - مثلاً - يحقق الهدف ويفوز، فيكون قد انتصر، ولو في آخر وقت من السباق، لكن تارة يكون تحقيقه سريعاً، وأخرى يكون على المدى البعيد، وهو ما أطلقنا عليه بـ(النصر العميق)، فالنصر الحتمي في القرآن الكريم ليس نصراً سريعاً، وإنما هو نصرٌ عميق، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ **الْأَشْهُدُ**﴾^(١)؛ ومن هذه الآية نفهم أنَّ النصر ليس في الآخرة فقط، بل هناك نصر في الدنيا، كما أنَّ هناك نصراً في الآخرة.

وقد يقال: إنَّ النصر للأنبياء والأئمة والصالحين لا يكون إلا نصراً معنوياً؟ والجواب: لا يمكن حصر النصر بذلك؛ ففي مسيرة الأنبياء عليهم السلام والإمام الحسين عليه السلام هناك نصر مادي أيضاً، كما أنَّ هناك نصراً معنوياً، والنصر المعنوي يُراد منه التغلب على الهوى ومكائد الشيطان، وليس هو النصر بالمعنى الحقيقي الذي يعني تحقيق الأهداف بالدنيا قبل الآخرة، بينما القرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْئَنَا لِعِبَادِنَا **الْمُرْسَلِينَ** * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ﴾^(٢)، أي: منصورون في الدنيا، وغالبون فيها.

إذاً: النصر بالمفهوم القرآني هو النصر العميق، وهو بمعنى تحقيق الأهداف، ولو على المدى البعيد، وهذا يمثل حتمية تاريخية بتأكيد من الله تبارك وتعالى.

(١) غافر: آية ٥١.

(٢) الصافات: آية ١٧١-١٧٣.

الضلع الأول: ما هو المعيار الصحيح لتحقق النصر في الرؤية القرآنية؟ وما مدى تلاقي المعايير البشرية مع هذا المعيار؟
(السيد القبانجي): المعيار الصحيح لتحقق النصر في الرؤية القرآنية يتمثل بثلاثة أضلاع:

الضلع الأول: حقانية المشروع

بمعنى أن يكون المشروع حقاً، سواء كان مشروعاً دينياً، أم سياسياً، أم تجارياً، وسواء كان مشروعاً فردياً، أم أسرياً، أم اجتماعياً.

الضلع الثاني: الجهد البشري

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(١)، وهذا يعني بذل الجهد في سبيل المشروع الحق، ويقول تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(٢)، ففي هذه الآية الكريمة ورد مفهوم الحق والتواصي، وهما يمثلان المعيار الأول والثاني من معايير تحقق النصر في الرؤية القرآنية.

وهناك بعض الروايات التي تبين بعض النتائج السلبية للتقاعس عن العمل، من قبيل هذا الحديث: «لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهّنّ عن المنكر، أو ليستعملنّ عليكم شراركم، فيدعو خياركم، فلا يُستجاب لهم»^(٣).

والآيات القرآنية واضحة وصریحة في تأكيد هذا المعيار، يقول تعالى: ﴿بِتَأْيِيدِهَا﴾^(٤)، فقله عز وجل: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ﴾^(٤) جملة

(١) العنكبوت: آية ٦٩.

(٢) العصر: آية ٣.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٥، ص ٥٦. وأنظر أيضاً: ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج ٥، ص ٣٩٠.

(٤) محمد: آية ٧.

شرطية تُشير إلى كلا الضلعين، فعبارة (إن تنصروا) تُشير إلى الضلع الثاني، وكلمة (الله) تُشير إلى الضلع الأوّل، وهو حقّانية المشروع، فَمَنْ يُقَاتِلْ دِفَاعاً عَن مَالِهِ أَوْ وَطَنِهِ أَوْ عَرَضِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وهذا الدفاع حقّ حتّى وإن لم تكن القضية دينية، فهو شرف كبير.

الضلع الثالث: التأييد الإلهي

وهو الضلع المكمل للضلعين الأوّلين، وهو الجزء الأخير من العلة التامة بالاصطلاح الفلسفي، فإذا كان الحقّ ثابتاً، وكان الجهد متحققاً، فحينئذٍ يأتي معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾، ويأتي حينئذٍ جواب قوله تعالى: ﴿إِن نُّصِرُوا اللَّهُ﴾ بقوله عزّ وجلّ: ﴿بِنُصْرِكُمْ وَيُنَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ﴾، وهو الضلع الثالث لمعيار النصر الإلهي.

هذا المقياس ينطبق على كلّ المسيرة البشرية طلباً للنصر الإلهي، وقد جاء في زيارة أمين الله: «وأصوات الداعين إليك صاعدة، وأبواب الإجابة لهم مفتحة، ودعوة مَنْ نَاجَاكَ مُسْتَجَابَةٌ...»^(١)، فلا استجابة هنا تكون في كلّ شيء، ولا تنحصر في قضية دينية، أو سياسية، أو غيرها، وهذا هو النصر الإلهي.

فقوانين الغيب شيء عظيم، كما في هذا المقطع المتقدّم من زيارة أمين الله، وغيره من المقاطع التي فيها من المعاني ما يملأ كلّ ثقافتنا الدينية، يقول الإمام عليّ: «وموائد المستطعمين مُعدّة، ومناهل الظماء مُترعة...»^(٢).

وخلاصة الفكرة: أنّ المعيار الصحيح لتحقيق النصر في الرؤية القرآنية يتكوّن من هذه الأضلاع أو الأركان الثلاثة.

ما هي العوامل أو الشروط التي تؤدّي إلى تحقّق النصر الإلهي لجهة الحقّ على جبهة الباطل حسب الرؤية القرآنية؟

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهدّد: ص ٧٣٩.

(٢) المصدر السابق.

(السيد القبانجي): توجد شروط عدة تؤدي إلى تحقق النصر الإلهي لجبهة الحق، فإن جبهة الحق لا تنتصر إلا بشروط، وعليه نستطيع أن نسأل ما هي شروط التأييد الإلهي لجبهة الحق؟

الشرط الأول: الجهاد والجهاد البشري

وهو ما عبّر عنه القرآن بقوله: ﴿إِن نَصُرُوا اللَّهَ﴾، وهذا ما تمّ توضيحه في الضلع الثاني من معايير النصر الإلهي.

الشرط الثاني: الإخلاص لله تعالى

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، فإذا كانت كلمتك وسيفك وتأليفك ومنبرك وحنجرتك خالصة لوجه الله، وليس فيها شائبة النفس والأنا والهوى؛ يتحقق حينئذ شرط من شروط النصر الإلهي، وقد جاء في الحديث: «هلك العاملون إلا العابدون، وهلك العابدون إلا العالمون، وهلك العالمون إلا الصادقون، وهلك الصادقون إلا المخْلِصون...»^(١)، هذا هو الإخلاص، وما أكثر مَنْ يعلم ويعمل، ولكن من دون فناء في الله تبارك وتعالى، ومن دون إخلاص!

وكمثال لذلك هناك الكثير من المؤلّفات، ولكن لا نشاهد توفيقاً لبعضها، مع بذل عشرات السنين لتأليفها، بخلاف بعض آخر، فإنّها توفّق أيّما توفيق، ككتاب (أصل الشيعة وأصولها) للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، فهو عبارة عن صفحات محدودة، ولكنه أخذ مساحة واسعة عند القراء، وكتاب (عقائد الإمامية) للشيخ محمد رضا المظفر، فهو كتاب صغير الحجم، لكنه اكتسب توفيقاً عظيماً، وغيرهما من الكتب، فالفناء في الله تبارك وتعالى مهم بالنسبة للإنسان.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٦٧، ص ٢٤٥.

الشرط الثالث: التضحية وبذل غاية الجهد

أي: التضحية بكل ما تملك، فإذا حصل تقصير في بذل الجهد فإن النصر سوف يتأخر. وفيما يلي أنموذجان لهذا الشرط تحقّقاً في زماننا المعاصر:

١- يُنقل أن سماحة السيّد محمد سعيد الحكيم (حفظه الله) قد ألّف كتابه (الكافي في أصول الفقه)، وهو في السجن، مع كلّ الظروف الصعبة التي لا تُطاق، من الحرّ، والعطش، وضيق المكان، وعدم توفّر ورقة أو قلم، أو غير ذلك، ويقول شخص مَن كتب عن هذه الظروف ما مضمونه: كنّا نأخذ من السجّانين غلاف سجائر فارغ، فيه أوراق خفيفة ملصقة لا يمكن فصلها إلّا بعد أن تتّبع بالماء من الليل إلى الصباح، وبعد ذلك نفصل الورق الشفّاف المبلّل، ونلصقه على الحائط كي يجفّ؛ لنحصل على ورقة صغيرة جدّاً نكتب فيها، هذه مشكلة الورق، وأما مشكلة القلم فيوصله لنا بعض عن طريق وضعه في الطعام، فنستخرجه ونستخدمه للكتابة، وفي هذه الظروف التي لا تحظر على ذهن أحد ألّف السيّد محمد سعيد الحكيم كتابه الكافي.

فمع كلّ هذه المحن والمصاعب التي مرّ بها شيعة أهل البيت عليهم السلام وعلماءهم فإنّهم أنجزوا ما أنجزوا، وهذا هو معنى بذل غاية الجهد.

٢- قصّة الشيخ المدرّس الأفغاني رحمته الله، وقد أدركناه، توفّي قبل أكثر من ثلاثين سنة، وهو أفغاني الأصل، كان أستاذاً في النحو والصرف العربي، وكان مسجد الشيخ الطوسي يمتلئ بالحضور أثناء تدريسه.

ينقل الشيخ الأفغاني نفسه هذه القصّة: أنّه أراد المجيء إلى النجف، ولم يكن لديه مبلغ من المال، وكانت وسائل النقل حينها قليلة جدّاً، فعزم على السفر مشياً، مع ما في الطريق من أراضٍ وعرةٍ وصحاري وجبالٍ ووثعابين وعقارب وغيرها من المعوّقات، حتّى وصل إلى النجف وهو شاب لا يجيد اللغة العربية، ولا يملك مالاً، ولا يعرف أحداً.

يقول الشيخ الأفغاني: إنه كان يبقى إلى الصباح في الصحن الحيدري الشريف حتى وقت الظهيرة؛ لأنهم كانوا يغلقون أبواب الحرم آنذاك لقلّة الزائرين بسبب شدّة الحرّ، فيضطرّ حينها أن يذهب إلى مقبرة وادي السلام ليستظلّ بظلّ قبر عالٍ؛ هروباً من أشعة الشمس الحارقة، فلا أشجار ولا ماء ولا ساقية، وهكذا إلى أن يأتي وقت العصر، حيث تُفتح أبواب الصحن الحيدري، فيذهب مجدداً إلى هناك، وهكذا. ينقل الشيخ أنّه ذات يوم كان نائماً وقت الظهيرة خلف قبر من القبور، والجوّ حارّ، فاستيقظ من النوم، وهو عطشان عطشاً شديداً، يريد قدحاً من الماء ليروي به عطشه، ولا يوجد صنبور ماء، أو بئر، أو محالّ تجارية كما هو الآن في زماننا الحاضر، فبقي متحيراً، فمشى ينظر يميناً وشمالاً، فرأى ماءً يجري، وهو أمر عجيب، ماء يجري في وادي السلام!! فشرب منه حتى ارتوى، يقول: بعد ذلك سألت من أين ينبع هذا الماء، علماً أنّ وادي السلام لا ماء فيه؟ فتبيّن للشيخ بعد ذلك أنّ هذا الماء هو ماء المغتسل الذي يغسلون فيه الموتى بالكافور والسدر والماء القراح، وقد شرب منه!

يقول: بعد هذه الحادثة بكيت على حالي، وتوجّهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقلت له: يا أبا الحسن، لا طاقة لي بعد هذا العناء الكبير، فقد وصلت بي الحال أن شربت من ماء المغتسل، فلا بدّ من حلّ.

يقول: صار وقت العصر فحضرت إلى الصحن الحيدري، فرآني شخص، وهو خادم السيّد أبي الحسن الأصفهاني عليه السلام، فقال لي: قل لي: أأنت الشيخ محمد علي؟ قلت له: نعم. فقال لي: تعالّ معي، فقد أرسلني إليك السيّد أبو الحسن. فحضرت عند السيّد أبي الحسن، وقال لي: هذه غرفة، وهذا راتب.

يقول الشيخ الأفغاني: حينها استقرّ وضعي، ولم أكن أدري من أين كان السيّد أبو الحسن يعلم بوضعي ومناجاتي وعتبي؟ وما الذي حصل؟ فهو لا يعرفني ولا أعرفه!

هذان نموذجان خرجنا بهما عن الموضوع قليلاً؛ لنبيّن كيف أنّ العشق والجهد

المضاعف يصنع المستحيل، فإنّ عوامل النصر كالجهد، والفناء في الله، وبذل غاية الجهد، إذا ما تحققت فحينئذٍ يأتي نصر الله تعالى: ﴿فَأَنْفَلَقَ فَمَا كَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾^(١)، فلما وصل موسى إلى أبواب مغلقة، ولا مجال للقدرة البشرية أن تعمل في هذا البحر، وجيش فرعون خلفهم، هنا أتى نصر الله.

إذن؛ صار هناك عمل وسعي بعد حقانية أصل المشروع الذي هو موضوع البحث، فسوف ينتصر منهج الحق من خلال البذل والجهد المضاعف، والفناء في الله، والإخلاص له، يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾^(٢)، أي: بذلوا الجهد في سبيل المشروع الحق، والتفاني في ذات الله، حينئذٍ ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾^(٣)، وهكذا كلما وصلت الأمة إلى طريق مسدود، من قتلٍ وسيي ومعاناةٍ، وقدمت كل ما تملك، يأتي نصر الله.

الإصلاح الحسيني: ما هو مدى وجود جميع العوامل المتقدمة في النهضة الحسينية المباركة؟

(السيد القبانجي): إذا افترضنا أنّ معايير النصر في القرآن الكريم - بضميمة عوامل نصره جبهة الحق - هي عبارة عن: حقانية المشروع، والجهد البشري، والإخلاص لله، وبذل غاية الجهد؛ فسنجد - حينئذٍ - أنّ هذه العناصر الأربعة كلّها كانت متوفرة في الثورة الحسينية.

يقول الإمام الحسين عليه السلام: «ألا ترون أنّ الحق لا يعمل به، وأنّ الباطل لا يتناهى عنه»^(٤)، فالحسين عليه السلام خرج من أجل حقانية المشروع، ويقول عليه السلام كذلك: «إنّما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي صلّى الله عليه وآله، أريد أن أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر...»^(٥).

(١) الشعراء: آية ٦٣.

(٢) يوسف: آية ١١٠.

(٣) يوسف: آية ١١٠.

(٤) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٠٥.

(٥) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٢٩.

وكذلك بذل عليه السلام كل ما لديه من أجل الحق، حتى وإن كلفه ذلك حياته، وهو يعلم أن هؤلاء القوم لن يتركوه أبداً، وذلك واضح من حوارهِ مع أخيه ابن الحنفية حينما قال له: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما فارقتك، فقال: يا حسين، أخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً»^(١)، وقال عليه السلام: «كأني بأوصالي يتقطّعها عسلان الغلوات، بين النواويس وكربلا»^(٢)، فلم يدخر شيئاً يمكن تقديمه.

فالإمام الحسين عليه السلام خطّط ونهض وبذل جهداً من أجل الحق، فقد خطب في مكّة المكرمة أكثر من خطاب، وجمع الناس في الحجّ، وكتب إلى أهل الكوفة، وكتب إلى رؤساء الأحماس في البصرة^(٣)، واستمرّ الجهد والتخطيط الواعي مع الإخلاص والتفاني في الله؛ إذ لم يُبق شيئاً إلاّ وقدمه في هذا الطريق، من مالٍ ووليدٍ وأهلٍ، حتى الطفل الرضيع.

وبذل عليه السلام أقصى غاية الجهد مع علمه بأنّ المعركة في شكلها المادّي غير قادرة على تحقيق النصر، وهو لا يستطيع أن يفعل أكثر ممّا قدّم، حتى وصل إلى مرحلة اليأس من الذات، ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾، حيثنّ يتحقّق النصر ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، وعليه؛ فكُلّ المعايير قد توفّرت في حركة الإمام الحسين عليه السلام.

الدقة والالتزام في تطبيق الموازين الشرعية والأخلاقية

ومما يمكن إضافته إلى ما تقدّم من شروط أنّ حركة الإمام الحسين عليه السلام اشتملت على الدقة والالتزام في تطبيق الموازين الشرعية والأخلاقية، فالإنسان في المعركة قد ينفعل وينسى بعض الأخلاقيات، وذلك بحكم الظروف المحيطة بساحة القتال من حرٍّ وقتلٍ وجراحاتٍ وغيرها؛ ممّا يكون مبرراً لكثير من المقاتلين بأن يعنّف أصحابه، أو يصرخ بهم، أو يجرحهم بلسانه، وهكذا.. لكنّ الإمام الحسين عليه السلام راعى كلّ الآداب، مع الصغير والكبير، تراه يخاطب النساء بكلّ هدوء: «يا أختاه يا أمّ كلثوم،

(١) المصدر السابق: ص ٣٦٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٦٧.

(٣) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٦٥.

وأنت يا زينب، وأنت يا فاطمة، وأنت يا رباب، أنظرن إذا أنا قُتلت فلا تشقن عليّ جيباً، ولا تخمشن عليّ وجهاً، ولا تقلن هجراً»^(١)، بل حتّى خطابه مع الفرس عندما «أقحم الفرس على الفرات، فلما أولع الفرس برأسه ليشرّب، قال ﷺ: أنت عطشان وأنا عطشان، والله لا أذوق الماء حتّى تشرب»^(٢).

وأعجب من ذلك موقفه من العدو عندما رفض أن يبدأهم بقتال حين قال لأصحابه: «فإنّي أكره أن أبدأهم بقتال حتّى يبدأوا»^(٣)، فلما بدأ الأعداء ورموا السهام، قال الإمام الحسين ﷺ لأصحابه: «هذه رسل القوم إليكم، فقوموا إلى الموت الذي لا بدّ منه»^(٤). هذه هي أخلاق الحسين ﷺ.

كما نراه في أشدّ الظروف يقدم النصح بهدوء، ويقود معسكره بكلّ طمأنينة، وهو متوجّه إلى الله بالدعاء، وكأنّه لا دماء، ولا عطش، ولا حجارة، ولا سهام، وكان من أروع أدعيته ﷺ دعاؤه يوم عاشوراء: «اللهمّ، أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدة، وأنت لي في كلّ أمرٍ نزل بي ثقة وعدّة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبةً منّي إليك عمّن سواك، ففرّجته وكشفته، فأنت ولي كلّ نعمة، وصاحب كلّ حسنة، ومنتهى كلّ رغبة»^(٥).

لأوّل وهلة يتصوّر السامع أنّ هذا الدعاء هو دعاء رجل مُحرم في بيت الله الحرام، بينما هو دعاء من قلب المعركة، ومن رجل بينه وبين السماء كالغبار من شدة عطشه، فهذا هو القلب الإلهي النوراني، وهذه هي الدقّة في التزام المعايير الإسلامية مع الصديق والعدو، بل حتّى مع الحيوان.

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٥٠.

(٢) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢١٥.

(٣) الدينوري، أحمد بن داوود، الأخبار الطوال: ص ٢٥٢.

(٤) ابن أعثم، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ١٠١.

(٥) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٩٦. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك:

إن الإمام الحسين عليه السلام قد جمع كل القيم الإسلامية في نهضته المباركة، إذ تراه في ظهيرة العاشر من المحرم يطلب من القوم أن يكفوا عن معسكره حتى يصلوا^(١).
فنحن عندما نتحدث عن عاشوراء نتحدث عن صفات متعددة، فبينما نتحدث عن الشجاعة نتحدث كذلك عن العبادة والصلاة وغيرهما.
ومن مواقفه عليه السلام مع أصحابه أيضاً ليلة العاشر من محرم حين أذن لهم بالرحيل، قائلاً: «فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيراً، ألا وإني لأظن أنه آخر يوم لنا من هؤلاء، ألا وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً»^(٢).

ومنها أن العباس عليه السلام قال لأخيه الحسين عليه السلام لما رآه من الأعداء: «قد ضاق صدري، وسئمت من الحياة، وأريد أن أطلب ثأري من هؤلاء المنافقين»^(٣)، فإذا بالإمام الحسين عليه السلام يجعل القضية قضية أخرى، فيقول له: «فاطلب هؤلاء الأطفال قليلاً من الماء»^(٤). والماء حق من الحقوق الإنسانية التي منعها العدو عن عيال الحسين عليه السلام، وهذه التفاتة عجيبة، حيث الدقة في مراعاة الموازين الشرعية من الواجبات والمستحبات والآداب.

وكذلك موقفه عليه السلام من جيش الحرّ حينما أمر فتيانَه أن يسقوهم الماء، فقال عليه السلام: «اسقوا القوم واروهم من الماء، ورشّفوا الخيل ترشيفاً»^(٥).

وعليه؛ يمكننا أن نجعل هذا شرطاً رابعاً لعوامل النصر الإلهي، ففي مدى

(١) أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٣٤.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٩١. وأنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣١٧.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ٤١.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٧٨. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٠٢.

وجود العوامل المتعددة يوجد شرط رابع، وهو الدقة في التزام الموازين الشرعية والأخلاقية، والآداب الواجبة والمستحبة، كما نلاحظ ذلك أيضاً في مسيرة علمائنا ومراجعنا وهم في عمق المعركة.

الاضلاع الحسني: ما هو حجم النصوص والبيانات الحسينية التي أشارت إلى حتمية تحقق النصر للإمام الحسين عليه السلام ومنهجه الإصلاحية؟ وعن أي معنى من معاني النصر تتحدث هذه النصوص؟

(السيد القبانجي): النصر بالمعنى الأول - وهو النصر المقطعي الظاهري - كان عدم تحققه واضحاً لدى الإمام الحسين عليه السلام، على خلاف النظرية القائلة: إنه عليه السلام كان يأمل بالنصر المادي أيضاً، وهي النظرية التي يذكرها صاحب كتاب (الشهيد الخالد)^(١)، ومن القدماء ذكرها أيضاً السيد المرتضى (ت ٤٣٦هـ) الذي يرى أنّ ظروف النصر المادي كانت متوفرة في بداية الأمر^(٢)، نعم، هناك من يتردد في نسبة هذه النظرية إلى السيد المرتضى؛ ذلك باعتبار أنّ السيد المرتضى ذكر هذا الرأي احتجاجاً على من يقول: إنّ الإمام الحسين عليه السلام ألقى بنفسه إلى التهلكة، أي: إنه ذكر هذا الكلام في سياق ردّ الشبهة، وذلك من باب المماثلة وإلزام الخصم، ولم يذكره ك رأي مراد له^(٣).

وعلى أية حال، كان واضحاً لدى الإمام الحسين عليه السلام أن لا نصر فورياً في تلك الظروف، وهو ما تؤكد طائفة من النصوص الواضحة، من قبيل: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... فقال: يا حسين، أخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً»^(٤)، وقوله عليه السلام: «كأني بأوصالي يتقطعها عُسلان الفلوات، بين النواويس وكربلا»^(٥)، وقوله عليه السلام: «من كان

(١) مؤلفه الشيخ نعمة الله الصالح النجف آبادي (ت ٢٠٠٦م).

(٢) أنظر، الشريف المرتضى، علي بن الحسين، تنزيه الأنبياء: ص ٢٢٧-٢٣١.

(٣) أنظر: الفاضل الدربندي، آغا بن عابد، إكسیر العبادات: ج ١، ص ٥٢.

(٤) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٦٤.

(٥) المصدر السابق: ص ٣٦٧.

بإذلاً فينا مهجته، وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل»^(١)، وكذلك حديثه عليه السلام مع أهل بيته وأصحابه في ليلة عاشوراء: «يا قوم، إني في غدٍ أُقتل وتقتلون كلكم معي، ولا يبقى منكم واحد... فقال له القاسم بن الحسن: وأنا فيمن يُقتل؟ فأشفق عليه، فقال له: يا بُني، كيف الموت عندك؟ قال: يا عمّ، أحلى من العسل. فقال: إني والله، فداك عمك! إنك لأحد من يُقتل من الرجال معي، بعد أن تلبو ببلاء عظيم، وابني عبد الله. فقال: يا عمّ، ويصلون إلى النساء حتى يُقتل عبد الله وهو رضيع؟ فقال: فداك عمك! يُقتل عبد الله»^(٢).

إذا؛ القضية واضحة عند الإمام الحسين عليه السلام على مستوى النصر الضيق المادي المقطعي والفوري، ولكنّ النصر بالمعنى القرآني - أي: النصر العميق الذي يعني تحقيق الأهداف - كان واضحاً له عليه السلام أنّه سيتحقق، وهنا نستطيع أيضاً أن نستشهد على هذا الأمر بعشرات النصوص:

منها ما تحدّث به الإمام الحسين عليه السلام مع أصحابه في يوم عاشوراء قبل مقتله، فقد قال لهم: «فأبشروا بالجنة، فو الله إنّنا نمكث ما شاء الله تعالى بعدما يجري علينا، ثم يُخرجنا الله وإياكم حين يظهر قائمنا، فينتقم من الظالمين»^(٣). وعليه؛ فالنصر قائم، وهو هنا: الانتقام من الظالمين.

ومنها حديث العقيلة زينب عليها السلام مع الإمام السجّاد عليه السلام فقد قالت: «فوالله، إنّ ذلك لعهد من رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جدك وأبيك وعمك، ولقد أخذ الله ميثاق أناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراغت هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماوات أنّهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرقة، فيوارونها، وهذه الجسوم المضرجة، وينصبون لهذا الطفّ علماً لقبر أبيك سيّد الشهداء عليه السلام لا يُدرس أثره، ولا يعفو رسمه، على كرور الليالي

(١) ابن نما الحلي، جعفر بن محمد، مشير الأحرار: ص ٢٩.

(٢) البحراني، هاشم، مدينة المعاجز: ج ٤، ص ٢١٥.

(٣) النوري، حسين، النجم الثاقب: ج ١، ص ٥١١.

والأيام، وليجتهدنَّ أئمة الكفر وأشباع الضلالة في محوه وتطميمه، فلا يزداد أثره إلا ظهوراً، وأمره إلا علواً...»^(١).

وكذلك قولها **عليه السلام** ليزيد «فكذ كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا نُميت وحيننا، ولا تُدرِك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها، وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد...»^(٢)، فهي تُقسم وتقطع بالنصر، ولم تكن في مقام رجاء، ولا ناصر آنذاك ولا معين، ففي هذا دلالة على أن المشروع الحسيني منتصر، وقادة هذا المشروع منتصرون.

وقد رُوي عن الإمام الصادق **عليه السلام** أنه قال: «لما قدم علي بن الحسين **عليه السلام** وقد قُتل الحسين بن علي (صلوات الله عليهما)، استقبله إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله، وقال: يا علي بن الحسين، من غلب؟ وهو مغطى رأسه، وهو في المحمل. قال: فقال له علي بن الحسين: إذا أردت أن تعلم من غلب، ودخل وقت الصلاة، فأذن ثم أقم»^(٣)، فالإمام **عليه السلام** يخبر بأنهم منتصرون ما دام اسم الله ونبيه يعلو على المآذن، حتى ولو كنا أسارى. إذا؛ النصوص الحسينية تؤكد أنه **عليه السلام** كان يقرأ النصر حتمياً، وهو النصر العميق، وليس ذلك النصر الفوري المقطعي الشكلي الظاهري المادي.

الافراح الحسينية: نظراً لكون مدة السبي قد شكّلت الجزء المكمل للمواجهة بين النهج الحسيني والنهج الأموي، فإلى أي مدى كانت عوامل النصر الإلهي حاضرة لدى سبائا أهل البيت **عليهم السلام**؟ وما هي تجلياتها في مواقفهم؟
(السيد القبانجي): أنفق معكم في أن مقطع السبي كان من عوامل نصر القضية الحسينية، ويمكننا أن نذكر شواهد على ذلك:

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٢٨، ص ٥٧.

(٢) المصدر السابق: ج ٤٥، ص ١٣٥.

(٣) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٦٧٧.

أحداث الكوفة

وهنا تحققت بدايات معالم النصر، وبدأت تظهر واحدة بعد الأخرى بشكل سريع، حتى إذا وصل السبايا إلى الكوفة استقبلوهم بالدموع والبكاء^(١)، وفي مجلس ابن زياد تأتي قصة عبد الله بن عفيف الأزدي، فقد بدأ أول اهتزاز من داخل القصر بعد النصر الشكلي لهؤلاء الطغاة؛ إذ بدأ القتال العشائري بين الأزدي ومضر^(٢)، وكيف أنّ ابن زياد قام بتحريك عشائري للبحث عن عبدالله بن عفيف وقتله، بعد أن اعترض عليه في المسجد مع جماعة^(٣).

إذاً؛ بداية المعركة كانت هذه، ولم تنته بقتل الحسين عليه السلام، بل بدأت بقتله عليه السلام المعركة الحقيقية، وبدأ دم الحسين عليه السلام يرسم الخارطة، وهذا كله من خلال السبايا. قد شكّل حضور السبايا في مجلس عبيد الله بن زياد بداية لذلك النصر، فقد اعترض بعض من حضر في مجلس ابن زياد على ما فعله من ضرب ثانياً أبي عبد الله الحسين عليه السلام بقضيبه، ومنهم زيد بن أرقم، مخاطباً إياه: «ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين، فوالله الذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهما - ما لا أحصيه كثرة - تُقبّلها»^(٤)، ورُوي أنّ أنس بن مالك قال: «لما أتى برأس الحسين بن علي إلى عبيد الله بن زياد جعل ينكت بقضيب في يده، ويقول: إن كان لحسن الثغر. فقلت: والله، لأسوائك، لقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يُقبّل موضع قضيبك من فيه»^(٥).

(١) أنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ١١٤.

(٢) أنظر: ابن أعمش، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ١٢٤.

(٣) أنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ١١٧. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٥١.

(٤) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ١١٤. وأنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٤٩.

(٥) الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير: ج ٣، ص ١٢٥. وأنظر: ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٤، ص ٢٣٥.

وكذلك ردّ السيِّدة زينب عليها السلام على عبيد الله بن زياد، وجاء فيه: «الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وآله، وطهرنا تطهيراً، إنّما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر، وهو غيرنا. فقال: كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟ قالت: ما رأيت إلاّ جميلاً...»^(١).

وكذلك الحديث الذي دار بين الإمام السجّاد عليه السلام وبين عبيد الله بن زياد، فغضب ابن زياد، وأمر بقتله، «فتعلّقت به زينب عمّته، وقالت: يا بن زياد، حسبك من دمائنا. واعتنقته، وقالت: والله، لا أفارقه، فإن قتلته فاقتلني معه»^(٢).

أحداث المسير من الكوفة إلى الشام

وعندما ذهبوا بالرأس الشريف إلى الشام، كانت المسيرة في الطريق أيضاً مؤثّرة، رغم أنّ التاريخ لم يتحفنا بكثير من الوقائع، لكن الذي وصلنا فيه دلالات كثيرة، فقد روي: «أنّ رأس الحسين عليه السلام لما جُمِل إلى الشام، جنّ عليهم الليل، فنزلوا عند رجلٍ من اليهود، فلما شربوا وسكروا، قالوا له: عندنا رأس الحسين. فقال لهم: أروني إيّاه. فأروه إيّاه بصندوق يسطع منه النور إلى السماء، فعجب اليهودي، واستودعه منهم، فأودعوه عنده... فجمع اليهودي أقرباءه، ثم أخذ الرأس ووضعها في طست، وصبّ عليه ماء الورد، وطرح فيه الكافور والمسك والعنبر... فأسلم الرجل وأقرباؤه»^(٣)، فهذا تحوّل أيضاً في طريق السبايا.

أحداث الشام

عندما وصل السبايا إلى الشام استقبلوهم بالطبول؛ لأنّهم لا يعلمون ما هي حقيقة الأمر، لكننا نرى فيما بعد كيف حصل هناك تحوّل في الشام، وهذه المرّة أمام

(١) ابن نما الحلي، جعفر بن محمد، مثير الأحزان: ص ٧١.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ١١٦. وأنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٥٠.

(٣) الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ١١٥-١١٦.

يزيد الحاكم الأموي المتجبر، وقصة رسول ملك الروم معروفة، فقد: «كان يزيد يتخذ مجالس الشراب واللهو والقيان والطرب، ويُحضر رأس الحسين بين يديه، فحضر مجلسه رسول ملك الروم، وكان من أشرفهم، فقال: يا ملك العرب، هذا رأس من؟ قال ما لك ولهذا الرأس؟! قال: إني إذا رجعت إلى ملكنا يسألني عن كل شيء شاهدته، فأحببت أن أخبره بقضية هذا الرأس وصاحبه؛ ليشاركك في الفرح والسرور. قال: هذا رأس الحسين بن علي. قال: ومن أمه؟ قال: فاطمة بنت رسول الله. فقال النصراني: ... إن أبي من حفدة داود عليه السلام، وبينه وبينه آباء كثيرة، والنصارى يعظمون قدرتي، ويأخذون من تراب قدمي؛ تبركاً بآتي من الحوافد، وقد قتلت ابن بنت نبيكم، وليس بينه وبينه إلا أم واحدة... قال: نحن لدينا حافر حمار واحد من حوارى عيسى بن مريم، نحن نقدسه وأنتم تقتلون ابن بنت رسول الله وهذا رأسه!!... فقال يزيد: اقتلوه لئلا يفضحني في بلاده»^(١).

ولأبي برزة الأسلمي موقف في مجلس يزيد، عندما قام يزيد ينكت بقضيبه في ثغر الحسين عليه السلام، فقال له أبو برزة الأسلمي: «أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين؟! أما لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذاً لربما رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يرشفه، أما إنك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيحك، ويجيء هذا يوم القيامة ومحمد (صلى الله عليه وسلم) شفيعه»^(٢).

وهكذا تطورت المعركة، وكأن دم الحسين عليه السلام هو الذي يقود المعركة، وهذا أمر عجيب للغاية، حتى وصل الأمر إلى الإمام السجاد عليه السلام الذي «خطب خطبة أبكى منها العيون، وأوجل منها القلوب، ثم قال: أيها الناس، أعطينا ستاً، وفُضِّلنا بسبع: أعطينا العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبة في قلوب المؤمنين، وفُضِّلنا بأن منّا النبي المختار محمداً، ومنّا الصديق، ومنّا الطيار، ومنّا أسد الله وأسد رسوله، ومنّا سبطا هذه الأمة، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي

(١) ابن نما الحلي، جعفر بن محمد، مشير الأبحان: ص ٨٢-٨٣.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٥٦.

ونسبي... أيها الناس، أنا ابن مَكَّةَ ومنى، أنا ابن زمزم والصفاء، أنا ابن من حمل الركن بأطراف الردا... لم يزل يقول: أنا أنا، حتى ضجَّ الناس بالبكاء والنحيب...»^(١).

وعليه نقول: إنَّ أشدَّ ظهور وتجلُّ لانتصار دم الحسين عليه السلام والسبايا هو التأثير في الآخرين، إلى درجة أنَّ ذلك التأثير دخل في عُقر دار يزيد بن معاوية، حتى أنَّ هنداً زوجته خرجت «وهي حاسرةٌ، فوثبت إلى يزيد، وهو في مجلس عام، فقالت: يا يزيد، رأس ابن فاطمة بنت رسول الله مصلوب على فناء بابي؟ فوثب إليها يزيد فغطَّها، وقال: نعم، فأعولي عليه يا هند، وابكي على ابن بنت رسول الله وصريحة قريش، عجل عليه ابن زياد»^(٢).

فإنَّ قوله: (عجلَّ عليه ابن زياد) بداية لمسيرة التراجع؛ إذ رمى بذلك الجرم على الأشخاص المباشرين لقتل الحسين عليه السلام، وهذا الموقف غاية في التعجُّب؛ إذ المعسكر المنتصر يبدأ بالتراجع أمام السبايا، وهو تراجع حقيقي، وبالتالي أثر ذلك الموقف في نساء الشام، وخصوصاً في بيت يزيد، فلم تبقَ امرأة في دار يزيد «إلا استقبلتهنَّ تبكي وتنوح على الحسين، فأقاموا عليه المناحة ثلاثاً»^(٣)، حتى نصح بعض يزيد بالتعجيل في أمر السبايا؛ كي لا يحدث انفلات في الشام يطال الحكم الأموي، إذ كان عنده طمع بالملك، وحينها قرَّر يزيد إرجاع السبايا إلى المدينة، وهكذا انقلبت القضايا في مدَّة محدَّدة، حتى يُنقل أنَّ عثمان بن زياد أخو عبيد الله كان يقول: «لوددت أنَّه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة، وأنَّ حسيناً لم يُقتل»، أي: يا ليت بني زياد كانوا كلَّهم نساء، ولا يُقتل حسينٌ. فهذا التراجع والندم والفشل هو انتصار للمسيرة الحسينية.

الإفراج الحسني: إلى أيِّ مدى استطاع أتباع أهل البيت عليهم السلام أن يسيروا على

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ١٣٨-١٣٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١٤٣. وأنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٥٦.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٥٣.

نهج الإمام الحسين عليه السلام في مسيرته الإصلاحية، وهل تعتقدون أن بقاء هذا المذهب وديمومته يعود إلى عامل التطبيق الصحيح الذي سعى علماءنا أن يحافظوا عليه، أو أن هناك سراً آخر بمعزل عن تخطيط البشر؟

(السيد القبانجي): هذا السؤال في غاية الأهمية؛ لأنه سؤال حساس؛ إذ إن هناك رؤيتين لواقع الشيعة في هذا العصر، وعلى طول العصور: رؤية سلبية، ورؤية إيجابية:

١- الرؤية السلبية

وهي رؤية من يقول: بأن الشيعة انحرفوا عن أهدافهم، وتركوا الأئمة عليهم السلام واكتفوا بالبكاء والدموع، ولم يكونوا كما يريد أهل البيت عليهم السلام. هذه النظرة السوداء إلى شيعة أهل البيت عليهم السلام يساهم في بثها الأعداء، خصوصاً نظرتهم تجاه أهل العراق، وهذه القراءة هي القراءة الأموية، وقد ساهم الإعلام الأموي في ترويجها إلى يومنا هذا، مدعين أن الشيعة ليس لهم تدبير ولا إرادة ولا وفاء حقيقي لأهل البيت عليهم السلام، ولا وحدة كلمة. هذه رؤية سلبية يسوقها اليوم في المجتمع - مع الأسف - الإعلام الممول، حتى تأثر بها بعض شبابنا اليوم، فهي صنعة الأعداء.

٢- الرؤية الإيجابية

وهي الرؤية البيضاء، وهي رؤية أهل البيت عليهم السلام إلى شيعتهم، فقد كان الإمام الباقر عليه السلام يخاطبهم بقوله: «والله إني لأحبكم، وأحب ریحكم وأرواحكم...»^(١). إذاً؛ الرؤية الإيجابية إلى شيعة أهل البيت عليهم السلام من قبل الأئمة عليهم السلام هي الحب، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما قال فينا قائل بيتاً من الشعر حتى يؤيد بروح القدس»^(٢). هذا هو حب أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم، تقديراً لولائهم، وهذا التقدير للشيعة بسبب وجود عنصرين:

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٧٢٢.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ج ١، ص ١٥.

العنصر الأوّل: الفقهاء الذين يتصدّون للقيادة والمرجعية، وهم ورثة الأنبياء.
العنصر الثاني: الجمهور والأمة الملتزمة والمطبعة لهؤلاء الفقهاء، حتّى أنّ بعضاً
ممن لديه موقف سلبي من الشيعة يقرّ بأن الشيعة عندهم نقطة قوّة لم تكن موجودة
عند غيرهم، وهي تقديرهم لمراجعهم.

فالجماهير يحملون أرواحهم على أكفّهم استجابة للمرجعية، فهم موالون لأهل
البيت عليه السلام، ومطيعون للقيادة الدينية، وهذا العنصر تجلّى في عشرات النماذج، وكان
آخرها فتوى الجهاد الكفائي لآية الله العظمى السيّد علي الحسيني السيستاني (دام
ظله الوارف)، أو ما وجدناه لدى الشعب الإيراني بقيادة الإمام الخميني عليه السلام، ومن
قبل ذلك دور العلماء في أحداث ثورة العشرين؛ الذين هبوا دفاعاً عن الدين والوطن.
هذا وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وذلك أنّ
الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنّما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء
منها فقد أخذ حظّاً وافراً، فأنظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه، فإنّ فينا أهل البيت في
كلّ خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»^(١).

إذاً؛ الأئمّة عليهم السلام يشهدون بوجود فقهاء موالين لأهل البيت عليهم السلام، كما أنّ هناك
شيعة مطيعين لهؤلاء الفقهاء. وعليه؛ نحن نمتلك رؤية إيجابية بإمكاننا أن نقدّمها
للآخرين كما قدّمها أهل البيت عليهم السلام، فلولا دور هؤلاء الفقهاء، ولولا دور الشعوب
الموالية لأهل البيت عليهم السلام في إطاعة الفقهاء لانتهى التشييع، فإنّ بلوغ هذه الدرجة
العالية من الطاعة دون أن يكون للفرد علاقة شخصية مع هؤلاء المراجع، أو علاقة
أسرية، أو عشائرية، أو قومية، أو وطنية، أو محلية، أو قبلية، لسرّ منشؤه الإخلاص
لله تعالى، وحبّ أهل البيت عليهم السلام.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٢.

وهذا سرّ عجيب لدى شيعة أهل البيت عليهم السلام، يستحقّون به الإشادة، وهو يخالف النظرة السلبية عند بعضٍ تجاه الشيعة، تلك النظرة التي لا يرتضيها أهل البيت عليهم السلام قطعاً، فهذا الإمام السجاد عليه السلام رأى ذات يوم أشخاصاً، فسألهم: «مَنْ القوم؟ فقلنا: من أهل العراق. فقال: وأيِّ العراق؟ قلنا: كوفيون. فقال: مرحباً بكم يا أهل الكوفة، أنتم الشعار دون الدثار»^(١). وقد ذكر الشيخ الطريحي في مجمع البحرين تفسير ذلك بقوله: «وفي الدعاء: (واجعل العافية شعاري)، أي: مخالطة لجميع أعضائي، غير مفارقة لها، من قولهم: جعل الشيء شعاره ودثاره: إذا خالطه ومارسه وزاوله كثيراً، والمراد: المداومة عليه ظاهراً وباطناً، ومنه حديث علي عليه السلام لأهل الكوفة: (أنتم الشعار دون الدثار)، والشعار بالكسر: ما تحت الدثار من اللباس، وهو ما يلي شعر الجسد، وقد يُفتح، والمعنى: أنتم الخاصّة دون العامّة»^(٢).

فهذه محبة أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم، وهؤلاء هم شيعتهم. نعم، هناك رؤى وقراءات تختلف بحسب العقليات، ولكن هذا لا يغيّر من الحقيقة شيئاً. فخلاصة الجواب عن سؤالكم المتقدّم أقول: إنّ أتباع أهل البيت عليهم السلام ساروا على طريق أهل البيت عليهم السلام، سواء كانوا فقهاء أم جمهوراً، فقد صبروا على كلّ تلك التحديّات، وما انطفأ نور أهل البيت عليهم السلام أبداً ببركة هذا الصبر.

الأهل الحسني: ساحة السيّد، نستمع إليكم في كلمة أخيرة للتفضّل ببعض التوصيات أو المقترحات.

(السيّد القبانجي): هناك أربع توصيات أودّ أن أطرحتها:

(١) المصدر السابق: ص ٤٩٨.

(٢) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين: ج ٣، ص ٣٤٩.

التوصية الأولى

اسعوا إلى أن تبذلوا قصارى الجهد، فعلى الشباب أن يغتنموا وقتهم وكل ما بوسعهم من قدرات وطاقات لأجل خدمة الدين والوطن والناس والرعية؛ لأنّ هذا في الحقيقة هو نتاج لهم، كما يقال: مَنْ زرع حصد. أنظروا إلى علمائنا كيف بذلوا جهداً في مسيرتهم العلمية والاجتماعية، رحم الله أستاذنا الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) كان يشتغل في اليوم ثماني عشرة ساعة على حدّ قوله، وذات مرّة طلبت منه (رحمة الله عليه) موعد لقاء، فأعطاني موعداً في الساعة الثانية ظهراً، وفي حينها كان الحرّ شديداً، فزرته في الطابق الأعلى من بيته، وهو جالس في حجرة صغيرة جداً، وفي ذلك الوقت لا توجد وسائل للتبريد الحديثة، فقلت له: سيدنا، أليس الجوّ حارّاً عليك؟ قال: لا، أنا أجد راحتي هنا، فالعلم والخدمة والكتابة هي راحتي. إذاً؛ فبذل الجهد ضروري جداً للخدمة في مرحلة الشباب.

التوصية الثانية

طلب مرضاة الله، ولنعلم أن لا شيء يغنينا عن الله، لا أموال ولا دنيا ولا جاه، فليكن المرء نكرة أمام الله، فلا يهّمه أن يعرفه الناس أو لا يعرفوه. فمرضات الله سبحانه وتعالى مطلب أساسي، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين»^(١).

هناك بعض تراه يفرح إذا اجتمع حوله مجموعة من الناس يهتفون وينادون باسمه، بينما نرى بعضاً آخر لا يهّمه هذا الأمر، وما يهّمه هو تأدية الواجب، فهذا أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة، ولا تفرّقهم عني وحشة»^(٢).

(١) ابن نما الحلي، جعفر بن محمد، مشير الأحزان: ص ٢٩.

(٢) نهج البلاغة، (شرح محمد عبده): ج ٣، ص ٦٢.

إذا؛ فالهم هو رضا الله، وهذا كافٍ لما فيه خير الدنيا والآخرة.

التوصية الثالث

﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾^(١)، فكلّ عمل لا بدّ أن تُطلب فيه الاستعانة بالله، فإذا أردت أن تكتب مقالاً، أو تُلقِي محاضرة، أو تألّف كتاباً، أو تذهب إلى عملك، أو تُصلح بين شخصين، وغير ذلك.. فاستعن بالله تعالى، كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «والإعانة لمن استعان بك مبذولة»^(٢).

التوصية الرابعة

الثقة المطلقة بالنصر الإلهي، وأنّ مطلق النصر يكون من الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٣)، فأصل القضية أنّ الله تبارك وتعالى هو الناصر، وإرادته فوق كلّ شيء، وما نحن إلّا أداة ظاهرية، كالفلّاح عندما يجعل البذرة في الأرض، يقول تعالى: ﴿أَتَسْمِعُونَ نَجْمَهُمْ إِذْ يَسْمَعُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَنُ الْزَّرْعُونَ﴾^(٤). وعليه؛ لا بدّ من الوثوق بنصر الله تبارك وتعالى حتّى لو قُتلنا، أو سُببنا، أو كانت الرؤوس على الرماح.

الثقة بنصر الله تبارك وتعالى طريق للنصر في أيّ مكان وفي أيّ زمان، وهذا الأمر مهمّ لشعبنا، خصوصاً في الوقت الحاضر، فكلّ ما يُحطّط له الأعداء لن يجنوا ثماره إذا كان إيماننا بالله أكبر، وثقتنا أقوى، فالقرآن يخبرنا ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُوِيَ﴾^(٥)، فالثقة بنصر الله تبارك وتعالى وحسن الظنّ به شيء لا بدّ منه في

(١) الأعراف: آية ١٢٨.

(٢) الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهدّد: ص ٧٣٩.

(٣) الصافات: آية ١٧١-١٧٣.

(٤) الواقعة: آية ٦٤.

(٥) الطارق: آية ١٥-١٧.

مسيرتنا، فقد جاء في الحديث القدسي: «أنا عند ظنّ عبدي المؤمن بي، إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشرّاً»^(١).

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- ١ - الأخبار الطوال، أحمد بن داوود الدينوري (ت ٢٨٢هـ)، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م.
- ٢ - الإرشاد في معرفة حجج الله علي العباد، محمد بن محمد بن نعمان العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لتحقيق التراث، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- ٣ - إكسير العبادات في أسرار الشهادات، آغا بن عابد الشيرواني الحائري المعروف بالفاضل الدربندي (ت ١٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد جمعة بادي، وعباس ملا عطية الجمري، شركة المصطفى للخدمات الثقافية، المنامة - البحرين، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- ٤ - الأمالي، محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، دار الثقافة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٥ - الأمالي، محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٦ - بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية المصححة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٧٢.

٧- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، راجعه وصحّحه وضبطه: نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٨- تاريخ مدينة دمشق، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

٩- تنزيه الأنبياء، علي بن الحسين الموسوي المعروف بالشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ)، دار الأضواء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٩ / ١٩٨٩م.

١٠- الكافي، محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٩هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١١- كتاب الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

١٢- اللهوف في قتلى الطفوف، علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس الحسيني (ت ٦٦٤هـ)، منشورات: أنوار الهدى، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٣- مشير الأحزان، جعفر بن محمد بن أبي البقاء هبة الله بن نما الحلي (ت ٦٤٥هـ)، منشورات: المطبعة الحيدرية في النجف، ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.

١٤- مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥هـ)، تحقيق: السيّد أحمد الحسيني، الناشر: مكتبة مرتضوي، طهران، الطبعة الثانية، ١٣٦٢هـ.ش.

١٥- مدينة معاجز الأئمة الاثني عشر ودلائل الحجج على البشر، هاشم بن سليمان البحراني (ت ١١٠٧هـ)، تحقيق: الشيخ عزّة الله المولائي الهمداني، مؤسسة المعارف الإسلامية، إيران - قم، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١٦- مسند أحمد، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت - لبنان.

- ١٧ - مصباح المتهدّد، محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، مؤسّسة
 فقه الشيعة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- ١٨ - المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، حقّقه وخرّج أحاديثه: حمدي
 عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.
- ١٩ - مقتل الحسين عليه السلام، الموفق محمد بن أحمد المكّي الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ)، تحقيق:
 الشيخ محمد السايوي، منشورات: أنوار الهدى، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ٢٠ - مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ)، تصحيح وشرح
 ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، قام بطبعه: محمد كاظم الكتبي صاحب
 المكتبة والمطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.
- ٢١ - النجم الثاقب في أحوال الإمام الحجّة الغائب عليه السلام، حسين الطبرسي النوري
 (ت ١٣٢٠هـ)، تقديم وترجمة وتحقيق وتعليق: السيّد ياسين الموسوي، منشورات:
 أنوار الهدى، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٢٢ - نهج البلاغة (مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي
 طالب عليه السلام)، شرح: محمد عبده، دار الذخائر، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

عاشوراء وحقيقة الخلاص

مقارنة قرآنية نقدية لنظرية الفداء

(القسم الأول)

الشيخ ثناء الدين الدهلڪي*

مقدمة

ما زالت عاشوراء (النهضة) تُلقى بثقلها الفكري والتاريخي على مسرح الأحداث التي عصفت بتاريخ البشرية على مرّ العصور والأزمنة؛ إذ نرى ثمة اهتماماً بالغاً من قبل الباحثين والدارسين - مسلمين أم غيرهم - بقراءتها وتحليلها بداعي الكشف عن منطلقاتها، والعوامل التي دفعت بقائدها عليه السلام إلى الامتناع عن مبايعة يزيد بن معاوية، والخروج على السلطة الأموية بكلّ إصرار وعزيمة، حتّى أدّى ذلك إلى استشهاده عليه السلام في معركة الطفّ عام إحدى وستين للهجرة.

وبمستوى الحديث عن تلك الدوافع والمنطلقات فإنّ مساحة البحث عن مخرجات هذه النهضة ومعطياتها على المدى القريب والبعيد قد أخذت حيزاً واسعاً أيضاً في مجال الدراسات الحسينية، وفي ضوء تلك المخرجات يمكننا استشراف رؤية الإمام الحسين عليه السلام حين سلك طريق الشهادة كخيار استراتيجي موازٍ لطريق النزول على رغبة السلطة الحاكمة، القاضية بلزوم مبايعة يزيد بن معاوية.

ولعلّ الأسباب الداعية إلى قراءة النهضة الحسينية واهتمام الباحثين بها يمكننا النظر إليها من زوايا متعدّدة، تكمن في شخصية القائد المضحّي، ونوعية المشروع

* أستاذ في جامعة المصطفى عليه السلام العالمية، من العراق.

المضحي من أجله، وطريقة إدارة النهضة وتوجيهها، فالنهضة الحسينية يمكن وصفها بأنها حركة إصلاحية متكاملة، قامت على فلسفة فريدة من نوعها، تجلّت في معايير دينية، وشواخص إنسانية، وقيم أخلاقية، أجهضت المشروع المضاد الذي أراد أن يُغرق المجتمع في مستنقع رؤية أموية جديدة، تأخذ مسارها في سياق التاريخ، وتتنامى جذورها على مرّ العصور، فجاءت النهضة الحسينية لتكشف النقاب عن وجه ذلك المشروع الخطير، حاملةً لواء الإصلاح بشئى أبعاده؛ الأمر الذي أعقبه انتقاله نوعية في داخل المجتمع الإسلامي على مرّ العصور، جعله يتحسّس المشروع الحسيني فكراً وتعاطفاً، وينجذب نحو الحسين عليه السلام ومشروعه المبارك.

ومما يلفت الانتباه لدى الباحث، أنّ قراءة النهضة الحسينية لم تكن بعدسة واحدة؛ إذ نرى بروز قراءات متنوّعة، تنطوي على عوامل مختلفة أدّت إلى حدوث هذا التنوّع والاختلاف، منها ما يتلاءم مع النصوص التاريخية والروائية التي تحدّثت عن الواقعة نفسها، ومنها ما يتعد قليلاً عن ظواهر تلك الأحداث، وإن كانت بحدّ ذاتها قراءات جيّدة لا تحمل شائبة التطرّف والابتعاد عن الحدود الشرعية والعقلانية، ومنها قراءات مثلت نوعاً من التطرّف الفكري الذي أنتجته النزعة الذاتية الحسّية في فهم النصوص الدينية والتاريخية، ومنها قراءات حملت طابعاً أسطورياً (ميثولوجياً) أبعد النهضة الحسينية كثيراً عن منطلقاتها، وأفرغها من محتواها الحقيقي الذي سعى سيّد الشهداء عليه السلام إلى تحقيقه، ولو كلف ذلك التماس طريق التضحية والشهادة.

ومن ذلك انبرت لنا رؤى متعدّدة بعضها تحكم بأنّ الإمام الحسين عليه السلام لم ينهض من أصل، وإنّما كان هدفه هو الدفاع عن نفسه فقط، بينما ذهبت رؤية أخرى إلى أنّه عليه السلام كان يهدف إلى نهضة استشهادية يجرّك من خلالها إرادة الأمة التي نُزعت إرادتها في ظلّ الوجود الأموي، في حين اعتقد بعض آخر أنّ نهضته عليه السلام كانت تكليفاً خاصّاً لا يعلم حقيقته إلّا الله، بينما آمن آخرون بأنّ حركته عليه السلام كانت تهدف إلى إقامة حكومة العدل الإلهي، ومال آخرون إلى أنّ سيّد الشهداء عليه السلام كان قاصداً الشهادة

بعينها؛ لكي يصل إلى أقصى درجات الفناء في الله تعالى، وهناك رؤية أيضاً تؤمن بأن الإمام عليه السلام قد فدى نفسه من أجل التكفير عن ذنوب شيعته ومحبيه.

ومن خلال هذا السرد المتقدم تتجلى لنا نظريات متنوعة في تفسير النهضة الحسينية، ومن جملة هذه النظريات ما عرف في الأوساط العلمية بـ(نظرية الشهادة)، ولكن حقيقة الأمر أنّ نظرية الشهادة تنشطر بدورها إلى نظريات متعددة، هي: الشهادة التكليفية، والشهادة العرفانية، والشهادة السياسية، والشهادة الفدائية.

وهذه الدراسة التي بين أيدينا تهدف إلى عرض نظرية الشهادة الفدائية التي تُعرف اختصاراً بنظرية الفداء أو الكفارة، تلك النظرية التي تمثل مقاربة للنجاة تشبه إلى حدّ كبير ما نظّر له بولس الطرسوسي (٥ - ٦٧م)^(١) في القرن الأوّل الميلادي، تلك الشخصية التي نجحت نوعاً ما في صناعة رؤية لاهوتية سار عليها من بعده أرباب المسيحية إلى يومنا هذا، وحاصل هذه الرؤية أنّ المسيح هو القربان المقدّس الذي تكمن في جسده ودمه قوّة لخلاص الإنسان من تبعات الخطيئة الأولى التي لاصقت البشرية، وأصبحت جزءاً من طبيعتها الإنسانية، ومن ذلك تتجلى رحمة الإله بعباده أن ضحّى بالمسيح من أجل نجاة الإنسان وخلاصه الأبدي.

وتعريجاً على النهضة الحسينية، ربّما نقرأ نصوصاً في مصادر متأخرة تتصل بالنهضة الحسينية يصوّر بعض من خلالها أنّ ذهاب الإمام الحسين عليه السلام نحو الشهادة بكامل اختياره ما هو إلاّ عملية فداء قام بها من أجل خلاص شيعته من العذاب الأخرى؛ إذ لا يمكن أن يتحقّق ذلك العفو المجاني عن المذنبين إلاّ بتضحية نوعية تتناسب مع خطايا الإنسان تناسباً طردياً، شريطة أن يعيش الإنسان (الشيوعي) المأمّلاً يتمثّل بإقامة مظاهر الحزن والأسى التي تعبر عن مدى تأثر ذلك الإنسان وارتباطه

(١) المعروف أنّ بولس بدأ حياته الدينية والاجتماعية على شريعة اليهود، وكان من جملة الذين ناهضوا المسيحية التي ظهرت في فلسطين بكلّ قوّة، حتّى استمرّ في مشروعه هذا إلى أن تحوّل من مضطهد للمسيحية إلى مبشر لها من الطراز الأوّل! وذلك في أجواء يشوبها نوع من الشكّ والترديد. للاطلاع على قصّة تحوّل بولس من اليهودية إلى المسيحية أنظر: سفر أعمال الرسل: ٩/ ١-٨.

واتحاده مع الإمام الفادي! وعليه، فقد أصبح الشيعة بعد تلك الواقعة الأليمة في خلاص من أمرهم، على الوتيرة نفسها التي شهدها أتباع المسيح بعد قصة الصلب والقتل، من هنا يظهر التشابه القريب بين الحسين والمسيح ﷺ، ذلك القرب الذي يمثله الفداء المزعوم.

ومّا ينبغي التنبيه عليه أنّ الأمانة العلمية تحتم علينا عدم القطع بأنّ هذه النظرية التي تكلم عنها بعض العلماء الممتنين إلى البيت الشيعي كانت نتيجة التأثير والتفاعل مع تعاليم اللاهوت المسيحي لعقيدة الفداء، فإنّ هذا ممّا لم نلمس له تصريحاً أو تلويحاً في كلماتهم وأقوالهم. ولعلّ التشابه العميق بين الرؤيتين في أدبيات تصوير النظرية وعرضها ولّد طابعاً عاماً في مجال البحث بأنّ هناك تأثيراً وتفاعلاً ملحوظين؛ الأمر الذي دفعنا لأنّ نخوض في حقيقة هذه النظرية في علم اللاهوت المسيحي وجذورها التاريخية. نعم، هناك شبهة تعرض أمام الذهن، حاصلها: أنّ النظر بشكل دقيق إلى هذه الأبحاث يوصلنا إلى وجود نظريتين منفصلتين، إحداهما: عقيدة الفداء المسيحي، وثانيهما: نظرية الشهادة الفدائية الحسينية، فهما نظريتان لا تنصويان تحت سياق تاريخي واحد؛ إذ تولدت كلّ نظرية منهما في حقبة تاريخية لها شرائطها الخاصّة، وأيديولوجيتها المعينة.

والحق، أنّ لحاظ هذه النظرية بشكل عام يمكننا من جعل سياق تاريخي لها، وذلك بتصوير معنى مشترك يتمثل بوجود (ذات تفتدي بنفسها من أجل التكفير عن خطايا الآخرين)، وهذا المعنى متحقّق في كلتا الرؤيتين، حتّى وإن تمّ التغاضي عن ذكر مصاديق هذه الذات الفادية. وعليه؛ يمكن حلّ الشبهة المتقدّمة بلحاظ ذلك المعنى المشترك في الذهن.

وعلى أية حال، فإنّ الدراسة التي بين أيدينا تهدف إلى إعطاء صورة مجملة عن معالم هذه النظرية - بلحاظ المعنى المشترك - وجذورها الميثولوجية، ومكانتها في اللاهوت المسيحي، والحيز الذي تشغله في فضاء الفكر الشيعي، ثمّ بيان الرؤية

القرآنية في حقيقة الخلاص؛ ليتّضح للقارئ العزيز مدى انسجام هذه النظرية مع المقاربة القرآنية.

وبعبارة أخرى: إنّ هذه الدراسة تمثّل قراءة نقدية بآليات وأدوات قرآنية، وإن كان البحث فيها يتّسع لأدوات معرفية أخرى عسى أن نوفق ل طرحها في دراسات أخرى إن شاء الله تعالى.

المطلب الأوّل: الإطار المفاهيمي

ستتحدّث في هذا المطلب عن مفهومين أساسيين قامت عليهما هذه الدراسة، وهما: مفهوم الخلاص، ومفهوم الفداء:

١- مفهوم الخلاص

الخلاص في اللغة: مصدر الفعل خَلَصَ، تقول: «خَلَصَ الشيء خُلُوصاً: إذا كان قد نشب، ثمّ نجا وسلم... والخلاص يكون مصدراً كالمُخلُوص، للناجي، ويكون مصدراً للشيء الخالص»^(١). ويفهم من هذا المعنى اللغوي أنّ الخلاص يُستخدم للذوات وللأشياء.

وأما في الاصطلاح: فهو النجاة من العذاب الأخرى، والفوز بنعيم الجنّة. وقد أخذ هذا المفهوم مجالاً واسعاً في التعاليم الدينية، وقد جاء في القرآن الكريم بألفاظ متنوّعة، يعطي كلّ واحد منها صفة معيّنة وعنواناً خاصّاً من عناوين الخلاص، كمصطلح النجاة^(٢)، والفوز^(٣)، والفلاح^(٤)، والغفران^(٥)، والتكفير^(٦)، والحياة الطيّبة^(٧)، وما شابه ذلك.

(١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين: ج ٤، ص ١٨٦.

(٢) أنظر: مريم: آية ٧١-٧٢.

(٣) أنظر: البروج: آية ١١.

(٤) أنظر: الحج: آية ٧٧.

(٥) أنظر: آل عمران: آية ١٣٦.

(٦) أنظر: التغابن: آية ٩.

(٧) أنظر: النحل: آية ٩٧.

وقد شاع استخدام مصطلح الخلاص في علم اللاهوت المسيحي، وارتبط ارتباطاً وثيقاً بعقيدة الفداء التي اختزل فيها هذا المفهوم، وصار من خلالها مصطلحاً لاهوتياً بامتياز، وقد جاء في تعريفه أنه: التحرير من الشر، وذلك عن طريق بذل المسيح - الابن الوحيد على حد زعمهم - ليحرر الإنسان من الشر، ذلك البذل الذي تحقق على نحو الوجود عبر آلام المسيح، وفي هذا تتجلى محبة الله الذي قدم المسيح فداءً للإنسان، وهذه المحبة للإنسان والعالم هي المحبة الخلاصية^(١).

فالخلاص - برؤية لاهوتية مسيحية - لا يأتي إلا من المسيح^(٢)، وإن التبشير قائم على الدعوة للانضمام إلى هذه الدائرة، فالألم الحاصل للمسيح هو ألم بالوكالة^(٣)، فقد تحمّل خطايا الناس بالنيابة، وبآلامه أزيلت الخطايا، فهو من يصنع عملية الفداء بآلامه وموته على الصليب^(٤)، وقد جاء في سفر أشعيا: «وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا... ملنا كل واحد إلى طريقه، والرب وضع عليه إثم جميعنا... وهو حمّل خطية كثيرين، وشفع في المذنبين»^(٥).

ولعل هناك رؤية سائدة ومشاركة في العالم المسيحي تمثل نوع اتحاد بين المسيحيين فيما يخص الذات المخلصة (عيسى)، إلا أن هناك أيضاً جدلاً قائماً في كيفية تحقق ذلك الخلاص، فقد تم طرح قراءات مختلفة لذلك، ولعل الانفصال القائم بين الكنائس المختلفة كان منشؤه ذلك الجدل الدائر الذي حدث نتيجة لمحاولة فهم الخلاص

(١) أنظر: بولس الثاني، البابا يوحنا، الألم الخلاصي: الفقرة ١٤، ص ٢٤-٢٥.

(٢) أنظر: بولس الثاني، البابا يوحنا، رسالة الفادي: الفقرة ٥٥.

(٣) أنظر: بولس الثاني، البابا يوحنا، الألم الخلاصي: الفقرة ١٧، ص ٣٣.

(٤) يعتقد النصارى أن عملية الفداء لا يمكنها أن تتحقق إلا بتضحية من العيار الثقيل؛ ذلك لأن نطاق الخطيئة البشرية واسع جداً، فهو بحاجة إلى فداء عظيم، ولا يمكن تصوّر ذلك الفادي العظيم إلا بالمسيح عليه السلام، ومنشأ اعتقادهم هذا أن المسيح هو (ابن الله!) - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وأن تفدية الابن ليستحقّ معها غفران الخطايا والآثام التي ارتكبتها البشرية في تاريخ حياتها على الأرض.

(٥) سفر أشعيا: ٥٣/٥٥ و٦ و١٢.

على أسس عقلية فلسفية بمعزل عن (الكتاب المقدس)، ثم محاولة إثباته عن طريق النصوص الدينية المسيحية المتمثلة بالعهدين: القديم والجديد^(١).

٢. مفهوم الفداء

الفداء لغةً: مصدر الفعل فدى، وهو أن يُجعل شيء مكان شيء حمى له، تقول: فديته أفديه، كأنك تحميه بنفسك أو بشيء يعوّض عنه^(٢). ومنه يظهر عدم الفرق في العوض بين أن يكون مالاً أو ذاتاً خارجية.

وأما اصطلاحاً، فقد عرّفه الجرجاني بتعريفين: الأول: أن يترك الأمير الأسير الكافر، ويأخذ مالاً أو أسيراً مسلماً في مقابله. والثاني: البذل الذي يتخلّص به المكلف عن مكروه توجه إليه^(٣).

ويلاحظ على التعريف الأول أنه بيان لبعض استعمالاته في الشرع، فقد ارتبط تداول مصطلح الفداء في مجال التشريع بمصاديق متعدّدة يجمعها عنوان مشترك، وهو البذل أو العوض، في مقابل الانفكاك عن شيء تقيّد به المكلف، سواء كان هذا القيد أسراً أم علاقة زوجية أم صوماً واجباً. وعليه؛ يُسمي تعريفه الثاني هو الأقرب إلى ذلك المعنى الجامع.

مفهوم الفداء في اللاهوت المسيحي

تحدّثنا فيما سبق أن الخلاص - في اللاهوت المسيحي - لا يتمّ إلاً بالمسيح، ونريد أن نبيّن هنا أن الخلاص يترتّب على عملية فدائية يقوم بها المسيح بتوجيه من الرب! لا يتحقّق مفعولها إلاً بالصلب والقتل، وهي ما يُطلق عليها أيضاً عقيدة الكفّارة (Atonement)^(٤)؛ وقد نظّر لها في بدايات التاريخ المسيحي بولس الطرسوسي،

(١) أنظر: بني، رودلف، الخلاص بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس، مجلّة الرسالة: العدد ٧٥.

(٢) أنظر: ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج ٤، ص ٤٨٣.

(٣) أنظر: الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات: ج ١، ص ١٦٥.

(٤) أنظر: سميث، هوستن، أديان العالم: ص ٤٣٣.

وهي - كما يصوّرُها بعض اللاهوتيين - عملية مصالحة وتقارب حدثت بين الإله والبشرية، منها استعاد الإنسان علاقته مع الله بعد أن سقط في وحل الخطيئة التي أحدثت انقطاعاً معه واغتراباً عنه، فأصبح الإنسان غير قادر على كسر هذا الطوق الذي صنعه الذنوب والآثام، فقد تلبّست الخطيئة به تلبساً وراثياً أو طبيعياً^(١) ممتداً على مرّ العصور، ومنذ ذلك الحين فقدت البشرية «العلاقة المفتوحة مع الله»^(٢)، وإذا كان هناك من تحرير يُعيد النفس إلى ما كانت عليه قبل الخطيئة، فلا بدّ أن يأتي من الخارج ومن قوّة عليا، فاستعاد المسيح الرابطة القديمة التي كانت تربط الإنسان بمصدر الحكمة والمحبة الإلهية.

وعليه؛ فإنّ صورة الإنسان وإن كانت تحمل إمكانية التشويه جرّاء الأعمال القبيحة التي يرتكبها الإنسان من خلال إطاعته الشيطان، إلّا أنّها تحمل أيضاً إمكانية وقابلية استرجاع تلك الصورة الناصعة قبل الخطيئة، «وهكذا بقيت الصورة المشوّهة تنتظر الفداء لتعود أفضل ممّا كانت»^(٣)، وفي هذا الشأن يصرّح بولس: «ولكنّ الكلّ من الله، الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح، وأعطانا خدمة المصالحة، أي: إنّ الله كان في المسيح مُصالِحاً العالم لنفسه، غير حاسبٍ لهم خطاياهم، وواضعاً فينا كلمة المصالحة»^(٤)؛

(١) «لعلنا نجد أنّ المدرسة الأرثوذكسية أكثر حذراً في مسألة الوراثة؛ إذ إنّ الخطيئة الأولى - على حدّ تعبيرهم - لا يمكن النظر إليها كمورثة (*gene*) للذنوب تنتقل بالتزاوج، كما يوحي المفهوم الأوغسطيني، وإنّما الموروث هو الطبيعة البشرية؛ إذ كلّ إنسان ورث تلك الطبيعة من والديه، تلك الطبيعة التي سقطت في وحل الخطيئة، بعد أن صارت الصورة الإلهية في الإنسان مشوّهة جرّاء ما ارتكبه من عصيان بكامل إرادته وحرّيته، فكلّ البشرية تشارك في نتائج الخطيئة الأولى ضمناً، وإن لم تشارك في ذات الخطيئة الشخصية، فسقوط آدم وحوّاء إلى الأرض لا يعني سقوط شخصين من الجنس البشري، بل سقوط البشرية جمعاء؛ لأنّها الجنس البشري، فيخطيئة واحدة مات الكثيرون، ولكن لم يموتوا عقوبة على خطيئة لم يقرّفوها، بل صاروا مالكيين لطبيعة ساقطة». أنظر: طرابلسي، عدنان، الرؤية الأرثوذكسية للإنسان (الأثروبولوجيا الصوفية): ص ١٥٦-١٥٧.

(٢) المسكين، متى، قصّة الإنسان حول الخطيئة والخلاص: ص ١٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) كورنثوس (٢): ١٩/٥-١٨.

«لأنه هكذا أحبَّ الله العالم، حتَّى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كلُّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية!»^(١).

وهكذا توثقت العلاقة من جديد بالمسيح الإنسان؛ ومنه دخلت المسيحية في صميم العمل الخلاصي، معلنة عن جوهر عقيدة الفداء^(٢).

وخلاصة القول عندهم: أن عدالة الله تقتضي معاقبة المذنبين، إلا أن رحمته تعالى توجب العفو والصفح عنهم، وهذا العفو لا يكون عدلاً إلا بدفع الكفارة عن الذنب، وهذه الكفارة لا يمكن تحقيقها إلا من خلال فداء المسيح. وعليه، يمكننا تعريف الفداء في علم اللاهوت المسيحي بأنه: جعل المسيح كفارة لخطايا البشر، ويوضحه قول يوحنا في رسالته الأولى: «وهو كفارة خطايانا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كلِّ العالم أيضاً»^(٣).

وبشكل عام فإنَّ هذا التصوير لعملية الفداء قد ساهم بشكل قاطع بإعطاء الإيحاء المسيحي شكله المعروف؛ وعلى هذا الأساس يُعدُّ الفداء والصليب محور التعاليم النصرانية وأساسها، ومن دونها لا يمكننا تصوّر بناء متهامسك لتلك التعاليم. ثم إنَّ هذا التصوير قد أحدث تطوُّراً في العالم الغربي فيما يتصل بحقيقة الخلاص وكيفية فهمه وبيان حدوده، ربما كان منشؤه هي العقلية الفلسفية التي عاشها الغرب لمدة من الزمن؛ لأنَّ التفكير والاتجاه العقلي أربك الكثير من التفاسير النصّية لعقيدة الفداء، وأحدث تطوُّراً نوعياً في فهم وإدراك هذه العقيدة الدينية، والسعي بعد ذلك إلى استنطاق النصوص الدينية، وتسييرها بما يتلائم مع تلك التوجّهات، حتَّى برز الكثير من الأسئلة التي تحتاج إلى تفسير عقلي ومنطقي، من قبيل: «هل الخلاص

(١) إنجيل يوحنا: ١٦/٣.

(٢) أنظر: بولس الثاني، البابا يوحنا، الألم الخلاصي: الفقرة ١٤، ص ٢٤.

(٣) رسالة يوحنا الأولى: ٢/٢. لا يخفى على المتتبع أن نصوص العهد الجديد قد اختلفت في تحديد دائرة الخلاص وحدوده، فتارة تصرّح بأنَّ الخلاص ينطبق على المؤمنين بالمسيح، وتارة تصرّح بعمومه وشموله للعالم أجمع.

بالإيمان وحده، أم بالإيمان والعمل؟ إذا كان الخلاص قد أكمل بالصليب فما هو معنى القيامة؟... نستطيع أن نجد عشرات من أمثال هذه الأسئلة، وإذا ما قلبنا كتب الآباء فلن نجد أنهم قد تعرّضوا لإجابتها^(١). نعم، في مقابل هذا الاتجاه العقلي هناك اتجاه نصي بقي وفيّاً للنصوص المدرسية التقليدية التي ورثها من تعاليم الآباء المتقدمين. ومن ذلك تظهر عوامل ذلك التحوّل القائم في العقلية المسيحية تجاه علم اللاهوت، ذلك التحوّل الذي تمثل بوجود مشكلة عجز عن حلّها هذا العلم الذي تكلم بالنيابة عن الله تعالى والمسيح عليه السلام!

مفهوم الفداء في القرآن الكريم

قد ورد مصطلح الفداء في القرآن الكريم بصيغته الاسمية والفعلية في آيات متعدّدة، وباشتقاقات متنوّعة، من قبيل: (افْتَدَى، يَفْتَدُوا، افْتَدَوْا، افْتَدَتْ، يَفْتَدِي، تُفَادُوهُمْ، فَدَيْنَاهُ، فِدْيَةٌ، فِدَاءٌ)، إلّا أنّ الحديث فيها على عمومها لا يتطابق مع معنى الفداء بصيغته المسيحية إطلاقاً، بل تدرج هذه الاشتقاقات تحت معنى عام وهو: البذل الذي يُجعل مقابل الانفكاك عن قيد أو مكروه، ومن مصاديقه:

١- عوض الأسر، ويكون بالمال أو العين، وتدلّ عليه الآيات الواردة في سياق الحديث عن الحرب والأسر، من قبيل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْمَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاقَ فِيمَا بَعْدَ وَإِمَا فِدَاءً﴾^(٢)، والمراد بشدّ الوثاق هو الأسر، وللمسلمين الخيار بعد تحقّقه طبقاً للمصلحة التي يراها ولي الأمر، إمّا المنّ عليهم بإطلاق سراحهم، وإمّا الفدية بدفع المال أو بإطلاق سراح أسرى من المسلمين عند الكفّار^(٣). وقد ورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ

(١) بني، رودلف، الخلاص بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس، مجلّة الرسالة: العدد ٧.

(٢) محمد: آية ٤.

(٣) أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٨، ص ٢٢٥. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان: ج ٢٦، ص ٥٣. الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٩، ص ١٦٣.

وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْا مُنُونٌ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ

بِبَعْضٍ^(١)، والآية هنا في مقام تقرير بني إسرائيل على أفعالهم المتناقضة؛ إذ إنهم يُخرجون بعض أبناء جلدتهم من ديارهم، وهو محرّم عليهم، ثم إذا ما وقعوا في الأسر يفادونهم، أي: يردّون أسرى العدى، ويسترجعون منهم من في أيديهم.

٢- الكفارة (بالاصطلاح الفقهي)، من قبيل: كفارة الصوم، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾^(٢)، وكفارة الحلق في الحجّ للمضطر، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾^(٣).

٣- بدل الخلع، يقول تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾^(٤)، ومعنى الآية: أنّ لا جناح على الزوجين فيما بذلت المرأة من المال في قبال الخلع^(٥)، وهذا النوع من الفداء داخل أيضاً في حقل الدراسات الفقهية.

٤- عوض عن ذبح إسماعيل عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾^(٦)، وقد ورد في بعض الأخبار أنّ الفداء في هذه الآية هو دم الحسين عليه السلام^(٧)، وقد ذُكر في

(١) البقرة: آية ٨٥.

(٢) البقرة: آية ١٨٤. وهناك بحث فقهي في تشخيص الذين يطيقونه، وهو خارج عن محلّ البحث.

(٣) البقرة: آية ١٩٦.

(٤) البقرة: آية ٢٢٩.

(٥) أنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٢، ص ١٠٥.

(٦) الصافات: آية ١٠٧.

(٧) روى الشيخ الصدوق حديثاً طويلاً جاء فيه: «فأوحى الله عز وجل إليه... يا إبراهيم، فإنّ طائفة تزعم أنّها من أمة محمد صلى الله عليه وآله ستقتل الحسين عليه السلام ابنه من بعده ظلماً وعدواناً كما يُذبح الكبش؛ فيستوجبون بذلك سخطي، فجزع إبراهيم عليه السلام لذلك، وتوجّع قلبه، وأقبل يبكي، فأوحى الله عز وجل إليه: يا إبراهيم، قد فديت جزعك على ابنك إسماعيل لو ذبحته بيدك بجزعك على الحسين عليه السلام وقتله، وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب». الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ص ٥٩. الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ١٨٧.

تأويله أن الحسين عليه السلام في عالم أصلاب آبائه الطاهرين قد قبل الشهادة، وكونه فداء لجدّه إسماعيل عليه السلام؛ لبقاء نور جدّه محمد المصطفى صلى الله عليه وآله، وأبيه علي المرتضى عليه السلام، وأمّه فاطمة الزهراء عليها السلام، وأخيه الحسن المجتبي عليه السلام، وأولاده الطاهرين عليهم السلام؛ فعلى هذا كلّما بلغنا من الله عز وجل من النعم الظاهرية والفيوضات الإلهية والبركات المعنوية هو من الحسين عليه السلام؛ لأنه عليه السلام هو العلة الغائية لبقاء الدين من جهة حفظ صاحبه في عالم الأصلاب تارةً، وقبوله في حياته تلك المصائب العظام تارةً أخرى^(١).

وعلى فرض ثبوت هذا المعنى، فلا يُتوهم أن هذا التفسير من قبيل القول بنظرية الفداء محلّ البحث، فإنّ هذه التفدية التي جاءت على لسان الخبر تتعلّق بوجود شخص إسماعيل عليه السلام وبقائه، وليس متعلّقة بالخطيئة حتّى يكون هذا الفداء كفارة عن تلك الخطيئة.

٥- البذل عن العقاب الأخرى: فقد وردت آيات متعدّدة تنفي تحقّق الفداء في سياق الحديث عن يوم الحساب، كقول تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُوَفِّدُكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَاؤَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

المطلب الثاني: الجذور الميتولوجية لنظرية الفداء

لكلّ ظاهرة فكرية سياق تاريخي تولّده عناصر متعدّدة، ومؤثرات متنوّعة، تدخل جميعها في إيجاد تلك الظاهرة، وتكوينها، وتطويرها، والحديث عن نظرية الفداء يأخذنا إلى البحث عن سياقها التاريخي الذي نشأت فيه، وتبلورت من خلاله، حتّى أخذت صورتها النهائية في علم اللاهوت المسيحي.

ولعلّ تصوّر القائم عن عقيدة الفداء - أو الكفارة - أنّها عقيدة منبعثة من رحم النصوص الدينية المسيحية، غير أنّ تتبّع النصوص المعنيّة بتاريخ الأديان يرشدنا إلى أنّ الفداء كانت له جذور تمتدّ في أعماق الوثنية والعادات اليونانية والإغريقية،

(١) أنظر: المستنط، أحمد، القطرة من بحار مناقب النبي والعترة: ج ١، ص ٣٠٧.

(٢) الحديد: آية ١٥.

وغيرها من الأقسام السابقة، وأن السياق التاريخي لعقيدة الفداء قد حمل مؤثرات
ميثولوجية وأسطورية مهّدت الأرضية لبلورة هذه العقيدة على أيها عقيدة مسيحية
إنجيلية.

ولقد نُقل أن أول من درس هذه الجذور في العالم الغربي هو الكاتب والمؤرخ
الفرنسي (إرنست رينان)، وقد واجهت أعماله حينها معارضة شديدة، فقد كان
علم تاريخ الأديان في بداية نشوئه^(١)، وقد ذكر بعض الباحثين أن علماء الغرب قد
توصّلوا - بعد التنقيب والفحص والموازنة - إلى أن العقائد من قبيل التجسد والفداء
وغيرهما، قد بُنيت على أسس وثنية قديمة^(٢)، وقد بين بعض علماء التاريخ والآثار
في أوروبا أن عقيدة الفداء هي عقيدة وثنية محضّة، سرت إلى النصوص المسيحية عن
طريق الوثنيين أنفسهم، وقد نقل بعض المفسرين كلاماً عن (دوان) يصور فيه أن
الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة قديم العهد جداً، يعود
إلى الهنود الوثنيين وغيرهم^(٣)، وقد سرد صوراً من تلك الأساطير العجيبة!^(٤)، وقد
نُقل أيضاً أن ديانة (متراس) الأسطورية قد توغّلت في عقيدة الخلاص، وهي ديانة
فارسية الأصل، وقد نزحت إلى روما، وانتشرت في بلاد الرومان، ومن جملة أصولها
أن (متراس) كان وسيطاً بين الله والبشر، وأنه مات ليخلص البشر من خطاياهم^(٥).

وفي هذا المضمار يقول (ولسون): «وقد يكون أيضاً أن قناعات بولس هذه تعزّزت

(١) أنظر: نايتون، أندريه، الأصول الوثنية للمسيحية: ص ١٥.

(٢) أنظر: التنير البيروتي، محمد بن طاهر، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية: ص ٢٥ (مقدمة
المحقّق).

(٣) أنظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): ج ٦، ص ٢٧-٢٨.

(٤) للاطلاع على تقاليد الأقسام السابقة فيما يتصل بذبح الفداء عن الخطيئة أنظر: التنير البيروتي، محمد

ابن طاهر، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية: ص ٧٤-٨٢.

(٥) أنظر: شلبي، أحمد، مقارنة الأديان المسيحية: ص ١٨١-١٨٢.

بسبب الممارسات السائدة في العالم الروماني الإغريقي في عصره، فهو قد نشأ وعاش في عالم يعجّ بالآلهة الإغريقية من الطراز الذي يصادفه المرء في ملحمة هومر... فلا بدّ أنّ بولس في طرسوس كان يشاهد سنوياً - ومنذ نعومة أظفاره - الجموع الهستيرية التواقّة لغسيل خطاياها، وهي تهتف لمخلصها نصف الإله هراكليس، حاملة تمثاله الضخم عبر شوارع المدينة، وأنّ بولس بعدما نشأ وترعرع في هذا الوسط الوثني اكتسب من القناعة والأمل أنّه يمكن للبشر بكلّ ما فيهم من آثام أن يغسلوا خطاياهم بدم مخلص ما، تماماً كما اعتقد الوثنيون في طرسوس^(١). ويقول (ول ديورانت): «ولعلّه تذكّر السنّة اليهودية والوثنية، سنّة التضحية الفدائية للتكفير عن خطايا الناس»^(٢).

ومنّه يظهر أنّ الأجواء الفكرية في ذلك العصر كانت مؤاتية للحركة التبشيرية نحو الفداء، وأنّ الفكرة مستساغة ومعقولة جدّاً في أذهان سكّان تلك البلاد، وهكذا نجح بولس في تحويل أساطير الإغريق إلى نظريات لاهوتية^(٣).

ومّا يدلّ على إعجاز القرآن الكريم إبحاؤه إلى تلك الجذور الوثنية التي استندت إليها ظاهرة الفداء؛ وهي حقيقة كشف عنها النصّ القرآني قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وذلك في سياق الحديث عن عقيدة اليهود والنصارى في عزير والمسيح، فيقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ...﴾^(٤)، والمضاهاة: مشاكلة الشيء الشيء^(٥)، فقوله تعالى: ﴿يُضَاهِئُونَ

(١) الزين، محمد فاروق، المسيحية والإسلام والاستشراق: ص ١٣٧-١٣٨. نقلاً عن: Wilson.122
PMA p.26. وأنظر: ديورانت، ول، قصّة الحضارة: ج ١١، ص ٢٦٣-٢٦٥. وأنظر: خليل،

إبراهيم، محمد في التوراة والإنجيل والقرآن: ص ٩٥-٩٧.

(٢) ديورانت، ول، قصّة الحضارة: ج ١١، ص ٢٦٤.

(٣) الزين، محمد فاروق، المسيحية والإسلام والاستشراق: ص ١٣٨.

(٤) التوبة: آية ٣٠.

(٥) أنظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين: ج ٤، ص ٧٠.

قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ... ﴿١﴾ يُنْبِئُ عَنْ أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا يَشَاكِلُ قَوْلَ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ الْكَافِرَةِ، وَهُمْ الْوَثْنِيُّونَ^(١).

ثمَّ إِنَّ هَذِهِ الْمَشَاكِلَةَ - فِي الْحَقِيقَةِ - هِيَ مَشَاكِلَةٌ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةُ وَالْهَيْئَةُ؛ إِذْ يَشْتَرِكُ هَؤُلَاءِ مَعَ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ مِنَ الْوَثْنِيِّينَ بِجَعْلِ وَصْفِ رَفِيعٍ لِلْفَادِي، لِتَحَقُّقِ مَفْهُومِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ مَنْصِبِهِ وَبَيْنَ عَظَمِ جَرَائِمِ الْمَفْدَى، الْأَمْرَ الَّذِي كَشَفَ بَطْلَانَهُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ صَرِيحاً، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾^(٢).

وعلى هذا الأساس؛ فإنَّ عقيدة الفداء لا يتأتَّى فهمها - كلَّ الفهم - ما لم نعرف جذورها الوثنية، فقد أخذت الوثنية قسطاً وافراً منها، وعلينا أن نقبل بواقع هذا التأثير، ومنه يصحَّ القول: بأنَّ هذه التعاليم قد وضعت المؤمنين بها على طريق الميثولوجيات القديمة.

المطلب الثالث: حيز النظرية في فضاء الفكر الشيعي

قد عرفنا ممَّا سبق كيف تبلورت هذه النظرية في التعاليم المسيحية لتصبح من أهمِّ الأصول التي قامت عليها منذ زمن بولس وحتى يومنا هذا، وعندما نتكلَّم عن نظرية بهذا المستوى من التصوير الممزوج بنكهة أسطورية، يقع السؤال الآتي: يا ترى ما هي حقيقة القول: بأنَّ عقيدة الفداء قد سرى مفعولها إلى الفكر الشيعي مع فارق يسير يتجلَّى في كون الفادي لدى الشيعة هو الحسين عليه السلام؟ وعلى فرض صحَّة هذه الدعوى فما هي المساحة التي تشغلها هذه النظرية في فضاء الفكر الشيعي؟ وبعبارة أخرى: هل يوجد حقيقة من الشيعة من يؤمن بأنَّ دم الحسين عليه السلام وشهادته تُعدُّ كفارةً لذنوب شيعته؟

(١) أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج٩، ص ٢٤٤.

(٢) النساء: آية ١٥٧.

في صدد الإجابة عن هذه التساؤلات نقول: إنَّ الفكر الشيعي يتمثل بمجموعة من العناصر المستوحاة من النصوص الدينية المعتبرة، والأحكام العقلية القطعية، وما اجتمعت عليه الطائفة أو اشتُهر بينهم، وما خرج عن هذا الإطار وخالف ذلك المنهج العام فهو لا يعدو كونه رأياً خاصاً قابلاً للبحث والنقاش حتّى يأخذ مكانه بين تلك العناصر الأصيلة، أو يبقى رأياً غريباً لا يصحّ جعله عنصراً من عناصر مجموعة القضايا الدينية لدى الشيعة الإمامية.

ومن خلال مطالعة بعض النصوص المتعلقة بالنهضة الحسينية، وكتب المقاتل المتأخّرة، يمكن أن نلمس للقراءة الميثولوجية لعاشوراء حضوراً في الساحة الفكرية بعد القرن الحادي عشر الهجري، وهي رؤية لا تكاد تشغل حيّزاً معتدلاً به في فضاء الفكر المدرسي الشيعي، وقد برزت في بعض كلمات مجموعة محدّدة من العلماء كان أبرزهم الشيخ النراقي في كتابه (محرّق القلوب)^(١).

وتوثيقاً لهذه الدعوى نقرأ ما صرّح به السيّد أحمد المستنبط (١٣٢٥-١٤٠٠ هـ) في نهاية الباب الخامس من كتابه (القطرة) ما نصّه: «وقد ورد أنّ شهادته عليه السلام كانت عوضاً عن ذنوب شيعته، ووقاية لهم من النار»^(٢)؛ الأمر الذي يؤكّد أنّ هذه العقيدة قد أمست واحدة من النظريات التي طُرحت في الأوساط الفكرية على بساط البحث عند الحديث عن فلسفة النهضة الحسينية وأهدافها.

وتماشياً مع الأمانة العلمية نحاول أن ندرج بإيجاز بعض كلمات العلماء التي تدلّ أو توحي إلى القول بهذه النظرية:

(١) لعلّ الذي يبرّز اسم الشيخ النراقي عند الحديث عن هذه النظرية هو مكانته العلمية، فقد اشتُهر عنه مؤلّفات عديدة في الفقه، والأصول، والأخلاق، وغيرها، وترجمته الذاتية والعلمية ترشد إلى كونه كذلك، الأمر الذي دفع ببعض المحقّقين إلى التشكيك بنسبة كتاب (محرّق القلوب) إليه، وقد احتمل بعض آخر أنّه ألّف كتابه هذا في بداية تحصيله العلمي.

(٢) المستنبط، أحمد، القطرة من بحار مناقب النبي والعترة: ج ١، ص ٣١٢.

١- الشيخ مهدي النراقي (١١٢٨-١٢٠٩هـ)

ذكر الشيخ النراقي في مقدّمة كتابه (محرّق القلوب)^(١) كلاماً يوحي إلى اعتقاده بنظرية الفداء، فقد ذكر ما ترجمته^(٢): «بما أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان طالباً لأعلى مراتب السعادة، وطالباً للمجاهدة والرياضة في سبيل الله، فله القابلية أن يرفع الترسّبات وآثار السيئات عن جميع النفوس المتّحدة معه، أي: نفوس شيعته ومحبيه، وأن يكون ذلك سبباً للوصول إلى الشفاعة الكبرى التي تقتضي استخلاص جميع المحبّين والموالين. وبما أنّ أعظم المجاهدات وأصعب الرياضات تؤدّي إلى أعظم الدرجات، ومقتضى ذلك هو الموت في سبيل الله من أجل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل (وهو الشهادة بعينها)؛ لذا رضي بالشهادة لتكون له هذه المرتبة، ومن دون الشهادة لا يتأتّى له الوصول إلى تلك المرتبة؛ لأنّ رفع كدورات معاصي الأئمة وشفاعته موقوف على حزنه وتألمه»^(٣).

ثمّ أكّد في ختام مقدّمة كتابه على مسألة التناسب الطردي بين الألم والخلاص الذي قامت عليه نظريته في الغفران، فقال ما ترجمته: «حتّى يعلم المحبّون وشيعة أهل البيت أنّه كلّما كان تألمهم وحزنهم على مصيبة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله أكثر، وكان بكائهم والنياحة على محنتهم أكثر، كان اتحادهم مع سيّد الشهداء أوثق، ووصولهم إلى الشفاعة العظمى أقرب»^(٤).

ولتأكيد البعد الغفراني في فلسفة النهضة الحسينية ذكر الشيخ النراقي قبل ذلك في مقدّمة كتابه حديثاً ذكر أنّه قد روي بسند معتبر عن الإمام الصادق عليه السلام، حاصله: أنّ الله تعالى عوّض الحسين عليه السلام من قتله بأربع خصال: كون الإمامة في ذريته، والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء تحت قبّته، وعدم احتساب أيّام زيارته من أعمار

(١) كتاب ألفه باللغة الفارسية في تاريخ ومصائب أهل البيت عليهم السلام.

(٢) ترجمة الباحث.

(٣) النراقي، محمد مهدي، محرّق القلوب: ص ٣٠-٣١.

(٤) المصدر السابق: ص ٣١.

زوّاره^(١)، وقد ذكر الشيخ النراقي في تفسير الفقرة الأخيرة من الحديث ما ترجمته: «أي: إنّ حفظة الأعمال في تلك الأيام لا يكتبون معاصي أولئك الزوّار»^(٢).

والذي يساعد عليه ظاهر اللفظ أنّ عمر زائر الحسين عليه السلام يزيد الله سبحانه بقدر أيام زيارته، ولا قرينة تدلّ على إرادة المعنى الذي ذكره النراقي، بل إنّ الدليل العقلي والشرعي قائم على خلافه، وقد ذكر الحرّ العاملي أنّ هذا المعنى - عدم احتساب المعاصي - محمول على المجاز، والحقيقة هي المقدّمة مع الإمكان، وذكر تفصيلاً عن معنى الزيادة في العمر لا يسع المقام لذكره^(٣).

٢- الملا عبد الرحيم الإصفهاني (كان حياً سنة ١٢٨٦هـ)

وقد نسب له اعتقاده بهذه النظرية أيضاً، فقد ذكر عند شرحه لهذه العبارة من زيارة الأربعين: «أشهد أنّك من دعائم الدين، وأركان المسلمين، ومَعْقِلَ الْمُؤْمِنِينَ»^(٤) أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو عاقلة المؤمنين، وفسّر كلمة (معقل) بالعاقلة التي تعني في الاصطلاح الفقهي: أهل القتال الذين يتحمّلون الدية عنه في مورد القتل غير المتعمّد^(٥)، والنتيجة التي توصل إليها الملا الإصفهاني هي أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد

(١) يظهر أنّ الشيخ النراقي قد ذكر هذا الحديث بالمضمون، وقد ورد الحديث في (أمالي الشيخ الطوسي: ص ٣١٧) مسنداً عن محمد بن مسلم بهذه الألفاظ، قال: «سمعت أبا جعفر وجعفر ابن محمد عليهما السلام يقولان: إنّ الله تعالى عوّض الحسين عليه السلام من قتله أن جعل الإمامة في ذريته، والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء عند قبره، ولا تُعدّ أيام زائريه جائياً وراجعاً من عمره»، ورواه مرسلأً الشيخ الطبري في (بشارة المصطفى: ص ٣٢٧)، وكذلك الشيخ الطبرسي في (إعلام الوري: ج ١، ص ٤٣١)، وقد ورد بمضمون الفقرة الأخيرة من الحديث ما رواه ابن قولويه في (كامل الزيارات: ص ٢٦٠) عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنّ أيام زائري الحسين عليه السلام لا تُحسب من أعمارهم، ولا تُعدّ من آجالهم»، ورواه الشيخ الطوسي في (التهذيب: ج ٦، ص ٤٣) هكذا: «إنّ أيام زائري الحسين بن علي عليه السلام لا تُعدّ من آجالهم»، ومثله الشيخ المفيد في كتابه (المزار: ص ٣٢).

(٢) النراقي، محمد مهدي، محرق القلوب: ص ٢٧.

(٣) أنظر: الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، الفوائد الطوسية: ص ٤٦٠-٤٦٣.

(٤) الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهدّد: ص ٧٨٩.

(٥) أنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، الخلاف: ج ٥، ص ٢٦٩.

رضي في عالم الذرّ بالشهادة هو وأبناؤه، وأسّر أهله وعياله؛ من أجل أن يُغفر لشيئته ومحبيّه، فكانه عليه السلام حمل على عاتقه أخطاء جميع المخطئين من المؤمنين والمحبيّين^(١).

٣- الميرزا محمد باقر شريف الطباطبائي (١٢٣٩-١٣١٩هـ)

وقد نُقل عنه في كتابه (أسرار شهادة آل الله) ما مضمونه: من المعلوم أن الإمام عليه السلام مستجاب الدعوة، فلو أراد عليه السلام أن يلعن أعداءه كي ينزل العذاب عليهم قبل أن يصلوا إليه - يقوم عاد وشمود - لدعا الله بذلك، حتّى يُهلكهم عن بكرة أبيهم، إلّا أنّه أراد أن يُقتل لكي يجزع عليه المؤمنون من الأوّلين والآخرين، ويبكوه وينحبوا عليه.. حتّى يكون بكائهم وحزنهم كفّارة لذنوبهم، وهذا البكاء والحزن لا يتأتّى من دون شهادة إنسانٍ كالإمام الحسين عليه السلام. وعليه؛ فإنّ شهادة ذلك الإنسان العظيم تُعدّ كفّارة لجميع المذنبين^(٢).

٤- الشيخ حبيب الله الكاشاني (١٢٦٢-١٣٤٠هـ)

ذكر الملا الكاشاني في المجلس الأوّل من كتابه (تذكرة الشهداء) مشهداً صوّر من خلاله كيفية أخذ ميثاق الفداء من الإمام الحسين عليه السلام في عالم الذرّ، وأنّ الإمام الحسين عليه السلام هو وحده تقبّل أن يتحمّل كلّ مقدمات الفداء من أجل تحقّق الغفران، فيما توقّفت عن تقبّل ذلك جميع الخلائق، بعد أن نادى بهم منادي الحقّ ثلاث مرّات، «فلم يُجب أحدٌ إلّا صاحب القبا المطرّز بالدماء، في صحرا كربلا، الإمام أبي عبد الله عليه السلام، فقال: يا إلهي، أنا أحمل هذا العبء، وأنجز هذا العمل، أي: إنّني أقدم في سبيلك الروح والمال والعيال والأولاد، وأتحمّل كلّ المحن والبلاء، وأفتدي هؤلاء المذنبين، فلا يدخلوا جهنّم... فأخذ ربّ الأرباب ميثاقاً منه، وكتب الميثاق في صحيفة... ثمّ نادى منادي

(١) أنظر: اسفنديار، محمد، عاشورا شناسي (فارسي): ص ٧٨-٨٠.

(٢) أنظر: المصدر السابق: ص ٧٧. نقلاً عن شريف طباطبائي، محمد باقر، أسرار شهادة آل الله

(صلوات الله عليهم): ص ١٣٣-١٣٤.

الحقّ: يا معاشر الخلق... هذا الحسين بن علي اشتراكم مني بنفسه وماله وولده وعياله، فأحبّوه وأعزّوه»^(١).

ثمّ ختم مجلسه الأوّل بكلام جاء فيه: «وبالجملة، إنّ واقعة صحراء كربلاء كانت تفصيلاً لما خطّه قلم القدرة الإلهية في صحيفة الميثاق الربانية في عالم الذرّ، وختمها جميع الأنبياء والأولياء، وجعل الله جميع أولئك شهوداً على أنّ أوّل قطرة من دم نحر الحسين إذا أُرقيت على الأرض غفر الله بها ذنوب شيعة»^(٢).

هذه أقوال العلماء الذين تدلّ كلماتهم على كون عاشوراء مشروعاً من أجل التكفير والغفران، فالنهضة الحسينية - حسبها تقدّم - هي عبارة عن عملية فداية تآطرت بحدود معيّنة تفرض على الفادي نمطاً خاصاً من الفعل يتناسب طردياً مع ثقل خطايا البشر الذين يربطهم مع الفادي نوع اتّحاد، وذلك من خلال تفاعلهم مع آلامه ومقتله، فكما أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان هادفاً إلى الوصول إلى مرتبة عليا تمكّنه من أن يستخلص شيعة ومواليه من آثار المعاصي والسيئات، ولا يتأتّى له ذلك إلّا بآلامه ومقتله، كذلك كان لزاماً على شيعة أن يقابلوا ذلك الألم بالألم؛ ليتحقّق جانب الاتحاد بشكل أوّثق، ويكون طريقهم للنجاة هو الأقرب.

نظرية الفداء والمخيال الشعبي

إنّ المخيال الشعبي لدى الشيعة عن نهضة عاشوراء لا ينفك عمّا رسمه الفكر الشيعي من كون عاشوراء مشروعاً لأجل الإصلاح، وهو ما ينبغي أن يكون كذلك. نعم، ربّما نسمع بعض الخطابات التي تصدر من منابع مؤثّرة نوعاً ما - بحكم ما تملكه من تمظهر علمي - تصوّر للمتلقّي أنّ عاشوراء هي مشروع من أجل الغفران. وجزء ذلك تأثرت بعض الشرائح الاجتماعية بذلك تأثراً بالغاً، ومن جملتهم

(١) الكاشاني، حبيب الله، تذكرة الشهداء: ج ١، ص ١٦-١٧. علماً أنّ الملا الكاشاني لم يسند ما نقله من قصّة عالم الذرّ إلى مصدر بعينه.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٤.

بعض الشعراء، ممّا انعكس على نشاطهم الأدبي، إذ شاركوا في تسويق هذه الفكرة على نطاق المجتمع الحسيني من حيث لا يشعرون؛ الأمر الذي حدا ببعض المستشرقين ومَن تأثر بهم من الكتاب المسلمين إلى إسقاط هذه النظرية على الفكر الشيعي، وتميرها على أنّها عقيدة أساسية عند الشيعة، تتجلى معالمها بشكل أوضح من خلال طقوسهم الدينية وشعائرهم الحسينية، ومن ذلك ما قاله المستشرق الألماني المعاصر (هاينس هالم): «في شعائر جلد الذات يرتبط التكفير عن الذنب والاستعداد لتحمل الألم ارتباطاً وثيقاً من بعضهما البعض، وهما يشكلان النواة الحقيقية للتدين الشيعي، فالشيعي الخاطيء يستحقّ الموت، والموت وحده قادر على تحريره من خطيئته»^(١).

ويؤكّد أحد الكتاب المعاصرين هذه الفكرة عند بيانه لهدف التعزية، ولكنه يتوسّع كثيراً في حدود الغفران، ليقول: «فالهدف منها - إذاً - هو إقامة احتفالية مأسوية؛ لاستعادة ذكرى الحسين في كربلاء وآله معه، وكذلك كلّ ما لحقه من أئمة، وذلك للتأكيد على قيمة الحسين وآله في الوجدان الاجتماعي، فالحسين يتعدّى كونه قتيلاً كربلاء، حفيد النبي، إلى كونه متحملاً ذنب البشر، فهو بمقتله أو بموافقة على قتله تحمّل ذنب العالم أجمع»^(٢).

وتعقيباً على هذا، فإنّ فكرة الفداء - كما ذكرنا سابقاً - لا تعدو كونها فكرة محدودة جداً على نطاق الفكر الشيعي المدرسي، ويقابلها نظريات معروفة ومشهورة تطرقت إليها بعض الدراسات الخاصّة بفلسفة النهضة، وقد برزت في كلمات كبار علماء الشيعة ومفكرّهم.

ومنه يتوجّه النقد العلمي إلى هؤلاء المستشرقين ومَن حدا حدوهم بأن عباراتهم لا تعدو كونها إسقاطات فكرية لقراءات انتقائية، أرادوا من خلالها صياغة عقيدة الفداء وبلورتها على أنّها عقيدة أساسية في الفكر الشيعي، الأمر الذي يخالف

(١) هالم، هاينس، الشيعة: ص ٧٩.

(٢) لاشين، أحمد، كربلاء بين الأسطورة والتاريخ: ص ٣١٠.

الموضوعية والأمانة العلمية التي ينبغي للباحث التحلي بها، فإن الإنصاف العلمي يقتضي عند دراسة أي ظاهرة دينية أن تؤخذ بنظر الاعتبار ظواهر دينية دخلانية أخرى، لها مساس مباشر أو غير مباشرة بالظاهرة محلّ البحث، فالدين عبارة عن منظومة متكاملة من المعارف الإلهية الوحيانية، ولا يصحّ على الإطلاق أن نفسّر ظاهرة معيّنة بمعزل عن ظواهر أخرى ذات صلة، خصوصاً إذا كان البحث يتّصل بأمّهات المسائل الدينية وأصولها، الأمر الذي يمثل حالة من التوازن المعرفي في منظومة الأحكام الدينية، التي لا يمكن الاستغناء عنها في فهم النصوص الدينية.

والذي ينبغي التنبيه عليه أن رجحان الحزن والبكاء والتأمّل على سيّد الشهداء عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، ممّا لا شكّ في ثبوته على لسان النصوص الروائية، فإن إقامة الشعائر الحسينية الثابتة شرعاً - ومن جملتها الحزن والبكاء والزيارة وغيرها - هي جزء من منظومة القضايا الدينية، ولا يمكن أن تنفكّ عنها في فضاء الفكر المدرسي الشيعي، إلا أن ذلك لا يبرّر القول بنظرية الفداء ومقولة الألم الخلاصي في الإسلام، وذلك بلحاظ كون هذه الشعائر لا تقتصر حقيقتها والحكمة من تشريعها على مجرد الألم بما هو كذلك، وإنما تتعدّى حدود ذلك لتعبّر عن حركة مستمرة ونهضة دائمة يقودها مجتمع الحسين عليه السلام للتعبير عن تمسّكه بأدبيات النهضة الراضية لكلّ مظاهر الظلم والفساد والانحراف.

وعليه؛ فإنّ ما ذكر من أحاديث عن أهل البيت عليهم السلام تؤكّد على مرغوبة البكاء والحزن على سيّد الشهداء عليه السلام لا ينسف ما جاءنا عنهم من الأحكام الشرعية والمعايير الأخلاقية والأسس العقدية، التي لا بدّ أن يلتزم بها المكلف لينال بذلك سعادة الدنيا والآخرة، فالبكاء والحزن وإقامة الشعائر كلّها داخله ضمن منظومة دينية متماسكة، لا ينفي بعضها البعض الآخر في طريق تكامل الإنسان وسموّه وخلاصه الأبدي.

ومن هذا المنطلق، يمكننا القول: إنّ هذه النظرية قد وقع الخلط فيها بين أهداف النهضة وبين آثارها، كما أنّ حوادث النهضة ووقائعها وكلمات قائدها عليه السلام ترشدنا

إلى أن النهضة لم تخرج عن سياق الدعوة إلى الإصلاح، وتقويم الانحراف، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإقامة العدل، ومقارعة الظلم، وغيرها من المبادئ الدينية والإنسانية، كل ذلك بعيداً عن فضاء الميثولوجيات الغربية التي تنزهت منها مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فها هو الحسين عليه السلام ينطق بكلمات وصف من خلالها الواقع المرير الذي كان يعيشه مجتمع الدولة أبان حركته المباركة قائلاً: «وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتتكّرت، وأدبر معروفها، واستمرت جداً، فلم يبقَ منها إلاّ صباغة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أنّ الحقّ لا يُعمل به، وأنّ الباطل لا يُنْهَى عنه»^(١).

وبعبارة أخرى: من المؤكّد أنّ هناك مراسم حسينية قد نشأت في حاضنة النصوص الدينية، إلاّ أنّ تفسيرها وبيان فلسفتها قد اعتمد - أحياناً - على أساس أسطوري ميثولوجي أبعدها عن حقيقتها الدينية، يختلف ذلك التفسير تمام الاختلاف عن الصورة التي رسم معالمها النصّ الديني والتاريخي؛ الأمر الذي أدخل بدوره عناصر غريبة في دائرة (المقدّس) لا تضيفي على النهضة وشعائرها رونقاً وبهاء ملحوظاً؛ وبذلك ينبغي العمل على إخراجها وتفكيكها بأليات فكرية ومعرفية، ليبقى ذلك المقدّس مشعاً بنوره على مدى الأزمنة والعصور، وما هو دخيل في ذلك يجب ذلك السطوع، ويكدر صفوته، ويكون عائقاً أحياناً عن ظهوره بشكله الواقعي.

وبعد كلّ هذا العرض الذي حاولنا من خلاله بيان هذه النظرية في فضاءات متعدّدة، نتحوّل إلى البحث النقدي الذي سنقتصر فيه على الأدوات القرآنية، وسيكون نصيب هذا القسم بيان القاعدة القرآنية الأساسية في الخلاص، رجاء أن نكمل البحث في القسم اللاحق إن شاء الله تعالى.

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٠٥. وأنظر: الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير: ج ٣، ص ١١٤-١١٥. وأيضاً: ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٤، ص ٢١٧.

المطلب الرابع: القاعدة القرآنية الأساسية في الخلاص

إنّ الكلام عن القاعدة الأساسية للخلاص في القرآن الكريم يدفعنا إلى الحديث عن موضوعين أساسيين:

أولاً: الخلاص حاصل الفعل الإنساني

قد نظر القرآن الكريم بشكل جلي لا يحتمل معه الشك والترديد لإثبات النظرية الإسلامية في الخلاص، فقد زخرت آياته الكريمة بمفاهيم من قبيل: النجاة، الفوز، الفلاح، التكفير والغفران، وإذا أمعنا النظر في الآيات القرآنية الكريمة نصل إلى نتيجة مفادها أنّ الخلاص الأخروي هو حاصل الفعل الإنساني، ولا وجود لما يُسمّى بعقيدة الفداء أو الكفّارة، ومنه تتجلى القاعدة القرآنية الأساسية - فيما يتصل بالخلاص - في أنّ النفس الإنسانية رهينة العمل والكسب، يقول تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(١)، ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(٢)، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٣)، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَفَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾^(٤).

وما يعمق هذه القاعدة الأساسية النفیّ الوارد في كثير من الآيات القرآنية لجميع الوسائط والأسباب التي تعارف عليها الناس في قضاء حوائجهم، ودفع الضرر عنهم في الحياة الدنيا، ومنها: الفدية، والقراية، والمصادقة، وغيرها، يقول تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْتَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ﴾^(٥)، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفِيعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ

(١) المدثر: آية ٣٨.

(٢) الطور: آية ٢١.

(٣) النجم: آية ٣٩.

(٤) النجم: آية ٣١.

(٥) البقرة: آية ٢٥٤.

مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ»^(١)، ﴿يَوْمَ لَا يُعْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٢)،
﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٣).

وقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم القمي: «قال الصادق عليه السلام: لا يتقدم يوم القيامة أحد إلا بالأعمال؛ والدليل على ذلك قول رسول الله ﷺ: يا أيها الناس، إن العربية ليست بأب وجد، وإنما هو لسان ناطق، فمن تكلم به فهو عربي، ألا إنكم ولد آدم، وآدم من تراب، والله، لعبد حبشي حين أطاع الله خيرٌ من سيد قرشي عصى الله، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم؛ والدليل على ذلك قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ * فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ، يعني: بالأعمال الحسنة، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، قال: من الأعمال الحسنة، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾^(٤).

وحاصل ذلك أن الإنسان يجيء وحده يوم القيامة وهو أعزل من كل شيء إلا العمل الصالح، ولا فاعلية تذكر لأي سبب من الأسباب إلا ما خرج بدليل قطعي، كما في مورد الشفاعة، فإن ظاهر نفي الشفاعة مطلقاً في طائفة من الآيات لا ينافي ثبوتها في الجملة بالنسبة إلى المؤمنين؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(٥). كما أن التحقيق يرشدنا إلى وقوع الاختلاف بين الفداء والشفاعة على مستوى المفهوم، وما يؤيد ذلك الاختلاف عطف أحد المفهومين على الآخر في آيات متعددة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٦)، وقد فسّر العدل بالفدية، أي: من قبل أن يأتي يوم لا

(١) البقرة: آية ٤٨.

(٢) الدخان: آية ٤١.

(٣) المؤمنون: آية ١٠١.

(٤) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج ٢، ص ٩٤.

(٥) الأنبياء: آية ٢٨.

(٦) البقرة: آية ٤٨.

فداء تفدون به نفوسكم من عذاب الله^(١)، والشفاعة هي الواسطة في المؤاخذة على ما سيأتي تقريره في القسم الثاني من هذه الدراسة.

وعند مطالعتنا لبعض الأسفار نرى أنّ هناك موقفاً يوازي بكلّ وضوح ما نُظّر إليه من كون الخلاص لا يأتي إلّا من الفداء، وهذا الموقف يتجلّى في كون التبرير لا يكون إلّا بالعمل، وهذا ما يدفعنا كذلك إلى وضع علامة استفهام على القول: بأنّ الفداء أصل إنجيلي بامتياز! فقد ورد في رسالة يعقوب قوله: «ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحد: إنّ له إيماناً، ولكن ليس له أعمال، هل يقدر الإيمان أن يُخلّصه؟... ولكن هل تريد أن تعلم أيها الإنسان الباطل أنّ الإيمان بدون أعمال ميّت؟! ألم يتبرّر إبراهيم أبونا بالأعمال...؟! وبالأعمال أكمل الإيمان... ترون إذاً أنّه بالأعمال يتبرّر الإنسان لا بالإيمان وحده... لأنّه كما أنّ الجسد بدون روح ميّت، هكذا الإيمان أيضاً بدون أعمال ميّت»^(٢).

ومّا تقدّم يتجلّى لنا أنّ العقاب والثواب في الرؤية القرآنية يدور مدار الفعل الإنساني، وذلك بلحاظ كون حقيقة النفس الإنسانية قائمة على قوى متعدّدة: عقلية، وشهوية، وغضبية، والبعد العملي في حياة الإنسان يمثّل في حدّ ذاته نتيجة تلك القوى وانفعالاتها، فإذا كانت القوّة العاقلة «هي مبدأ الفكر والتمييز والشوق إلى النظر في الحقائق والتأمّل في الدقائق»^(٣)، والقوّة الغضبية «هي مبدأ الغضب والجرأة لدفع المضار والإقدام على الأهوال»^(٤)، والقوّة الشهوية «هي مبدأ طلب الشهوة واللذات من المآكل والمشرب والمناكح، وسائر الملاذ البدنية، والشهوات الحسيّة»^(٥)، فكلّ ذلك يعدّ منطلقاً

(١) أنظر: الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٦، ص ٢٢١. وأيضاً: الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن: ج ٦، ص ٢٩٦.

(٢) رسالة يعقوب: ٢/١٤-٢٦.

(٣) البحراني، يوسف، الحدائق الناظرة: ج ١٠، ص ١٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

لتشكيل معتقدات الفرد وأفعاله وسلوكياته وتكوين شخصيته في إطار أيديولوجي وثقافي معين.

ومن هنا جاءت التعاليم الدينية بشكل عام قائمة على هدف أساسي، وهو تنظيم حياة الإنسان، وتعديل قوى النفس، وتقويم أفعالها؛ كي لا يغلب بعضها على بعض، فيقهره أو يبطله جرأ تلك الغلبة، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(١). فمن خلال العدل والقسط يأخذ المجتمع طريقه نحو الكمال والفضيلة، فالفضيلة البشرية هي تعديل قوى النفس الإنسانية، والسيطرة عليها، وتسييرها بين طرفي الإفراط والتفريط.

ثانياً: نفي مقولة «تحمل الذنب بالنيابة»

يتجلى العدل والحكمة الإلهية في النصّ القرآني بنفي تحميل الذنب على شخص بالنيابة عن الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَاِزْرَهُ وَنَزَرُ أُخْرَى﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَاِزْرَهُ وَنَزَرُ أُخْرَى﴾^(٣)، أي: لا تحمل آثمة إثم أخرى، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾^(٤)، أي: وإن تدع مثقلة بالآثام غيرها لتحمل عنها بعض الإثم لا يُحمل عنها شيئاً من آثامها، وإن كان أقرب الناس إليها، ولو تحمّلت لم يُقبل تحمّلها؛ لما فيه من مجانبة العدل، ومنافاته له^(٥).

ثم إن تأكيد القرآن الكريم هذه القاعدة يبنى بوجود عقيدة ما قد توغّلت بشكل ملحوظ في عقول بعض الأقسام، أو أوشكت أن تكون كذلك، توحى إلى الاعتقاد

(١) الحديد: آية ٢٥.

(٢) الأنعام: آية ١٦٤.

(٣) الإسراء: آية ١٥.

(٤) فاطر: آية ١٨.

(٥) أنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن: ج ٨، ص ٤٢٢.

الساذج بأن الخطيئة يمكن تحميلها أو تحملها، وقد نُقل أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: اتبعنا، وعلينا وزرك إن كان خطأ، فأنزل الله الآية ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بِنِيَّ رِبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا...﴾^(١)، وقد تأصلت هذه العقيدة بشكل مدرسي عند المجبرة في اعتقادهم أن الأبناء يؤخذون بذنوب آبائهم!^(٢)، وفي كل ما تقدم من الآيات دلالة على فساد قولهم هذا.

ثم إن هذه القاعدة - نفي تحمل الذنب بالنيابة - قد تجذرت في الديانات السابقة أيضاً، ولم تقتصر على الرؤية الإسلامية وحسب، وهذا ما أنبأ به القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَبْتَأِ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَا نَزَرُ وَإِرْزَ وَزَرًا * أُخْرَىٰ﴾^(٣).

ولعل هناك من ينقض هذا البحث بإيراد شبهة مفادها: إذا كانت القاعدة الأساسية في القرآن تستدعي نفي تحمل الذنب بالوكالة، فما بالكم بأن هناك من يحمل فوق ذنوبه ذنوب غيره من الناس، كما يقول تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَ مَا يَزِرُونَ﴾^(٤)؟

والجواب عن ذلك: أن هذا التحميل ليس بخارج عما تم الحديث عنه آنفاً، وذلك بلحاظ أن هذه الفئة من الناس - وهم المضللون - كانوا سبباً في انحراف هؤلاء التابعين، وفي واقع الأمر أنهم يتحملون الذنب مركباً، ذنباً على إضلالهم الآخرين، وذنباً على ما ترتب من آثار ذلك الانحراف، ففي الحقيقة أن التابع لسنة سيئة لم يفعل السيئة وحده، بل فعلها هو وفعلها المتبوع كذلك، فالمعصية معصيتان في واقع الأمر، ونتيجة ذلك محصلة من كون الفعل قد وصل إلى مرحلة من التأثيم تستدعي حصول هذه المؤاخذة، فهي من قبيل من أعان ظالماً على ظلمه، فهو شريك له في معصيته.

(١) أنظر: المصدر السابق: ج ٤، ص ٣٣٧.

(٢) أنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ١، ص ٤٧٨.

(٣) النجم: آية ٣٦-٣٨.

(٤) النحل: آية ٢٥.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَخْرِبُهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا نَعْلَمُونَ﴾^(١)، فأثبت لكل من المتبوعين وتابعيهم الضعف من العذاب، أما المتبوعون فلضلالهم وإضلالهم، وأما التابعون فلضلالهم وإقامتهم أمر متبوعيهم بالتبعية^(٢).

ولعلَّ هناك مَنْ يوجِّه هذا البحث بالقول: بأنَّ هؤلاء المضلِّين خارجون عن هذه القاعدة تخصيماً، ولكن الصحيح - عند التأمل قليلاً - أن هؤلاء وأمثالهم من مصاديق القاعدة القرآنية الأساسية، ولا وجه للقول بخروجهم عن حكمها بالاستثناء والتخصيص كما تمَّ بيانه.

ثمَّ إنَّ هذا الحكم ليس بغريب عن أجواء الممارسات العقلانية والعرفية في المجتمعات الإنسانية بشكل عام، فإنَّ سيرة العقلاء جارية على التشديد في بعض الأعمال الجنائية، وذلك بمؤاخذة المفسدين بجميع ما يترتب على عملهم من المفساد والأضرار، سواء الاجتماعية منها أم غيرها، فبحسب الاعتبار العقلي فإنَّ صاحب السنَّة السيئة يؤاخذ بما يتناسب تناسباً طردياً مع فعله هذا؛ لذلك فهو يؤاخذ عليها كما يؤاخذ الفاعلون بها بشكل مباشر، فكلُّ ذلك يُعدُّ تنبيهاً اجتماعياً يستسيغه العقل الذي يتحرَّك في فضاء الحكمة الإلهية.

خاتمة

في خاتمة هذا القسم من المناسب أن نبرِّز بعض الأمور المتصلة بهذه الدراسة: أولاً: من خلال ما تقدّم يمكن القول: إنَّ الخطيئة إذا ما أحدثت حاجزاً روحياً ومعنوياً يفصل الإنسان عن الله تعالى، فهو نفسه - أي: الإنسان - قادر على أن يرفعه، بعدما كان هذا الحاجز من صناعته هو بالذات، وهذا يخالف ما تمَّ تأسيسه في نظرية

(١) الأعراف: آية ٣٨.

(٢) أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢، ص ١٧٨.

الفداء من كون الخطيئة حاجزاً استطاع الإنسان أن يقيمه، لكنه لم يستطع أن يتغلب عليه، فلا يحيص من ذلك إلا التبرير بواسطة فداء من نوع ثقيل. وعليه؛ فالتبرير - على هذه العقيدة - لم يُنظر إليه إطلاقاً من كونه فعلاً بشرياً تهذيباً.

ثانياً: أن نظرية الفداء بمفهومه الميثولوجي تعدّ محفزاً خطيراً لتنامي ظاهرة العصيان، وصناعة الإغراء والتجزي، وإنتاج الجمود الفكري، وترسيخ الخمول الأخلاقي والعزوف الديني في مجتمعاتنا البشرية، فالفداء لا طريق له للمصالحة بين الخالق والمخلوق! إذ كيف يتأتى لنا أن نتصوّر مفهوماً إيجابياً لتلك المصالحة في ظل عملية الفداء؟! فإن الابتعاد عن التعاليم الوحيانية وانهايار المعايير القيمية، وانزلاق البشرية في وحل المادية الحسّية، لمؤثر خطير ينبى بفشل التنظير الفكري الذي قام على أسس انحسرت في ضوئها مبادئ العقل والفطرة الإنسانية.

ثالثاً: إذا أمعنا النظر في التصوير القانوني لنظرية الفداء، نرى أن الخطيئة مشكلة ملحة تتصل بالخالق، وليست هي مشكلة الإنسان! ولعلّ هذا التصوير يعكس وجود صراع بين العدل والرحمة، فالعدل يدفع إلى تفعيل جانب المساءلة والعقوبة، والرحمة تدفع نحو الغفران والنجاة؛ وعليه أصبح الفداء طريقاً للمصالحة بين عدل الله ورحمته كما تصوّره هذه النظرية.

إلا أن القرآن الكريم قد أعطى تصويراً متقناً لهذه المعادلة، وهو أن الرحمة الإلهية لا تتحقق بمعزل عن العدل الإلهي، أي: في الوقت الذي تتجلّى فيه الرحمة الإلهية بكونها تسع كل شيء: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١)، يبرز لنا مفهوم العدل الإلهي تمام البروز ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾^(٢)، وهذا يدفع إلى القول: بأن الرحمة الإلهية كذلك لا تنفك عن العمل والإيمان وذلك بتذليل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ

(١) الإعراف: آية ١٥٦.

(٢) إبراهيم: آية ٤٢.

يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الرِّكَوَةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾، وقوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٢﴾.

إنَّ الرحمة الإلهية - بنظرة قرآنية - فيض إلهي على عباده، وهذا متوقَّف على انتفاء المانع من تحقُّقها يوم الحساب، ومن أعظم موانع الخلاص هي الذنوب والمعاصي، من دون استدراكها بتوبة نصوح.

رابعاً: أنَّ النظرية الفدائية لعاشوراء تصيِّر لنا المشروع الحسيني على أنَّه مشروع للخلاص على الطريقة الميثولوجية للأمم السابقة، الأمر الذي يتصادم مع مشروع الخلاص الذي تعكسه النصوص الدينية، وعلى رأسها النصَّ القرآني، ذلك المشروع القائم على أساس العمل الصالح، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (٣).

خامساً: أنَّ هذه الدراسة - في حقيقتها - رسالة لمن يريد أن يسوق هذه النظرية في أجواء الفكر الشيعي، ذلك الفكر الذي حمل القيم الإسلامية العليا والمبادئ السامية، كيف يمكنه أن يستقبل تلك النظرية الغريبة في ظلِّ تلك الترسانة الكبيرة من التعاليم والقوانين الشرعية التي تتناقض مع رؤية الكفَّارة بمفهومها الميثولوجي المعقَّد؟! فذلك التفسير الذي آمن به العقل المسيحي تعبداً بعد أن صعب تفسيره على أساسٍ منطقي وفلسفي، كيف له أن يصمد أمام تلك المعارف الدينية والأسس العقلية؟! ثمَّ إنَّ الاعتماد على جملة من النصوص - وظواهر اجتماعية سيء فهمها - من دون دراسة علمية شاملة أوقع بعض الباحثين في منحدر القراءات الانتقائية، حتَّى أودى به الأمر أن ينسب ما توصل إليه بآليات لا تتفق معه عليها إلى كون الفداء عقيدة أساسية عند الشيعة الإمامية، تنعكس بشكل جليٍّ في إقامة شعائرهم الدينية.

(١) الأعراف: آية ١٥٦.

(٢) الجاثية: آية ٣٠.

(٣) النجم: آية ٣١.

سادساً: بعد أن كانت القوانين الإلهية تتمثل في حد ذاتها طريقاً نحو استقامة النوع الإنساني والسير به نحو الكمال، فإنّ تشريع العقوبة على مخالفة الإلزامات وفعل المحضورات لا يعني أنّ طريق العود إلى الله قد أُغلق بالمخالفة على نحو الإطلاق، فإنّ الرحمة الإلهية اقتضت جواز الرجوع والانضمام إلى دائرة الخلاص بواسطة عوامل أخرى، سيأتي بحثها في القسم الثاني، ولا يمكننا الخروج عن دائرة النصوص الدينية والأحكام العقلية بإضافة وسائل أخرى وتسويقها في مجال البحث وجعلها مصداقاً من مصاديق الرحمة الإلهية في الوقت الذي تتصادم فيه مع كثير من المبادئ والأصول الدينية.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- ١ - أديان العالم، هوستن سميث، تعريب: سعد رستم، دار الجسور الثقافية، حلب، الطبعة الثالثة، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
- ٢ - أسرار شهادة آل الله (صلوات الله عليهم)، محمد باقر الشريف طباطبائي، الناشر: بينا، مشهد، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ٣ - الأصول الوثنية للمسيحية.. الحلقة الرابعة من سلسلة (من أجل الحقيقة)، أندريه نايتون وآخرون، ترجمة: سميرة عزمي الزين، منشورات: المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.
- ٤ - إعلام الوري بأعلام الهدى، الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٥ - الأُمّ الخلاصي (رسالة البابا يوحنا بولس الثاني الرسولية إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكية جمعاء وكهنتها وعائلاتها الرهبانية ومؤمنّيها في المعنى المسيحي للألام البشرية)، أُعطي في روما بتاريخ ١١ / ٢ / ١٩٨٤م.

٦ - الأمالي، محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، دار الثقافة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٧ - بشارة المصطفى ﷺ لشيعته المرتضى عليه السلام، عماد الدين محمد بن أبي القاسم الطبري (ت ٥٢٥هـ)، تحقيق: جواد القيومي الإصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٨ - تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، راجعه وصحّحه وضبطه: نخبة من العلماء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

٩ - تاريخ مدينة دمشق، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١٠ - التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العملي، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١١ - تذكرة الشهداء، حبيب الله الشريف الكاشاني (ت ١٣٤٠هـ)، ترجمة وتحقيق: السيّد علي جمال أشرف، الناشر: مؤسسة مدين، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.

١٢ - التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، ضبطه وصحّحه: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٣ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٤ - تفسير القمّي، علي بن إبراهيم القمي (ت نحو ٣٢٩هـ)، منشورات مكتبة الهدى، صحّحه وعلّق عليه وقدم له: السيّد طيّب الموسوي الجزائري، مطبعة النجف، ١٣٨٧هـ.

- ١٥ - التفسير الكبير (تفسير الرازي)، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ١٦ - تهذيب الأحكام، محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، حقّقه وعلّق عليه: السيّد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الثالثة، ١٣٦٤ش.
- ١٧ - جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تقديم: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- ١٨ - الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، يوسف البحراني (ت ١١٨٦هـ)، حقّقه وعلّق عليه: محمد تقّي الأيرواني، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
- ١٩ - الخلاف، محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤٠٧هـ.
- ٢٠ - رسالة الفادي (رسالة جامعة للبابا يوحنا بولس الثاني في الصلاحية الدائمة للدعوة الإرسالية)، أعطي في روما بتاريخ ٧/١٢/١٩٩٠م.
- ٢١ - الرؤية الأرثوذكسية للإنسان (الأنثروبولوجيا الصوفية)، عدنان طرابلسي، منشورات: النور، بيروت - لبنان، ١٩٨٩م.
- ٢٢ - الشيعة، هاينس هالم، ترجمة: محمود كيبسو، شركة الوراق للنشر المحدودة، بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
- ٢٣ - عاشورا شناسي (پژوهشی در باره هدف امام حسین)، محمد اسفندياري، الناشر: ني، طهران، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.ش.
- ٢٤ - العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد بن طاهر التنير البيروتي، تحقيق: د. محمد عبد الله الشرفاوي، دار الصحوة للنشر، القاهرة.
- ٢٥ - عيون أخبار الرضا، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القميّ (ت ٣٨١هـ)، صحّحه

وقدّم له وعلّق عليه: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٢٦ - الفوائد الطوسية، محمد بن الحسن العاملي (ت ١١٠٤هـ)، علّق عليه وصحّحه: السيّد مهدي اللازوردي، والشيخ محمد درودي، قم، ١٤٠٣هـ.

٢٧ - قصّة الإنسان حول الخطيئة والخلّاص، الأب متى المسكين (ت ٢٠٠٦م)، مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النظرون، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

٢٨ - قصّة الحضارة، ول وايريل ديورانت (ت ١٩٨١م)، المجلّد الحادي عشر، ترجمة: محمد بدران، الناشر: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع.

٢٩ - القطرة من بحار مناقب النبي والعترة، أحمد المستنبت (ت ١٤٠٠هـ)، انتشارات ذوي القربى، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ١٣٨٢هـ. ش.

٣٠ - كامل الزيارات، جعفر بن محمد بن قولويه القمّي (ت ٣٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ جواد القيومي (لجنة التحقيق)، الناشر: مؤسّسة نشر الفقاهة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٣١ - كتاب الخصال، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (ت ٣٨١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، قم المقدّسة، ١٤٠٣هـ / ١٣٦٢هـ. ش.

٣٢ - كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الناشر: مؤسّسة دار الهجرة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

٣٣ - كربلاء بين الأسطورة والتاريخ (دراسة في الوعي الشعبي الإيراني)، أحمد لاشين، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٣٤ - مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحقّقين الاختصاصيين، تقديم: السيّد محسن الأمين العاملي، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

٣٥- محرق القلوب: غم های جانسوز در تاریخ ومصیبت های أهل بیت عليهم السلام (فارسي)، محمد مهدي بن أبي ذر النراقي (ت ١٢٠٩هـ)، برعاية: علي نظري منفرد، انتشارات سرور، قم، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.ش.

٣٦- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد، دار المنار، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٣٧- المزار، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: السيد محمد باقر الأبطحي، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٣٨- المسيحية (سلسلة مقارنة الأديان)، د. أحمد شلبي، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٨م.

٣٩- المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق فارس الزين، دار الفكر، دمشق - سورية، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

٤٠- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، حققه وخرّج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية مزينة ومنقّحة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٤١- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، مركز النشر: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ.

٤٢- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفّة.

المجلات

٤٣- الخلاص بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس، رودلف بني، مجلّة الرسالة، تصدرها جمعية الدراسات القبطية، نيوجرزي - أمريكا، السنة العاشرة، العدد ٧، سبتمبر ١٩٩١م.

المواقع الإلكترونية

- ٤٤ - إنجيل يوحنا، [/https://st-takla.org](https://st-takla.org)، موقع الأنبا تكلا هيمنوت القبطي الأرثوذكسي.
- ٤٥ - الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس، [/https://st-takla.org](https://st-takla.org)، موقع الأنبا تكلا هيمنوت القبطي الأرثوذكسي.
- ٤٦ - رسالة يعقوب، [/https://st-takla.org](https://st-takla.org)، موقع الأنبا تكلا هيمنوت القبطي الأرثوذكسي.
- ٤٧ - رسالة يوحنا الأولى، [/https://st-takla.org](https://st-takla.org)، موقع الأنبا تكلا هيمنوت القبطي الأرثوذكسي.
- ٤٨ - سفر أشعياء، [/https://st-takla.org](https://st-takla.org)، موقع الأنبا تكلا هيمنوت القبطي الأرثوذكسي.
- ٤٩ - سفر أعمال الرسل، [/https://st-takla.org](https://st-takla.org)، موقع الأنبا تكلا هيمنوت القبطي الأرثوذكسي.

احتجاج الإمام الحسين عليه السلام بالقرآن الكريم

دراسة دلالية

د. الشيخ عبد المجيد فرج الله*

مقدمة

أمام التراث الإسلامي الديني الحضاري الضخم الذي بين أيدينا، نجد أننا - ومع توسع مجالات الالتقاطات المعرفية والحفريات الفكرية - نمتلك فرصاً جديدة ثرة، تعمق انتماءنا لمنظومتنا في العقيدة الولائية الحقة، على صعيد ديني، وتجعلنا في قطب التمرکز الحضاري العالمي على صعيد آخر.

ومع أن هذه ليست بديلاً عن كل الذي نمتلكه من رصيد في ثقافتنا الدينية، لكنّها تصلح أن تكون رديفاً له، ومتعشقة به، وهي تزيد التفكير فكرةً، والإيمان إيماناً، والاستيقان يقيناً، بل تجعلنا متواصلين مع المحيط المعرفي الإنساني من خلال مسلمات الدراسات المعاصرة، التي أخذت أبعاداً مهمّة في السبر والتوغّل، وقطعت أشواطاً طويلةً في الكينونة الثقافية، والضرورة البحثية.

ومن ضمن هذا نجد في الدراسات الدلالية إثراءً جديداً يدعم رصيدنا المحكم من عقيدتنا الحقة؛ في إمامة سادتنا أهل بيت رسول الله محمد صلّى الله عليه وآله، وهذا الإثراء له جدّته المعاصرة من جهة، وطريقته في الإلفات إلى بؤر التقاط مفعمة بالدلالات، من جهة ثانية.

ومن خلال الدراسة الدلالية نكتشف المغازي العميقة لكثير من النصوص

الدينية^(١) التي غبّشت فهمها الآراء المذهبية، والتمحلات الطائفية، والتكلفات العقدية.

فلو بحثنا - مثلاً دلاليًا - في جذور كارثة النفاق التي راح ضحيتها الإمام الحسين وأهل بيته الكرام (عليه وعليهم السلام)، وطبقنا أقوال أشخاص بعينهم، واستقصينا مواقفهم وأفعالهم، في حقول التطبيق الدلالي للنفاق.. لأفصحت الكاشفية الدلالية دون تردد عن اتصاف جماعة به منذ أواخر أيام وجود النبي الأكرم ﷺ وخاصة في (رزية الخميس) وما تلاها، وسيكونون مفضوحين عندنا - دلاليًا - إلى حدّ اليقين، مع كل طرقهم النفاقية في التخفي والتوري، وعلى الرغم من كل محاولات أتباعهم في التزوير والتبرير، والتحريف والتجديف!

لذا؛ من خلال العالم الدلالي المُثري يمكن أن نتج فهماً تحديدياً، وسبراً تجديدياً، وتفسيراً تطبيقياً، واستقراءً توثيقياً، في التأمل الموضوعي المجرد بآيات النفاق في القرآن الكريم، فنعرف المنافقين بأسمائهم وشخصهم، حتى وإن وقف تاريخ السواد الأعظم من المسلمين عاجزاً عن تحديد أسماء الذين ارتكبوا جريمة النفاق، ممّن عاشوا في زمن رسول الله محمد ﷺ.

أما كيف تأتت لنا هذه القدرة الخارقة على التمييز والتحديد والتشخيص، وبكل ثقة ويقين؟

فهذا؛ بسبب ما توفره لنا الحقول الدلالية من تحديد لا يقبل الشك والتردد، في كل مجال من مجالاتها، بما في ذلك الدلالة الصوتية^(٢)، ونحن نتابع أياً من شخوص

(١) بما أنّ الحقل الدلالي يضم مجموعة من الكلمات المرتبطة في الدلالات، فستتكوّن من مجموع الحقول الدلالية في هذه المجالات الدينية شبكة ممتدة وقد تكون متشابكة، تعطينا إثراءً علمياً مهماً؛ لأنّه يتناول أطيافاً واسعة من المعارف والعلوم والثقافات التي تلتقي متنافرةً أو متضافرةً في مصب الدين، لتكون المحصلة النهائية أعمق في الفهم الديني، والوعي المعرفي.

(٢) وقد تألق العالم الموسوعي الشيعي الشيخ ابن جني رحمه الله، في التفاته إلى تقارب المعاني نتيجة تقارب جرس الأصوات، أي: وضع الألفاظ على صورة مناسبة لمعانيها. أنظر: حيدر، فريد عوض، علم الدلالة.. دراسة نظرية وتطبيقية: ص ٢٨.

التاريخ الإسلامي، بالتتبع الدلالي لكل أقواله، وأفعاله، وأفكاره، ومواقفه، بل حتى نبرة صوته، وإشاراته.

ويبدو لي أن حادثة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام لا تزال ساحةً بكرًا أمام الباحثين في العلوم المعاصرة، بكل ما رافقها من أحداث ومواقف لكل من حرك الواقع في ذلك الأوان، أو استطاع أن يحرك واقع الوعي والتلقي من أوانها الموهل في عمق التاريخ، وإلى زماننا هذا، وما تتلوه من أزمنة لا تجد أجيالها مناصاً عن التأثر بها، أو التعاطي معها.

ومن أجل التوضيح الدلالي، والربط التطبيقي - على سبيل المثال لا الحصر - نجد من الأهمية القصوى أن نعرف الدلالة القوية جداً في ربط النبي محمد صلى الله عليه وآله كتاب الله بعترته أهل بيته، وأئمة لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض^(١)، وما اقترب من هذا الوصف والتصوير فيما يتصل بأخيه ووصيه أول العترة سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام، من قبيل: «علي مع القرآن والقرآن مع علي»^(٢)، أو «حسين ممتي وأنا من حسين»^(٣)،

(١) هذا الحديث رواه محدثو المسلمين، وعده من الأحاديث الصحيحة كبار علماء أبناء السنة والجماعة وأئمة مشايخهم، وأثبتوه في أمهات مصادر الحديث النبوي، منهم: النيسابوري، مسلم، صحيح مسلم: ج ٧، ص ١٢٣. الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي: ج ٥، ص ٣٢٨. الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن، سنن الدارمي: ج ٢، ص ٤٣٢. البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى: ج ٧، ص ٣٠. ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج ٣، ص ١٤، وص ١٧، وص ٢٦، وص ٥٩. ج ٥، ص ١٨١. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين: ج ٣، ص ١٠٩. النسائي، أحمد بن الحسين، سنن النسائي: ج ٥، ص ٤٥، وص ٥١، وص ١٣٠. وفي ترجيح ذلك أنظر: الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة: ج ٤، ص ٣٥٥، تحت الرقم (١٧٦١)، وغيرها العشرات من المصادر، والآلاف من المراجع والدراسات والبحوث.

(٢) رواه جمع من كبار علماء أبناء السنة ومشايخهم، وقد صححه الحاكم النيسابوري قائلاً: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. هذا حديث صحيح الإسناد، وأبو سعيد التيمي هو عقيصاء، ثقة مأمون، ولم يجزّاه». الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين: ج ٣، ص ١٣٤.

(٣) هذا الحديث ذكرته مئات المصادر والمراجع من كتب المسلمين، ومنها: البخاري، محمد بن

الذي يدخل في صلب بحثنا هذا، ثم الانطلاق من هذه اللحظة الزمانية معرفياً ببحوث دلالية تضع حداً للتجزؤ والابتسار اللذين طغيا على الذهنيات المذهبية، والاختناقات الطائفية، التي عانى منها العقل العربي المكبل بعبادة الأشخاص، ووثنية الارتباط بمن تسلط وحكم، وبالتنمر على كل من ناضل فقتل.

إنّ الحقل الدلالي^(١) بكلّ تفاصيله اقتداره - المستمدّ من قوى (الترادف)، و(الاشتغال)، و(الجزئية والكلية)، والمتابعة الدقيقة لشحنات (التضاد)، و(التنافر) - ينبغي أن يُفعل في تحليل الذهنية العربية من زوايا العقيدة الإسلامية تارة، ومن نقاط تشكّل القناعات المرتبطة بفهم دين الإسلام تارة ثانية.

نعم، لو تمّ تفعيل هذا المنحى الدلالي بروح موضوعية بحثية لأعاننا كثيراً في ردم الهوة؛ بإعطاء الكلمة الفصل فيما يخصّ أشخاصاً بعينهم تمحور حول تفضيلهم ووجوب أتباعهم أكثر الجدل بين المسلمين، فتفرّقوا شيعاً، وتنافروا أحزاباً، وتدابحوا (عدواناً)، بدلاً من أن يتفاهموا (إخواناً). خاصّةً وأننا نجتمع تحت مظلة دلالية للغة القرآن المجيد، تلك اللغة التي ترفل بالإعجاز البياني القرآني الندي، والإيجاز الأدبي البلاغي الجميل، والإنجاز التعبيري والتصويري النابض^(٢).

إسماعيل، صحيح الأدب المفرد: ج ١، ص ١٥٣. الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي: ج ٥، ص ٦٥٨. ابن ماجة، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة: ج ١، ص ٥١. الطبراني، سليمان بن محمد، المعجم الكبير: ج ٢٢، ص ٢٧٤. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين: ج ٣، ص ١٩٤. ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج ٤، ص ١٧٢. وغيرهم كثير.

(١) الحقل الدلالي: هو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع بآداة تحت لفظ عام يجمعها، مثال ذلك كلمة الألوان في اللغة العربية، فهي تقع تحت المصطلح العام (لون) وتضمّ ألفاظاً مثل: أحمر، أزرق، أصفر، أبيض، وغيرها. أنظر: عمر، أحمد مختار، كتاب علم الدلالة: ص ٧٩.

(٢) للباحث طه عبد الرحمن نظرة في قواعد الأصل اللغوي، ضمن الكيفيات التي تكون بها اللغة العربية (أبلغ) من سواها، يؤكد في ثلاث قواعد مهمّة جداً، هي قاعدة الإعجاز، أي: التسليم بأنّ اللسان العربي استعمل في القرآن الكريم بوجوه من التأليف، وطرق الخطاب، يعجز الناطقون عن الإتيان بمثله دائماً. وقاعدة الإنجاز، أي: الالتزام بإنشاء الكلام جارياً على أساليب العرب

وفيا يَخَصُّ موضوع الدراسة، التي تستحقُّ أن تُشيع بحثاً في كتاب ضخّم، سأحاول أن أختصر كثيراً من تفاصيل الحُقول الدلالية، لأكبس المادّة البحثية في عمومات المجال الدلالي المُفصّل عن مكنونات استدلالية ناعمة، أو نائية، حتّى نخرج بنتائج بحث يفتح مجالاً معرفياً واسعاً، ومداراً فكرياً هائلاً وإن كانت دائرة ارتباطه الأولى متمحورة باحتجاج الإمام الحسين عليه السلام بالقرآن الكريم (له أكمل الخلود والدوام)، حتّى كأننا نرى القرآن رأي العين متجسّداً بشخص الإمام الحسين عليه السلام، كما نسمع الإمام الحسين عليه السلام ملء السمع يُتلى بكلمات القرآن الكريم!

وهذا الفهم ليس قفزاً على البحث الدلالي، بل هو متمخّص عنه، أو منسجم معه بوتائر عالية؛ خاصّة وأنّ البحث الدلالي المعاصر بدأ ينظر في العلاقات المتقاربة لكلّ ما هو منتمٍ إلى دائرة معرفية ما، بدلالات الألفاظ والإشارات والإيحاءات، حتّى باتت الشوارد اللغوية القديمة - مثلاً - مادّة مهمّة في البحث الدلالي اللغوي واللساني المعاصر، لوجود وجوه تشابه بين الجهود العربية العلمية في البحث عن الشوارد اللغوية، وبين الحُقول الدلالية المعروفة في اللسانيات الحديثة، وقام بعض من علماء اللغة بإنشاء رسائل مستقلة تحمل الواحدة منها في طياتها المفردات المنتمية إلى موضوع واحد^(١)، لينفتح من خلال ذلك مجال واسع من البحث العلمي الدلالي.. فكيف إذا كانت المفردات القرآنية، ودلالات الوحي، وإيحاءات الغيب مقصودة في كلام سادتنا المعصومين عليهم السلام بتمام القصد؟ بل ويبقون إلى آخر المطاف وهم يتعاطون بروح العصمة مع كلّ المواقف والنوائب، فإذا بالعصمة تتجسّد في كلّ شيء يصدر من المعصوم، بما في ذلك أنّه كسر الأضلاع، وآهة شخب دماء الأوداج!

وعاداتهم في التبليغ. وقاعدة الإيجاز، أي: اختصار في العبارة وتأدية المقاصد. أنظر: عبد الرحمن، طه، أصول الحوار وتجديد علم الكلام: ص ٩٩.

(١) يؤكد الباحث أحمد عزوز على الجهود العربية العلمية في البحث عن الشوارد اللغوية، وبين الحُقول الدلالية المعروفة في اللسانيات الحديثة، ليجعل من ذلك دليلاً أو مؤيداً على أصالة البحث الدلالي عند العرب، كما في كتابه (نشأة الدراسة الدلالية العربية وتطورها): ص ١٧٢.

آثار العصمة على الوعي دلاليًا

من الموضوعية أن نقول: إنّ الجهود العلمية العربية الإسلامية كان أسُّها الأساس هو التأثير بالآثار العلمية الأدبية التي وصلت مرويةً عن سيّدنا رسول الله وآله الكرام (عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام)، باعتبارها مادةً أولى مكانةً وقدمًا بعد القرآن، في التأصيل المعرفي الذي تلا فعلاً؛ وبهذا يكون التأسيس الدلالي علمياً وعملياً قد تقوم بنتاج سادتنا المعصومين عليهم السلام، وهو نتاج مؤسس على الفكر القرآني كفكر ممتدّ، وعلى المعاني القرآنية، وألفاظ القرآن، كمعانٍ سامية، وألفاظ دالة. ومن هنا ينبغي لنا أن نفهم آثار الإمام الحسين عليه السلام المترجمة للقرآن المجيد، كقيمة دينية مثلى، وكضرورة حضارية قصوى، وبرؤية دلالية أثرى.

الحسين قرآن يتلى

ليس هذا عنواناً أملاه خيال منبهر به، بل هو حقّ حقيق لمن تملّى فيه، فالقيمة الدلالية لكلّ أقواله وأفعاله ومواقفه ومطالبه وقناعاته، كلّها قرآنية ١٠٠٪. وحتى يكون كلامنا موضوعياً محايداً، لا عاطفياً متعاطفاً، سنأخذ عيّنات تطبيقية، ضمن حقول محددة:

الحضور القرآني الاقتباسي والتناصي في كلامه عليه السلام

إذا أتينا إلى الانتماء الدلالي بين كلام الإمام الحسين عليه السلام وكلام ربّنا العظيم في قرآنه الكريم، نجد بكلّ وضوح تمام التوائم والتمازج، وكامل الانتماء والانميّات بين هذا الكلام وذاك، وكأتهما ينبوعان صافيان من منبع واحد، مع إعطاء المتّهلّين منهجاً حياتياً إسعادياً متكاملًا.

إنّنا نجد القرآن المجيد حاضرًا في كلّ كلام الإمام، سواء بالاقتباس والتضمين، أم بإعطاء فكر قرآني يتمحور حديثه حوله؛ ليكون الفهم الواعي من خلال رؤية

قرآنية جالية، وليصير التثقيف الرصين من نماء الذكر الحكيم نفسه. وأفعال الإمام هي كأقواله في هذا الصدد، وكلاهما (الأقوال والأفعال) انعكاس تام للفكر الحسيني القرآني، الذي حمله وعبأ، وحركة، وبوحاً.

وكشاهد على ذلك خطابه الرصين حين دعا الحسين عليه السلام براحلته فركبها ونادى بأعلى صوته: «أيها الناس، اسمعوا قولي، ولا تعجلوني، حتى أعظكم بما يحق (لحق) لكم علي، وحتى أعذر (أعتذر) إليكم (من مقدمي عليكم)، فإن (قبلتم عذري، وصدقتم قولي، و) أعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد، (ولم يكن لكم علي سبيل)، وإن (لم تقبلوا مني العذر، و) لم تعطوني النصف من أنفسكم فأجمعوا رأيكم (أمركم وشركاءكم)، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم اقصوا إلي ولا تنظرون، إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين»^(١).

فبالعودة إلى القرآن الكريم نجد روعة هذا الاقتباس القرآني والتضمين الحسيني، وبأبهى ما يكون من توائم وتناغم: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٢).

(١) هذا النص مشهور في كثير من كتب التاريخ التي تعرّض مؤلفوها إلى ذكر أحداث سنة إحدى وستين للهجرة، وما بين الأقباس على رواية الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٢٢. والنص في كتاب (الكامل في التاريخ) لابن الأثير، قريب جداً من رواية الطبري، وليس فيه سوى بعض تغيير، من قبيل: «حتى أعظكم بما يجب لكم علي»، و... وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد». ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ١٦.

(٢) يونس: آية ٧١-٧٤.



وينبغي أن لا يُنسى القصد الخفي (المحتمل) لمجمل قصّة النبي نوح في هذه الآيات القرآنية، ومعاناته، ونهاية مطاف قومه، ونهاية مطاف سفينته، ونهاية مطاف عمره، حين اختاره الإمام رمزاً للاقتباس، وشاهداً للتناصّ. وكذا ينبغي الالتفات إلى ما سبق هذه الآيات، خاصّة الآيتين الكريمتين السابقتين لها: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلِحُونَ * مَتَّعُ فِي الدُّنْيَا ثَمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^(١)، بما لهما من حزمة دلالات (زلزالية) على هذا المشهد الحسيني (الكوني)، الذي يختصر كلّ شيء في (طفّ كربلاء)!

هذا مع انطلاقة حسينية بيانية من أعذب الكلام، وصفها واصف بقوله: «ثمّ حمد الله، وأثنى عليه، وذكر الله بما هو أهله، وصلىّ على النبي ﷺ وعلى ملائكة الله وأنبيائه، فلم يُسمع مُتكلِّمٌ قطُّ قبله ولا بعده أبلغ في منطقٍ منه»^(٢).

تصاعد الخطاب .. حتى الذروة القرآنية

كذلك يأخذ الخطاب الحسيني خطّه البياني بأعلى مستويات الصعود المستمرّ، ضمن منحني التأثير المنقطع النظير (إلا النظائر التي حفظها التاريخ عن جدّه المصطفى وأبيه المرتضى وأمه الزهراء وأخيه المجتبي وأخته الحوراء وأبنائه الأئمة المعصومين الأصفياء)، والغريب ليس هذا الترابط الوثيق بين الخطاب القرآني والخطاب الحسيني وحسب؛ بل انعكاس ذلك على كلّ من يستمع كلام الإمام الحسين عليه السلام المتفتّح بالقرآن كمتفتّح الزهور بالأريج، فلا انفكّك بين الزهرة وعطرها، كما لا انفكّك بين كلام الإمام الحسين عليه السلام وكلام الله العظيم، وبأجلى التعانق الدلالي الوثيق؛ لذا كان احتجاجه بالقرآن الكريم ترجمة حيّة لكتاب الله باعتباره فرقاناً

(١) يونس: آية ٦٩-٧٠.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٦، ص ٢٤٢. أنظر: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٦١.

تطبيقاً على أرض الواقع، في أخرج لحظة من لحظات الوجود الإنساني كله، على صعيد كربلاء، التي اختصرت تاريخ الأرض وعلاقتها بالسماء!

ولذا؛ حاول أعدى أعداء الإمام أن يستفيد من هذه الوتيرة المذهلة من الاستيحاء القرآني، فقال عن نفسه الشمر بن ذي الجوشن: «هو يعبد الله على حرفٍ إن كان يدري (ما تقول)»^(١). وهنا يبادر من معسكر الإمام الحسين عليه السلام شخص ذائب في القرآن وفي الإمام، هو حبيب بن مظهر الأسيدي، ليجيب الشمر قائلاً له: «والله، إنني لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك»^(٢).

ثم على هذا المنحى يواصل الإمام الحسين عليه السلام كلامه المشرب بروح كلام القرآن الكريم، قائلاً: «فإن كنتم في شك من هذا، أفتشكّون أنّي ابن بنت نبيكم؟! فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم، ويحكم أطلبوني بقتيل منكم قتلتة؟! أو مال لكم استهلكته؟! أو بقصاص جراحة؟!»^(٣).

ولذا؛ لم يستطع أحد مواجهة هذا المدّ الحسيني القرآني الهادر بالحقيقة، الدامغ بالحجة، المقنع لكل من ألقى السمع وهو شهيد، وقد عبّر التاريخ عن حالة أعدائه

(١) (أو: ما تقوّل، أو: ما يقول) حسب اختلاف الرويات، أو القراءات، وقد وثق الطبري هذا النص في كتابه. أنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٢٣. والنص في كتاب الكامل في التاريخ: «فقال شمر - وهو يعبد الله على حرف -: إن كان يدري ما يقول». ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٦٢. وقد سبق منّي شرح المعنى المقصود من هذه العبارة التي فيها تعقيد لفظي ومعنوي على حدّ سواء، أنظر: آليات تطوير الخطاب المنبري، مجلة الإصلاح الحسيني، العدد ٢٨، ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م: ص ٩١-٩٤.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٦، ص ٢٤٣. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٦٣، وغيرهما كثير جداً.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٢٣. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٦٣.

(بعشرات آلافهم) بجملة مختصرة جداً، لكنّها دالّة جداً: «فأخذوا لا يكلمونه»^(١).

لماذا لم يستطع أحد أن يكلمه؟ فضلاً عن أن يردّ عليه؟

إنّها الحجّة البالغة، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢). وعت

الوجوه، فما تسمع حتى همساً.

وكانت أقصى محاولة للتعتيم على الحقيقة، من عدوّ حاول أن يكسر هيمنة الإمام

على القلوب والعقول والقناعات، فقال له: «أو لا تنزل على حكم بني عمّك، فإنهم لن

يُروك إلا ما تُحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه؟»^(٣).

فكانت الكلمة المدوّية بالإباء، والناطقة بالشمم، التي أذهلت التاريخ والأجيال

معاً، وقد راح ينشدها كلّ محبّ للحسين، وكلّ حرّ أبيّ مستفيد من درسه الذي لا

يُنسى على مرّ الأعوام والقرون: «لا والله، لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أُقرُّ

إقرار العبيد»^(٤). ثمّ كانت الكلمة الحسينية القرآنية المتحدة بما لا يقبل التفكيك،

ويستحيل منها الانفكاك: «عِبَادَ اللَّهِ، إِنِّي ﴿عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونَ﴾»^(٥)، أَعُوذُ

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٢٣. وفي كتاب الكامل في التاريخ لابن

الأثير على هذا النحو: «فلم يكلموه». ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤،

ص ٦٣. وقد أكّدت مئات المصادر والمراجع التاريخية هذا بنصه أو بمعناه.

(٢) الأنعام: آية ١٤٩.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٢٣. وفي كتاب الكامل في التاريخ لابن

الأثير: «أو لا تنزل على حكم ابن عمّك - يعني ابن زياد - فإنك لن ترى إلا ما تُحبّ». ابن الأثير،

علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٦٣. والعدو القاتل هو قيس بن الأشعث، وهو

أخو أخيه الذي عرض الأمان على مسلم بن عقيل في الكوفة؛ ولذا قال له الإمام الحسين عليه السلام:

«أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟».

(٤) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٢٣. وفي كتاب الكامل في التاريخ لابن

الأثير: «ولا أُقرُّ إقرار العبد»، ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٦٣.

(٥) الدخان: آية ٢٠.

﴿ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾^(١) «^(٢)، وبأجلى ما يكون احتجاجاً بالقرآن الكريم.

وهكذا يُتَوَجَّحُ موقف من المواقف الحسينية برؤية تجمع الرضا، بل الأمر الإلهي مع المبتغى الإنساني؛ بإعلان السلام لا الاستسلام، والوثام لا الانعدام، لكن أعداءه قابلوه بالعمى، وضمّموا عن الهدى، واختاروا طريق الخزي والردى، كل هذا نستشفّه من خلال الوصف التاريخي الشديد الاختصار، العميق الدلالة: «ثمّ إنّه أناخ راحلته، وأمر عقبة بن سمرعان فعقلها، وأقبلوا يزحفون نحوه»^(٣).

تعانق الحسين والقرآن

ثمّة موقف آخر يعطينا كامل الدلالة على التعانق التامّ بين القرآن الكريم (له الخلود)، والإمام الحسين عليه السلام؛ إذ يقول التاريخ: إنّ الإمام الحسين عليه السلام جمع أصحابه، ثمّ حمد الله وأثنى عليه، وقال: «اللهمّ لك الحمد على ما علمتنا من القرآن، وفقهتنا في الدين، وأكرمنا به من قرابة رسولك محمد صلى الله عليه وآله، وجعلت لنا أسعاً وأبصاراً وأفئدة، فاجعلنا من الشاكرين...»^(٤).

وكبعد السماء عن الأرض، كان بعد أعداء الإمام عن القرآن المجيد؛ ولذا كانت قراءة الإمام الحسين لهم بأنهم (نبذة الكتاب) كاشفة عن قلب الحقيقة، فقال لهم غير مستسلم ولا هيّاب: «فبعداً وسحقاً لطواغيت هذه الأمة، وبقية الأحزاب، ونبذة

(١) غافر: آية ٢٧.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٢٣. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٦٣.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٢٣. وفي كتاب الكامل في التاريخ «ثمّ أناخ راحلته، ونزل عنها... وخرج زهير بن القين... فسبّوه وأثنوا على ابن زياد وقالوا: والله، لا نبرح حتّى نقتل صاحبك ومنّ معه». ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٦٣.

(٤) الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٣٤٩.

الكتاب، ومطفئي السنن، ومؤاخي المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عِضِينَ، وعصاة الإمام، وملحقي العهرة بالنسب، ولبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. أفهؤلاً تعضدون؟! وعنّا تتخاذلون؟!»^(١).

وهنا الربط الدلالي الكثيف، بجملة من آيات القرآن الحكيم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، في البعد الدلالي لنبذ الكتاب هذه الآية: ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهِدُوا عَهْدًا بَدَّهٖ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢). وبذلك يأخذ الاحتجاج بالقرآن منحيين رديفين؛ الأول: عملي، بحمل القرآن، ونشره، والدعوة للاحتكام إليه، والثاني: باختيار ألفاظ بعينها فيها الاستيحاء الدلالي من القرآن الكريم وإن لم يكن بالاقتباس المباشر.

وأما هذا المقطع من الآية ففي تفسيره لدى المسلمين إحالات دلالية كثيرة، لا يسع المقام هنا لسردها^(٣).

نمطان دلاليان .. علني وخفي

وكلمًا تأملنا بمزيد من النظر الاستدلالي يدهشنا هذا التحشيد المتقن للمدّ الدلالي المستقي من القرآن الكريم، وهو يزيّن الخطاب الحسيني بأمواج من الدلالة

(١) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ٢٤.

(٢) البقرة: آية ١٠٠.

(٣) نجد في الخطب الحسينية أبعاداً دلالية قرآنية، تضمّ مادة تصلح أن تكون كتاباً ضخماً؛ لذا نكتفي بهذه الإشارة السريعة، عسى أن يوفق الباحثون إلى تتبعها في القرآن الحكيم، ويقتنعوا من كتب التفسير التفاتات لمفسرين تصلح أن تكون ضمن هذا البحث الدلالي المهم. وكنواة بحثية للاتقاط الدلالي أشير إلى ما جاء في كتب التفسير من الحديث عن نقض اليهود للعهد، بتفصيلات لغوية ونحوية وصرفية، تكون مادة خصبة لإثراء الحقول الدلالية. فعلى الباحث في الحقول الدلالية، أن يستنطق تلك النصوص التفسيرية استنطاقاً دلالياً عميقاً، وعليه أن لا يغفل مقاصد الربط الدلالية بين جيش يزيد (أعداء الإمام الحسين عليه السلام) واليهود. هذه عينة واحدة من ملايين العيّنات التي حوتها ملايين الكتب المطبوعة والمخطوطة في تراثنا الضخم.

العلنية، تتبدى في طياتها أمواج لطيفة من الدلالة الخفية، في طيات طوفان الاحتجاج القوي، والموقف الصلب. وكشاهد على ذلك من ضمن شواهد كثيرة، نأخذ قول الإمام عليه السلام: «هيئات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك، ورسوله، والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، ونفوس أبيّة، وأنوف حميّة، من أن نؤثر طاعة اللثام على مصارع الكرام، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد وكثرة العدو، وخذلة الناصر»^(١). ففيه نفي الذلّ عنه عليه السلام، كدلالة علنية، وكذلك في قوله وسمّ لأعدائه بالذلة التي ضربت على اليهود من قبل، في دلالة خفية بأنهم يهود الأمة الأذلاء. وهكذا في ربط إباطه بالله ورسوله والمؤمنين، مع الإشارة لآيات الولاية لله ولرسوله وللمؤمنين بالنص أو بالمعنى، ومنها: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٢).

الإباء الحسيني المختوم بالعودة إلى القرآن

ونرى ربطاً دلاليّاً وثيقاً في الخطاب الحسيني بالقرآن الكريم، امتزاجاً، أو احتجاجاً، على شكل (قفل الذروة) إذا تمّ لي هذا الوصف، وأعني به: أن يتصاعد البيان بوتائر من الشدّ الأسر، كاستشراف الغيب مثلاً، الذي فيه طيف خفيّ من النداء القرآني البعيد، ثم يقفل الذروة التأثيرية بنص قرآني دامغ، أو غير قابل للردّ والالتفاف عليه، كما في قوله عليه السلام في آخر ساعة قبيل استشهاده: «أعلى قتلي تجتمعون؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله أسخط عليكم لقتله مني، وأيم الله، إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون، أما والله، لو قتلتموني لألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يُضاعف لكم العذاب الأليم»^(٣).

(١) ابن نما الحلي، جعفر بن محمد، مشير الأحزان: ص ٤٠.

(٢) المائدة: آية ٥٥-٥٦.

(٣) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٧٧.

وفي هذا الصدد تبرز أهمية ما ينقله الطبري عن أبي مخنف: «حدّثني سليمان بن أبي راشد، عن حميد بن مسلم، قال: سمعت الحسين يومئذٍ وهو يقول: اللهم، أمسك عنهم قطر السماء، وامنعهم بركات الأرض، اللهم، فإنّ متّعتهم إلى حين فقرّهم فرقاً، واجعلهم طرائق قِداداً، ولا تُرضِ عنهم الولاة أبداً، فإنّهم دعونا لينصرونا، فعدوا علينا فقتلونا»^(١).

الدعاء .. والتنبؤ.. ثم إلى القرآن مجدداً

وعلى هذه الوتيرة يكون دعاء المعصوم (الذي لا يُردّ) على أعدائه المجرمين، مع استشراف المستقبل الحتمي، المترشّح بأطياف دلالية عن إشارات قرآنية، يكون ختامها مع قفل الذروة القرآني. وقد روى التاريخ بعضاً من المواقف العجيبة، ومنها ما ذكره الطبري في تاريخه: «عن القاسم بن الأصبح بن نباتة، قال حدّثني من شهد الحسين في عسكره أنّ حسيناً حين غلب على عسكره، ركب المسناة يريد الفرات، قال: فقال رجل من بني أبان بن دارم: ويلكم، حولوا بينه وبين الماء لا تتأمّ إليه شيعته، قال: وضرب فرسه وأتبعه الناس حتّى حالوا بينه وبين الفرات، فقال الحسين: اللهمّ أظمه. قال: ويتنزح الأبائيّ بسهم فأثبتته في حنك الحسين. قال: فانتزع الحسين السهم، ثمّ بسط كفيه فامتلاًتاً دماً. ثمّ قال الحسين: اللهمّ، إنّني أشكو إليك ما يُفعل بابن بنت نبيك. قال: فوالله، إن مكث الرجل إلّا يسيراً حتّى صبّ الله عليه الظمّاً، فجعل لا يروى، قال القاسم بن الأصبح: لقد رأيتني فيمن يروّح عنه، والماء يُبرّد له فيه السّكر وعساس فيها اللبن، وقلال فيها الماء، وإنّه ليقول: ويلكم، اسقوني قتلي الظمّاً. فيعطى القلّة أو العسّ كان مُروياً أهل البيت فيشربه فإذا نزعه من فيه اضطجع الهنيهة ثمّ يقول: ويلكم، اسقوني قتلي الظمّاً. قال: فوالله، ما لبث إلّا يسيراً حتّى انقذ بطنه انقداد بطن البعير»^(٢).

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٤٥. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٧٧.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٤٥. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٧٧.

وكذا ما يرويه التاريخ عن دعاء الإمام: «اللهم، احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلط عليهم غلام ثقيف، فيسومهم كأساً مصبرة، فإنهم كذبونا وخذلونا، وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير»^(١). وهذا النص القرآني فيه إحالة إلى الموقف الإبراهيمي الصريح على آخر مفترق الطريق بينه وبين قومه المكذبين به: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

انتقاء اللقطة القرآنية

ونرى أيضاً في الرصد الدلالي للخطاب الحسيني التقاطات نابضة من قلب القرآن المجيد، تُوهج الصورة، وتذكي الإحساس، وتلهب الشعور، وترقق التعبير، وتعمق المعنى، فمثلاً قوله عَلَيْهِ السَّلَام: «ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبأ، وتداعيتم عليها كتهافت الفراش»^(٣)، نجد فيه صوراً متحركة، تعبّر تمام التعبير عن الحركة النفاقية المعاكسة لدى الأمة الميتة تحت سياط الجلادين، وهي تعيش الارتواء بأحضان الفتنة الأموية، أملاً في الخلاص من بطش الأمويين وإجرامهم، ولكن لا بالثورة عليهم، بل بالانتظام في صفوف قواهم الإجرامية، حتى وإن كان القصد هو قتل سيد شباب أهل الجنة. وكان الأولى بهم أن يخافوا من القارعة، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث^(٤). فاختار الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَام مفردة (الفراش) التي لم ترد في القرآن إلا مرة

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٥٦. الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَام: ج ٣، ص ٧، وغيرها من كتب مقاتل.

(٢) الممتحنة: آية ٤.

(٣) المقرّم، عبد الرزاق، مقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَام: ص ٣٣٢.

(٤) في إحالة إلى القرآن الكريم، سورة القارعة.

واحدة، وهي تعبر عن الكثرة، والحيرة، والانتشار، والانجرار، ليجعلها في قمة إجماع اللقطة التي شحنها بكلامه الصريح مع أعدائه: «تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً، أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيامكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم. فهلاً - لكم الويلات - تركتمونا والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لماً يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيّرة الدبّاء، وتداعيتم عليها كتهافت الفراش، ثم نقضتموها، فسحقاً لكم يا عبيد الأئمة، وشذاذ الأحزاب...»^(١).

ناطقية الكاشفية الدلالية

إنّ للتبّع الدلالي الدقيق في آثار الإمام الحسين عليه السلام أثراً بالغاً في فهم علاقة الإمام الشهيد بكتاب ربنا العظيم، سواء على صعيد الفهم العلمي، أم على صعيد التطبيق العملي، أم على صعيد البيان المقالي. وتدهشنا بحق هذه المنظومة المتكاملة من تلاوة القرآن حقّ تلاوته لدى إمامنا الحسين عليه السلام، بما يُنتج فهماً قرآنياً سليماً تماماً، ومنطقاً قرآنياً صادقاً تماماً، وتطبيقاً قرآنياً مخلصاً تماماً، حتّى في أعسر المواقف التي ينهار فيها الإنسان، ويخرّ على وجهه!! ولعلّ هذا الخلود الحسيني المتكامل مع الخلود القرآني، هو السرّ في نضارة الإسلام، وبقائه غضباً جديداً، لا يبلى ولا يفنى، بل يزداد نضارة وقدرة فريدة على مخاطبة أجيال البشرية جيلاً بعد جيل بروح وثابة، تفتح آفاق المستقبل رائدة للحركة الإنسانية باتجاه التكامل الأرقى المنشود، بحيث لولا الحسين لما بقي من الإسلام حتّى اسمه، ولما سلم من القرآن حتّى رسمه.

(١) المقرّم، عبد الرزاق، مقتل الحسين عليه السلام: ص ٣٣٢، وهذا النص ذكره كُتّاب المقاتل ومؤرخو أحداث مقتل الإمام الحسين عليه السلام.

وبذلك نكتشف كما أن الإمام الحسين عليه السلام كان يحتج بالقرآن الكريم لإثبات صواب خطه القويم، فإن القرآن الكريم ظل يحتج بالإمام الحسين لتظل هداية الله من خلاله إلى الصراط المستقيم.

وختاماً يمكن أن نقدّم هذا الجدول الدلالي البسيط كعيّنة للاشتغال على هذه الموضوعة البحثية الدلالية المهمّة جداً، ليتبيّن لنا دقيق احتجاج الإمام الحسين عليه السلام بالقرآن الكريم، وعميق احتجاج القرآن الكريم بالإمام الحسين عليه السلام، وبدامغ الحجّة، مع وضوح المحجّة، أمام العقل البشري على امتداد الزمان، واختلاف المكان، وتطوّر الأذهان.

| نص قرآني | نص للإمام الحسين <small>عليه السلام</small> | موقف للإمام <small>عليه السلام</small> |
|---|---|---|
| ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُنْفَسُونَ﴾ ^(١) . | يا أيها الناس، نافسوا في المكارم وسارعوا في المغايم ^(٢) . | احتضان الإمام الحسين <small>عليه السلام</small> ابن أخيه عبد الله بن الحسن، وهو صابر محتسب ^(٣) ! |

(١) المطففين: آية ٢٦.

(٢) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة: ج ٢، ص ٢٣٩.

(٣) يروي الطبري في تاريخه عن أبي مخنف موقف هذا الطفل البريء الذي لم يكن قد بلغ سنّ المراهقة، بهذا النصّ المؤلم: «جاء يشتدّ إلى الحسين، فقام إلى جنبه، قال: وقد أهوى بحر بن كعب بن عبيد الله من بني تيم الله بن ثعلبة بن عكاية إلى الحسين بالسيف، فقال الغلام: يا بن الخبيثة، أتقتل عمّي؟! فضربه بالسيف، فاتقاه الغلام بيده، فأطنّها إلى الجلدة، فإذا يده معلّقة، فنادى الغلام: يا أمّته، فأخذته الحسين فضمّه إلى صدره، وقال: يا بن أخي، اصبر على ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير، فإنّ الله يلحقك بآبائك الصالحين، برسول الله وعلي بن أبي طالب، وحزرة، وجعفر، والحسن بن علي (صلّى الله عليهم أجمعين)». الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٤٥. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٧٧. فيه بعض الاختصار.

| نص قرآني | نص للإمام الحسين <small>عليه السلام</small> | موقف للإمام <small>عليه السلام</small> |
|---|--|---|
| ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١). | إِنَّ الْعِزَّ وَالْغَنَىٰ خَرَجَا يَجُولَانِ فَلَقِيَا التَّوَكُّلَ فَاسْتَوَطْنَا (٢). | سقى جيش الحرّ الرياحي الماء بكلّ رحمة بعد أن أشرفوا على الهلاك (٣) وهو يدري أنهم قاتلوه. |
| ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٤). | اصبر على ما تكره فيما يلزمك الحق، واصبر عن ما تحبُّ فيما يدعوك إليه الهوى (٥). | في احتدام المعركة، يلتفت أحد أصحابه إلى وقت الصلاة، فيقول الإمام: سلوهم أن يكفوا عنا حتّى نصلي (٦). |

أكتفي بهذا القدر من شواهد أقوال الإمام الحسين عليه السلام الشريفة، التي لها تطابق دلالي مع أفعاله الصادقة، وهي ترجمة حقيقية مرئية للآيات القرآنية. إذ بالاطلاع على القرآن الكريم نجد دليلاً أنّ كلّ ما قاله الإمام عليه السلام، أو فعله، هو استيحاء تام، وترجمة ثانية (تطبيقية مرئية ومسموعة) لمعاني الآيات المباركة،

(١) البقرة: آية ١٧٧.

(٢) القيومي الإصفهاني، جواد، صحيفة الحسين عليه السلام: ص ٣٢٦.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٣٤. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم،

الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٧٧.

(٤) الشورى: آية ٣٦.

(٥) النوري، حسين، مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٢١٨.

(٦) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٤٤. وقد ذكر ذلك في أول سرده

أحداث سنة إحدى وستين للهجرة، قائلاً: «وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحرّ بن يزيد التميمي اليربوعي، حتّى وقف هو وخيله مقابل الحسين في حرّ الظهرية والحسين وأصحابه معتمون متقلدو أسياهم، فقال الحسين لفتيانه: اسقوا القوم واروهم من الماء ورشّفوا الخيل ترشيفاً. فقام فتياه فرشّفوا الخيل ترشيفاً، فقام فتية وسقوا القوم من الماء حتّى أروهم وأقبلوا يملؤون القصاص والأتوار والطساس من الماء ثمّ يدنونها من الفرس، فإذا عب فيه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت عنه وسقوا آخر حتّى سقوا الخيل كلّها. قال هشام: حدّثني لقيط عن علي بن الطعان

تؤكدّه وتدللّ عليه مواقفه، التي لا تختلف عن أيّ قول من أقواله، ولا تتخلف عن أية فضيلة ألمحت أو صرّحت بها آية قرآنية خالدة.

ولقد تبين لنا دقيق تفعيل كلّ قيم القرآن السامية في حياة الإمام الحسين عليه السلام، فكراً وقولاً وفعللاً، لنخرج باستنتاج عن (مرآة) الاتحاد التام بين الحسين والقرآن؛ من خلال التحليل الدلالي في كلّ أقواله، وأفعاله، بمعيارية العرض على القرآن الكريم حسينياً، والعرض على الإمام الحسين قرآنياً.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١ - الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، محمد بن محمد بن نعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع.

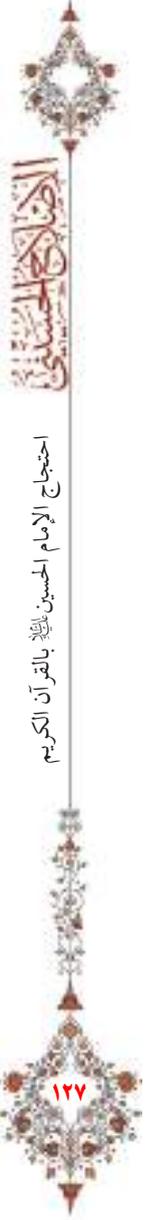
٢ - تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، صورة عن الطبعة الأولى بالطبعة الحسينية المصرية.

٣ - سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

٤ - صحيح الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة الدليل، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٥ - صحيفة الحسين عليه السلام، جواد القيومي الإصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

المحاري، كنت مع الحرّ بن يزيد فجئت في آخر من جاء من أصحابه فلمّا رأى الحسين ما بي وبفرسي من العطش قال: أنخ الراوية، والراوية عندي السقاء، ثمّ قال: ابن أخي أنخ الجمل، فأنخته. فقال: اشرب، فجعلت كلّما شربت سال الماء من السقاء. فقال الحسين: اخنث السقاء، أي: اعطفه. قال: فجعلت لا أدري كيف أفعل؟ قال: فقام الحسين فخنثه فشربت وسقيت فرسي». ابن الأثير، علي ابن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٧٧.



- ٦ - علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، فريد عوض حيدر، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ م.
- ٧ - علم الدلالة، أحمد مختار عمر، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.
- ٨ - في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، إصدار المركز الثقافي الغربي، الدار البيضاء - المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠ م.
- ٩ - الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م.
- ١٠ - كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي، دار الأضواء، بيروت - لبنان.
- ١١ - مباحث في علم الدلالة والمصطلح، أحمد صادق قنيبي، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ م.
- ١٢ - مبادئ اللسانيات، أحمد محمد قدور، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ م.
- ١٣ - محاضرات في الألسنية العامة، فردينان دي سوسور، ترجمة يوسف غازي ومجيد الناصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة.
- ١٤ - مستدرک الوسائل ومستنبط المسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
- ١٥ - مفاتيح الألسنية، جورج مونان، ترجمة: الطيب البكوش، منشورات الجديد، تونس، ١٩٨١ م.
- ١٦ - مقتل الحسين عليه السلام، السيّد عبد الرزاق المقرّم، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م.
- ١٧ - مقتل الحسين عليه السلام، الموقّق محمد بن أحمد الخوارزمي، تحقيق الشيخ محمد السماوي، الناشر أنوار الهدى، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.

مفهوم الفتح في ضوء الآيات القرآنية والخطاب الحسيني^(١)

د. الشيخ عمّار الجويبراي*

مقدمة

يُعدّ الفتح الحسيني الذي تجلّى في عرصة كربلاء من أجلّ مظاهر العظمة والشموخ في التاريخ الإسلامي، وما زاده مرور الأيام وتقدم السنين إلا أليقاً وعمقاً، ولقد غاص المؤرّخون وسبروا أعماق الوقائع التاريخية فتمكّنوا من كشف أسرارها وإزالة إبهامها حتّى بان لهم وهنها وضآلتها، لكنّهم عجزوا عن كشف أسرار ذلك الفتح الذي تحقّق في كربلاء، وبقوا حيارى في تيه أفكارهم وتصوراتهم، وأنّى لهم الإحاطة بفتح ليس هو من سنخ ما يأنسون به، ويتحرّون عنه من فتوحات الدنيا وزخارفها، فلا هو حكومة تُنال ولا هو مغنم تُحاز، وإنّما هو حقيقة تستحقّر دونها الدنيا بلذاتها الفانية وشهواتها غير الباقية.

لذا؛ نرى من الضروري عند الحديث عن النهضة الحسينية وما ترتّب عليها من ظفر وفتح مُدوّ، أن لا يجري ذلك ضمن سياق باقي الفتوحات والثورات التي حدثت في التاريخ الإسلامي؛ لأنّ ذلك سوف يستلّها من معناها الحقيقي ويسلبها ثوبها الإصلاحية السرمدي، الذي تخطّى حدود الزمان والمكان، ويؤطرها بإطار

(١) فقد ورد في كتاب له عليه السلام إلى بني هاشم: «أما بعد، فإنّ من لحق بي اسْتَشْهَدَ وَمَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِي لَمْ يُدْرِكِ الفتح». ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص ١٥٧.

* دكتوراه في العلوم الإسلامية، عضو اللجنة العلمية في موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام في مؤسّسة وراث الأنبياء.

الزمن الفاني حالها في ذلك حال باقي الفتوحات التي دُرِسَتْ معالمها وتلاشت آثارها؛ وعندها سوف يقال: إن ثورة الحسين عليه السلام عبارة عن ثورة حدثت في تاريخ كذا وانتهت في تاريخ كذا.

ولأجل الوقوف على معالم ذلك الفتح وسبر أغواره، يتوجب علينا غض الطرف عن فتوحات الدنيا ومغانمها، والتوجه إلى نهضات الأنبياء وفتوحاتهم؛ إذ إن الفتح الحسيني يمثل امتداداً لتلك النهضات الإصلاحية التي تعطلت فيها عجلة الزمان وتجاوزت حدود المكان، فبقيت نبراساً تهتدي به الأمم عبر القرون والأجيال.

وهذا ليس رأياً شخصياً أو استظهاراً لنص، بل هو إعلان وبيان من الفاتح نفسه، فقد قال: «إني لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت أطلب الإصلاح في أمة جدي محمد صلى الله عليه وآله، أريد أمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي...»^(١). فالإصلاح في الرسالة الخاتمة هو الأساس الذي يستند إليه الفتح الحسيني في تحقيق أهدافه وتطلعاته.

ومن هذا المنطلق جاء بحثنا ليسلط الضوء على أقرب المعاني لمفهوم الفتح في الفكر الحسيني في ضوء كتاب الإمام الحسين عليه السلام إلى بني هاشم، وذلك من خلال مناقشة معانيه المحتملة.

المبحث الأول: التعريف بمفردة الفتح

قبل الخوض في معنى الفتح في الفكر الحسيني، نرى من المناسب أن نتطرق إلى معناه في اللغة والاصطلاح القرآني؛ لأن ذلك أمر ضروري لاستبعاد الكثير من عوامل الاختلاف ومسبباته الناجمة عادةً عن الفهم المتباين لتلك الألفاظ والمصطلحات.

(١) الخوارزمي، الموفق محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٧٣. أنظر: ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢٤١.

أولاً: الفتح لغةً

الفتح في اللغة أصل صحيح يدلّ على خلاف الإغلاق، يُقال في الماديات: فتحت الباب - وغيره - فتحاً، وباب مفتوح: خلاف المردود والمقفل، وفتحت القناة فتحاً فجّرتها ليجري الماء فيسقي الزرع، ثمّ يحمل على هذا المعنى - المادي - سائر المعاني المعنوية، فيقال: فتح على فلان إذا أقبلت عليه الدنيا، وفتح الحاكم بين الناس فتحاً قضى فهو فاتح وفتّاح ومبالغة، وفتح السلطان البلاد: غلب عليها وتملّكها قهراً، وفتح الله على نبيّه نصره. والفتح أيضاً إزالة الإغلاق والإشكال، وفتح المستغلق من العلوم، نحو قولك: فلان فتح من العلم باباً مغلقاً، وفتح القضية فتحاً: فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها^(١).

ثانياً: الفتح اصطلاحاً

الفتح في الاصطلاح القرآني يشتمل على معان عدّة، نذكر بعضاً منها:

١- الفتح المادي، منه قوله تعالى في حقّ أصحاب النار: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾^(٢)، أي: فتحت أبواب النار ليدخل الكفار. ومثله قوله تعالى في حقّ أصحاب الجنة: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾^(٣)، أي: فتحت أبواب الجنة ليدخل المتّقون.

٢- القضاء والحكم، منه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾^(٤)، قال الشيخ

(١) أنظر: ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج ٤، ص ٤٦٩. الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة: ص ٦٩٥-٦٩٦. الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن: ص ٦٢١. الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير: ج ٢، ص ٤٦١.

(٢) الزمر: آية ٧١.

(٣) الزمر: آية ٧٣.

(٤) الفتح: آية ١.

الطبرسي: «أي: قضينا لك بالنصر»^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾^(٢)، قال الشيخ الطوسي: «أي: يحكم، والفتح الحكم، والفتاح الحاكم بالحق لا بالظلم»^(٣). وقال الفيض الكاشاني: «يحكم ويفصل بأن يدخل المحقّقين الجنّة والمبطلين النار»^(٤).

٣- النصر، منه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾^(٥) أي: «إن تستنصروا فقد جاءكم النصر»^(٦)، و«الاستفتاح: طلب النصر»^(٧). ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾^(٨)، «أي: نصر وتأيد وظفر وغنيمة»^(٩).

وقد ورد معنى النصر أيضاً في خصوص فتح مكة، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ﴾^(١٠)، والمراد بـ (الفتح) هنا: فتح مكة^(١١). ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا﴾^(١٢)، قال الطبرسي: «كان قتالان، أحدهما أفضل من الآخر، وكانت نفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كانت النفقة والقتال من قبل الفتح - فتح مكة - أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك»^(١٣).

٤- إزالة الإغلاق والإشكال، والموانع التي تقف في طريق الرسالة الخاتمة، ويدلّ

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ٩، ص ١٨٢.

(٢) سبأ: آية ٢٦.

(٣) الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن: ج ٨، ص ٣٩٥.

(٤) الفيض الكاشاني، محمد محسن، التفسير الأصفي: ج ٢، ص ١٠١٤.

(٥) الأنفال: آية ١٩.

(٦) التيمي، معمر بن المثنى، مجاز القرآن: ج ١، ص ٢٤٥.

(٧) الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير: ج ٢، ص ٢٩٦.

(٨) النساء: آية ١٤١.

(٩) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم: ج ١، ص ٥٨٠.

(١٠) المائدة: آية ٥٢.

(١١) أنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ٣، ص ٣٥٦.

(١٢) الحديد: آية ١٠.

(١٣) الطبرسي، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن: ج ٢٢، ص ٣٩٣.

عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ
بِعَمَلِهِ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(١).

قال العلامة المصطفوي في صدد تعليقه على الآية المتقدمة: المراد بالفتح هنا؛
«الفتح المطلق في مسير الرسالة وإجراء وظائف النبوة وإبلاغ الأحكام الإلهية، برفع
الموانع المادية والمعنوية وكشف المغلقات وإزالة الأسداد، ثم التقوية والنصر. فالمغفرة
وإتمام النعمة والهداية والنصر من لوازم الفتح وآثاره»^(٢).

فمن خلال التتبع في مساقات لفظ الفتح في القرآن الكريم يتضح بأنه جاء على
معنيين أساسيين: الأول؛ الفتح المادي، الذي يُعتبر الأصل لمعنى الفتح لغة، والثاني؛
الفتح المعنوي، وأكثر ما اقترن لفظ الفتح بالمعنى الأخير.
تجدر الإشارة إلى أن المعنى الأخير هو الذي يهمننا في هذا البحث، والذي من
خلاله يمكننا استجلاء معنى الفتح في الفكر الحسيني كما سيوضح لاحقاً.

المبحث الثاني: محتملات مفهوم الفتح في خطاب الإمام الحسين عليه السلام

المحتمل الأول: النصر المادي

يتحقق النصر المادي بأن يغلب أحد طرفي الصراع على الطرف الآخر بقتل
مجموعة وأسر أخرى، وحيازة مغانم، ومثاله ما حدث في غزوة بدر، فقد قتل المسلمون
سبعين من المشركين وأسروا مثلهم^(٣)، وحازوا غنائم كثيرة، وقد تحدّث القرآن
الكريم عن هذا النصر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^(٤)، وكذلك

(١) الفتح: آية ١-٢.

(٢) المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج ٩، ص ١٦.

(٣) أنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ٤، ص ٤٩٣-٤٩٤.

(٤) آل عمران: آية ١٢٣.

يَبِّينُ الكيفية التي تحقق بها هذا النصر: ﴿...فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾^(١).
ويتوقف تحقق الأهداف في هذا النوع من الصراع على الغلبة الظاهرة.

وبهذا يظهر البُعد فيما ذهب إليه العلامة المجلسي عليه السلام من أن المراد بالفتح عدم بلوغ ما يتمناه المرء من فتوح الدنيا والتمتع بها^(٢)؛ إذ كيف يستقيم الحديث عن فتوح دنيوية ومغانم، والقائد قد ذُبِحَ وقُتِلَ أهل بيته وأصحابه وسُبيت عياله، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الحسين عليه السلام نفسه نفى هذا النوع من النصر في أكثر من مناسبة؛ منها قوله عليه السلام عند خروجه من المدينة: «أما بعدُ، فإنَّ مَنْ لَحِقَ بي اسْتَشْهَد»^(٣)، وقوله عليه السلام في حوار له مع أم سلمة: «يا أمّاه والله، إنِّي لمقتول، وإنِّي لا أفرّ من القدر المقدور، والقضاء المحتوم، والأمر الواجب من الله تعالى»^(٤)، وقوله عليه السلام: «وأيم الله، لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتّى يقضوا فيّ حاجتهم، ووالله ليعتدّنّ عليّ كما اعتدت اليهود في السبت»^(٥)، وقوله عليه السلام: «والله، لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي»^(٦)، وقوله عليه السلام: «أعلم علماً أنّ من هناك مصرعي، وهناك مصارع أصحابي، لا ينجو منهم إلّا ولدي علي عليه السلام»^(٧)، فالحسين عليه السلام كان واضحاً في هذا المعنى، فلم يتحدّث عن نصر ومغانم، وصارح أصحابه في أكثر من مناسبة أنّه مقتول لا محالة وأنّ كربلاء هي مثواه الأخير.

إذاً، فما هي العلاقة بين الفتح والنصر المادي؟

- (١) الأحزاب: آية ٢٦.
- (٢) أنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٢، ص ٨١.
- (٣) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص ١٥٧.
- (٤) ابن حمزة، محمد بن علي، الثاقب في المناقب: ص ٣٣١.
- (٥) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٥، ص ٣٨٥. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٤٨.
- (٦) ابن سعد، محمد بن سعد، الطبقات (متمم الصحابة): ج ١، ص ٤٣٤. ابن عساکر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٤، ص ٢١٦.
- (٧) الطبري، محمد بن جرير، دلائل الإمامة: ص ١٠٧.

الجواب: إنَّ الفتح أوسع مفهوماً من النصر المادي وإن أُطلق على النصر المادي في اللغة فتحاً، فالفتح كما قال البلخي: «يكون في القتال وبالصلح، وبإقامة الحجج»^(١). وقد خلط بعض الصحابة بين مفهوم الفتح والنصر المادي، فاعتقد أنّها مترادفان وأنّه ما من فتح إلا وهو مقرون بنصر مادي ومغانم؛ لذا نجد أنّهم تعجّبوا عندما عبّر القرآن الكريم عن صلح الحديبية بالفتح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾^(٢)، فقال عمر بن الخطاب: «أَفْتَحْ هو يا رسول الله؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده، إنّهُ لفتح»^(٣).

فالفتح في المنظور القرآني يعني تحقّق الأهداف المبتغاة بغض النظر عن تحقّق النصر والغلبة الظاهريين. قال الزهري: «ما كان في الإسلام فتح أعظم من صلح الحديبية؛ وذلك أنّ المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكّن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام»^(٤)، وقال البراء بن عازب في السياق نفسه: «تعدّون أنّتم الفتح فتح مكّة، وقد كان فتح مكّة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»^(٥).

من خلال ما تقدّم يمكننا القول: إنّ مفهوم الفتح في الفكر الحسيني لا يعني النصر المادي والمغانم، بل هو أسمى غايةً وأرفع درجةً، ولا توجد نسبة للمفاضلة بينهما، وهذا ما أشار إليه زهير بن القين عندما تحدّث لأصحابه قائلاً: «مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَتَبَعَنِي وَإِلَّا فَإِنَّهُ آخِرَ الْعَهْدِ، إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا غَزَوْنَا بِلَنْجَرٍ»^(٦)، ففتح الله

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن: ج ٩، ص ٣١٢.

(٢) الفتح: آية ١.

(٣) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ٩، ص ١٨٤. أبو نعيم الإصبهاني،

أحمد بن عبد الله، معرفة الصحابة: ج ٥، ص ٢٥٤٤، رقم ٦١٥٤.

(٤) الواحدي النيسابوري، علي بن أحمد، التفسير البسيط: ج ٢٠، ص ٢٨٠.

(٥) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج ٢٢، ص ٢٠٢.

(٦) بَلَنْجَرٍ (بفتح الحاء) وسكون النون وجيم مفتوحة وراء) مدينة بلاد الخَزَر، قرية من البحر الأسود.

الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان: ج ١، ص ٤٨٩.

علينا وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان الباهلي^(١): أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من المغانم؟ فقلنا: نعم. فقال لنا: إذا أدركتم شباب آل محمد فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم بما أصبتم من الغنائم^(٢).

فزهير بن القين يُخبر عن فتح مُدوّ يغيّر مجرى التاريخ، ويكون أعظم من كلّ مغانم الدنيا وحطامها الفاني، وأن أبطال هذا الفتح هم شباب آل محمد وعلى رأسهم سيّد شباب أهل الجنّة، مشيراً بذلك إلى الفتح الحسيني الذي سيتحقق في عرصة كربلاء.

المحتمل الثاني: الشهادة في سبيل الله

تُعَدّ الشّهادة في سبيل الله من أنفس القربات وأبهظها ثمناً؛ إذ يقَدّم فيها المؤمن نفسه التي تُعتبر أثنى جوهرة تنطوي عليها جوانحه على الإطلاق، تقرّباً لمولاه، ودفاعاً عن دينه، وترسيخاً لمبادئه وقيمه. ومن هنا كان العوض الذي جعله البارئ عزّ وجلّ بإزائها عظيماً، فقد جعل ميراثها حياة أبدية لا صخب فيها ولا نصب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٣).

والشهيد محفوف بإجلال الله تعالى وتشريفه في مقام الآخرة، فأبّى تشريف أعظم من أن يكون الإنسان قريناً لأحباء الله وأصفيائه الذين اصطفاهم وفضلهم على عامّة خلقه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(٤).

ثم إن الآية الكريمة جعلت من مرافقة الشهيد وصحبته، مكافأة لمن عمل بها

(١) هذا هو المثبت عند أبي مخنف والطبري، والصحيح الفارسي.

(٢) أبو مخنف، لوط بن يحيى، مقتل الحسين عليه السلام: ص ٧٤-٧٥. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٢٩٩. أنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٧٣.

(٣) آل عمران: آية ١٦٩.

(٤) النساء: آية ٦٩.

أمره الله ورسوله، وانتهى عمّا نهاه الله عنه ورسوله، في إيباءة لطيفة إلى مقام الشهيد ومنزلته السامية^(١).

قال السعدي: «... وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فأنظر إلى المشتري من هو؟ هو الله جلّ جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلّها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس والمال، الذي هو أحبّ الأشياء للإنسان. وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبائع، وهو أشرف الرسل، وبأيّ كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق»^(٢).

وأما فيما يخصّ السنّة النبوية فإنّها لم تألّ جهداً ولم تدخّر وسعاً في بيان مقام الشهادة ومنزلتها، فقد وصفتها بأروع الأوصاف وأبلغها، نكتفي في المقام بحديث عن النبي ﷺ حيث عبّر عنها بالبرّ الذي ما فوقه برّ عندما قال: «فوق كلّ ذي برّ برّ، حتّى يُقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قُتل في سبيل الله فليس فوقه برّ»^(٣). فالشهادة إذاً، درجة عظيمة لا يلقاها إلاّ من حباه الله بوافر لطف، واختصّه بمزيد عناية.

إلاّ أننا مع تسليمنا بما تقدّم من عظيم مقام الشهادة ومكانتها ومنزلة الشهيد ورفعته، لا يمكننا أن نفسّر مفهوم الفتح في كلام الإمام عليّ عليه السلام بالشهادة؛ وذلك لأمرين:

الأول: إنّ الشهادة في سبيل الله بها هي شهادة لا توصف بكونها نصراً أو فتحاً، وإنّما تعدّ سبباً من أسباب النصر والفتح، وواضح من كلام الإمام الحسين عليه السلام - حينما قال: «من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح»^(٤) - أنّ الفتح مرتبة أعلى من الشهادة، ولا يتحقق إلاّ بعد نيلها، وحيث إنّ تكون الشهادة سبباً وطريقاً لذلك الفتح، لا أنّها الفتح نفسه، كما سيّضح لاحقاً.

(١) أنظر: ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم: ج ١، ص ٥٣٤.

(٢) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تفسير السعدي: ص ٣٥٢.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٣٤٨.

(٤) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص ١٥٧.

المحتمل الثالث: المراتب المعنوية وكشف الحجب

أشار القرآن الكريم إلى ثلاث مراتب معنوية يمكن للإنسان أن ينالها من خلال السير في طريق المجاهدات والرياضات الشاقّة، والإعراض عن الدنيا الفانية وزخارفها غير الباقية، واقتلاع جذور الشهوات ومفارقة الرسوم والعادات، وتمثّل تلك المراتب^(١) بما يلي:

١- علم اليقين، وهو اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع^(٢)، ومثاله اليقين بوجود النار من مشاهدة الدخان. ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٣).

٢- عين اليقين، وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن، وهو أقوى في الوضوح والجلاء من المشاهدة بالبصر، وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين عليه السلام حينما سئل: هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال: «ما كنت أعبد رباً لم أراه»^(٤)، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عياناً. وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك المرتبة في سياق الحديث عن جهنم: ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾^(٥).

٣- حقّ اليقين، وهو أن تحصل وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول، فيرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتباً به غير منفك عنه، ويشاهد دائماً ببصيرته الباطنة فيضان الأنوار والآثار منه إليه، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير احتراق. ويدلّ عليها قوله تعالى: ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمَةٌ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾^(٦)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾^(٧).

(١) أنظر: النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات: ج ١، ص ١٢٨.

(٢) المظفر، محمد رضا، المنطق: ص ١٧. وذكروا تعريفاً آخر لليقين هو: «العلم المستقرّ في القلب لثبوته من سبب متعين له بحيث لا يقبل الانهدام، من يقن الماء في الحوض إذا استقرّ ودام». وهذا هو الأنسب لما نحن فيه. المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج ١٤، ص ٢٦٣.

(٣) الحجر: آية ٩٩.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٣٨.

(٥) التكاثر: آية ٧.

(٦) الواقعة: آية ٩٤-٩٥.

(٧) الحاقة: آية ٥٠-٥١.

وقد ضرب بعض العلماء لتلك المراتب الثلاثة مثلاً؛ فقال: «إذا قال لك مَنْ تجزم بصدقه: عندي غسل أريد أن أطعمك منه. فصدقته، كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته صار ذلك حقّ اليقين»^(١).

وبناءً على ما تقدّم يتّضح أنّ الاحتمال الثالث لمفهوم الفتح يذهب إلى أنّ المراد به: نيل المراتب المعنوية - التي تقدّمت - وكشف الحجب، ونحن في المقام لا يوجد لدينا أدنى شكّ أو شبهة؛ بل نحن على يقين من أنّ أصحاب الحسين عليه السلام نالوا من مراتب الكمال أعلاها، وحازوا من درجات القرب أذناها، فقد أخبرهم إمامهم وسيدهم بمنازلهم ومقاماتهم، فجعلوا ينظرون إلى مواضعهم ومنازلهم من الجنة، وهو يخبرهم: بأنّ هذا منزلك يا فلان، وهذا قصرك يا فلان، وهذه درجتك يا فلان^(٢)، وعن الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّهم كُشف لهم الغطاء حتّى رأوا منازلهم من الجنة»^(٣).

ولسنا بصدد تقسيم هؤلاء العظماء، وما عسانا أن نقول في أناس قال عنهم إمامهم الذي لا ينطق عن الهوى: «اللهم، إنّي لا أعرف أهل بيت أبرّ ولا أذكى ولا أطهر من أهل بيتي، ولا أصحاباً بهم خير من أصحابي»^(٤)، فلا كلام لدينا من هذه الناحية، إنّما الكلام في تفسير مفهوم الفتح بتلك المقامات المعنوية وال مراتب المعرفية؛ فقد ترد عليه أمور عدّة:

الأول: إنّ المعنى اللغوي لا يساعد على ذلك اللون من التفسير.

الثاني: إنّ تفسير الفتح بالمقامات المعنوية والحالات الروحية؛ يستلزم اختزال ذلك الفتح العظيم الذي هو في حقيقته امتداد للفتح الذي تحقّق على يد النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله، والذي من خلاله تداعت أركان الشرك والضلال، فانتقلت الأمة على أعتابه من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى.

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، التبيان في أقسام القرآن: ص ١٩٣.

(٢) أنظر: الراوندي، قطب الدين، الخرائج والجرائح: ج ٢، ص ٨٤٧.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع: ج ١، ص ٢٢٩.

(٤) الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص ٢١٩.

الثالث: إن هذا التفسير لا يتلاءم مع شعار الإصلاح العظيم الذي رفعه الحسين عليه السلام، والذي سعى من خلاله إلى إجراء إصلاحات في المنظومة الرسالية التي اعترافها الكثير من الزيف والتزوير.

الرابع: لم يقل أحد: بأن هذه المقامات المعنوية هي من مختصات أصحاب الحسين عليه السلام؛ لكي يتسنى لنا أن نفسّر مفهوم الفتح بها، فباب السلوك والترقي مفتوح للجميع على حدّ سواء، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِهِ﴾^(١)، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي، كيف تطرد مسكيناً التجأ إليك من الذنوب هارباً... أم كيف تردّ ظمآنًا ورد على حياضك شارباً، كلا، وحياضك مترعة في ضنك المحول، وبابك مفتوح للطلب والوغل»^(٢).

المبحث الثالث: المعنى الحقيقي للفتح (الإصلاح في الرسالة الخاتمة وإعادتها إلى سابق عهدها)

قبل الخوض في غمار المعنى الحقيقي للفتح في الفكر الحسيني والوقوف على ما يحمل في طياته من معانٍ؛ يتحتم علينا بيان مدلول بعض الألفاظ الواردة في كلام الإمام الحسين عليه السلام، «أما بعد، فإنّ من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح، والسلام»^(٣).

أولاً: الشهادة، عندما تحدّث الإمام الحسين عليه السلام عن الشهادة جاء بها بلفظ الماضي مع أنّها لم تتحقق بعد؛ ليدلّ على أنّ الشهادة متحققة الوقوع ولا يوجد أدنى شك في ذلك، وهذا أسلوب بلاغي يُستعمل فيه الزمن الماضي للدلالة على المستقبل، وقد استُعمل هذا الأسلوب كثيراً في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾^(٤).

(١) الانشقاق: آية ٦.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٩١، ص ٢٤٤.

(٣) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص ١٥٧.

(٤) الفتح: آية ١.

فقد جاء الإخبار عن الفتح بلفظ الماضي مع أنه لم يقع بعد؛ لأن المراد بالفتح هنا فتح مكة، ونزول الآية حين رجع النبي ﷺ من الحديبية قبل عام الفتح - فتح مكة - وذلك «على عادة رب العزة سبحانه في أخباره؛ لأنها في تحققها وتيقنهما بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى»^(١).

ومن هذا الأسلوب أيضاً قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾^(٣)، فإن دك الأرض وتزلزلها لا يكون إلا يوم القيامة، وهو غيب مستقبل، والهدف من ذلك تنبيه العقول للتفكير في هذا الأمر العظيم، والاستعداد له من خلال التزوّد بصلاح الأعمال.

وقد استعمل الإمام الحسين عليه السلام هذا الأسلوب لاستثارة النفوس وتهيئتها لتحمل أعباء الشهادة بتوطين النفس على القتل.

ثانياً: الفتح، عندما تحدّث الإمام الحسين عليه السلام عن إدراك الفتح جاء به بلفظ المضارع المسبوق بأداة الشرط (مَنْ) الصارفة له من الحال إلى الاستقبال^(٤)؛ ليدل على أن الفتح مرتبة رفيعة تتحقق بعد نيل الشهادة، وما الشهادة إلا طريق لذلك الفتح، وفي هذا الكلام دلالة واضحة على أن الفتح هدف والشهادة وسيلة لتحقيق ذلك الهدف. ولكي يتّضح معنى الفتح أكثر لا بدّ أن نُشير إلى مسألة هامّة، وهي أن الأمة الإسلامية دخلت مرحلة حساسة وبالغة الخطورة في زمن بني أمية، ألا وهي مرحلة احتضار إن لم نقل: إنها موت العقائد والمبادئ والقيم، «فلا خبر جاء ولا وحي نزل»^(٥)

(١) الزمخشري، محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ج ٤، ص ٣٣٢.

(٢) الفجر: آية ٢١.

(٣) الزلزلة: آية ١.

(٤) الفعل المضارع إذا خلا من القرائن لم يُحمل إلا على الحال، إلا أنه توجد حالات يتعيّن فيها زمنه في الاستقبال؛ منها اقترانه بأحد أدوات الشرط ما عدا (لو) الامتناعية أو (لو) المصدرية. أنظر: مجلة

الدراسات اللغوية: مجلد ١٤، العدد ٣، ص ١٧٦.

(٥) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٨، ص ١٨٨.

على حدّ تعبير يزيد، هذه المقولة قد ورثها الأحفاد عن الأجداد، فراحوا يتغنون بها ويتوسعون في مضامينها، فقد تلقّاها يزيد عن جدّه أبي سفيان القائل: «يا بني عبد مناف، تلقّفوها تلقّف الكرة، فما هناك جنّة ولا نار»^(١).

وقد تحدّث الإمام الحسين عليه السلام عن هذا المنعطف الخطير، وحذّر منه في أكثر من مناسبة، نذكر منها:

١- كتابه إلى رؤوس الأخماس بالبصرة والأشرف: «أما بعد، فإنّ الله اصطفى محمداً عليه السلام على خلقه، وأكرمه بنبوّته، واختاره لرسالته، ثمّ قبضه الله إليه وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به عليه السلام، وكنا أهله وأولياءه وأوصيائه وورثته وأحقّ الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة، وأحبينا العافية، ونحن نعلم أنّا أحقّ بذلك الحقّ المستحقّ علينا ممّن تولاه، وقد أحسنوا وأصلحوا، وتحروا الحقّ، فرحمهم الله، وغفر لنا وهم. وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، فإنّ السنة قد أميتت، وإنّ البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله»^(٢).

٢- أحد بياناته عليه السلام في كربلاء - أمام جيش الحرّ بن يزيد الرياحي -: «أيها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر عليه بفعلٍ ولا قولٍ، كان حقّاً على الله أن يُدخله مُدخله، ألا وإنّ هؤلاء [يشير إلى بني أمية وأتباعهم] قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالقيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيري»^(٣).

(١) المصدر السابق: ج ١٠، ص ٥٨.

(٢) المصدر السابق: ج ٥، ص ٣٥٧.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٨، ص ٤٠٣. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم،

الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ١٥٩.

فمن خلال البيانات المتقدمة، بين الإمام الحسين عليه السلام أن الموانع التي وضعها الأمويون لصدّ الناس عن الدين الإسلامي والحوّل دون تحقيق الرسالة أهدافها في هداية الناس، تتمثّل في: إماتة السنّة، وإحياء البدعة، وإظهار الفساد، وتعطيل الحدود، والاستئثار بالفيء، وتحليل الحرام، وتحريم الحلال، وهي عين الموانع والحواجز التي حاربها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في بداية الدعوة الإسلامية، وسعى إلى إزالتها طوال وجوده المبارك، إلى أن مكّنه الله عز وجل من ذلك في غزوة عبّر عنها القرآن الكريم (فتحاً) مع أنّه لم يحدث فيها قتال وإراقة دماء، ألا وهي غزوة فتح مكّة التي تمثّل أمّ فتوحاته صلى الله عليه وآله في حياته، والنصر الباهر الذي انهدم به بنيان الشرك في جزيرة العرب وتداعت أركانه، والذي يمثّل المصداق الأبرز لتلك الموانع والحواجز^(١).

وبهذا يتّضح أنّ لمفهوم الفتح في المنظور القرآني معنى يتّسع ليشمل رفع الموانع المادّية والمعنوية، وكشف المغلقات، وإزالة السدود التي تقف في مسير الرسالة^(٢)، وبالتالي دخول الناس في دين الله أفواجاً، الذي يمثّل الهدف الأساس من بعث الأنبياء والرسل، وهذا بالضبط ما يعنيه مفهوم الفتح في الفكر الحسيني، لأنّه حيازة مغنم أو نيل شهادة، وهذا ما أفصح عنه الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «إني لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت أطلب الإصلاح في أمة جدي...»^(٣).

فالفتح في المنظور الحسيني، هو تجريد الرسالة من كلّ ما ألصقه بها بنو أميّة من بدع وضلالات، وإعادتها إلى سيرتها الأولى، وسابق عهدها، خالصة نقية، وتعبيد الطريق أمامها لتشقّ طريقها إلى القلوب والنفوس.

وأخيراً، إذا أردنا أن نقف على حقيقة ذلك الفتح، فلنستذكر ما قاله الإمام

(١) أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢٠، ص ٣٧٦.

(٢) أنظر: الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن: ص ٣٧٠. المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ج ٩، ص ١٦.

(٣) الخوارزمي، الموفق محمد بن أحمد، مقتل الإمام الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٧٣. ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢٤١.

السجاد عليه السلام عندما لقيه إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله، وقال له: «يا علي بن الحسين، من غلب؟... فقال له علي بن الحسين: إذا أردت أن تعلم من غلب، ودخل وقت الصلاة، فأذن ثم أقم»^(١).

إن ذلك الرجل كان يعتقد بأن الغلبة إنما تتحقق بحطام يُغرم وأسارى تُساق، فبين له الإمام عليه السلام أن الحديث ليس حديث نصر ومغانم، إنما الحديث عن فتح مُدوّ تمثل ببقاء الرسالة وخلودها؛ لأن إخفاء الرسالة وطمس معالمها كان الشغل الشاغل لبني أمية، وهذا ما أفصح عنه المطرف بن المغيرة بن شعبة حينما قال: «دخلت مع أبي علي معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدث معه، ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيتهُ مُغتمّاً، فانتظرتُه ساعة، وظننت أنه لأمرٍ حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مُغتمّاً منذ الليلة؟ فقال: يا بُني جئت من أكره الناس وأخبثهم. قلت: وما ذلك؟ قال: قلت له - وقد خلوت به -: إنك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك ممّا يبقى لك ذكره، وثوابه؟ فقال: هيهات هيهات! أيّ ذكرٍ أرجو بقاءه؟! ملك أخو تيمٍ فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك، حتى هلك ذكره إلا أن يقول قائل: أبو بكرٍ. ثم ملك أخو عديّ، فاجتهد وشمر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر.

وإن ابن أبي كبشة ليُصاح به كل يوم خمس مرّاتٍ: أشهد أنّ محمّداً رسول الله، فأيّ عملٍ يبقى؟! وأيّ ذكرٍ يدوم بعد هذا؟! لا أبألك؟! لا والله إلا دفناً دفناً»^(٢).

وخلاصة ما تقدّم: إن الحرب التي دارت رحاها بين بني أمية من جهة وبين الرسالة وصاحبها من جهة أخرى، حرب ضروس لا هوادة فيها، وما أوقدت لتتطفئ في يوم

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٦٧٧.

(٢) الأسدي، الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات: ص ٢١٩.

من الأيام لولا أن الحسين عليه السلام أطفأها بدمه الزاكي، الذي جعله الله عز وجل سبباً للفتح، وإعادة الرسالة إلى صفائها وسابق عهدها خالصة نقية من كل ما ألصقه بها بنو أمية من بدع وافتراءات؛ لتشق طريقها إلى نفوس الناس وضمايرهم وتمكّن من قلوبهم.

نتيجة البحث

بعد أن أتمنا البحث في مفهوم الفتح في الفكر الحسيني ومناقشة احتمالاته؛ توصلنا إلى النتائج الآتية:

أولاً: إن مفهوم الفتح في الفكر الحسيني لا يعني النصر المادي والمغانم؛ وإنما هو مفهوم عابر لحدود المادة، وغير خاضع لقوانينها، ومعناه تحقق الأهداف المبتغاة بغض النظر عن النصر والغلبة الظاهريين.

ثانياً: إن الشهادة في سبيل الله بما هي شهادة لا توصف بكونها نصراً أو فتحاً، وإنما تعدّ سبباً من أسباب النصر والفتح، فالفتح مرتبة أعلى من الشهادة، ولا يتحقق إلا بعد نيلها، وحينئذ تكون الشهادة سبباً وطريقاً لذلك الفتح لا أنها الفتح نفسه.

ثالثاً: إن مفهوم الفتح في الفكر الحسيني لا يعني المقامات المعنوية والمراتب المعرفية؛ لأن ذلك يستلزم تحجيم مفهوم الفتح، ولا يليق بتطلعات الإمام الحسين عليه السلام من وراء طرح ذلك المفهوم العظيم.

رابعاً: إن مفهوم الفتح في الفكر الحسيني مفهوم عام، يعني تجريد الرسالة من كل ما طرأ عليها من بدع وضلالات أموية وإعادتها إلى سيرتها الأولى، وذلك من خلال آليات عدة، أهمها:

- 1- محاربة البدع والضلالات التي سعى بنو أمية إلى إيجادها؛ بغية تعطيل الرسالة والحؤول دون تحقيق أهدافها في هداية الناس وإرشادهم إلى طريق الحق.
- 2- الوقوف بوجه الظلم من خلال مواجهة الظالمين وكشف نواياهم الشريرة، وفضح أهدافهم الدنيئة ومخططاتهم المشبوهة لهدم أركان الدين الإسلامي.

٣- كشف المقاييس المغلوطة التي سعى الأمويون من خلالها إلى استعباد الأمة
والجثوم على صدرها، من خلال تسويق أنفسهم على أنهم خلفاء لرسول الله ﷺ
وأن طاعتهم من طاعته ﷺ وإن أخذوا المال وجلدوا الظهر، فجاء الخطاب الحسيني
يصدق في الآفاق وينفذ في الضمائر: «أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً
جائراً، مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله
بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله»^(١).
٤- كشف القناع عن نهج الملوكية الذي تمرست عليه بنو أمية والذين كانوا
يتسترّون بلباس الإسلام زيفاً ونفاقاً.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- ١ - الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكي (ت ٢٥٦هـ)،
تحقيق: سامي مكي العاني، منشورات: عالم الكتب، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية،
١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ٢ - الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري
البغدادي الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت ﷺ لتحقيق التراث،
منشورات: دار المفيد، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ٣ - أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، منشورات: دار
الشعب، القاهرة - مصر، ١٩٦٠م.
- ٤ - الأمالي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: قسم الدراسات
الإسلامية - مؤسسة البعثة، منشورات: دار الثقافة، قم - إيران، الطبعة الأولى،
١٤١٤هـ.

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣٠٤.

- ٥ - الأمالي، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (الصدوق) (ت ٣٨١هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، منشورات: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٦ - بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، منشورات: مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٧ - تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ)، منشورات: دار التراث، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.
- ٨ - تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: علي شيري، منشورات: دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ.
- ٩ - التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، منشورات: دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ١٠ - التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، منشورات: مكتب الإعلام الإسلامي، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ١١ - التحقيق في كلمات القرآن الكريم، الشيخ حسن المصطفوي، منشورات: مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ١٢ - التفسير الأصفي، المولى محمد محسن المعروف بالفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، منشورات: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١٣ - التفسير البسيط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ)، حُقق في رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، منشورات: عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ.

١٤ - تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦ هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويح، منشورات: مؤسّسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م.

١٥ - تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤ هـ)، منشورات: دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.

١٦ - الثاقب في المناقب، أبو جعفر محمد بن علي الطوسي المعروف بابن حمزة (ت ٥٦٠ هـ)، تحقيق: نبيل رضا علوان، منشورات: مؤسّسة أنصاريان، قم - إيران، الطبعة الثانية، ١٤١٢ هـ.

١٧ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠ هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، منشورات: دار هجر، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م.

١٨ - جامع السعادات، المولى محمد مهدي النراقي (ت ١٢٠٩ هـ)، تحقيق: السيّد محمد كلانتر، منشورات: دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف.

١٩ - الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ)، تحقيق: مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام وإشراف السيّد محمد باقر الموحد الأبطحي، منشورات: مؤسّسة الإمام المهدي، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.

٢٠ - دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري (ت ق ٤)، تحقيق: مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، منشورات: مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ.

٢١ - الرياض النضرة في مناقب العشرة، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد محب الدين

الطبري (ت ٦٩٤هـ)، منشورات: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية.
٢٢ - الشافي في الإمامة، علي بن الحسين الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ)، منشورات:
مؤسسة إسماعيليان، قم - إيران، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

٢٣ - شرح نهج البلاغة، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين
ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات: دار
إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى،
١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م.

٢٤ - الطبقات الكبرى (متمم الصحابة)، أبو عبد الله محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق:
محمد بن صامل السلمي، منشورات: مكتبة الصديق، الطائف - المملكة العربية
السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٢٥ - علل الشرائع، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي
(الصدوق) (ت ٣٨١هـ)، تحقيق: السيّد محمد صادق بحر العلوم، منشورات: المكتبة
الحيدرية ومطبتها، النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

٢٦ - فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، منشورات
عالم الكتب.

٢٧ - الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني (ت ٣٢٩هـ)، تحقيق: علي
أكبر الغفاري، منشورات: دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران، الطبعة الرابعة،
١٣٦٥هـ. ش.

٢٨ - كامل الزيارات، جعفر بن محمد بن قولويه (ت ٣٦٧هـ)، تحقيق: الشيخ جواد
القيومي، لجنة التحقيق، منشورات: مؤسسة النشر الإسلامي، قم - إيران، الطبعة
الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٩ - الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق: عمر عبد

السلام تدمري، منشورات: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى،
١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣٠ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد
الزخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، منشورات: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان،
الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٣١ - مجاز القرآن، معمر بن المثنى التيمي (ت ٢٠٩هـ)، تحقيق: محمد فواد سزكين،
منشورات: دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٣٢ - مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)،
تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين، منشورات: مؤسّسة الأعلمي، بيروت - لبنان،
الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٣٣ - المصباح المنير، أحمد بن محمد المقرئ الفيومي (ت ٧٧٠هـ)، منشورات: دار الفكر،
بيروت - لبنان.

٣٤ - معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ)، منشورات: دار إحياء
التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٣٥ - معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام
محمد هارون، منشورات: مكتب الإعلام الإسلامي، قم - إيران، ١٤٠٤هـ.

٣٦ - معرفة الصحابة، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الإصبهاني
(ت ٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، منشورات: دار الوطن للنشر،
الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٣٧ - المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الإصفهاني
(ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، منشورات: دار القلم - الدار الشامية،
دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٣٨ - مقتل الحسين عليه السلام، أبو المؤيد الموفق محمد بن أحمد المكّي الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ)،

تحقيق: الشيخ محمد السماوي، منشورات: دار أنوار الهدى، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٣٩ - مقتل الحسين عليه السلام، لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي (ت ١٥٧هـ)، تحقيق: حسين الغفاري، منشورات: المطبعة العلمية، قم - إيران.

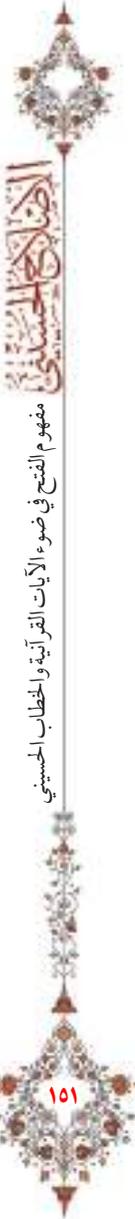
٤٠ - مناقب آل أبي طالب، مشير الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ)، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، منشورات: المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.

٤١ - المنطق، محمد رضا المظفر (ت ١٣٨٣هـ)، منشورات: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم - إيران.

٤٢ - الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، منشورات: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم - إيران.

المجلات

٤٣ - مجلة الدراسات اللغوية، مجلة فصلية محكمة لنشر الأبحاث التي تعنى بدراسة النحو والصرف واللغويات والعروض، منشورات: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، مجلد ١٤، العدد ٣، ٢٠١٢م.



الآيات المؤولة بالإمام الحسين عليه السلام . . دراسة وتحليل (القسم الأول)

السيد شهيد طالب الموسوي *

مقدمة

إنّ لعلم التأويل (القرآني) مكانة مهمّة في المعرفة الدينية، ويُعدّ ركناً أساسياً من أركان حقل علوم القرآن. كان في بداية نشأته مبعوثاً ومتفرّقاً في كتب المفسّرين، ثمّ استقلّ - فيما بعد - عن علم التفسير، فأصبح مورد اهتمام المختصّين في هذا الحقل على مستوى الدراسة والتحليل، حتّى أثروا المكتبات الإسلامية بالكثير من المعارف والموضوعات الدينية التي تفرّعت عنه، هذا على مستوى التأليف أو التدوين.

أمّا على مستوى كون التأويل أسلوباً بيانياً للقرآن الكريم ومنهجاً مستقلاًّ، استمدّ شرعيته من القرآن الكريم نفسه في بيان حقائقه العلوية ومقاصده الإلهية، فقد تحقّق منذ عصر الرسالة الإسلامية مع وجود النبي صلى الله عليه وآله؛ ولكن مع حداثة عهد العرب بالمسائل الدينية المعمّقة وعدم توفّر الاستعداد واللياقة الذهنية أو الفكرية في تقبّل الحقائق العميقة والدقيقة، مضافاً إلى أولوية ترسيخ الإيمان بالرسالة الإسلامية الجديدة وما واجهته من مصاعب على مستويات عدّة في تلك المدّة، فقد بقي علم التأويل ومعه الكثير من العلوم القرآنية غير واضحة المعالم بالنسبة للمسلمين الأوائل حتّى فجعوا برحيل النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، ثمّ الصراع على السلطة واجتهاد بعض الصحابة في رسم ملامح الدولة الإسلامية وطريقة الحكم، التي بدت متعثّرة

* باحث وكاتب إسلامي، من العراق.

وبقيت كذلك؛ مما أثر تأثيراً مباشراً في حياة المسلمين وطريقة التعامل مع القرآن الكريم وتحصيل معارفه.

وفي خضم هذه التحديات نجد أن أهل البيت عليهم السلام كان لهم دور بارز في الحيلولة دون طمس معالم المعرفة الدينية وتأثرها بالتجاذبات السياسية، فتركز اهتمامهم ببيان حقائق القرآن الكريم وكشف أسراره على مستوى التفسير والتأويل، مع أن المفسرين الأوائل لم يفرّقوا بين التأويل والتفسير وكانوا يعدّونها لفظين مترادفين لمعنى واحد، وهو الكشف أو البيان والتوضيح، إلا أن المتتبع لروايات أهل البيت عليهم السلام يرى جلياً التفريق بين التفسير والتأويل، فقد عبّر عن التفسير فيها بظهور القرآن المرتبط بظاهر اللفظ، وعن التأويل بالباطن، أي: المرتبط باللفظ والمعنى الظاهري بنحو خفي. ومن هذه الروايات ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له نجوم، وعلى نجومه نجوم...»^(١).

ومنها ما ورد «عن فضيل بن يسار، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية: ما من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن. فقال: ظهره تنزيهه، وبطنه تأويله...»^(٢).

والتعبير بالظهور في روايات أهل البيت عليهم السلام هو إشارة إلى ظاهر القرآن الكريم الذي يُعدّ موضوعاً لعلم التفسير، والتعبير بالباطن إشارة إلى باطن آياته الشريفة الذي هو موضوع علم التأويل.

ولذا نجد أن علماء التفسير وعلوم القرآن المتأخرين قد فرّقوا بشكل واضح بين التفسير والتأويل - بالمعنى المتقدم - اعتماداً على منهجية الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام في كيفية الوصول إلى المفاهيم القرآنية وتصنيفها ضمن أيّ واحد من الحقلين أعلاه. ومن ملامح المنهجية التأويلية عند أهل البيت عليهم السلام أنّها في مواطن وشواهد

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٥٩٩.

(٢) الصقّار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات: ص ٢١٦.

قرآنية عدّة، أولت قضية الإمام الحسين عليه السلام وثورته الخالدة وطبيعة العلاقة بينها وبين القرآن الكريم اهتماماً بالغاً، فقد كشفوا عنها وبيّنوها ليُصوّرُوا لنا عظمة هذه القضية من جهة، وارتباطها الوثيق برسالة الإسلام - وهي القرآن الكريم - من جهة أخرى. وفي هذا البحث سنتناول بعض الآيات القرآنية التي أُوتت بالإمام الحسين عليه السلام بما توافر لدينا من روايات لأهل البيت عليهم السلام، وستكون هي الأساس في بيان الوجه التأويل لتلك الآيات.

الآيات المؤتلة في الإمام الحسين عليه السلام

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾^(١).

ورد في شأن هذه السورة تسميتها بسورة الحسين عليه السلام، قال الإمام الصادق عليه السلام: «اقرأوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم؛ فإنها سورة الحسين بن علي، وارغبوا فيها رحمكم الله. فقال له أبو أسامة - وكان حاضراً المجلس -: كيف صارت هذه السورة للحسين خاصة؟ فقال ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً * فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي * وَأَدْخِلِي جَنِّي﴾^(٢)؟ إنما يعني الحسين بن علي عليه السلام، فهو ذو النفس المطمئنة الراضية المرضية...»^(٣).

وورد عنه عليه السلام أيضاً: «إنَّ المعنى بها الحسين عليه السلام»^(٤).
وورد عنه عليه السلام كذلك في تأويل الآيات الأولى من هذه السورة المباركة أنه قال: «قوله عز وجل ﴿وَالْفَجْرِ﴾ هو القائم عليه السلام، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ الأئمة عليهم السلام من الحسن إلى الحسن، ﴿وَالشَّفْعِ﴾ أمير المؤمنين وفاطمة عليهما السلام، ﴿وَالْوَتْرِ﴾ هو الله وحده لا شريك له،

(١) الفجر: آية ١-٥.

(٢) الفجر: آية ٢٧-٣٠.

(٣) الأسترآبادي النجفي، علي، تأويل الآيات: ج ٢، ص ٧٩٦.

(٤) المصدر السابق.

﴿وَأَيْتٌ إِذَا يَسَّرَ﴾ هي دولة حبر، فهي تسري إلى قيام القائم عليه السلام ^(١).

ولعل تسمية سورة الفجر بسورة الإمام الحسين عليه السلام يعود لوجه عدّة، نذكر منها:

أولاً: إنّ الإمام الحسين عليه السلام مشار إليه تأويلاً في الليالي العشر كما تقدّم في الرواية أعلاه، مضافاً إلى ما ورد في رواية أخرى من أنّ مفردة الشفع في السورة ذاتها تُؤوّل بالإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، ومفردة الوتر تُؤوّل بأمر المؤمنين عليهم السلام ^(٢).

أمّا كون المعصومين - من الإمام الحسن السبط إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام - ليالي، فهو تعبير مجازي لعهد إمامتهم للناس بعد أن تعرّضوا لشتّى أنواع التهيب والقتل والسجون من قبل طغاة عصرهم، ومضايقتهم بشكل تامّ عن أداء دورهم الحقيقي والإلهي كأئمة هداة للناس، وهو نحو من التشبيه بالليل الذي لا يهتدي فيه أحد بسبب انعدام ضوء الشمس؛ إذ إنّ وجود الإمام وممارسته لدوره الفعلي بين الناس في التوجيه والإرشاد إنّما هو بمنزلة الشمس التي تُعطي مقومات الحياة للناس وتمدّهم بما يحتاجونه؛ ولهذا وصف القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وآله بالسراج المنير الذي يهتدي به الناس في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ ^(٣)، فمع غيبة الإمام عن ممارسة دوره في الهداية، فسيكون عهده بمنزلة الليالي التي لا يهتدي بها السائر في الطريق؛ ولعلّ القرينة على هذا الوجه هو تأويل الفجر بالإمام القائم عليه السلام في الرواية المتقدّمة؛ لأنّه (سلام الله عليه) سيكون له التمكين في الأرض والسلطان بأمر الله تعالى بخلاف آباءه العشرة، فقد عمدت دولة الباطل إلى التضيق عليهم وسلب حقّهم الإلهي في الحكومة السياسية والتشريعية.

وقد يُراد من تشبيه الأئمة بالليالي ما ذكره صاحب كتاب (تأويل الآيات):

(١) المصدر السابق: ص ٧٩٢.

(٢) أنظر: القمّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمّي: ج ٢، ص ٤١٩.

(٣) الأحزاب: آية ٤٦.

«وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَيْالٍ عَشْرٍ﴾ الأئمة. إِنَّمَا كَتَّاهُمْ عَنِ اللَّيَالِي مَجَازاً أَيضاً، أَي: أَهْلَ اللَّيَالِي اللّوَاتِي هُنَّ لَيَالِي الْقَدْرِ، كُلُّ لَيْلَةٍ مِنْهَا ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ»^(١)،^(٢)، بِمَعْنَى أَنَّ الْأئِمَّةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هُمُ الْمَعْنِيْنَ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ عَلَى الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ الَّذِي يَكُونُ حُجَّةً فِي زَمَانِهِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ الرِّوَايَاتِ الَّتِي مِنْهَا مَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَنَانَ، قَالَ: «سَأَلْتُهُ عَنِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَقَالَ: مَا عِنْدِي فِيهِ شَيْءٌ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ تِسْعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ قَسَمَ فِيهَا الْأَرْزَاقَ، وَكُتِبَ فِيهَا الْأَجَالُ، وَخَرَجَ فِيهَا صَكَكُ الْحَاجِّ، وَاطَّلَعَ اللَّهُ إِلَى عِبَادِهِ فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُمْ، إِلَّا شَارِبَ الْخَمْرِ، فَإِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ ثَلَاثَةِ وَعَشْرِينَ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾»^(٣)، ثُمَّ يُنْهَى ذَلِكَ وَيُمْضَى. قَالَ: قُلْتُ: إِلَى مَنْ؟ قَالَ: إِلَى صَاحِبِكُمْ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَعْلَمُ»^(٤).

وَيُرِيدُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ لَا تَخْتَصُّ بِالْأئِمَّةِ الْعَشْرَةِ الْمَذْكُورِينَ، بَلْ شَامِلَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوَّلًا وَلِسَائِرِ الْأئِمَّةِ الْإِثْنِي عَشَرَ ثَانِيًا، فَلَا قَرِيبَةَ لِاخْتِصَاصِ بَعْضِ مِنْهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِهَذِهِ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ.

ثَانِيًا: تَفْسِيرُ اللَّيَالِي الْعَشْرِ بِالْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ شَهْرِ مُحَرَّمٍ الْحَرَامِ، فَقَدْ وَرَدَ عِنْدَ الْفَرِيقَيْنِ تَفْسِيرُهَا بِهَذَا الْمَعْنَى، كَمَا وَرَدَ تَفْسِيرُهَا عِنْدَهُمْ أَيضًا بِالْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ. وَلَا يَخْفَى ارْتِبَاطُ الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمُحَرَّمِ بِالْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى أَنَّ الْعَامَّةَ قَالُوا: إِنَّ آخِرَهَا عَاشُورَاءٌ وَهُوَ يَوْمُ مَقْتَلِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، قَالَهُ الْبَغْوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ نَقْلًا عَنْ ابْنِ رَبَابٍ: «وَقَالَ يَمَنُ بْنُ رَبَابٍ: هِيَ الْعَشْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْمُحَرَّمِ الَّتِي عَاشِرُهَا يَوْمُ عَاشُورَاءٍ»^(٥).

(١) الفجر: آية ٣ - ٥.

(٢) الأسترآبادي النجفي، علي، تأويل الآيات: ج ٢، ص ٧٩٣.

(٣) الدخان: آية ٤.

(٤) الصّفّار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات: ص ٢٤٠.

(٥) البغوي، الحسين بن مسعود، تفسير البغوي: ج ٨، ص ٤١٢.

ثالثاً: إنّ الإمام الحسين عليه السلام من مصاديق النفس المطمئنة كما دلّت على ذلك الرواية المتقدّمة، ولعمري: إنّها مصاديق قلّ نظيرها وامتنعت عن أن ترتقي إليها الطبيعة البشرية.

هذا، وأنّ تأويل النفس المطمئنة بفاطمة عليها السلام أو أمير المؤمنين عليه السلام كما في روايات أخرى، لا يمنع من أن يكون الإمام الحسين عليه السلام مصداقاً للنفس المطمئنة أيضاً، فهو من باب تعدد المصداق للمعنى التأويلي للآية؛ فكلّ نفوسهم عليهم السلام مطمئنة راضية مرضية عند ربّها؛ لأنّهم عباده الذين اصطفاهم وخصّهم بحمل الأمانة الإلهية وحفظ رسالة الدين.

فإذا قيل: إنّ هناك معاني تأويلية مشتركة بين الإمام الحسين عليه السلام وبين سائر الأئمّة، كتأويل الليالي العشر وتأويل الشفع وتأويل النفس المطمئنة بغيره عليه السلام، فكيف يمكن تصوّر انحصار تسمية هذه السورة به عليه السلام.

وجواب ذلك: إنّ تأويل الليالي العشر بأنّها ليالي محرّم الحرام أمر خاصّ بالإمام الحسين عليه السلام دون سائر الأئمّة، وأنّ الليلة الأخيرة وهي عاشوراء هي ليلة مقتله ومظلوميّته الجسيمة؛ ومن هنا فالتسمية جرت بنحو التغليب، بمعنى أنّ هناك نحواً من الاشتراك بين الأئمّة عليهم السلام في تأويل بعض الآيات في هذه السورة، لكن الإمام الحسين عليه السلام له النصيب الأكبر من آياتها، فإنّ بعضها يختصّ تأويلها به وبمظلوميّته عليه السلام.

رابعاً: تأويل الفجر بالقائم عليه السلام كما صرّحت بذلك إحدى الروايات المتقدّمة، فإنّه على رغم التباعد الزمني بين الإمام الحسين عليه السلام وحفيده الإمام الحجّة عليه السلام، إلّا أنّ العلاقة الوثيقة بينهما نابعة من كون أصل حركة الإمام المهدي عليه السلام وجوهرها إنّها هو ثورة سيّد الشهداء عليه السلام، كيف لا؟! ونحن نسمع ونقرأ أنّ شعار نهضته المباركة (يا لثارات الحسين)، وأنّه هو الموتور بأبيه، وأنّه هو ولي الدم، وأنّه صاحب السلطان

الذي يقتل قتلة الحسين عليه السلام؛ ولأجل هذه العلاقة الوثيقة وبضمنية القرائن المتقدمة كانت سورة الفجر معنية بالحسين عليه السلام.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾^(١).

لكل آية من آيات القرآن الكريم ظاهر، وهو ما عليه مفردات الآية القرآنية من معانٍ، ترسم لنا من خلال هذه المعاني صورة متكاملة قد تكون معبرة عن حكم شرعي، أو إرشادي، أو معبرة عن مسألة عقدية متعلقة بأصول الدين المعروفة، أو حادثة تاريخية كما هو الحال في القصص القرآني.

وهذه الآية الكريمة لها ظهور أولي مؤداه حكم شرعي تعلق بمن يُقتل بغير حق، فإنّ الشارع المقدّس قد سلّط ولي الدم في قتل قاتل وليه قصاصاً؛ وهذا التسليط عبارة عن نحو انتصار لولي المقتول من قبل المشرّع الإسلامي، فلا يُلام ولا يؤخذ بهذا القصاص.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ فهو إشارة إلى رفض الاعتداء على الأبرياء، الذين ليس لهم علاقة بجريمة القتل، وهو أمر كان سائداً في عصر الجاهلية، وما زالت مجتمعاتنا تعاني منه، فحين يُقتل فرد من قبيلة معينة، فإنّها تقوم بهدر الكثير من الدماء البريئة من قبيلة القاتل^(٢).

ويرى بعض المفسرين أنّ النهي عن الإسراف قد يكون موجّهاً للقاتل أيضاً كونه رادعاً له عن الإقدام على فعل القتل من البداية؛ وذلك لأنّ الآية جعلت المقتول منصوراً إمّا بوليّه أو بالحاكم الشرعي إن لم يكن لدمه ولي^(٣).

(١) الإسراء: آية ٣٣.

(٢) أنظر: الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ٨، ص ٤٦٨.

(٣) أنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن: ج ٦، ص ٤٦٧.

هذا، وقد قرأ ابن عامر، وحزمة الزيات، والكسائي: (فلا تُسرف) بالتاء^(١)؛ ولهذا ذهب بعض المفسرين إلى أمّها معنية بالقاتل الأول، بينما يرى آخرون ومنهم الشيخ الطوسي عليه السلام أنّها تحتمل الوجهين كذلك^(٢).

أمّا الجهة التأويلية لهذه الآية فقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام تأويلها بالإمام الحسين عليه السلام، وأنّه هو المقتول ظلماً، وأنّ ولي دمه الذي يقتل به ويثأر له هو القائم من آل محمد عليهم السلام. ومن هذه الروايات ما عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام: «في قول الله عزّ وجل: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾، قال عليه السلام: [نزلت في قتل الحسين عليه السلام]»^(٣).

ومنها أيضاً ما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام، في جوابه عمّن سأله عن «قول الله عزّ وجل: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾»، قال عليه السلام: [نزلت في الحسين عليه السلام، لو قتل وليّه أهل الأرض به ما كان مُسرفاً، ووليه القائم عليه السلام]»^(٤). والروايات في هذا المورد كثيرة قد تصل إلى حدّ الاستفاضة وبمجموعها قرينة على القطع بصدور مضمونها عن المعصومين عليهم السلام؛ ولهذا لا نتجشّم عناء البحث عن صحّة إسنادها ما دمنا نقطع بذلك.

ويبقى الكلام في دلالاتها ومضامينها، وهنا سنبيّن عدّة نقاط تتعلّق بهذا الشأن: **النقطة الأولى:** الحديث في هذه النقطة هو عبارة عن مقدّمة ضرورية لسائر النقاط الأخرى، مفادها: أنّ المعنى الظاهري للآية لا بدّ أن يرتبط بشكل أو بآخر بالمعنى التأويلي لها، شريطة ألا يكون هذا الارتباط مؤدّياً إلى إسقاط تمام المعاني الظاهرية للآية على المعنى التأويلي لها. ومثال ذلك (الجعل)، فالجعل في ظاهر الآية تشريعي،

(١) أنظر: الثعلبي، أحمد، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي): ج ٦، ص ٩٧.

(٢) أنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن: ج ٦، ص ٤٧٤-٤٧٥.

(٣) الأسترآبادي النجفي، علي، تأويل الآيات: ج ١، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٨٠.

بمعنى أن الله تعالى حكم وشرع لولي الدم سلطاناً بقتل القاتل، وهذا النوع من الجعل قد يتخلف ولا يتحقق، والوجدان شاهد على ذلك، فترى الكثير من الدماء البريئة لم يتحقق القصاص العادل لها من القتلة، والشواهد على ذلك كثيرة. أمّا بناءً على تأويل هذه الآية بالإمام الحسين عليه السلام، وأنّ ولي دمه هو الإمام المهدي المنتظر عليه السلام، فإنّ الجعل يكون حينها تكوينياً، لا يتخلف وسيتحقق هنا في دار الدنيا؛ وعليه فإنّ الارتباط بين المعنى الظاهري والتأويلي للآية لا تعني رفع اليد عن حيثيات المعنى التأويلي الأخرى التي لم تُبين في المعنى الظاهري.

هذا، وتوجد قرائن عدّة على تكوينية الجعل نذكر منها:

أولاً: إنّ الروايات التي أوّلت المقتول ظلماً بالإمام الحسين عليه السلام صرّحت بأنّ ولي الدم هو الإمام صاحب الزمان عليه السلام، الذي يكون أمره ونصرته ونجاح ثورته أمراً تكوينياً لا يتخلف؛ لأنّه من الميعاد والله لا يخلف الميعاد. وفي هذا الصدد ورد عن أبي جعفر أنّه قال: «هل يبدو لله في المحتوم؟ قال: نعم. قلنا له: فنخاف أن يبدو لله في القائم. فقال: إنّ القائم من الميعاد، والله لا يخلف الميعاد»^(١).

ثانياً: لقد صرّحت الروايات الكثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بأنّه موعود بالنصر وبتحقق النجاح لنهضته المباركة، منها ما عن محمد بن مسلم الثقفي قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام يقول: «القائم ممّا منصور بالرعب، مؤيّد بالنصر، تطوى له الأرض، وتظهر له الكنوز...»^(٢).

ثالثاً: إنّ الله تعالى يُصلح أمره في ليلة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المهدي ممّا أهل البيت، يُصلح الله له أمره في ليلة»^(٣). وما نفهمه من هذا الحديث هو أنّ الله عزّ وجلّ يبيّن الأسباب التكوينية لقيامه عليه السلام، وهذا من شؤون الأمر أو الجعل التكويني الذي يكون أمره بيده سبحانه وتعالى.

(١) النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة: ج ١، ص ٣١٣.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ص ٣٣١.

(٣) المصدر السابق.

النقطة الثانية: إن النهي - بحسب ما نفهمه من ظاهر الآية - هو عبارة عن نهي تشريعي سواء كان متعلقه وليّ الدم بأن لا يقتل إلاّ القاتل، أم كان هو القاتل بأن يرتدع عن هذا الفعل؛ لأنّه موعود بالقصاص منه.

أمّا من الناحية التأويلية - وكما بيّنا - فإننا لا نلتزم حرفياً بالدلالة الظاهرية للآية الشريفة، بل نتعدّى إلى القول: بأنّ (لا) ليست ناهية تأويلاً، وإنّما هي نافية ومعناها نفي الإسراف بقتل قتلة الإمام الحسين عليه السلام مهما كان عدد المقتولين بدمه. ويمكن أن نُقيم أدلّة عدّة على هذا المعنى منها:

أولاً: ما تقدّم في رواية الإمام الصادق عليه السلام: «لو قتل وليّه أهل الأرض به ما كان مُسرفاً»، فنفهم من قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ﴾ نفي الإسراف، وليس النهي عنه؛ لأنّ الرواية صريحة في أنّ القائم عليه السلام لو قتل أهل الأرض بالحسين عليه السلام ما كان مُسرفاً.

ثانياً: إنّ الآية بناءً على هذا المعنى التأويلي بصدد بيان المفاضلة بين الناس والإمام عليه السلام، وأنّه عليه السلام أعظم وأعلى منزلة عند الله تعالى من أهل الأرض جميعهم، وهذا ثابت في بحوث علم الكلام من أنّهم عليهم السلام لا يُقاس بهم أحد، بل كلّ ما في الأرض وغير الأرض من بشر وشجر وحجر ومدر وغير ذلك إنّما هو مخلوق لأجلهم، ومن ذلك ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال: لَمَّا خلق الله تعالى آدم أبا البشر ونفخ فيه من روحه، التفت آدم يمينه العرش فإذا في النور خمسة أشباح سجّداً وركعاً. قال آدم: هل خلقت أحداً من طين قبلي؟! قال: لا يا آدم. قال: فمن هؤلاء الخمسة الأشباح الذين أراهم في هيئتي وصورتي؟ قال: هؤلاء خمسة من ولدك لولاهم ما خلقتك، هؤلاء خمسة شققت لهم خمسة أسماء من أسمائي، لولاهم ما خلقت الجنة والنار، ولا العرش ولا الكرسي، ولا السماء ولا الأرض، ولا الملائكة ولا الإنس ولا الجن»^(١).

ولكن قد يقال: لم يؤخذ أهل الأرض جميعهم بمقتل الإمام الحسين عليه السلام، ونحن

(١) الأميني، عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ج ٢، ص ٣٠٠.

نعلم أنّ قتلته هم من خرج عليه من أهل الكوفة والشاميين وغيرهم، الذين كانوا السبب المباشر في قتله ومظلوميته.

فنقول في مقام الردّ: إنّ الرواية لا تُريد هذا المعنى بنحو الحقيقة، وإنّما هو نوع من أنواع المبالغة المعروفة في علم البديع، والذي يسمّى بالتبليغ، وهو أن يصرف المتكلم كلامه عمّا يطابق المألوف ويوجّهه إلى ما لا يطابقه شرط أن يكون وقوع ما يقوله ممكناً عقلاً وعادةً.

ولو تنزّلنا عن هذا المعنى وقلنا بأنّ الأصل هو الحقيقة ولا بدّ من وجود قرينة صارفة عن الحمل على الحقيقة، فنقول: إنّ كلّ فرد في كلّ زمان ومكان تقع على عاتقه مسؤولية تحقيق العدالة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى طريق الحقّ والاستقامة ومنع الظلم والجور بما أمكنه، وهذا الأمر راسخ في فطرة الإنسان ولا يختلف عليه اثنان، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإنّ السكوت عن الظلم والجور وإعانة الظلمة والطواغيت سيؤدّي بالنتيجة إلى إشاعة الظلم والجور في المجتمع الإنساني، وهذا الأمر ممّا لا ريب فيه، وبما أنّ مقتل الإمام الحسين عليه السلام قضية إنسانية قبل أن تتوشح بوشاح الدين والانتماء، فإنّها بطبيعة الحال نتيجة اجتماعية كانت لها مقدّمات يتحمّلها كلّ فرد من أفراد النوع الإنساني، ساهم بشكل مباشر أو غير مباشر في وصول المجتمع الإنساني إلى هذا المستوى من الظلم وتسلّط الطواغيت، أمثال: بني أمية وغيرهم، ذلك الظلم الذي أدّى إلى وقوع هذه الفاجعة الأليمة في كربلاء، والتي أضحت المثال الأبرز في المظلومية والمأساة.

وإذا أضفنا إلى هذا الأمر فهماً أعمق لقتل الإمام عليه السلام في رمضاء كربلاء، وتجاوزنا المفهوم المعروف والمعهود له (التصفية الجسدية)، يمكننا أن نقف على معنى أوسع من ذلك، يتمثل في أنّ قتله عليه السلام هو عبارة عن قتل أهدافه وقضيّته التي خرج من أجلها وضحّى بالغالي والنفيس من أجل تحقيقها، وهي تحقيق العدالة والصلاح في المجتمع الإنساني، وإشاعة كلّ القيم الرحيمة والمبادئ السامية التي تمثّلت بالدين

الإسلامي. وعليه؛ فالحسين عليه السلام ليس ذلك الجسد الذي أضحي صريعاً على رمضاء كربلاء مقتولاً مظلوماً وحسب، بل هو عليه السلام روح ومبادئ وقيم ما زالت تُصارع الباطل، قد أشعل جذوتها بدمه وما زال شاهراً سيفه يقارع الظلم بروحه وصوته وكلماته التي ما زالت بيننا.

وبناءً على ما تقدّم؛ فكلّ مَنْ رضي بقتله فهو شريك في الجريمة التي وقعت يوم عاشوراء، وكلّ مَنْ يقف أمام تحقّق مبادئ ثورته فهو شريك في ذلك أيضاً، فقد ورد عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «مَنْ أَحَبَّ قَوْماً حُشِرَ معهم، وَمَنْ أَحَبَّ عَمَلِ الْقَوْمِ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِمْ»^(١).

ومضافاً إلى ما تقدّم من جواب، يمكن أن تقدّم أطروحة أخرى وهي أن عهد الإمام القائم عليه السلام ليس كعهدها، وأيامه ليست كإيامنا، ونظامه ليس كنظامنا، ومن تلك القوانين التي لم نعهدها وسوف تتحقّق في عهد قيام دولته المباركة هو قانون الرجعة الذي نصّت عليه روايات أهل البيت عليهم السلام، فيرجع مَنْ مُحْضَ الإيْمَانِ مُحْضاً وَمَنْ مُحْضَ الْكُفْرِ مُحْضاً، ولا شكّ في أنّ قتلة الإمام الحسين عليه السلام هم مَنْ مُحْضُوا الْكُفْرَ مُحْضاً مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وسيكون القتل موجّه إلى هؤلاء، وهم كثيرون بطبيعة الحال. هذا، وأنّ الأدلّة على الرجعة كثيرة، منها ما ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «أَوَّلُ مَنْ تَشَقَّقَ الْأَرْضُ عَنْهُ وَيَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام، وَأَنَّ الرُّجْعَةَ لَيْسَتْ بِعَامَّةٍ، وَهِيَ خَاصَّةٌ، لَا يَرْجِعُ إِلَّا مَنْ مُحْضَ الإيْمَانِ مُحْضاً أَوْ مُحْضَ الشُّرْكِ مُحْضاً»^(٢).

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ﴾^(٣).

وفيا يتعلق بهذه الآية الكريمة نرى أنّ بعض العلماء وخاصةً مَنْ كتبوا عن الثورة الحسينية قد تناولوها بشيء من التحليل، اعتماداً على الرواية التي وردت في

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٦٥، ص ١٣١.

(٢) الحلي، الحسن بن سليمان، مختصر بصائر الدرجات: ص ١٢٣.

(٣) الصافات: آية ١٠٧.

كتاب (الخصال) ونفسها في كتاب (عيون أخبار الرضا)، اللذين هما من مؤلفات الشيخ الصدوق عليه السلام، والتي تُبين الرابطة بين هذه الآية وبين الإمام الحسين عليه السلام، فقد قال: «حدّثنا عبد الواحد بن محمد بن عبدوس النيسابوري العطار (رضي الله عنه)، قال: حدّثنا علي بن محمد بن قتيبة النيسابوري، عن الفضل بن شاذان، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: لما أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام أن يذبح مكان ابنه إسماعيل الكبش الذي أنزله عليه، تمنى إبراهيم عليه السلام أن يكون قد ذبح ابنه إسماعيل عليه السلام بيده، وأنه لم يؤمر بذبح الكبش مكانه؛ ليرجع إلى قلبه ما يرجع قلب الوالد الذي يذبح أعزّ ولده بيده، فيستحقّ بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، فأوحى الله عز وجل إليه: يا إبراهيم، من أحبّ خلقي إليك؟ فقال: يا ربّ، ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ من حبيبك محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم، أفهو أحبّ إليك أم نفسك؟ قال: بل هو أحبّ إليّ من نفسي. قال: فولده أحبّ إليك أم ولدك؟ قال: بل ولده. قال: فذبح ولده ظملاً على أيدي أعدائه أوجع لقلبك أو ذبح ولدك بيدك في طاعتي؟ قال: يا ربّ، بل ذبح ولده ظملاً على أيدي أعدائه أوجع لقلبي. قال: يا إبراهيم، فإنّ طائفة تزعم أنّها من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ستقتل الحسين عليه السلام [ابنه من بعده ظملاً وعدواناً كما يُذبح الكبش، ويستوجبون بذلك سخطي. فجزع إبراهيم عليه السلام لذلك وتوجّع قلبه وأقبل يبكي، فأوحى الله عز وجل إليه: يا إبراهيم، قد فديت جزعك على ابنك إسماعيل - لو ذبحته بيدك - بجزعك على الحسين عليه السلام وقتله، وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾...»^(١).

ولعلّ هذه الرواية هي الوحيدة التي أوّلت آية الفداء أو الذبح العظيم بالإمام الحسين عليه السلام.

ويقع الكلام في هذه الرواية من جهتين:

(١) الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ص ٥٨-٥٩. وأنظر: الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ١٨٧-١٨٨.

الجهة الأولى: السند

من الواضح أنّ الشيخ الصدوق عليه السلام يروي هذه الرواية عن عبد الواحد بن محمد ابن عبدوس، وهو من مشايخ الصدوق الذين ترصّي عليهم في أكثر من موضع، وخاصّة في كتابه (عيون أخبار الرضا عليه السلام) وفي مشيخته، لكنّ السيّد الخوئي رحمته الله يرى أنّ الترصّي منه عليه السلام لا يلزم منه وثاقة من يروي عنه، فقد قال ما نصّه: «كلام الصدوق عليه السلام لا يدلّ على توثيق عبد الواحد، بل ولا على حسنه، فإنّ تصحيح الصدوق خبره غايته أنّه يدلّ على حجّيته عنده لأصالة العدالة التي بنى عليها غير واحد، وأمّا التوثيق أو المدح فلا يستفاد من كلامه... فالرجل مجهول الحال، والله العالم»^(١).

إلا أنّ الشيخ الإيرواني ناقش هذا الرأي أو المبني الرجالي للسيّد الخوئي رحمته الله، وفرّق بين الترصّي العامّ والترصّي الخاصّ، فقد قال: «وكان [أي: السيّد الخوئي] يستشهد بقول الإمام الصادق عليه السلام (اللهمّ ارحم تلك الوجوه التي تقلّبت على قبر أبي عبد الله). وهل هذا يدلّ على أنّ كلّ هؤلاء ثقة وأعظم؟! كلاً: فطلب الرحمة والمغفرة ليس فيه دلالة على ذلك، [وهنا يناقش الشيخ الإيرواني هذا الكلام فيقول: إنّ الترصّي الخاصّ هو الذي فيه دلالة، أمّا الترصّي العامّ (اللهمّ اغفر للمؤمنين والمؤمنات) فهو ليس فيه دلالة عرفية، فمن يريد أن يدعي ذلك فهو يدّعيه في الترصّي أو الترحّم عن الشخص الخاصّ»^(٢).

وعلى أيّة حال، يبقى الترصّي هو العمدة في وثاقة أو صلاح حال ابن عبدوس؛ إذ نرى أحياناً أنّ الشيخ الصدوق قد يترك شيخه دون ترصّي، بل وأحياناً أخرى قد يُصرّح بفساد عقيدته في موضع آخر كما في أحمد بن الحسين الضبي، فقد قال عنه:

(١) الخوئي، أبو القاسم، معجم رجال الحديث: ج ١٢، ص ٤٢.

(٢) الإيرواني، باقر، بحث الفقه (البحث الخارج للأستاذ الشيخ باقر الإيرواني)، ٢١ محرّم لسنة

١٤٣٨ هـ، على الموقع: <http://www.eshia.ir/feqh/archive/text/iravani/feqh>

«وما لقيت أنصب منه، وبلغ من نصبه أنه كان يقول: اللهم صلّ على محمد فرداً»^(١).

ويرى الشيخ الإيرواني أنّ فساد العقيدة لا يصلح أن يكون شاهداً على عدم الوثاقة، فكيف بحال من ترصّى عليه الشيخ الصدوق عليه السلام في مواضع كثيرة وأكثر النقل عنه، وخاصّة في كتاب (عيون أخبار الرضا عليه السلام)، فهذه شواهد مع بعضها قد تصلح كقرينة على وثاقته أو حسن حاله. يقول المحسني: «إذا ترخّم واحد من الأجلّاء العلماء على أحدٍ، أو ترصّى عن أحدٍ، لا في مورد وموردين، بل في موارد كثيرة، يكشف ذلك عن حسنه، فنعتمد على رواياته»^(٢).

أمّا علي بن محمد بن قتيبة فقد ذكره السيّد الخوئي رحمته الله في معجمه، وذكر عدّة نقاط دلّت على وثاقته أو فضله وحسنه، لكنّه ردّها جميعاً، وقال بعدم وثاقته، وأنّه مجهول الحال، وعبارته في المقام هي: «أقول: وقع الخلاف في اعتبار علي بن محمد القتيبي وعدمه، فقليل باعتباره، واستدلّ على ذلك بوجوه:

الأول: اعتماد الكشي عليه حيث إنّه يروي عنه كثيراً.

ويرد عليه ما يأتي عن النجاشي في ترجمته [أي: الكشي] من أنّه يروي عن الضعفاء كثيراً.

الثاني: حُكم العلامة بصحّة روايته.

وجوابه: أنّ ذلك منه مبني على أصالة العدالة التي لا نقول بها، ومّر ذلك مراراً.

الثالث: حُكم الشيخ [أي: الطوسي] عليه بأنّه فاضل، فهو مدح يدخل الرجل به

في الحسان.

والجواب: أنّ الفضل لا يُعدّ مدحاً في الراوي بما هو راوٍ، وإنّما هو مدح للرجل في

نفسه باعتبار اتّصافه بالكمالات والعلوم، فما عن المدارك من أنّ علي بن محمد بن قتيبة

غير موثّق ولا ممدوح مدحاً يُعتدّ به، هو الصحيح، والله العالم»^(٣).

(١) الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٣١٢.

(٢) المحسني، محمد آصف، بحوث في علم الرجال: ص ٩٦.

(٣) الخوئي، أبو القاسم، معجم رجال الحديث: ج ١٣، ص ١٧١-١٧٢.

ولكن مع مدح الشيخ الطوسي عليه السلام لابن قتيبة وكونه روى هذه الرواية عن الفضل بن شاذان وليس عن ضعيف، ومصاحبته للفضل بن شاذان وروايته لكتبه كما ذكر ذلك النجاشي عليه السلام في قوله: «علي بن محمد بن قتيبة النيشابوري (النيسابوري) - عليه اعتمد أبو عمرو الكشي في كتاب الرجال - أبو الحسن، صاحب الفضل بن شاذان، ورواية كتبه»^(١). وكذلك ما ذهب إليه الوحيد البهبهاني عليه السلام في فوائده من أن كثرة الاعتماد قرينة على الوثاقة أو الاعتبار، فقد قال ما نصّه: «اعتماد شيخ على شخص وهو إمارة الاعتماد عليه كما هو ظاهر، ويظهر من (النجاشي والخالصة) في علي بن محمد ابن قتيبة، فإذا كان جمع منهم اعتمدوا عليه فهو في مرتبة معتدّ بها من الاعتماد، وربما يُشير إلى الوثاقة»^(٢). فهذه القرائن تصلح لتصحيح أو اعتبار رواية ابن قتيبة.

كما أنّ هذا كلّ بناءً على مسلك الوثاقة، أمّا على جعلنا الوثوق مسلكاً لقبول الروايات، فهناك قرينة تدعو للاطمئنان بصدور الرواية عن المعصوم عليه السلام، وهي أنّ ابن قتيبة كان يروي عن كتب الفضل بن شاذان، والتي بلغ عددها (١٨٠) كتاباً، وهذا يعني احتمال أنّ الرواية مروية من كتب الفضل بن شاذان بالإجازة وليست سماعاً، والأخير قد رواها بغير واسطة عن الإمام الرضا عليه السلام، والذي يُقوّي هذا الاحتمال هو ما نراه في متن هذه الرواية من التعبير بلفظ (حدّثنا) في رواية الصدوق عن ابن عبدوس، وكذلك في رواية ابن عبدوس عن ابن قتيبة، بينما لا نجد ذلك في رواية ابن قتيبة عن الفضل بن شاذان وإنّما وجدنا بلفظ (عن)، بمعنى أنّه لم يتحمّل الرواية عن الفضل بن شاذان سماعاً وإنّما تحمّلها بإجازة رواية الكتب؛ وبما أنّ كتب ابن شاذان معلومة في زمانه، فنحتمل صحّتها والاطمئنان بصدورها من هذه الجهة، حتّى مع جهالة حال ابن قتيبة.

أمّا الفضل بن شاذان فقد ورد في حقّه كثير من عبارات المدح، منها ما عن

(١) النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي: ص ٢٥٩.

(٢) الوحيد البهبهاني، محمد باقر، الفوائد الرجالية: ص ٥٠.

المعصوم كالإمام الحسن العسكري عليه السلام: «أغبط أهل خراسان لمكان الفضل بن شاذان وكونه بين أظهرهم»^(١)، ومنها ما قاله النجاشي في حقّه: «أحد أصحابنا الفقهاء والمتكلمين، وله جلالة في هذه الطائفة، وهو في قدره أشهر من أن نصفه»^(٢)؛ وبالتالي فهو غني عن البحث في وثاقته (رضوان الله عليه).

الجهة الثانية: المتن

وفي هذه الجهة من البحث فقد جرى حديث من قبل الأعلام في بيان حقيقة الفداء في الآية الشريفة، وكيف يكون هو الإمام الحسين عليه السلام بناءً على الرواية المتقدمة، مع العلم أنّه عليه السلام أعلى منزلةً ومقاماً من إسماعيل عليه السلام.

وقد ذكر الشيخ المجلسي رحمته الله في كتابه (بحار الأنوار) الإشكال المتقدّم وجوابه معاً، وحاصل ما أفاده في الجواب هو أنّ الفداء إنّما كان ابتداءً عن إسماعيل عليه السلام، ولكنه امتدّ إلى جميع سلسلة نسبه عليه السلام وصولاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وانتهاءً بالإمام الحسين عليه السلام؛ وعليه «فإذا عوض من ذبح إسماعيل بذبح واحد من أسباطه وأولاده وهو الحسين عليه السلام، فكأنّه عوض عن ذبح الكلّ وعدم وجودهم بالكلية بذبح واحد من الأجزاء بخصوصه، ولا شكّ في أنّ مرتبة كلّ السلسلة أعظم وأجلّ من مرتبة الجزء بخصوصه»^(٣).

إلا أنّ الشيخ المجلسي رحمته الله بعد ذلك لم يقبل هذا الإشكال أساساً، وذهب إلى أنّ الفداء حصل بجزع إبراهيم عليه السلام وليس بالإمام الحسين من أجل ولده إسماعيل وسلسلة الآباء، فقال: «وأقول: ليس في الخبر أنّه فدى إسماعيل بالحسين، بل فيه أنّه فدى جزع إبراهيم على إسماعيل، بجزعه على الحسين عليه السلام، وظاهر أنّ الفداء على هذا

(١) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ٢٧، ص ١٠١.

(٢) النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي: ص ٣٠٧.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٢٢٦. البحراني، عبد الله، العوالم - الإمام

الحسين عليه السلام: ص ١٠٧.

ليس على معناه، بل المراد التعويض، ولما كان أسفه على ما فات منه من ثواب الجزع على ابنه، عوّضه الله بما هو أجل وأشرف وأكثر ثواباً، وهو الجزع على الحسين عليه السلام»^(١).

وهنا يرى المجلسي رحمته الله أن الآية - مورد البحث - بناءً على هذا الوجه «تحتمل وجهين: الأول: أن يُقدّر مضاف، أي: فديناه بجزع مذبوح عظيم الشأن. والثاني: أن يكون الباء سببية، أي: فديناه بسبب مذبوح عظيم بأن جزع عليه»^(٢).

وذكر التستري في (الخصائص الحسينية) ما نصّه: «**وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ**» فقد ورد أنّ الذبح العظيم هو الحسين عليه السلام، ولا يلزم منه كون مرتبة المفدى أعظم، بل المعنى وفديناه بما فديناه بسبب الذبح العظيم الذي يخرج من صلبه، أو المعنى أنّه تبدّل فداؤه لرّبّه بفداء آخر أعظم؛ وحصلت هذه المرتبة العظمى من جعل النفس فداءً في سبيل الله للحسين عليه السلام»^(٣).

وفيه: إنّ الخبر المتقدم عن الإمام الرضا عليه السلام ليس فيه دلالة واضحة على أنّ الذبح العظيم هو الإمام الحسين عليه السلام، على الرغم من استظهار ذلك من قبل البحراني في (العوامل)، والمجلسي في (البحار)، والتستري في (الخصائص) - بحسب ما يبدو من عبارتهم -؛ إذ يظهر منهم (رحمهم الله) أنّ فداء إسماعيل عليه السلام كان بسبب الذبح العظيم الذي هو الحسين عليه السلام. نعم، قد اختلف عنهم البحراني الذي افترض أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان فداءً لسلسلة الآباء التي ابتدأت بإسماعيل والتي يكون هو عليه السلام جزءاً منها.

وربما قيل: إنّ سياق الآيات فيه ظهور على أنّ المفدى عنه هو إسماعيل عليه السلام؛ وعليه فكيف يكون الحسين هو المفدى؟

وجوابه: إنّ المفدى عنه في الآية ليس بالضرورة هو إسماعيل، فإنه وإن كان

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٢٧.

(٣) التستري، جعفر، الخصائص الحسينية: ص ٢٧٣-٢٧٤.

ظاهراً من السياق - المتقدّم - إلى حدّ ما، إلّا أنّ ذلك لا يمنع من ظهور آخر، وهو أنّ المفدى عنه مسكوت عنه، واكتفت الآية بوجود الضمير في (وفديناه)، ويدعم هذا القول أنّ الذبح لإسماعيل عليه السلام لو حصل لكان إسماعيل نفسه الذبيح والفداء لذلك الشيء المضمّر، وهو قد يكون بيت الله الذي رفع إبراهيم عليه السلام قواعده، أو دين الله تعالى؛ وعلى هذا لا يكون الإمام الحسين عليه السلام فداءً لإسماعيل عليه السلام، بل هو فداء الدين الحنيف لله تعالى الذي يُعدّ البيت أوّل رمز أقيم له. فهذه التضحية والفداء يجب أن تكون عظيمة؛ لأنّها متعلّقة بدين الله تعالى، وهو أمر جليل وعظيم، لا يليق به إلّا دم زكي وعظيم كدم الحسين عليه السلام.

إشكال وجوابه

تقرير الإشكال: إنّ الروايات متضاربة على أنّ الفداء كان بكبش، وأنّ المفدى عنه بذلك الكبش هو إسماعيل عليه السلام، فكيف لنا تأويل وحمل الفداء على الإمام الحسين عليه السلام؟

والجواب عنه يكون بعدة نقاط:

الأولى: إنّ حمل الفداء على الإمام الحسين عليه السلام من قبيل التأويل وليس التفسير، فالفداء كتفسير ظاهر هو الكبش والمفدى هو إسماعيل عليه السلام، وهذا موجود في روايات الفريقين التي وصلت حدّ الاستفاضة إن لم نقل: إنّها متواترة.

أمّا تأويلاً، فالفداء هو الإمام الحسين عليه السلام والمفدى عنه هو دين الله تعالى. وممّن أشار إلى هذا المعنى التستري رحمه الله في ذيل قوله المتقدّم، وكذلك السيّد محمد الصدر رحمه الله في قوله: «وهو لم يفد إسماعيل الذبيح (سلام الله عليه)، كما هو ظاهر السياق، بل وقع السياق في سبيل الله وفي طريق توحيد الله وطاعته»^(١).

الثانية: إنّ الروايات وإن أطلقت لفظ الكبش على ما فُدي به إسماعيل عليه السلام، إلّا

(١) الصدر، محمد، أضواء على ثورة الإمام الحسين عليه السلام: ص ١٠١.

أنّه يمكن أن تُطلق هذه المفردة على غير المعنى المعروف؛ لأنّه ورد في كتب اللغة أنّ «كَبَشُ القومِ: رئيسُهم وسيّدُهم، وقيل: كَبَشُ القومِ حاميتُهم والمنظورُ إليه فيهم - أدخل الهاء في حامية للمبالغة - وكَبَشُ الكتيبة: قائدها»^(١).

وقد أطلقت غير واحدة من الروايات هذا العنوان على الرجل الذي يُقتل بغير حقّ، أو الرجل المهمّ الذي له منزلة وقيادة بين قومه، ومنها عن الإمام الرضا عليه السلام: «إنّ من علامات الفرج حدثاً يكون بين المسجدين، ويُقتل فلان من ولد فلان خمسة عشر كبشاً من العرب»^(٢).

وإلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله:

عباس كبش كتيبي وكناتي وسري قومي بل أعزّ حصوني^(٣)

ومنها أيضاً ما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام في روايته لابن شبيب بتشبيهه مقتل الإمام الحسين عليه السلام بذبح الكبش، فقد قال عليه السلام: «يا بن شبيب، إن كنت باكبياً لشيء فابكٍ للحسين بن علي بن أبي طالب؛ فإنّه ذُبِحَ كما يُذبح الكبش...»^(٤). فهي تشبيهه للرجل الذي يُقتل ظلماً دون اعتبار لإنسانيته وبشريته، فضلاً عمّن كان في مقام الحسين عليه السلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله، إضافة إلى ما نزل في شأنه وشأن أبيه وأمه وأخيه من الآيات القرآنية الواضحة والجلية، المبيّنة لفضلهم ومنزلتهم عند الله تعالى: كآية التطهير، والمباهلة، وآية ذوي القربى. وكذلك أقوال رسول الله صلى الله عليه وآله فيه وفي هؤلاء المعصومين عليهم السلام، التي كانت تحدث أمام أنظار المسلمين ومسامعهم نهائياً جهاراً.

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٦، ص ٣٣٨.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٣٧٥-٣٧٦.

(٣) البيت من قصيدة طويلة للشيخ حسن قفطان رحمته الله، أنظر: شبّر، جواد، أدب الطف أو شعراء الحسين عليه السلام: ج ٧، ص ١١٣.

(٤) البحراني، عبد الله، العوالم - الإمام الحسين عليه السلام: ص ٥٣٩.

نتيجة البحث

نستخلص مما تقدّم النتائج الآتية:

١- إنّ المتتبع للمنهج التأويلي لأهل البيت عليهم السلام يرى جلياً ودون أدنى شك أنّهم يحملون القرآن في صدورهم، ويعلمون بظاهره وباطنه ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه و... وما تعدّد الأساليب في منهجهم التفسيري أو التأويلي إلا لأنهم يعلمونه بجميع أبعاده، ويثبتون للأمة - من خلال ذلك - بأنهم عليهم السلام أهل، وغيرهم مهما حاول في سبر أغواره واقتفاء أثره من دون الاستعانة بهم عليهم السلام فدونه خرط القتاد.

٢- قد تجلّت لنا في هذا البحث الصورة التي رسمها أهل البيت عليهم السلام للعلاقة بين الإمام الحسين عليه السلام والقرآن الكريم، مبيّنين في هذا الصدد الكثير من الآيات القرآنية التي تصدق ظاهراً وأحياناً وباطناً أحياناً أخرى على الإمام الحسين عليه السلام، وليس ذلك بغريب، فالقرآن مع الحسين والحسين مع القرآن لم يفارقه حتى بعد استشهاده وتعليق رأسه الشريف على الرمح، فقد نُقل أنّه كان يُرْتَل - وهو في تلك الحالة - قوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيِّ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (١).

٣- من خلال ملاحظتنا للآيات القرآنية المتقدمة نرى أنّ القرآن قد أشار إلى قضية الإمام الحسين عليه السلام في أكثر من مناسبة تفسيراً وتأويلاً، وهذه الإشارات والبيانات تعطينا حافزاً ودافعاً إلى أن نتعلّق بالحسين عليه السلام أكثر وأكثر، وأن ندعو الأمة الإسلامية بكلّ طوائفها ومللها ومذاهبها إلى التمسك بالحسين عليه السلام منهجاً وسيرةً وقلباً ووجداناً؛ لأنّها إن كانت مع الحسين فهي مع القرآن ومع ما يُريده القرآن، وإن كانت بعيدة عن الحسين عليه السلام كانت بعيدة عن القرآن وعمّا يُريده القرآن.

٤- من خلال البحث ظهر لنا جلياً علاقة الماضي بالحاضر والمستقبل، تلك العلاقة التي بين الإمام الحسين والقائم عليه السلام، وبينهما وبين القرآن. وكأنّ القرآن

(١) الكهف: آية ٩.

الكريم جمع بين الحسين عليه السلام وكربلاء من جهة، وبين القائم عليه السلام ودولة العدل الإلهي من جهة أخرى. وهذا هو النصر العظيم الذي وعد الله به رسله وأنبياءه عليهم السلام ورسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، والذي سيكون لدم الحسين عليه السلام وثورته في قيام هذه الدولة الدور الأبرز والمكانة العظمى؛ لأنّها المظلومية التي لم تعهد البشرية مثيلاً لها على مرّ العصور، وهو صوت الحقّ المطلق الذي أسمع الخافقين، وكشف أنّ الدين الإلهي عزيز، وأنّه يستحقّ منا كلّ شيء؛ لأنّه أمل الإنسانية ودستورها الذي سيحملها إلى السعادة الأبدية. تلك كانت صرخة الإمام الحسين عليه السلام التي ما زالت في وجدان كلّ مؤمن ومسلم.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- ١ - أدب الطف أو شعراء الحسين عليه السلام (من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر)، جواد شبر، دار المرتضى.
- ٢ - الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٣ م.
- ٣ - أضواء على ثورة الإمام الحسين عليه السلام، السيّد محمد محمد صادق الصدر (ت ١٤١٩ هـ)، تحقيق: الشيخ كاظم العبادي، هيئة تراث السيّد الشهيد الصدر، دار مكتبة البصائر، بيروت - لبنان، ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م.
- ٤ - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قمّ المشرفة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ.
- ٥ - بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ)، تحقيق محمد باقر البهبودي، نشر مؤسّسة الوفاء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية المصحّحة، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

٦ - بحوث في علم الرجال، محمد آصف المحسني (ت ١٤٤٠هـ)، مركز المصطفى العالمي للترجمة والنشر، قمّ المشرفة، الطبعة الخامسة، ١٤٣٢هـ.

٧ - بصائر الدرجات الكبرى، محمد بن الحسن الصفار (ت ٢٩٠هـ)، تقديم وتعليق وتصحيح: الحاج ميرزا محسن (كوجه باغي)، منشورات الأعلمي، طهران، ١٤٠٤هـ/١٣٦٢ش.

٨ - تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، السيّد شرف الدين الحسيني الأسترآبادي (ت ٩٦٥هـ)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي ﷺ، قمّ المشرفة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٣٦٦ش.

٩ - التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تقديم الشيخ آغا بزرك الطهراني، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

١٠ - تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ)، تحقيق: مجموعة من العلماء، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ.

١١ - تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي (ت ٣٢٠هـ)، تحقيق وطبع ونشر: مؤسسة البعثة، قسم الدراسات الإسلامية، طهران، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٢ - تفسير القمّي، علي بن إبراهيم القمّي (ت نحو ٣٢٩هـ)، تحقيق وتعليق وتقديم: السيّد طيّب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قمّ المشرفة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

١٣ - الخصائص الحسينية، جعفر التستري (ت ١٣٠٣هـ)، انتشارات الشريف الرضي، قمّ المشرفة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١٤ - رجال النجاشي (فهرست أسماء مصنّفی الشيعة)، أحمد بن علي النجاشي الكوفي (ت ٤٥٠هـ)، تحقيق: السيّد موسى الزنجاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قمّ المشرفة، ١٤١٦هـ.

- ١٥ - العوالم (الإمام الحسين عليه السلام)، الشيخ عبد الله البحراني (ت ١١٣٠هـ)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ / ١٣٦٥ش.
- ١٦ - عيون أخبار الرضا عليه السلام، محمد بن علي بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: حسين الأعلمي، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- ١٧ - الغدير، عبد الحسين بن أحمد الأميني (ت ١٣٩٠هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
- ١٨ - الغيبة، محمد بن إبراهيم النعماني (ت نحو ٣٦٠هـ)، تحقيق: فارس حسّون كريم، منشورات أنوار الهدى، قمّ المشرفّة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ١٩ - الفوائد الرجالية، محمد باقر بن محمد أكمل الإصفهاني المعروف بالوحيد البهبهاني (ت ١٢٠٥هـ).
- ٢٠ - الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفّاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ. ق / ١٣٤٨ش.
- ٢١ - الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)، أبو إسحاق أحمد الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- ٢٢ - كمال الدين وتمام النعمة، محمد بن علي بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفّاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قمّ المشرفّة - إيران، ١٤٠٥هـ.
- ٢٣ - لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٢٤ - مختصر البصائر، عزّ الدين الحسن بن سليمان الحليّ (ت ٨٣٠ هـ)، تحقيق مشتاق المظفر، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قمّ المشرفة، الطبعة الأولى، ١٣٢١ هـ.

٢٥ - معجم رجال الحديث، السيّد أبو القاسم الخوئي (ت ١٤١٣ هـ)، تحقيق: مجموعة من العلماء، مؤسسة الإمام الخوئي الإسلامية، النجف الأشرف.

٢٦ - وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحرّ العاملي (ت ١١٠٤ هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لتحقيق التراث، قمّ المشرفة، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ.

المواقع الإلكترونية

27 - <http://www.eshia.ir/feqh/archive/text/iravani/feqh/37/380121>.

التناصّ القرآني في خطاب المسيرة الحسينية

مرحلة الأسر أنموذجاً

(القسم الثاني)

أ. م. د. زهراء البرقعاعي*

التناصّ التحويري (غير التام)

يعدّ التناصّ التحويري (غير التام)، أو (التناصّ غير المباشر)، نوعاً من أنواع التناصّ، ويُقصد به: إنّ منتج النصّ لا يذكر النصّ المُتناصّ معه مباشرةً في نصّه، بل يكتفي بالإشارة إليه، أي: إنّهُ «يُستنبط من النصّ استنباطاً، ويرجع إلى تناصّ الأفكار، أو المقروء الثقافي، أو الذاكرة التاريخية، التي تستحضر تناصّها بروحها، أو بمعناها لا بحرفيتها أو لغتها، وتُفهم من تلميحات النصّ وإيحاءاته، وشفراته وترميزاته»^(١)، فيترك للمتلقي فرصة استنباطه من النصّ، والكشف عنه بالاعتماد على المعارف الثقافية المخزونة في الذاكرة، وقوّة ملاحظته، وحذقه المعرفي.

والتناصّ عند جوليا كرسيفا يعني: «التقاطع داخل نصّ لتعبير قول، مأخوذ من نصوص أخرى»^(٢)؛ إذ إنّ «كلّ نصّ هو تشريب وتحويل لنصّ آخر»^(٣)، وقد ذهب ميشيل فوكو إلى أنّ قضية التناصّ تصبح أمراً ضرورياً لا يجيد عنه نصّ ما، ولكن يبقى الأمر متعلقاً بقدرّة الناصّ الإبداعية وتمكّنه من أدواته.

* أستاذ مساعد في الجامعة الإسلامية، وعضو في القسم النسوي في مؤسّسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية في النجف الأشرف.

(١) عزّة شبل محمد، علم لغة النصّ النظرية والتطبيق: ص ٧٩.

(٢) كرسيفا، جوليا، علم النصّ: ص ٣٢.

(٣) المصدر السابق.

وبذلك فإنّ النصّ الجديد لا بدّ له من أن يحمل جينات النصوص المتناصّة معه، فهو يحمل سمته الإبداعية من خلال إعادته قراءة نصوص قديمة سابقة له، ما يُشكل «امتداداً وتكثيفاً ونقلًا وتعميقاً»^(١).

ومن خلال التناصّ - سيّما التحويري - نستطيع كشف النقاب عن شخصية الناصّ واكتشاف مؤثراته الفكرية؛ لأنّها روافد النصّ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ علينا التسليم بقضية إعادة إنتاج البنى الثقافية اعتماداً على الذاكرة؛ إذ إنّ الخزين المعرفي الذي تخزنه ذاكرة منتج النصّ يخرج ليكون ملائماً لطبيعة النصّ المراد إنتاجه، كما تُشير إلى ذلك بعض نظريات إنتاج النصّ، فالذاكرة «لا تستدعي الأحداث والتجارب السابقة كلّها في تراكم وتتابع، وإنّما تُعيد بناءها وتنظيمها وإبراز بعض العناصر منها وإخفاء أخرى، تبعاً لمقصّدية المنتج والمتلقي»^(٢)؛ ولذلك يعدّ بعض علماء النفس ومنهم كليفورد أنّ «إنتاج الأفكار القديمة في ارتباطات جديدة، هو من قبيل الجهد الإبداعي عند الناصّ»^(٣)؛ إذ يمثّل التناصّ «فسيفساء من نصوص أخرى أُدمجت فيه بتقنيات مختلفة، وهو تعالق الدخول في علاقة نصوص مع نصوص حُدّدت بكيفيات مختلفة»^(٤)، وبذلك فإنّ التناصّ يُعطي للمبدع مجالاً واسعاً للتعامل مع التراث الثقافي؛ إذ يصبح نصّه الإبداعي خلاصةً تمزج بين ثروته الثقافية ومصادره المتعددة، التي ينهل منها ما يساعده على بناء نصوصه، وقد أشارت الدراسات النقدية المعاصرة إلى أنّ هذا النوع من التناصّ هو ناتج عمّا كان يُعرف في الدراسات البيانية الموروثة بالأسلوب الكنائي، وهو «ترك التصريح بذكر الشيء على ذكر ما يلزمه»^(٥).

(١) أنجينو، مارك، مفهوم التناصّ في الخطاب النقدي، مجلة الأديب المعاصر، العدد ٣٢: ص ١٢٣.

(٢) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناصّ: ص ١٤٤.

(٣) قاسم حسين صالح، الإبداع في الفن: ص ١٥.

(٤) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناصّ: ص ١٢١.

(٥) السكاكي، يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم: ص ٥١٢.

والتناصّ التحويري مع القرآن الكريم هو «أن يقتبس المعنى فقط، ويصوغه بلغته الخاصّة، مع الإبقاء على كلّ كلمة من الكلمات الدالّة على الآية»^(١)، وهذا النوع من التناصّ يمكن أن يدخل تحت «التلويح والإيحاء والرمز، وقد يحدث هذا من خلال عمل غير قصدي، فهو نتيجة البيئة والثقافة التي تظهر تأثيراتها في إنتاج النصّ، وترك بصمات في صياغته»^(٢).

١. التناصّ التحويري في خطبة السيّد زينب عليها السلام

نجد ذلك في خطبة السيّد زينب عليها السلام في مجلس يزيد بن معاوية، في قولها: «ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلّا ما قدّمت يدك...»^(٣) فعبارة: «إلّا ما قدّمت يدك»، متناصّة مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(٤)؛ إذ ذكّرت به «عقاب المجرمين الذين يتوهّمون أنّه [أي: يوم القيامة] يوم بعيد أو نسيئة، يقول القرآن: إنّ عقاب المجرمين لواقع، ويوم القيامة لقريب»^(٥)، وقد جعلت خطابها بشكل مباشر موجهاً إلى يزيد؛ ليكون الخطاب أكثر إيلاماً وأشدّ تأنيباً، ونجد من خلال الوحدات اللغوية المستعملة قوّة المواجهة والتحدّي، الدالّة على شجاعتها في مواجهة يزيد وعدم خوفها منه، وإظهار فشلها، وإعلان انتصار الحسين عليه السلام.

وفي قولها عليها السلام: «ألا ساء ما قدّمت لكم أنفسكم، أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون»^(٦)، فقد تناصّ مع قوله تعالى: ﴿كَرِهَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ

(١) البادي، حصة عبد الله، التناصّ في الشعر العربي الحديث: ص ٤٠.

(٢) الشاوي، عبد الهادي، المثل في نهج البلاغة: ص ٥٢.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ١٠٧. وأنظر: ابن طيفور، أحمد بن

طاهر، بلاغات النساء: ص ٣٤. وأيضاً: الطبرسي، محمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ٧١.

(٤) النبا: آية ٤٠.

(٥) الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمل: ج ١٩، ص ٣٦٢.

(٦) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٨٧.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ^(١)، ففي خطبتها بأهل الكوفة انتقلت إلى التركيز على فداحة الفعل المرتكب بحق أهل بيت النبوة عليهم السلام في سياقٍ من التأييب، الذي جاء بأسلوب حازم وثابت، يتناسب ومستوى الانفعال العاطفي والصدمة التي ولدها الحدث، ولقد اعتمدت المرجع القرآني إطاراً للتحدّي والتفريع، باعتبار أنّ المتلقي ما زال على أقل تقدير يملك ذاكرة قرآنية وأيديولوجية إسلامية. «قال أبو جعفر الباقر عليه السلام [في تفسير الآية المتقدمة]: يتولون الملوك الجبارين، ويزينون لهم أهواءهم؛ ليصيبوا من دنياهم. [قال الطبرسي]: وفي هذا توبيخ لأولئك القوم، وتنبية على سوء فعالهم، وخبث عقائدهم، **لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ** ^(٢) أي: بئس ما قدّموا من العمل لمعادهم في الآخرة، **أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** ^(٣) أي: سخط الله عليهم، **وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ** ^(٤)».

وقد أردفت السيدة زينب عليها السلام خطابها مباشرةً بآية قرآنية ثانية، جاءت على شكل استفهام تفرعي: «أتبكون وتنتحبون؟! إي والله، فأبكوا كثيراً، واضحكوا قليلاً» ^(٥)، «والنحيب: رفع الصوت بالبكاء» ^(٦)، وقد تناصّ خطابها مع قوله تعالى: **فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً لِّمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ^(٧)، وهذه الآية جاءت تهديداً للمتخلفين عن الجهاد مع رسول الله صلّى الله عليه وآله في غزوة تبوك، وقد جاء هذا التهديد في صورة الأمر، فليضحك المنافقون في الدنيا قليلاً؛ لأنّها دار فناء، وليبكوا كثيراً في الآخرة التي يومها مقداره خمسون ألف سنة ^(٨)، فالضحك سينتهي بفناء الدنيا، ويستمر البكاء، وهو تهديد وإنذار منها لهم، وفيه تهديد ضمّني، وهو: لا مبرر لضحكٍ وفرحٍ يعقبه بكاءٌ

(١) المائة: آية ٨٠.

(٢) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٢، ص ١٧٠.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٨٧.

(٤) الجوهرى، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح: ج ١، ص ٢٢٣.

(٥) التوبة: آية ٨٢.

(٦) أنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٣، ص ١١١.

طويل وعذاب مستمر، وقد وظفت عليه السلام التناصّ القرآني ليمنح التأثير في المتلقي، فبعد أن دخلت عليه السلام أعماقهم مفسّرة لهم ومصورة الحالة الشعورية التي يعيشونها، مهّدت لخشوع الألباب بعد أن دبّ الندم فيها، وزادت من وتيرة الخطاب لتأنيبهم وتقرّيعهم، ممّا يدلّ على قدرة خطابية عالية، نابعة من قوّة في الشخصية، وإيمانٍ بالقضية التي تدافع عنها.

وفي قولها عليه السلام: «الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه محمد صلى الله عليه وآله، وطهّرنا من الرجس تطهيراً»^(١)، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٢)، فمن خلال مجابتهها مع ابن زياد القائمة على المخاصمة التي تتطلب اختيار وحدات لغوية معيّنة، واستحضارها للنصّ القرآني، تفتح المجال أمام قراءات متعددة، تبيّن من خلالها موقعها ومكانتها وصفاتها، ممّا يعطيها زخماً مضاعفاً في المجابهة؛ لأنّها أظهرت الهوية الحقيقية لها، وحددت انتماءها الديني، مستدعية الذاكرة الجمعية للمتلقي، وهذه الهوية شكّلت موضع اعتزاز وحنة بالغة في نفس ادّعاءات وافتراعات ابن زياد تجاه أهل بيت النبوّة عليهم السلام، ثمّ ردّها إليه، وقد تقدّم بيان أثر التناصّ القرآني مع هذه الآية في القسم الأوّل من هذا البحث.

وقد استشهد عبد الله بن عفيف الأزدي في ردّه على خطبة عبيد الله بن زياد بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بفحوى آية التطهير، وبالمعنى نفسه الذي ذهبت عليه السلام إليه في قوله: «يا بن مرجانة، الكذّاب ابن الكذّاب أنت وأبوك، ومن استعملك وأبوه، يا عدوّ الله، أنتقتلون أبناء النبيين، وتتكلمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين؟! قال: فغضب ابن زياد، ثمّ قال: من المتكلم؟ فقال: أنا المتكلم يا عدوّ الله، أتقتل الذرّيّة الطاهرة التي قد أذهب الله عنها الرجس في كتابه، وتزعم أنّك على دين الإسلام؟!»^(٣)؛ إذ أكّد أنّ الذرّيّة

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ١١٥.

(٢) الأحزاب: آية ٣٣.

(٣) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ١٢٤. وأنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب

المقتولة هي مطهرة ومنزهة من الله تعالى في كتابه العزيز، وهو تناصّ مع المفهوم القرآني في إذهاب الرجس عن أهل البيت عليهم السلام.

وأما قولها (سلام الله عليها): «ما رأيت إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتب عليهم القتال، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتُحاجّ وتُخاصم»^(١)، فقد اعتمد ردها عليها السلام على المنطق القرآني، الذي أعطى مساحة للسيّدة زينب عليها السلام للردّ بنوع من الاعتدال الانفعالي، الذي غرضه بيان الاطمئنان بقضاء الله وإرادته، والإيمان المطلق بالقضية التي استشهد لأجلها الإمام الحسين عليه السلام، وإيكال الحكم إلى الله (جلّ جلاله)، وهو تناصّ غير مباشر مع قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢)، وهذا «يعني من علم الله منه أنه يُقتل ويُصرع في هذه المصارع، وكتب ذلك في اللوح، لم يكن بدّ من وجوده، فلو قعدتم في بيوتكم لبرز من بينكم الذين علم الله أنهم يُقتلون إلى مضاجعهم، وهي مصارعهم؛ ليكون ما علم الله أنه يكون. والمعنى أنّ الله كتب في اللوح قتل من يُقتل من المؤمنين، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون؛ لعلمه أنّ العاقبة في الغلبة لهم، وأنّ دين الإسلام يظهر على الدين كلّ، وأنّ ما يُنكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم وترغيب في الشهادة، وحرصهم على الشهادة ممّا يجرّضهم على الجهاد فتحصل الغلبة»^(٣)، وهذا المعنى استدعته السيّدة زينب عليها السلام وصفاً للإمام الحسين عليه السلام ومن قُتل معه على رمضاء كربلاء، وهي مفارقة بين من برز إلى مقتله راضياً محتسباً مدافعاً عن دينه، وبين من قتله وسبى عياله، والفيصل بينهما

الأشراف: ج ٣، ص ٢١٠. وأيضاً: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ١١٧. وأيضاً: ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٩١.
(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٩٤.
(٢) آل عمران: آية ١٥٤.
(٣) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشّاف: ج ١، ص ٦٤٤.

هو المحاجة والمخاصمة عند الله ﷻ الحكم العادل، وجميع هذه المعاني اختصرتها ﷺ بقولها «ما رأيت إلا جميلاً».

وفي خطبتها ﷺ في الكوفة: «وأتى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيّد شباب أهل الجنة، وملاذ حيرتكم، ومفزع نازلتكم، ومنار حجّتكم، ومدرة سنتكم، ألا ساء ما تزرون»^(١)، تناصّ غير مباشر مع قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾^(٢)، «الوزر: الحمل الثقيل. والوزر: الذنب لثقله، وجمعها أوزار»^(٣)، أي:

«ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي: يصير عليهم خطيئة ضالاهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم»^(٤)، أي: «حملهم ذنوب أنفسهم وذنوب من أطاعهم، ولا يُخفف ذلك عن أطاعهم من العذاب شيئاً»^(٥). وقد ورد عن رسول الله ﷺ، «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٦). وهو خطاب صريح لأهل الكوفة، الذين وقعوا في جرم قتل الإمام الحسين ﷺ.

أو تناصّ مع قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾^(٧)، فيها - أي: خطبتها ﷺ في الكوفة - مقارنة بين أهل الكوفة وتفريطهم بالإمام

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٨٧.

(٢) النحل: آية ٢٥.

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٥، ص ٢٨٢.

(٤) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم: ج ٢، ص ٥٨٧.

(٥) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ١٥، ص ٢٦٩.

(٦) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم: ج ٢، ص ٧.

(٧) الأنعام: آية ٣١.

الحسين عليه السلام، ومن كذبوا بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله ولقاء الله تعالى، والنتيجة المترتبة على هذا التفريط والتكذيب، وهي الندم والحسرة والتأسف الشديد.

وفي قولها عليه السلام: «أفعبتكم إن أمطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة أخزى وأنتم لا تُنصرون»^(١)، تناصّ غير مباشر مع قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٢)، وهو خطاب تهديد وإنذار وترويع لأهل الكوفة بالقوّة الإلهية المطلقة، التي سوف تُنزل بهم عذاباً أليماً، وهو أشدّ خزيّاً لهم من عذاب الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال.

٢. التناصّ التحويري في خطب الإمام زين العابدين عليه السلام

في خطبة الإمام علي بن الحسين عليه السلام نجد تناصّاً غير مباشر مع النصّ القرآني في قوله عليه السلام: «أنا ابن من مُحمّل على البراق في الهوا، أنا ابن من أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسبحان من أسرى»^(٣)، فقد تناصّ مع قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٤)؛ إذ أراد عليه السلام تذكير أهل الشام والمسلمين عامّة بأعظم حدث إسلامي؛ وأعظم آية على نبوّة جدّه وجدّ أبيه الرسول محمد صلى الله عليه وآله - وهو الإسراء بالرسول ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذي لا يمكن لأحد إنكاره - تعريضاً بيزيد الذي ادّعى أنّ الحسين عليه السلام خارجي، وتعريضاً بهويته وامتداد أسرته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد اختار هذا الوصف تحديداً لبيان المعجزة الربانية

(١) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ٨٧.

(٢) فضّلت: آية ١٦.

(٣) الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٧٦-٧٨. وأنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ١٣٨. وأيضاً: ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٤، ص ٨٢.

(٤) الإسراء: آية ١.

العظيمة التي بيّنت «مشاهدة الرسول ﷺ لأسرار العظمة الإلهية في أرجاء عالم الوجود، لا سيّما العالم العلوي الذي يشكّل مجموعة من براهين عظمته»^(١).

وكذلك قوله عليه السلام «أنا ابن مَن بلغ به جبرائيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن مَن دنا فتدلّى فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن مَن صلّى بملائكة السماء، أنا ابن مَن أوحى إليه الجليل ما أوحى»^(٢)، فقد تناصّ الخطاب مع قوله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾^(٣). فقد استكمل عليه السلام بيان المعجزة الربّانية التي تفرّد بها جدّه ﷺ بعروجه إلى السماء السابعة، وقد وصل ﷺ إلى مقام لم يستطع جبرئيل أن يصل إليه، فقال للرسول ﷺ: «ليس لي أن أجوز هذا المكان، ولو دنوت أنمّلة لاحتقرت»^(٤). «قال أبو عبد الله عليه السلام: أول مَن سبق من الرسل إلى (بلى) رسول الله ﷺ، وذلك أنّه كان أقرب الخلق إلى الله تبارك وتعالى، وكان بالمكان الذي قال له جبرئيل: - لما أسري به إلى السماء - تقدّم يا محمد، فقد وطأت موطناً لم يطأه ملك مقرب، ولا نبيّ مرسل، ولولا أنّ روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه، فكان من الله عزّ وجلّ كما قال الله: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾»^(٥).

وقد منح التناصّ القرآني الخطاب بشكل عامّ «القدرة على تكثيف الصورة وإيجازها، مع دقّة اختيار المعنى وتعميقه في النفوس؛ إذ تُثير المفردة القرآنية المقتبسة في النصّ الخطابي وجدان المتلقي، فتنقله إلى أجواء التصوير القرآني المستحضر بسرعة، وبأقل قدر ممكن من الكلمات، هذا ناتج من الفهم العميق للآيات القرآنية، والعلاقة المتبادلة بين الخطاب القرآني وخطاب المسيرة الحسينية»^(٦).

(١) الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل: ج ٨، ص ٣٩١.

(٢) الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٧٦-٧٨. وأنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ١٣٨. وأيضاً: ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٤، ص ٨٢.

(٣) النجم: آية ٨-١٠.

(٤) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٣، ص ١٨.

(٥) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٥، ص ٢٣٦.

(٦) العارضي، هادي سعدون، التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية من مكّة إلى المدينة: ص ٤٠.

٣. التناصّ التحويري في خطبة السيّدة فاطمة الصغرى عليها السلام

وفي خطبة السيّدة فاطمة الصغرى في الكوفة نجد تناصّاً تحويرياً في قولها: «اللهمّ إني أعودُ بك أن أفترىَ عليك بالكذب»^(١)، وهو تناصّ مع قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢)؛ إذ أرادت عليها السلام نفي الافتراء عن نفسها على الله سبحانه وتعالى، والافتراء هو: «الكذب في حقّ الغير بما لا يرتضيه»^(٣)، وهو «اختراع قضية لا أصل لها»^(٤)، «قال الزجاج: في هذه الآية أعظم دلالة لنبوة محمد نبينا صلّى الله عليه [وآله] وسلّم»^(٥)، فقد جاء في سبب نزولها: أن رسول الله صلّى الله عليه وآله أخبر أهل الكتاب بأنّه لا يوجد في كتابهم (التوراة) ما يدّعونه من تحريم بعض الأطعمة عليهم، ولإتمام الحجّة عليهم أمرهم أن يأتوا بالتوراة، فأبوا^(٦). وعليه؛ فمعنى الآية: «فمَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ مِنَّا وَمِنْكُمْ، من بعد مجيئكم بالتوراة، وتلاوتكم إيّاها وعدمكم^(٧) ما ادّعيتم من تحريم الله العروق ولحوم الإبل وألبانها فيها، فأولئك هم الظالمون»^(٨). وقد وصف الله تعالى المفترين على الله الكذب بأنّهم أظلم خلقه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٩). ونجد أنّها عليها السلام أرادت نفي صفة الافتراء عن نفسها في مقدّمة خطبتها، لما سوف

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٨٨.

(٢) آل عمران: آية ٩٤.

(٣) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، الفروق اللغوية: ص ٤٤٩.

(٤) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم: ج ١، ص ٢٠٧.

(٥) القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣، ص ١٣٣.

(٦) أنظر: المصدر السابق.

(٧) (وعدمكم) هكذا في المصدر، والصحيح: (وعدم).

(٨) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن: ج ١٤، ص ٣٣.

(٩) الأنعام: آية ٢١.

تُضمّنه من أقوال في خطبتها، وهناك معنى مستلزم من نفيها الافتراء عن نفسها؛ غرضه الإشارة إلى انطباق مفهوم الافتراء والكذب على ظلمهم (قتلة الإمام الحسين عليه السلام) الذين ادّعوا أنّ الإمام الحسين عليه السلام خرج على إمام زمانه، وأنّ أهل بيته من الخوارج، وغيرها من الافتراءات الكثيرة، وقد ذكرت ذلك عليه السلام صراحةً في خطبتها بقولها: «وفرحت قلوبكم افتراءً منكم على الله»^(١)، عندما وصفت فعلهم الشنيع في قتلهم وقتل جدّهم - إشارة إلى أمير المؤمنين عليه السلام - بقولها: «فكذبتمونا، وكفّرتونا، ورأيتم قتالنا حلالاً، وأموالنا نهباً، كأننا أولاد ترك أو كابل، كما قتلتم جدنا بالأمس، وسيوفكم تقطر من دمائنا أهل البيت؛ لحقدٍ متقدّم، قرّت بذلك عيونكم، وفرحت قلوبكم، افتراءً منكم على الله»^(٢).

إنّ الآية الكريمة نزلت للحديث عن أنّه لا أحد أظلم ممّن ذكرهم الله تعالى في هذه الآية، ولا ينفي هذا أن يكون هناك من يساويهم في الظلم، بدلالة أفعال التفضيل في (أظلم). وهذه الآية من سورة الأنعام تقدّمها الحديث عن الذين كفروا وتكذّبهم للقرآن الكريم، ووصفهم إيّاه بالسحر العظيم، فحصل من ذلك افتراءؤهم، وتكذّبهم بالحقّ لَمّا جاءهم، وجعلوا مع الله آلهة سواه، وقد جاءت هذه الآية على طريقة التعجّب من مرتكبهم وسوء حالهم، أي: «من أظلم يا محمّد، من هؤلاء الجامعين بين الافتراء والشرك والتكذيب، مع وضوح الشواهد وكثرة الدلائل الواردة أثناء هذه الآيات، ممّا لا يتوقف فيه مُعتبر، فقد وضح تناسب هذا كلّه، وحقّ لمرتكبه الوصف بالظلم الذي لا يفلح المتصف به وهو ظلم الافتراء على الله والشرك والتكذيب»^(٣). وهذا ينطبق انطباقاً كاملاً على يزيد وأتباعه في أنّهم أظلم خلق الله، فقد افتروا الكذب على سليل النبوّة، ومعدن الرسالة، وكذبوا بآيات الله ودلائله،

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ١١٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الغرناطي، أحمد بن إبراهيم، ملاك التأويل: ج ١، ص ١٤٩.

ووصايا رسوله ﷺ - أو ليس قول يزيد:

لعبت هاشمٌ بالملكِ فلا
خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل^(١)

تكذيب صريح برسالة الرسول ﷺ؟! - خصوصاً أنّ نفي الافتراء عن نفسها - المستلزم لانطباق مفهوم الافتراء على أعدائهم، متضمن من كلّ ما ذكرته من صفات لأمر المؤمنين ﷺ، ومشهود عليه من قبل كلّ المسلمين، وذلك قولها ﷺ: «حتّى قبضته إليك، محمود النقية، طيب العريكة، معروف المناقب، مشهور المذاهب، لم تأخذه فيك اللهم لومة لائم، ولا عذاب عاذل، هديته اللهم للإسلام صغيراً، وحمدت مناقبه كبيراً، ولم يزل ناصحاً لك ولرسولك ﷺ حتّى قبضته إليك زاهداً في الدنيا، غير حريص عليها، راغباً في الآخرة، مجاهداً لك في سبيلك، رضيته فاخترته، فهديته إلى صراط مستقيم»^(٢).

أمّا قولها ﷺ «فاخترته فهديته إلى صراطٍ مستقيم»^(٣) فمتناصّ مع قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٤)، فعن رسول الله ﷺ أنّه قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صراط الأنبياء، وهم الذين أنعم الله عليهم^(٥)، وعن جعفر بن محمد الصادق ﷺ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: الطريق ومعرفة الإمام^(٦)، وعنه ﷺ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: هو أمير المؤمنين ومعرفته^(٧). ففي خطابها ﷺ إشارة إلى أنّه على الرغم من كون الإمام عليّ ﷺ مهدياً وهادياً للحق، فقد قُتل على يد شرار خلق الله وفي بيت من بيوت الله، وهو نفس ما جرى على ولده، الذي قُتل عطشاناً إلى جانب

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ١٠٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٨٨-٨٩.

(٣) المصدر السابق: ص ٨٩.

(٤) الفاتحة: آية ٦.

(٥) الحوزي، عبد علي جمعة، تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٢٠.

(٦) المصدر السابق: ج ١، ص ٢١.

(٧) المصدر السابق.

شط الفرات ظلماً وجوراً على الرغم من كونه لم يخرج إلا لطلب الإصلاح في أمة
جده ﷺ.

وقولها ﷺ: «ومكراً مكرتم والله خير الماكرين»^(١) متناصّ مع قوله تعالى
﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾^(٢)، فأرادت ﷺ أن تبين لهم بأنّ
مؤامراتهم ستعود عليهم وتكون وبالاً عليهم، «فالمكر من المخلوقين: الخبث والخديعة
والخيلة، والمكر من الله: استدراج العبد وأخذه بغتةً من حيث لا يعلم»^(٣)، وهو تهديد
صريح ومباشر يدلّ على التيقن بالقصاص العادل، الذي سيلحق بهم والعذاب الأليم.
أمّا قولها ﷺ: «وسوّّل لكم الشيطان، وأملى لكم، وجعل على بصركم غشاوةً،
فأنتم لا تهتدون»^(٤)، فقد تناصّ مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ
مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾^(٥)، فهي ﷺ تتحدّث عن (بني
أمية) الذين عاشوا في المجتمع الإسلامي وأقروا بإسلامهم المزيّف، وارتكبوا كلّ ما
يخالف الدين الإسلامي من الكبائر والموبقات، خصوصاً قتل سليل النبوة ومعدن
الرسالة الإمام الحسين ﷺ، فقد ارتدّوا على أدبارهم وفاقوا الإيمان، ورجعوا إلى
الكفر بفعلهم هذا، النابع من مجانبتهم الحقّ بعد معرفته، ومما زينه لهم الشيطان من
أعمالهم السيئة فأوها حسنة، أو ما أثاره في داخلهم من مطامع الأنانية وحبّ الذات،
والحياة الدنيا على حساب الآخرة، وقد أملى لهم بما أوحى إليهم من طويل الأمل،
الذي يُثير فيهم أحلام البقاء في الحياة الدنيا، فاستدعى ذلك قتلهم إمام الحق والهدى
الحسين ﷺ، الذي يُجسّد طريق الإسلام المحمدي الأصيل.

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٨٩.

(٢) آل عمران: آية ٥٤.

(٣) البغوي، الحسين بن مسعود، تفسير معالم التنزيل: ج ٢، ص ٤٥.

(٤) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٩٠.

(٥) محمد: آية ٢٥.

وأما قولها **عَلَيْهَا**: «وجعل على بصركم غشاوة، فأنتم لا تهتدون». فقد تناصَّ مع قوله تعالى: **﴿أُولَٰئِكَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾** ^(١)، ومع قوله تعالى: **﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾** ^(٢)، فإنَّ عدم الاهتداء يكون إمَّا بسبب غشاوة الشيطان على أعينهم، أو يكون بسبب تزوين الشيطان لهم أعمالهم، فالمسبب واحد وهو الشيطان، وفي ذلك دلالة على بطلان أعمالهم وخسرانهم في الدنيا والآخرة.

وفي خطبة السيِّدة فاطمة بنت الحسين **عَلَيْهَا**: «والله، قست قلوبكم، وغلظت أكبادكم، وطُبع على أفئدتكم، وُخِّتم على سمعكم وبصركم» ^(٣)، ففي قولها: «وطُبع على أفئدتكم» إشارة إلى قوله تعالى: **﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾** ^(٤)، و«الطبع على القلب»: تمثيل لعدم مخالطة الهدى والرشد لعقولهم بحال الكتاب المطبوع عليه، أو الإناء المختوم، بحيث لا يصل إليه من يحاول الوصول إلى داخله» ^(٥). أما قولها **عَلَيْهَا**: «وُخِّتم على سمعكم وبصركم» ففيه إشارة لقوله تعالى: **﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** ^(٦)، والختم معناه: «التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لا يدخله» ^(٧).

وفي خطاب السيِّدة فاطمة الصغرى نجد تناصاً غير مباشر في قولها **عَلَيْهَا**:

- (١) البقرة: آية ١٧٠.
- (٢) النمل: آية ٢٤.
- (٣) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٩٠.
- (٤) محمد: آية ١٦.
- (٥) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير: ج ٢٦، ص ١٠١.
- (٦) البقرة: آية ٧.
- (٧) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ١٢، ص ١٦٣. وأنظر: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن: ج ١، ص ١٨٦.

«تَبَّ لَكُمْ، فانتظروا اللعنة والعذاب، فكأنَّ قد حلَّ بكم، وتواترت من السماء نقيات، فيسحتكم بعذاب، ويزيق بعضكم بأس بعض، ثمَّ تخلدون في العذاب الأليم»^(١)، مع قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلِكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَرَىٰ﴾^(٢)، والسحت والإسحات في اللغة: هو الإهلاك والاستئصال والشدة^(٣)، وهو تهديد منها عليه السلام لقتلة الإمام الحسين عليه السلام بالاستئصال والعذاب، وقد وصفت هذا العذاب وصفاً دقيقاً.

أما قولها عليها السلام: «وإنَّا لكلِّ امرئٍ ما كسب وما قدّمت يده»^(٤)، فقد تناصَّ مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(٥)، وهو تهديد واضح وصريح لبني أمية وأتباعهم بنصِّ قرآني يتحدث عن أنّ كلَّ امرئٍ يرى يوم القيامة ما قدّم من العمل مثبتاً في صحيفته، ويتمنى الكافر لو يكون تراباً؛ هرباً ممَّا قدّمت يده، إذ «يقول الكافر يومئذٍ تمنيّاً: - لما يلقي من عذاب الله الذي أعدّه لأصحابه الكافرين به - يا ليتني كنت تراباً، كالبهائم التي جعلت تراباً»^(٦).

إذا؛ نلاحظ من كلّ ما تقدّم وبشكل جلي أنّ أهل البيت عليهم السلام هم انعكاس للقرآن الكريم، وأنهم قد عجنوا بمفاهيم القرآن، وتربّوا عليها، وتشرّبوا بها حتّى انعكست عليهم أسلوباً ومنطقاً، وقد مثل التناصُّ القرآني في خطب المسيرة الحسينية مصداقاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله في كونها لن يفترقا حتّى يردا عليه الحوض، فهم من نزل القرآن في بيوتهم فوعوه وحملوه فكراً وإشعاعاً إلينا.

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٨٩-٩٠.

(٢) طه: آية ٦١.

(٣) أنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٢، ص ٤١. وأيضاً: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن: ج ٦، ص ١٨٢. وأيضاً: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٤، ص ١٧٤.

(٤) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٩٠.

(٥) النبأ: آية ٤٠.

(٦) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن: ج ٢٩، ص ٥٣٤.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- ١ - الإبداع في الفن، قاسم حسين صالح، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١ م.
- ٢ - الاحتجاج، أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت ٤٨٤ هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.
- ٣ - الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، محمد بن محمد بن النعمان الملقب بالشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، مؤسسة محبين للنشر، قم المشرفة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ م.
- ٤ - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥ م.
- ٥ - أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٦ هـ)، حققه وعلّق عليه: الشيخ محمد باقر المحمودي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٧ م.
- ٦ - بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣ م.
- ٧ - البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، دقق أصوله وحقّقه: مجموعة باحثين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ٨ - بلاغات النساء، أحمد بن طاهر بن طيفور (ت ٣٨٠ هـ)، دار النهضة الحديثة، بيروت - لبنان، ١٩٧٢ م.
- ٩ - تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤ م.
- ١٠ - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٤ هـ)، مؤسسة التاريخ، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م.

- ١١ - تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، محمد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، المغرب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
- ١٢ - التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية من مكة إلى المدينة، هادي سعدون العارضي، العتبة العلوية المقدّسة، مكتبة الروضة الحيدرية، ٢٠١٢م.
- ١٣ - تفسير البغوي (معالم التنزيل)، الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ)، تحقيق: خالد العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- ١٤ - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: مصطفى البدري، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- ١٥ - تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة الحويزي (ت ١١١٢هـ)، تحقيق: السيّد علي عاشور، مؤسّسة التاريخ العربي.
- ١٦ - التناص في الشعر العربي الحديث، حصة البادي. دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- ١٧ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٩٨٧م.
- ١٨ - علم النصّ، جوليا كرسنيفا، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توجتاك للنشر، المغرب العربي، ١٩٩١م.
- ١٩ - علم لغة النصّ (النظرية والتطبيق)، عزّة شبل محمد، تقديم: سليمان العطار، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- ٢٠ - الفتوح، أحمد بن أعمش الكوفي (ت ٣١٤هـ)، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٢١ - الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: بيت الله بيّات، مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.



- ٢٢ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة.
- ٢٣ - لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري الإفريقي (٧١١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٩٩٩م. وطبعة نشر أدب الحوزة، قم - إيران، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- ٢٤ - اللهوف في قتلى الطفوف، رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤هـ)، دار الأسوة، قم المشرفة.
- ٢٥ - مشير الأحزان، جعفر بن محمد هبة الله بن نوا الحلي (ت ٦٤٥هـ)، مدرسة الإمام المهدي، قم المشرفة.
- ٢٦ - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- ٢٧ - مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- ٢٨ - مقتل الحسين الخوارزمي، أبو المؤيد الموفق محمد بن أحمد المكي (ت ٥٦٨هـ)، تحقيق: العلامة الشيخ محمد السماوي.
- ٢٩ - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، تحقيق: عبد الغني محمد الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ٣٠ - مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ)، المطبعة العلمية، قم المشرفة.
- ٣١ - الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة.

الرسائل الجامعية

٣٢- المثل في نهج البلاغة (دراسة تحليلية فنية)، عبد الهادي عبد الرحمن علي الشاوي، رسالة ماجستير جامعة الكوفة ٢٠٠٧، كلية الآداب / جامعة الكوفة.

المجلات

٣٣- مفهوم التناص في الخطاب النقدي، مارك أنجينو، ترجمة: أحمد المديني، مجلة الأديب المعاصر، بغداد، ١٩٨٦ م.

الآثار المعنوية لنهضة الإمام الحسين عليه السلام

في ضوء الآيات القرآنية

دراسة وصفية تحليلية (القسم الأول)

د. الشيخ أسعد علي السلطان*

مقدمة

إنّ الدارس والمتابع لمجريات واقعة عاشوراء يجد بأنّها امتلكت مقوّمات عديدة: منها شخصية قائدها وحامل لوائها الإمام الحسين عليه السلام، فهو سبط النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، الذي شهد القاصي والداني بأنّه عليه السلام من خيرة الناس. ومنها - أيضاً - أهداف النهضة الواضحة والجلية التي تصبّ في الصالح العام للأمة الإسلامية.

ومنها - كذلك - نوع المحاربين المشاركين في صفّ الإمام الحسين عليه السلام، فقد كان جلّهم من الأفاضل المعروفين بالورع والتقوى والشجاعة والبسالة، سواء أكانوا من أهل بيته عليه السلام أم من أنصاره وأصحابه (رضوان الله تعالى عليهم).

ومن تلك المقوّمات - أيضاً - الصفات التي اتّصف بها الطرف المقابل، فقد كان رأس الهرم فيه هو يزيد الفاسد الفاجر، الذي أخذ له أبوه معاوية البيعة إمّا بالإكراه أو بالإغراء، والذي - لشدة فسقه - لم يدافع عنه حتّى أميره والي المدينة عندما قال له الإمام الحسين عليه السلام قولته المشهورة: «يزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس

* باحث إسلامي وأستاذ في جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالمية، من العراق.

المحرّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»^(١)، ومن تلك الصفات الأفعال الحقيرة والخسيسة التي قام بها الجيش السفيفاني في هذه المواجهة التي مارسوا فيها أشد أنواع التنكيل، من قبيل: حرمان الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه من الماء، هذا السلاح المحظور دينياً وإنسانياً على مرّ العصور والأزمان، وكذلك قتل الأطفال الرضع والنساء، وهتك الحرمات الدينية من خلال قطع الرؤوس والطواف بها في المدن والأمصار، والتمثيل بالجثث، وغير ذلك من الأفعال التي يندى لها جبين الإنسانية.

إنّ جميع ما ذكر من هذه المقوّمات، كان هو السبب الرئيس وراء الانتصار المعنوي الذي حصل لجبهة الحقّ الممثّلة بالإمام الحسين عليه السلام ومنّ معه، وفي ذات الوقت الذي كان يعيش فيه قادة الطرف المقابل زهو الغلبة الظاهرية من الناحية العسكرية، وقد استمرّ هذا الانتصار إلى يومنا هذا، وسيستمرّ بإذن الله تعالى إلى يوم القيامة، هذا الانتصار الذي جعل من هذه الواقعة نهضة معطاء تزخر بالآثار المهمّة والحيوية على الصعيدين المادّي والمعنوي، فهي بحقّ مدرسة في الدين، والأخلاق، والعلم، والثورة، والحبّ، والتضحية، مدرسة تصلح لكلّ زمان ومكان.

ثمّ إنّّه ونظراً لكثرة الآثار الناتجة عن هذه الدراسة التي تُضاف إلى جملة الدراسات الساعية إلى تبين قرآنية النهضة الحسينية على مستوى الأهداف والمنطلقات، أو الأفعال والسلوكيات، أو الآثار والمخرجات، فقد ارتأينا تحديد دائرة البحث في المقام بعرضٍ وتبيينٍ لخصوص الآثار المعنوية التي ذكرها القرآن الكريم في آياته المباركة. فعلى الرغم من أنّ «الهيكل العظمي - إذا صحّ التعبير - للثورة هو أحداثها المادّية التي تقع في الزمان والمكان... ولكنّ هذه الأحداث وحدها، مجردة عن علاقاتها بالذهنية العامة للأمم، ومجردة عن انفعال الأمة بها ونوع استيعابها لها، لا معنى لها ولا دلالة...

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ١٧.

إنّ لحم الأحداث وعصبتها ودمها هو مظاهر انعكاساتها في الذهنية العامة للأمة، وردود الفعل التي بعثها في نفوس مختلف الفئات توقع الثورة. ثمّ ردود الفعل التي بعثتها الثورة بعد أن وقعت. إنّ الثورة بهذا الاعتبار... تكون مؤثرة وفاعلة في محيطها البشري، وبهذا الاعتبار تأخذ مكانها في التاريخ الحيّ للأمة»^(١).

وحتى يكون طرحنا في هذا المقال منظماً وسلساً سوف نوزع الحديث عن الآثار المعنوية المشار إليها على أربعة محاور، هي:

المحور الأوّل: الآثار المرتبطة بالجانب العقدي.

المحور الثاني: الآثار المرتبطة بالجانب الأخلاقي.

المحور الثالث: الآثار التي تعدّ مسائل حيوية في المنظومة الدينية.

المحور الرابع: الآثار المرتبطة بالجانب الحماسي والثوري.

هذا، وإننا لا ندعي القدرة على استيعاب جميع الآثار المشار إليها في هذا المقال؛ وذلك للبركات غير المحدودة المترتبة على هذه النهضة الخالدة؛ ومن هنا كان بناؤنا في المقام على القيام بعرض جملة من الآثار المهمّة والحيوية في كلّ محور من المحاور المذكورة، متّبعين بذلك المنهج الوصفي التحليلي الذي نسعى فيه إلى تبين ظاهرة التماهي الحاصلة بين القرآن الكريم والنهضة الحسينية، هذا التماهي الذي يجعل من النهضة المباركة مصداقاً للمعية التي أقرّها الرسول الكريم ﷺ في حديث الثقلين المتواتر.

المحور الأوّل: الآثار المعنوية المرتبطة بالجانب العقدي

إنّ الذي يستذكر أحداث واقعة الطفّ وما رافقها من كلمات وسلوكيات قائدها الإمام الحسين عليه السلام يجد أنّها مدرسة عقائدية، ثمرتها صقل عقيدة الفرد المسلم وتعميقها في مجال العقائد المرتبطة بالمبدأ والمعاد؛ فإنّ الدمج بين بُعدي العقيدة والتضحية له

(١) شمس الدين، محمد مهدي، ثورة الحسين في الوجدان الشعبي: ص ١٣-١٤.

دلالات عميقة وآثار راسخة، خصوصاً إذا صدر هذا الفعل من شخصية كشخصية الإمام الحسين عليه السلام، التي لاقت بسبب منزلتها من رسول الله صلى الله عليه وآله، وعدم مفارقتها للقرآن، والمظلومية التي وقعت عليها، مقبولية واسعة عند الجميع. هذا، وأن الآثار والثمار المعنوية المرتبطة بهذا المجال نجدها كالاتي:

١. ترسيخ عقيدة التوحيد

إن توحيد الباري عز وجل هو من أكثر العقائد التي وجدت رواجاً في الآيات القرآنية، وقد تنوع الحديث القرآني عن هذه العقيدة من أبعاد شتى، فمن تلك الآيات ما تطرقت إلى التوحيد في مقام الذات، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٢). ومنها ما يدل على التوحيد في مقام الصفات، كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾^(٤)، ومنها ما يدل على التوحيد في الخالقية، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ...﴾^(٥)، أو على التوحيد في التدبير والربوبية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمْرَ...﴾^(٦).

والنوع الأخير من التوحيد الذي يعتبره القرآن الأصل المشترك بين جميع الشرائع السماوية هو التوحيد في العبادة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكُتُبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ

(١) البقرة: آية ١٦٣.

(٢) الإخلاص: آية ١.

(٣) الملك: آية ١٤.

(٤) فاطر: آية ٤٤.

(٥) فاطر: آية ٣.

(٦) يونس: آية ٣.

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا... ﴿١﴾. ومن أجل هذا النوع من التوحيد الإلهي فقد دفع الأنبياء عليهم السلام أثماناً باهظة، من مضايقات وإبعاد وتشريد، بل وإلى إزهاق أرواحهم في أحيان كثيرة. خذ مثلاً ما جرى للنبي إبراهيم عليه السلام، الذي عرّض نفسه للهلاك من أجل الدفاع عن هذا المبدأ، قال تعالى حكاية عمّا جرى بعد قيامه عليه السلام بتكسير الأصنام: **﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفِ لَكُمْ لِكْمٌ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا نَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُم الْأَخْسَرِينَ ﴿٢﴾**.

هذا، ونجد أن توحيد الباري قد تجلّى بأنواعه العديدة في نهضة الإمام الحسين عليه السلام، فهو قبل أن يكون إماماً في السلوك والأخلاق والفضائل، كان إماماً في التوحيد والعقيدة والإيمان، فقد علّمنا (صلوات الله عليه) أدب التكلم مع الله تعالى، وكيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً... ﴿٣﴾. فإن هذا الكلام يدلّ - بأروع ما يمكن - على التوحيد الذاتي (نفي المثل والشريك عن الذات المقدّسة)، وهو البرهان نفسه الذي تجلّى في قوله تعالى: **﴿ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤﴾**.

وأما فيما يخصّ أنواع التوحيد الأخرى، فقد ورد عنه عليه السلام في مقام التوحيد

(١) آل عمران: آية ٦٤.

(٢) الأنبياء: آية ٦٦-٧٠.

(٣) القمي، عباس، مفاتيح الجنان: ص ٤٢٦.

(٤) فصلت: آية ٥٣.

الصفات ما نصّه: «يا مَنْ لا يعلم كيف هو إلا هو، يا مَنْ لا يعلم ما هو إلا هو، يا مَنْ لا يعلمه إلا هو، يا مَنْ كبس الأرض على الماء وسدّ الهواء بالسّماء، يا مَنْ له أكرم الأسماء...»^(١). وفي مقام التوحيد في الخالقية والمدبّرية، فقد ورد عنه عليه السلام في الدعاء ذاته: «اللهم لك الحمد كما خلقتني فجعلتني سميعاً بصيراً، ولك الحمد كما خلقتني فجعلتني خلقاً سوياً رحمةً بي، وقد كنت عن خلقي غنياً، بما برأتني فعدّلت فطرتي. ربّ بما أنشأتني فأحسنت صورتي، ربّ بما أحسنت إليّ وفي نفسي عافيتني...»^(٢)، إلى غير ذلك من المفاهيم التوحيدية التي وردت في هذا الدعاء القيم، والتي تحتاج إلى عمل مستقل من أجل استجلائها والوقوف على آحادها.

كان ما مضى من الحديث متعلّقاً بشخصية الإمام الحسين عليه السلام العامّة، أمّا فيما يرتبط بنهضته المباركة، فإنّ الذي يرصد كلماته وتحركاته عليه السلام بعد رفضه لبيعة يزيد وإلى يوم شهادته على صعيد كربلاء، يجد أنّها مفعمة بالإقرار بالتوحيد، فمنها ما جاء في بداية الكتاب الذي كتبه عليه السلام لأخيه محمد بن الحنفية، الذي جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد المعروف بابن الحنفية: أنّ الحسين عليه السلام يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله»^(٣). ومنها قوله عليه السلام يوم عاشوراء: «صبراً على قضائك يا رب، لا إله سواك، يا غياث المستغيثين، ما لي ربّ سواك، ولا معبود غيرك»^(٤).

ولم يقف هذا المدد التوحيدي النابع من نهضة الحسين عليه السلام على حدود المواجهة المباشرة بينه عليه السلام وبين خصومه، بل استمرّ حتّى في أحداث السبي المروّعة؛ إذ نطالع في هذا المجال ما جرى بين الإمام زين العابدين عليه السلام وبين عبيد الله بن زياد (لعنه الله)؛

(١) القمّي، عباس، مفاتيح الجنان: ص ٤١٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٤١٣-٤١٤.

(٣) البحراني، عبد الله، العوالم (الإمام الحسين عليه السلام): ص ١٧٩.

(٤) المقرّم، عبد الرزاق، مقتل الحسين عليه السلام: ص ٢٨٣.

وذلك عندما: «التفت ابن زياد إلى علي بن الحسين عليه السلام، فقال: مَنْ هذا؟ فقيل: علي بن الحسين. فقال: أليس قد قتل الله علي بن الحسين عليه السلام؟ فقال علي عليه السلام: قد كان لي أخ يقال له علي بن الحسين، قتله الناس. فقال: بل الله قتله. فقال علي عليه السلام: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(١). فقد عمد عليه السلام في كلامه هذا إلى إثبات أمرين، أولهما: إرجاع جميع الأفعال إلى الله عز وجل، وأن أي مخلوق لا يمكنه الاستقلال بشيء من الفعل من دون إذن الله ومنحه القدرة على الإتيان به؛ وهذا هو التوحيد الأفعالي^(٢).

ثانيهما: هو نفي عقيدة الجبر التي ذهب إليها الأشاعرة، وكان لبني أمية سعيًا حثيثاً من أجل ترسيخها في عقول الناس؛ إذ كانوا يوهمون الناس بأن جميع الأفعال التي تصدر من الناس هي صادرة من الله تعالى وليس لأحد دور في تغييرها^(٣)؛ ومن هنا فإن مقصود الإمام عليه السلام من دمج بين هذين البُعدين هو تصحيح فكرة التوحيد الأفعالي بما ينسجم مع عدل الله عز وجل في إثابة المطيعين ومعاقبة العاصين بالنسبة إلى الأفعال الصادرة عنهم بإرادتهم واختيارهم؛ وتقديم هذه العقيدة خالية ومنزهة من كل شائبة من شوائب الجبر الأشعري.

فما نريد قوله - في هذه النقطة - هو: إن النهضة الحسينية في سعيها الحثيث لتركيـز هذه المفاهيم التوحيدية في نفوس الناس، تُحَقِّقُ الغاية نفسها التي أشار إليها القرآن وجعلها هدفاً لكلِّ الرسالات السماوية، خصوصاً مقام التوحيد في العبادة الذي سعت رسالات الأنبياء عليهم السلام إلى ترسيخه في نفوس الناس.

هذا، ويُضاف إلى هذا الترسيخ النظري لعقيدة التوحيد، السلوك الخارجي له عليه السلام ولصحبه، والذي كان له الأثر المعنوي الأعظم في ذلك، فقد نُقِلَ أَنَّهُ عليه السلام بعث أخاه أبا الفضل العباس عليه السلام إلى القوم ليطلب منهم أن يمهلوه إلى صبيحة يوم العاشر

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٩٤.

(٢) أنظر: الخرازي، محسن، بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية: ج ١، ص ٥٣.

(٣) أنظر: السبحاني، جعفر، الإلهيات (تقرير بحث الشيخ السبحاني للمكي): ص ٦١١-٦١٢.

لكي يصلِّي ويدعو الله في هذه الليلة، فلما وافقوا على الطلب، بات عليه السلام هو وأصحابه تلك الليلة بين راعع وساجد، وكان لهم دويّ كدوي النحل^(١)؛ وهذا الفعل هو قمة العبادة الخالصة والانقطاع الكامل لله عز وجل.

٢. ترسيخ الاعتقاد باليوم الآخر

إنّ التدليل العقلي على مسألة المعاد واليوم الآخر وإن كان له الأثر الكبير جداً في إثبات هذه العقيدة ودحض الشبهات التي يمكن أن تُثار حولها، إلاّ أنّه غير كافٍ في جعلها تجسيدا حياً يعيش في ضمير الفرد وروحه، فإننا نحتاج علاوةً على البُعد العقلي إلى بُعد آخر، وهو عبارة عن المشاهدة الحسيّة، كما جرى في حادثة ذبح الطيور من قبل إبراهيم الخليل عليه السلام الذي لم يكن يعوزه الدليل العقلي، فقد كان واصلاً إلى درجة اليقين، لكن هذا اليقين لم يكن كافياً في حصول الاطمئنان القلبي والروحي لديه؛ لذلك احتاج إلى ضميمة لهذا اليقين العقلي، قال تعالى حكاية عنه عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمُتُوْمِنٌ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۗ﴾^(٢). لكنّ هذه المشاهدة الحسيّة لا تتأتّى لكلّ أحد؛ ومن هنا جاء دور التأثير المعنوي والروحي في هذا المجال، وقد كان من تجلّياته الواضحة نهضة الإمام الحسين عليه السلام التي تُعدّ تجسيدا واقعياً للاعتقاد الخالص بالمعاد، فقد عاش الإمام عليه السلام وأهل بيته وصحبه أروع صور هذا الاعتقاد؛ وأقوالهم وتضحياتهم خير شاهد على هذا الانصهار بهذه العقيدة، ممّا يجعل استحضار مجريات واقعة الطفّ الأليمة ذا دورٍ كبيرٍ في جعل هذه العقيدة تعيش في وجدان الفرد والمجتمع باستمرار.

ومن الكلمات التي قيلت في هذا الصدد، ما جاء في الوصية التي كتبها الإمام الحسين عليه السلام لأخيه محمد بن الحنفية، التي جاء فيها بعد الإقرار بالوحدانية ونبوّة

(١) أنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٥٧.

(٢) البقرة: آية ٢٦٠.

النبى محمد ﷺ: «... وَأَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ»^(١). ومنها ما جاء عنه ﷺ في معرض حديثه عند سماعه خبر استشهاد سفيره إلى أهل الكوفة مسلم بن عقيل: «رحم الله مسلماً، فلقد صار إلى روح الله وريحانه وجنته ورضوانه»^(٢). كما نُقل عنه ﷺ أَنَّهُ كَانَ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلٍ: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، ففي مجلس الوليد والى المدينة بعدما أخبره الأخير بموت معاوية، قال ﷺ هذه العبارة^(٣)، وقالها أيضاً في طريقه إلى الكوفة بعد تجاوزه لقصر بني مقاتل، فبعد أن خفق الإمام ﷺ برأسه خفقةً اتبته وهو يقول: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٤). كما أَنَّهُ ﷺ ذَكَرَ بِهَذِهِ الْعَقِيدَةِ عِنْدَمَا خَاطَبَ الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ حَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَحْلِهِ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَدْ قَالَ: «وَيُحْكَمُ يَا شَيْعَةَ آلِ أَبِي سَفْيَانَ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ وَكُنْتُمْ لَا تَخَافُونَ الْمَعَادَ، فَكُونُوا أَحْرَاراً فِي دُنْيَاكُمْ، وَارْجِعُوا إِلَى أَحْسَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَرَباً»^(٥).

والمعنى نفسه نجده في كلام السيِّدة زينب ﷺ عندما رَدَّتْ عَلَى اللَّعِينِ عبيد الله ابن زياد الذي أظهر الشَّهَادَةَ لِأَخِيهَا الإمام الحسين ﷺ بسبب ما جرى في كربلاء، وأراد أن يُوهِمَ الْجَمِيعَ بِأَنَّ الْعَمَلَ الَّذِي قَامَ بِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ الْحَسَنَةِ الْحَاصِلَةِ عَلَى التَّيْيِيدِ الْإِلَهِيِّ، فَقَدْ قَالَ: «كَيْفَ رَأَيْتَ صَنَعَ اللَّهُ بِأَهْلِ بَيْتِكَ؟ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ فَبَرَزُوا إِلَى مُضَاجِعِهِمْ، وَسَيَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، فَتُحَاجَّ وَتُخَاصَمُ، فَانظُرْ لِمَنْ الْفَلِجُ، هَبْلَتِكَ أُمُّكَ يَا بَنَ مَرْجَانَةَ...»^(٦). إلى غير ذلك من الأقوال التي أَكَّدَتْ مَحُورِيَّةَ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ فِي وَاقِعَةِ الطِّفِّ الْخَالِدَةِ.

(١) البحراني، عبد الله، العوالم (الإمام الحسين ﷺ): ص ١٧٩.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٤٥.

(٣) أنظر: لجنة الحديث في معهد باقر العلوم ﷺ، موسوعة كلمات الإمام الحسين ﷺ: ص ٣٤٣.

(٤) المصدر السابق: ص ٤٤٦.

(٥) البحراني، عبد الله، العوالم (الإمام الحسين ﷺ): ص ٢٩٣.

(٦) ابن نما الحلبي، جعفر بن محمد، مثير الأحران: ص ٧١.

وهذا التأكيد كان نابغاً في حقيقته من سنة قرآنية كانت تسعى دوماً إلى ربط الإنسان في هذه الدنيا الفانية بموقف عصيب سوف يتحقق في نشأة أخرى، تتجلى فيه عدالة الله ﷻ ورحمته على العباد. فإن من يطالع الآيات المباركة في القرآن الكريم يجد أنّ الإيذان باليوم الآخر حاضر ومركّز عليه فيها، وأنّ هذا الكتاب العظيم قد أولاهما اهتماماً واسعاً، وذكرًا متكرراً؛ وذلك لما تُشكّله من أهمية كبرى، ووجود عظيم، في العقيدة الإسلامية، بل في حياة البشرية منذ بدء خلقها وحتى يوم الحساب. ولشدة التركيز عليها وتكرارها في القرآن نراها تُشكّل الاهتمام الثاني له بعد عقيدة التوحيد، وبالشكل الذي لا يضاهيه ولا ينافسُه أيّ شيء آخر؛ ففي حدود (١٤٠٠) آية مباركة من القرآن الكريم ورد الحديث والاشارة إلى المعاد والأمر المرتبطة به^(١)، بل إنّ ورد في الآيات الشريفة ما يقارب السبعين اسماً أو وصفاً له، «إنّ كلّ ذلك يبيّن بجلاء ما لهذا الأمر من الأهمية القصوى والعظمى في نظر الشريعة؛ وبالتالي ما يلفت نظر الإنسان في هذه الأرض إلى حقيقة وأبعاد هذا الأمر، ومن ثمّ ما يترتب عليه - أي: الإنسان - من مسؤوليات جسام، والتزامات عظام؛ للفوز والنجاة من حساب هذا اليوم، والتنعم بالحياة الخالدة من بعده في جنات النعيم»^(٢).

ففي أوّل سورة من القرآن نجد الإشارة الواضحة إلى هذه العقيدة، فقد ذُكرت ضمن مجموعة من صفات الباري جلّ شأنه، قال تعالى: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٣)، ثمّ توالى الآيات القرآنية التي أكّدت هذه الحقيقة؛ فمن صفات المتقين التي تمّ التطرّق إليها في بداية سورة البقرة هو الإيذان باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٤). ثمّ الآيات التي وصفت

(١) أنظر: السبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن: ج ٨، ص ٦.

(٢) الدياجي، أبو القاسم، المعاد يوم القيامة دراسة معاصرة: ص ٤٥.

(٣) الفاتحة: آية ٤.

(٤) البقرة: آية ٤.

يوم القيامة وذكرت شيئاً من أحواله وأهواله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ حَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا...﴾^(١)، وقال تعالى أيضاً: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٢). وهكذا تتوالى الآيات الكثيرة وصولاً إلى الوعيد والتهديد بالعذاب والويل بحق منكر هذه العقيدة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرِبُونَ﴾^(٣)، وقال أيضاً: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾^(٤). وما هذه التأكيدات الكثيرة الواردة في القرآن إلا من أجل الإجابة عن سؤال فطري، وهو: ما هو مصير الإنسان بعد هذه الحياة؟ فإن الإنسان جُبِلَ على حبِّ البقاء وكرهة الزوال والفناء، وهذا الميل أوضح دليل على أن الموت ليس فناء للإنسان، فلو كان الموت مؤدياً إلى ذلك للزم منه عبثية هذا الميل المشاهد عند كلِّ إنسان، وبالنظر إلى ذلك نجد أن الشرائع السماوية جاءت تُفسِّرُ هذا الميل الفطري ببيان أن الموت هو انتقال من دار إلى دار، ومن نشأة إلى نشأة أخرى، وأن الإيمان هو الركن الركين في العقائد على وجه لو طُرِحَ انهارت الشرائع قاطبة^(٥).

ومن هنا؛ فإنَّ هذا الأثر المعنوي المهمَّ الذي تركته النهضة الحسينية بخطاباتها وبسلوكياتها التي عبَّرت عنها التضحيات الجسام، هو أثر قرآني يصبُّ في مصلحة بقاء الشرائع الدينية، وهو أثر يتوقَّف عليه - من هذا المنظار - مصير الدعوة الإسلامية، ولعلَّ هذا الأمر هو أحد الأسرار التي تُشير إليه العبارة المشهورة: (الإسلام محمدي

(١) آل عمران: آية ٣٠.

(٢) آل عمران: آية ١٠٦.

(٣) المؤمنون: آية ٧٤.

(٤) المطففين: آية ١٠-١٢.

(٥) أنظر: السبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن: ج ٨، ص ٦٥.

الحدوث حسيني البقاء)، فإنّ رسوخ هذا الأثر في نفوس المؤمنين الشيعة المتأثرين بمفاهيم النهضة الحسينية، هو الذي جعلهم يتهافتون إلى تقديم أروع صور التضحية والشهادة من أجل نصرّة دين الحقّ، والذبّ عن أعراض المسلمين وأمواهم. وليس بعيداً عنّا ما قدّمه الشباب الحسيني المخلص في المواجهة المعاصرة ضدّ فلول داعش الأرجاس، فإنّ استجابتهم المذهلة لفتوى الجهاد الكفائي لسماحة آية الله العظمى السيّد علي الحسيني السيستاني (دام ظلّه)، هو في الحقيقة ناشئ من العلاقة الكبيرة بينهم وبين واقعة الطفّ، وأنّهم بمشاركتهم في الجهاد واستشهادهم في سوح القتال، سوف يحققون نوعاً من السنخية مع شهداء هذه الواقعة الخالدة، فيحصلون على الدرجات العالية في ذلك اليوم الآخر.

٣. ترسيخ العقائد الأخرى

نستمرّ مع العطاء المعنوي للعقائدي للنهضة الحسينية، إلّا أنّه نظراً لضيق المجال فإنّنا سوف نُجمل الحديث عن العقائد الأخرى التي كانت هذه النهضة المعطاء سبباً في تدعيمها وتقويتها في نفوس الناس، سواء كان ذلك على مستوى إثبات النبوة أو إثبات الإمامة، فمن تلك الإيحاءات العاشورائية التي تُرسّخ في النفوس هذه الأمور المهمّة في عقيدة الفرد المسلم نجد أنّه عليه السلام قد صدرت منه تأكيدات كثيرة، ربطت نهضة عاشوراء بإحياء سنّة النبي صلى الله عليه وآله ومواجهة البدع التي أُوجدت في الدين الإسلامي، ومن هذه التأكيدات ما صدر عنه عليه السلام في مجلس الوليد بن عتبة والي المدينة، فقد قال له عليه السلام: «أيها الأمير، إنّ أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، وبنا فتح الله، وبنا ختم الله، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرّمة، مُعلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله...»^(١). فهذا الكلام الذي يُتلى في كلّ موسم عاشورائي فيه تأكيد واضح على مسألة النبوة، وأنّها أحد الأسباب التي جعلت الإمام عليه السلام يرفض مبايعة

(١) البحراني، عبد الله، العوالم (الإمام الحسين عليه السلام): ص ١٧٤.

يزيد، فإنّ خلافة هذا الفاسق كانت تؤدّي إلى طمس معالم السنّة، وتغييب مفهوم النبوة في المجتمع الإسلامي؛ كيف لا؟ ونحن نجد أنّ الطاغية المهتّك عندما وصله خبر قتل الإمام عليّ عليه السلام ومن معه استشهد بأبيات ابن الزبّعري التي منها:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل^(١)

ومن تلك الإيحاءات ما ذكره عليّ عليه السلام في وصيّته لأخيه محمد بن الحنفية، «وأتى لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مُفسداً، ولا ظالماً، وإنّا خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن أمر بالمعروف، وأنهي عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام»^(٢). فإنّ السير على سيرة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله دليل على أنّ الطرف المقابل كان يحرف مسار الأمة الإسلامية على عكس ذلك، هذا الفعل الذي يُفضي في نهاية المطاف إلى إلغاء كلّ الجهود التي بذها النبي صلى الله عليه وآله في تبليغ الدين والتعاليم الإسلامية إلى الناس، وبالنتيجة تغييب عقيدة النبوة تماماً عن النفوس، أو جعلها هامشية خالية من كلّ أثر. ولشدة اهتمامه عليه السلام بهذا الأمر نجده يُضمّنه في رجزه الذي أنشده عندما حمل على القوم ظهر يوم عاشوراء:

أنا الحسين بن علي آليت أن لا أنثني
أحمي عيالات أبي أمضي على دين النبي^(٣)

وهذا الأثر المهمّ المترتب على نهضته عليه السلام قد تمّ التأكيد عليه قرآنيّاً بشكل كبير جدّاً، ففي مجال أنّ النبوة والرسالة هي حقّ ثابت للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله، يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتل الطفوف: ص ١٠٥.

(٢) المصدر السابق: ص ١٧٩.

(٣) الأمين، محسن، لواعج الأشجان: ص ١٨٤.

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ^(١). وأمّا في مجال مواقف النبيّ الرافضة لكلّ الأطروحات الهدامة، والساعية إلى نقض الهدف من الرسالة يقول تعالى: **﴿شَحَدَ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ...﴾** ^(٢). وفي مجال ضرورة التأمّي بالنبيّ ﷺ، والاستئنان بسيرته وسنته يقول عزّ وجلّ: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾** ^(٣).

أمّا فيما يتعلّق بمنصب الإمامة لأهل البيت ﷺ بعد النبيّ ﷺ، فقد كانت نهضة عاشوراء تجسيدا واضحا لإثبات هذا الحقّ لهم ﷺ، فإنّ رفض الإمام لبيعة يزيد كان سببها هو رؤيته ﷺ بأحقّيته لتوليّ زمام هذا الأمر، وقد صرّح بذلك عندما لقي جيش الحرّ في الطريق، فكان فيما قال في تلك الأثناء: «أمّا بعد، أيها الناس، فإنّكم إن تتقوا الله تعالى، وتعرفوا الحقّ لأهله، يكن رضاه الله عنكم، وإنّا أهل بيت نبيّكم محمد ﷺ أولى بولاية هذه الأمور عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالظلم والجور والعدوان» ^(٤). كما أنّ هذا المعنى نفسه قد ورد في رسالته ﷺ التي كتبها إلى بعض أشرف الكوفة في أحد المواضع القريبة من كربلاء، وقد ورد في بعضها قوله ﷺ: «وقد علمتم أنّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان، وتولّوا عن طاعة الرحمن، وأظهروا في الأرض الفساد، وعطلوا الحدود والأحكام، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وإني أحقّ بهذا الأمر لقرايتي من رسول الله ﷺ» ^(٥).

ولم يتوقّف هذا المعنى عند شخص الإمام ﷺ وحده، بل إنّ ترسخ في نفوس أصحابه ﷺ، فنقل عن بعضهم، وهو يزيد بن المهاجر الكندي، أنّه خاطب رسول عبيد الله بن زياد الذي جاء برسالة إلى الحرّ الرياحي يأمره فيها أن يُجمع برحل

(١) الأحزاب: آية ٤٠.

(٢) الفتح: آية ٢٩.

(٣) الأحزاب: آية ٢١.

(٤) الخوارزمي، الموفّق محمد بن أحمد، مقتل الحسين: ج ١، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٥) المصدر السابق: ج ١، ص ٣٣٥.

الإمام عليه السلام، فخطبه قائلاً: «ثكلتك أمك، ماذا جئت فيه؟ قال: أطعت إمامي ووفيت ببيعتي. فقال له ابن المهاجر: بل عصيت ربك، وأطعت إمامك في هلاك نفسك، كسبت العار والنار، وبئس الإمام إمامك، قال الله عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصُرُونَ﴾^(١)، فإمامك منهم»^(٢). بل حتى أعداؤه يقرّون بهذا الحقّ لهم عليه السلام، لكنّ سوء العاقبة منعهم من مناصرة هذا الحقّ واتباع المنهج الحسيني؛ إذ تذكر بعض المصادر أنّ برير بن خضير الهمداني قد استأذن الإمام عليه السلام قبل المعركة بأن يتكلّم مع عمر بن سعد، فأذن له، ولما وصل إلى عمر بن سعد، لم يُسلّم عليه، فبادره عمر بقوله: «يا أخا همدان، ما منعك من السلام عليّ؟ ألسنتُ مسلماً أعرفُ الله ورسوله، وأشهدُ بشهادة الحقّ؟ فقال له برير: لو كنتَ عرفتَ الله ورسوله كما تقول، لما خرجتَ إلى عترة رسول الله تُريد قتلهم؟... فأطرق عمر بن سعد ساعة إلى الأرض، ثمّ رفع رأسه، وقال: والله يا برير، إنّّي لأعلم يقيناً أنّ كلّ من قاتلهم وغضبهم حقّهم هو في النار لا محالة، ولكن يا برير، أتشير عليّ أن أترك ولاية الري فتكون لغيري؟ فوالله، ما أجد نفسي مُجيبني لذلك»^(٣).

وهذا هو المفهوم الذي سعى الإمام عليه السلام وأصحابه إلى ترسيخه في نفوس الناس من خلال أقوالهم وسلوكياتهم وتضحياتهم، وهو مفهوم حياتي يرتبط بجانب عقدي، يتعلّق بضرورة تنفيذ وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله بالرجوع إلى ولاية أمره من بعده، ويرتبط بجانب عملي مؤدّاه أنّ الحافظ لهذا الدين الذي فيه سعادة الدارين هو الرجوع إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين منهم الحسين عليه السلام، فهم السبيل الوحيد لعدم تحقّق الخلاف والفرقة بين الناس، وكذلك هم السبيل للنجاة يوم القيامة.

هذا المفهوم على الرغم من أنّ القرآن لم يتعرّض إلى تفاصيله، ولم يُعيّن مصاديقه،

(١) القصص: آية ٤١.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٣٨-٤٨.

(٣) الخوارزمي، الموفق محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٣٥١.

حاله حال النبوة والكثير من الضروريات الدينية، أمثال: الصلاة، والحج، والزكاة، وغير ذلك؛ إلا أن التأكيد نجده واضحاً في جملة من الآيات الشريفة على أن الطاعة التي هي من شؤون القيادة وإدارة شؤون الأمة، تلزم على جميع المسلمين تجاه فئة خاصة من المجتمع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(١)، فبالنظر إلى دمج إطاعة النبي ﷺ بإطاعة أولي الأمر، وبملاحظة القاعدة القرآنية التي ساقتها الآية الشريفة: ﴿وَمَا ءَأَنكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢)، من لزوم الأخذ بكل ما يقوله الرسول ﷺ، يتضح لنا أن المراد بأولي الأمر هم طبقة من الناس يتصفون بعدم الوقوع بالخطأ حالهم حال رسول الله ﷺ. وطبيعي أن الاستدلال لا يكتمل ولا يثبت إمامة أهل البيت عليه السلام إلا بالرجوع إلى جميع الأدلة الروائية والمواقف الصادرة عن الرسول ﷺ، التي تثبت أن الإمامة هي منصب إلهي لهم عليه السلام. وبما أن الخوض في تفاصيل هذا المطلب يؤدي إلى خروجنا عن موضوع البحث، فنكتفي بما ذكرناه؛ لأنه يؤدي الغرض المطلوب في المقام، وهو معرفة أن القرآن يؤكد على حقيقة الإمامة وضرورتها بعد الرسول ﷺ.

وهذا البيان القرآني يحث الفرد المسلم على عدم الرضا بالسطحية الموجودة في مقام تشخيص من هم ولاة الأمر بعد الرسول ﷺ، وهل هم جميع من وصلوا إلى سدة الحكم على الرغم من الملاحظات الكثيرة على الأعم الأغلب منهم، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الفسق والفجور، والتجاهر بشرب الخمر أم أنهم أشخاص معينون يتصفون بصفات خاصة تؤهلهم لتولي منصب خلافة الرسول ﷺ؟

ومن هنا؛ فدور القرآن في تأكيده على هذا المفهوم عندما يجتمع مع ما تقدم بهذا الشأن في نهضة الحسين عليه السلام يكون حافزاً وأثراً معنوياً يدفع بالإنسان إلى اتباع الأئمة الواقعيين ومن يسировن على نهجهم. ولا شك في أن هذا الأثر المعنوي إذا اجتمع مع

(١) النساء: آية ٥٩.

(٢) الحشر: آية ٧.

شجاعة وإقدام، فإنه لا ينفك عن الرفض والمقاومة لجميع المخالفين لخط الإمامة من أصحاب السلوكيات المنحرفة والمطامع الشخصية.

المحور الثاني: الآثار المعنوية المرتبطة بالجانب الأخلاقي والتربوي

إن المجتمع البشري كلما انغمس في الحياة المادية، وأصبح يحسب لكل شيء حساباً مادياً يستند إلى منطق الربح والخسارة، نراه يبتعد شيئاً فشيئاً عن القيم الأخلاقية والتربوية، ويتعامل معها بشكل نفعي شخصي؛ ومن هنا فهو بحاجة إلى هزة تؤثر على كيانه الروحي وتُرجعه بين الفينة والأخرى إلى صوابه، وقد كانت بحق نهضة الإمام الحسين عليه السلام، تلك الثورة العظيمة المليئة بتلك القيم التي تجعل الإنسان يثور على نفسه وواقعه من حيث لا يشعر؛ والسبب في هذا التأثير الخالد هو أنّ الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه قدّموا كلّ هذه القيم السامية ولم يطلبوا عليها أجراً أو منفعة شخصية، بل ختموها بالشهادة والتضحية في سبيل الله تعالى. ولذا فإنّ الكاتب سوف يقع في حيرة إذا أراد أن يكتب في هذا المضمار، فهو مضمار يصلح لأن يكون منهاجاً دراسياً يُدرّس للتلاميذ والطلاب بشتّى مراحلهم العمرية. لكننا سوف نختصر في المقام مسلّطين الضوء على القيم التي جاءت في القرآن بشكل مباشر، وهي:

١- العزة والكرامة

يُعدّ هذا المبدأ الذي وُجد مع خلق الإنسان من المبادئ الأخلاقية السامية على الصعيد الفردي والاجتماعي، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾^(١)، فالإنسان ينبغي أن يبتعد عن اكتساب كلّ ما يؤدّي إلى ذلّته ومهاتته، ومن أبرز ما يوجب ذلك هو ابتعاد الإنسان عن الله تعالى وانصياعه إلى مغريات الشيطان وأهواء النفس

(١) الإسراء: آية ٧.

الأمارة، فالعزة والكرامة تكون مع الله تعالى، قال عز وجل: ﴿... فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾^(١)، وهذه المعية لا تكون إلا من خلال الإيمان به والعمل بما أمر به، قال تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢). ومن هذا المنطلق؛ فإننا نجد أن رفض الإمام الحسين عليه السلام لبيعة يزيد كان أحد أسبابه هو الحفاظ على هذا المبدأ السامي، فإن قوله عليه السلام جواباً على طلب البيعة منه ليزيد: «ومثلي لا يبايع مثله»^(٣)، دليل واضح على مقصود الإمام بأن البيعة لو تحققت منه لهذا الشخص الفاجر، فإنها بمنزلة الانتقاص من مكانته السامية، والأكثر من ذلك فقد صرح في نص آخر بأن البيعة كانت بمنزلة وقوعه في معرض المذلة؛ إذ قال عليه السلام يوم العاشر من المحرم في بعض خطبه: «لا والله، لا أعطي بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد»^(٤)، وقال أيضاً: «موت في عز خير من حياة في ذل»^(٥)، وقال عليه السلام كذلك: «ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلة، وهيهات منّا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنين»^(٦)؛ وعليه فإنه نتيجة لهذه الجهود العظيمة والتضحيات الجسام التي بذلها أبو عبد الله عليه السلام في أعظم واقعة شهدها التاريخ البشري نجد أن كل من ركب سفينته عليه السلام يسعى دوماً إلى التخلّق بهذا الخلق القرآني السامي، بل إنّنا نجد أنّ عبارة (هيهات منّا الذلة) أصبحت شعاراً يرفعه الشيعة في كل موقف فيه رفض للظلم والذلة من قبل حكام الجور والجبابة.

(١) النساء: آية ١٣٩.

(٢) المنافقون: آية ٨.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ١٧.

(٤) ابن نما الحلي، جعفر بن محمد، مثير الأحران: ص ٣٧.

(٥) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢٢٤.

(٦) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٥٩.

٢. الصبر

من القيم الأخلاقية الأخرى التي تجسّدت بأبهى صورها في نهضة الحسين عليه السلام، هو الصبر على كلّ المآسي والآلام المروّعة التي حصلت في واقعة عاشوراء، سواء التي عانى منها الحسين عليه السلام وأصحابه والرجال من أهل بيته البررة من ألم العطش وضرب السيوف انتهاءً بالقتل، أم التي واجهت رحله عليه السلام بعد استشهاده في مسيرة السبي إلى الكوفة والشام، فكّل هذه الآلام قد واجهها جميع من حضر وشارك في هذه الواقعة بالصبر والثبات على المبدأ الحقّ الذي من أجله نهض عليه السلام وثار بوجه الظلم والاضطهاد، وبمجرّد مطالعة القارئ العزيز لما كتّب في مقتله عليه السلام ومسير السبايا، يجد أنّ هذه القيمة الأخلاقية حاضرة بشكل لا يقبل الشكّ والريب، فالأمّ كانت تُقدّم ولدها الشاب الجديد عهد بالزواج من أجل أن يُستشهد بين يدي أبي عبد الله عليه السلام^(١)، وفي موقف مماثل نجد أنّ إحدى النساء التي فجعت بزوجها في المعركة تُقدّم ولدها الصغير لكي يبذل دمه من أجل سبط رسول الله صلى الله عليه وآله^(٢).

وأما من جانب الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته البررة، فنجد المواقف العديدة التي تنمّ عن الصبر والثبات، منها على سبيل المثال: بروز القاسم بن الحسن عليه السلام وهو غلام صغير لم يبلغ الحلم^(٣)، وقد عكس استشهاده مدى صبر عمّه الحسين عليه السلام، وصبر أمّه رملة، ومن تلك المواقف الكاشفة عن قوّة الصبر على المصيبة هي مقتل عبد الله

(١) أنظر: قصّة وهب بن حباب الكلبي: الخوارزمي، الموفق محمد بن أحمد، مقتل الحسين: ج ٢، ص ١٥-١٦.

(٢) راجع قصّة الشاب الذي قدمته أمّه بعد استشهاد أبيه في واقعة الطفّ، الذي رجّح الشيخ محمد مهدي شمس الدين بأن يكون اسمه عمرو بن جنادة بن الحارث الأنصاري. أنظر: شمس الدين، محمد مهدي، أنصار الحسين عليه السلام: ص ١٠١.

(٣) أنظر: الخوارزمي، الموفق محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ٢، ص ٣١-٣٢.

الرضيع وهو في حجر أبيه الحسين عليه السلام^(١). هذه المواقف المذكورة وغيرها الكثير كلها تنم عن أنّ هذه النهضة الجليلة لم تصل إلينا بهذا الشكل لولا مقدار الصبر الكبير الذي كان يحمله الحسين عليه السلام والثلة الصالحة من أهل بيته وصحبه.

ومن هنا؛ فلا عجب من اشتراطه عليه السلام بأن يتحلّى كلّ مَنْ يلحق به بهذه الفضيلة الأخلاقية، فقد خطب عليه السلام في موضع يُقال له: (زبالة) قائلاً: «أيها الناس، فمن كان منكم يصبر على حدّ السيف وطعن الأستة، فليقم معنا، وإلا فلينصرف عنا»^(٢)، ومّا رُوي عنه أنّه خاطب أصحابه يوم عاشوراء بقوله: «صبراً بني الكرام، فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة...»^(٣)، كما أنّ وصيّته لأخته زينب عليها السلام ومَن معها من النساء على ما سوف يشاهدنه ويلاقينه، كانت عبارة عن ضرورة التحلّي بالصبر وتقوى الله تعالى، فقد قال عليه السلام في هذا الشأن: «ولا بدّ أن تروني على الثرى جديلاً، ولكن أوصيكنّ بتقوى الله ربّ البرية، والصبر على البلية، وكظم نزول الرزية، وبهذا وعد جدّكم، ولا خلف لما أوعد، ودّعتمكم إلهي الفرد الصّمّد»^(٤). إذاً؛ في كلّ مقام تحيى به هذه النهضة فإنّ ذلك سوف يكون مدعاة لتعزيز هذه القيمة الأخلاقية، فتكون حافزاً للمتلقّي على تحمّل المصائب التي تحلّ به في حياته، من هنا يقول أحد شعراء الطفّ:

أنست رزيتكم رزاينا التي سلفت وهونت الرزايا الآتية^(٥)

(١) أنظر: الأمين، محسن، لواعج الأشجان: ص ١٨١.

(٢) القندوزي الحنفي، سليمان بن إبراهيم، يبايع المودّة لدوي القربى: ج ٣، ص ٦٢.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ٢٨٩.

(٤) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص ٤٨٤.

(٥) شرف الدين الموسوي، عبد الحسين، المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة: ص ١٣٧.

ويقول شاعر آخر:
 أيها اللائمون كفوا ولكن
 بمصاب ابن فاطم ذكروني
 تلك ذكرى بها تهون الرزايا
 وهي من أمّهات ريب المنون^(١)

وأن هذا الأثر المعنوي الذي تركته نهضة الحسين عليه السلام في نفوس الناس هو من الآثار التي أكد عليها القرآن كثيراً، فقد وردت مادة (صبر) باشتقاقها المختلفة في الآيات القرآنية، فقد ورد فيها أن الصبر من عزائم الأمور، أي: من أعظم الفضائل، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عِزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢)، وقال عزير: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عِزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣)؛ كما أن هذه الخصلة الحميدة جعلت أحد المعيارين اللذين في ضوءها حصل بعض على منصب الإمامة وهداية الناس، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الموارد.

إذن؛ فالصبر الذي هو من أعظم الملكات والأحوال التي مدحها القرآن وكرّر ذكرها كثيراً، يُعدّ أحد أهم الآثار المعنوية لنهضة الحسين عليه السلام، فمن صبره عليه السلام وصبر أهل بيته وصحبه نستلهم هذه الفضيلة، وتكون حياة في نفوسنا، نستمد منها القوة والصلابة في مواجهة الظروف العصيبة، والثبات على الحق، وألا نخاف في سبيل إحقاقه لومة لائم.

٣- الإيثار

الإيثار في اللغة هو مصدر آثر يُؤثر إيثاراً، وقد عرّف بآنه: التّقديم والاختيار

(١) البهادلي، كاظم، معين الخطباء: ج ١، ص ٥٥.

(٢) الشورى: آية ٤٣.

(٣) لقمان: آية ١٧.

(٤) السجدة: آية ٢٤.

والتفضيل^(١)، وعُرِّف أيضاً بأنه: «تفضيل المرء غيره على نفسه»^(٢).

أمّا اصطلاحاً فهو: «أن يُقدّم غيره على نفسه في النفع له، والدفع عنه، وهو النهاية في الأخوة»^(٣). وقال آخرون في تعريفه بأنه: «فضيلة للنفس، بها يكفُّ الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصُّه، حتّى يبذله لمن يستحقُّه»^(٤).

والإيثار بهذا المعنى يحتلّ مكانة خاصّة في منظومة القيم الأخلاقية بوجه عام، وفي منظومة التشريعات الإسلامية بوجه خاص، فهو يمتلك أهمية كبرى في حياة المسلم، فعلاوة على ما يترتّب عليه من الأجر والثواب الكبيرين، فإنّه توجد جملة من الفوائد المعنوية تترتّب على انتعاش هذه الخصلة الحميدة في نفس الإنسان، منها: إيثار تطرد عنه الحرص والطمع وشحّ النفس، فقد رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أن: «الإيثار أعلى مراتب الكرم، وأفضل الشيم»^(٥)، وقال عليه السلام أيضاً: «أفضل السخاء الإيثار»^(٦).

وقد تجلّت هذه الفضيلة المهمّة جدّاً في نهضة عاشوراء في أعلى درجاتها، كيف لا؟ وأنّ مرتبة بذل النفوس في سبيل نصرّة المظلومين، وإصلاح ما فسد من أمور المسلمين، وإحياء سنّة الرسول صلّى الله عليه وآله هي من الأهداف المهمّة التي قامت عليها نهضة الإمام الحسين عليه السلام، والتي كانت حاضرة لدى المقاتلين المشاركين في هذه النهضة الخالدة، وقد تجلّت علاوة على ذلك في كلماتهم، فخذ - مثلاً - موقف الطالبيين عندما عرض عليهم الإمام الحسين عليه السلام، وعلى سائر الأصحاب في ليلة العاشر من المحرم أن يتركوه وينجوا بأنفسهم، فقد رفضوا هذا العرض أشدّ الرفض، وقالوا: «ولكن

(١) أنظر: الحسيني الكفوي، أيوب بن موسى، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية):

ص ٤٠.

(٢) أنيس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط: ص ٦.

(٣) الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات: ص ٥٩.

(٤) ابن مسكويه، أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق: ص ١٩.

(٥) الريشهري، محمد، ميزان الحكمة: ج ١، ص ١٦.

(٦) المصدر السابق.

نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلنا، ونقاتل معك حتى نرد موردك»^(١). أما أصحابه عليهم السلام فقد ورد هذا المعنى في كلماتهم التي منها ما قاله مسلم بن عوسجة في الموقف ذاته: «أنحن نخلي عنك، بما نعتذر إلى الله في أداء حقك؟... أما والله لو [قد] علمت أنني أقتل، ثم أحيأ، ثم أأحرق، ثم أأحيأ، ثم أأذرى، يفعل بي ذلك سبعين مرة، ما فارتكت حتى ألقى حمامي دونك»^(٢)، ومنها ما قاله زهير بن القين: «[والله] لوددت أنني قُتلت، ثم نُشرت، ثم قُتلت، حتى أُقتل هكذا ألف مرة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفـس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك»^(٣). هذا، وأن الكلمات كثيرة في هذا المجال، وهي لا تزيد على الواقع الخارجي الذي جسّدته هذه النهضة، المتمثل بالمواقف البطولية والتضحيات الجسام، فكلّ مقاتل عندما يدخل معركة جهادية يضع أمامه احتمالين، أحدهما: الظفر والنجاة، والآخر: نيل مرتبة الشهادة، إلا المشاركين في واقعة كربلاء، فهؤلاء لم يكن أمامهم إلا طريق الشهادة، فتضحياتهم هذه تُعدّ من أعظم أنواع العطاء، قال الشاعر:

يجود بالنفس إن ضنّ الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وهذه الصفة الأخلاقية تطرّق إليها القرآن في مواطن عديدة، تارة تكون في موضع اللوم والعتاب، وأخرى في موضع المدح، فمّا جاء في المورد الأوّل قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٤). فقد ذكر العلامة الطباطبائي بأن الخطاب في هذه الآية مسوق للعتاب، سواء كان مقصوداً به عامّة الناس، نظراً إلى كون طبعهم البشري هو التعلّق التامّ بالدنيا والاشتغال بتعميرها، أم أنّه قد تعلّق بخصوص

(١) البحراني، عبد الله، العوالم (الإمام الحسين عليه السلام): ص ٢٤٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الأعلى: آية ١٦.

الكفار^(١). وهذا النص القرآني يمكن تطبيقه على الطرف المقابل لجبهة الحق في واقعة كربلاء، فإن جيش عمر بن سعد أيضاً كان عندهم إيثار، لكنه من نوع آخر (النوع السلبي)، فقد آثروا الحياة الدنيا الزائلة على نصره الحق المتمثل بنهضة سبط رسول الله ﷺ، وخير شاهد على هذا الأمر ما جرى على لسان قائد هذا الجيش العرمرم، الذي هرع للتكبير بمن طالب بإنقاذ هذه الأمة من حيرة الضلالة، فقد ورد عنه أنه كان يُحَيِّر نفسه بين قتل الإمام الحسين عليه السلام وبين الحصول على مُلك الري، وقد اختار الأخير وأصبح مصداقاً لمن يُؤثر الحياة الدنيا^(٢).

وقد سُمع هذا اللعين يُنشد الشعر قائلاً:
 دعاني عبيد الله من دون قومه
 إلى خِطَّة فيها خرجت لحيني
 فو الله لا أدري وأني لواقف
 أفكر في أمري على خطرين
 أترك ملك الري والري رغبة
 أم أرجع مذموماً بقتل حسين
 وفي قتله النار التي ليس دونها
 حجاب وملك الري قرّة عين^(٣)

أمّا النوع الإيجابي من الإيثار فقد ورد في قوله تعالى حكاية عن سحرة فرعون:
﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيْنَتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقِصٌ مَا أَنْتَ قَاصٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٤). فصحيح أنّ السحرة في المقام قد رفضوا القسم الأول من الإيثار بحسب ما جاء في نص الآية، إلا أن النتيجة النهائية التي وصلوا إليها هي إيثار ما ظهرت لهم من البينات على جميع ما عند فرعون من زخارف الدنيا وزينتها، وهو من الإيثار الإيجابي.

والمورد الآخر الذي أشار إليه القرآن هو ما جاء في قوله تعالى: **﴿... وَيُؤْتِرُونَ﴾**

(١) أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢٠، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٢) أنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٠٦-٣٠٨.

(٣) الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج ١، ص ٥٩٨.

(٤) طه: آية ٧٢.

عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾.

فالكلام في هذه الآية مسوق لمدح الأنصار الذين آووا الرسول ﷺ والمهاجرين ونصروهم، وقدموهم على أنفسهم رغم ما يعانونه من فقر وحاجة.

وعليه؛ فالإيثار بأي شيء إذا كان من أجل غرض إلهي يكون إيثاراً ممدوحاً، فكيف إذا كان ذلك الشيء هو حياة الإنسان، فمن المؤكد أنه يكون أشدَّ محبوبية له عز وجل؛ ومن هنا فلا غرابة إذا وجدنا أن المولى يذكر مفردة (الشراء) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (٢). فإن الأنفس والأموال وإن كانت كلها مملوكة للمولى بنحو الأصالة وما

ملكيتها لها إلا بنحو التبعية، لكنه عز وجل لعظم مقام التضحية بها في سبيله يُنزل نفسه منزلة غير المالك ويشتريها من أصحابها مقابل الجنة في النشأة الأخرى.

ومن الآثار البارزة للعيان المترتبة على النهضة الحسينية في جميع الأعصار، هو ما نشاهده من حالة الإيثار المنقطع النظير لأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، في كل ما يتعلق بإحياء شعائر هذه النهضة المعطاء، ففي كل مورد يكون فيه اسم الحسين عليه السلام حاضراً نجد أن الشيعة يبذلون فيه الغالي والنفيس، سواء على مستوى الأرواح، أم الأموال، أم الراحة، وما هذا العطاء والبذل إلا رشفة من معين ذلك العطاء الذي قدّمه المولى أبو عبد الله الحسين عليه السلام في سبيل إنقاذ البشرية وإحياء السنن الإلهية.

٤- الشجاعة

ورد في معنى الشجاعة لغة، أئها: «شدة القلب عند البأس» (٣)، وورد أيضاً أن:

«... الرجل الشجاع وهو المقدام» (٤).

(١) الحشر: آية ٩.

(٢) التوبة: آية ١١١.

(٣) الجوهرى، إسماعيل بن حماد، الصحاح: ج ٣، ص ١٢٣٥.

(٤) ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج ٣، ص ٢٤٧.

أما الشجاعة بحسب العرف والاصطلاح، فهي لا تختلف عن المعنى اللغوي، فقد ورد في تعريفها أنها: «الإقدام على المكارِه والمهالك عند الحاجة إلى ذلك، وثبات الجأش عند المخاوف، والاستهانة بالموت»^(١).

هذا، وتحتل هذه الخصلة الحميدة منزلة كبيرة في منظومة الفضائل الأخلاقية؛ وذلك لكونها تدخل في مجالات حياتية عديدة على الصعيد الفردي والاجتماعي كالمجال الديني، والجهادي، والعلمي، والسياسي، ونحو ذلك، فإنَّ الخوف المفضي إلى الجبن: «قوة تقيّد المرء، وقد يكون لها تأثير كبير في حياتنا، حيث تمنعنا عمّا نرغبه، وتجبرنا على ما لا نرغبه، كما تعوق تقدّمنا، وتمنعنا من تطوير إمكانياتنا»^(٢).

وهذه الخصلة وإن لم ترد بآدتها في القرآن، إلاَّ أنه ﷺ أشار إلى بعض الأفعال الشجاعة التي قام بها بعض، من قبيل قصة تحطيم الأصنام من قبل بطل التوحيد نبي الله إبراهيم عليه السلام؛ إذ يقول تعالى بعد سرده للمحاورة التي جرت بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه على لسانه عليه السلام: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُدًّا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾^(٣). فهذا الموقف الشجاع والبطولي له عليه السلام لم يصدر منه إذا لم يكن يتحلّى بهذه الفضيلة، خصوصاً مع علمه بالنتيجة الوخيمة التي تنتظره جرّاء هذا الفعل، وهذا ممّا لا غرابة فيه بالنسبة إلى الأنبياء والمرسلين، فهم نتيجة للمهمة الكبيرة الملقاة على عاتقهم في تبليغ كلمة الحقّ إلى الخلق، كانوا أصحاب جرأة وبأس، لا ينفذ الخوف المفضي إلى الجبن إلى نفوسهم، قال تعالى: ﴿... يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾^(٤). وقال أيضاً: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(٥).

(١) الجاحظ، عمرو بن بحر، تهذيب الأخلاق: ص ٢٧.

(٢) بيفر، فيرا، الشجاعة الإيجابية: ص ٦.

(٣) الأنبياء: آية ٥٧-٥٨.

(٤) النمل: آية ١٠.

(٥) الأحزاب: آية ٣٩.

ومن صور الشجاعة الأخرى التي مدحها القرآن، الموقف الشجاع الذي أبداه جماعة من المسلمين إبان وقعة بدر الصغرى، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهَمُ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١). فإن هذه الحالة المعنوية العالية تنهزم أمامها كل أساليب الترهيب والتخويف التي يعمد الخصوم إلى ترويجها والعمل بها.

وقد تجلّت هذه الخصلة الحميدة في نهضة الحسين عليه السلام من خلال عدّة صور، أبرزت جملة من المواقف ذات الجرأة والبأس والإقدام لأعمدة هذه النهضة المعطاء، منها على سبيل المثال: الشجاعة والبسالة التي أبدتها سفير الإمام الحسين عليه السلام في الكوفة، فقد واجه بمفرده الكتيبة التي أرسلها ابن زياد لاعتقاله بقيادة عمرو بن حريث المخزومي، ومحمد بن الأشعث، والتي عجزت عن مواجهة رجل لا يملك سوى سيفه، ممّا دعا ابن زياد أن يرسل إلى محمد بن الأشعث مويّخاً له بقوله: «بعثناك إلى رجل واحد لتأتينا به، فثلم في أصحابك ثلماً عظيمةً، فكيف إذا أرسلناك إلى غيره»^(٢). والأدلّ من ذلك على شجاعة هذا البطل المغوار الرّدّ الذي أرسله ابن الأشعث إلى ابن زياد، والذي يقول فيه: «أيها الأمير، أتظنّ أنّك بعثتني إلى بقال من بقال الكوفة، أو إلى جرمقاني من جرامقة الحيرة؟! أو لم تعلم أيها الأمير أنّك بعثتني إلى أسد ضرغام، وسيف حسام، في كفّ بطل همام، من آل خير الأنام»^(٣).

ومن المواقف الشجاعة الأخرى لواقعة الطفّ وعدم الاكتراث بالموت - وكلّ مواقفها على هذه الشاكلة - اللهجة الشديدة في خطاب الإمام الحسين عليه السلام للحرّ بن

(١) آل عمران: آية ١٧٣-١٧٥.

(٢) البحراني، عبد الله، العوالم (الإمام الحسين عليه السلام): ص ٢٠٣.

(٣) المصدر السابق.

يزيد الرياحي، فإنه من جملة الخطاب الذي دار بينهما، بعد تغيير الحرّ لمسار الإمام عليه السلام ومنعه من مواصلة طريقه إلى الكوفة أو الرجوع إلى المدينة، قال له الحرّ: «يا حسين، إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن. فقال له الحسين عليه السلام: أباالموت تخوّفني؟!»^(١). فردّ الإمام بأسلوب الاستفهام الاستنكاري ذي دلالة قوية على رباطة جأش الإمام عليه السلام، وعزمه على مواصلة ما بدأه وإن وصلت الحال إلى استشهاده، وهذا العزم قد تجلّى بصورة أوضح في الشعر المدوّي الذي رفعه عليه السلام يوم عاشوراء، والذي هزّ به عروش الظالمين، وأصبح شعاراً لكلّ أحرار الشيعة في العالم، وهو قوله عليه السلام: «ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد تركني بين السلّة والذلّة، وهيئات له ذلك، هيئات منّي الذلّة»^(٢).

وهذه الفضيلة القرآنية لم تنته بأحداث واقعة الطف يوم عاشوراء، بل استمرت فيما بعد ذلك، فنجد المواقف الصلبة والقوية التي أبدتها الموكل إليهم قضية استمرار النهضة المباركة بارزة دائماً، فهذا الإمام السجاد عليه السلام لم يابّ مواجهة عبيد الله بن زياد في مجلسه، فبعد المشادة الكلامية بينه عليه السلام وبين هذا الطاغية، وأمر الأخير بضرب عنق الإمام عليه السلام لولا ما قامت به عمّته زينب عليها السلام من فعل أدى إلى انصراف هذا الملعون عن نيّته المشؤومة، أقبل الإمام عليه السلام عليه بعد أن طلب من عمّته السكوت قائلاً: «أبالقتل تهدّني يا بن زياد؟! أما علمت أنّ القتل لنا عادة، وكرامتنا الشهادة؟!»^(٣).

أمّا المواقف الشجاعة للعقيلة زينب عليها السلام في مسيرة السبي فهي كثيرة، فقد كانت بحقّ بطلّة كربلاء، ومن أبرز تلك المواقف البطولية ردها الصارخ على ما تلفّظ به هذا الطاغية من كلمات الكفر فيها تلاه من شعر لابن الزبّعري - والذي تقدّم ذكره - فقد ردّت عليه الحوراء زينب عليها السلام كاسرة جدار الخوف منه ومن زبانيّته الملعونين: «الحمد

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٧٨.

(٢) المصدر السابق: ج ٤٥، ص ٨٣.

(٣) المصدر السابق: ج ٤٥، ص ١١٨.

لله رب العالمين وصلّى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله سبحانه كذلك يقول:

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١)،

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما نُساق الأسراء، أنّ بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة، وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً... فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢) أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائك وإماءك وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا، قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن، تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ثم تقول غير متأنم ولا مستعظم:

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تُشل^(٣).

فهذه الكلمات ما كانت لتصدر أمام أعلى سلطة متجبرة في الدولة آنذاك، لو لم تتحلّى العقيلة زينب عليها السلام بالشجاعة الفائقة، وعدم الاكتراث بأيّ نتيجة قد تصدر من قبل هذا الطاغية المتهتك.

ثمّ إنّّه من خلال ما تلوناه من مصاديق قرآنية لهذه الخصلة الحميدة، وما أبرزناه من مواقف بطولية شجاعة لأعمدة واقعة الطف الخالدة، نجد أنّ القاسم المشترك هو أنّ اتّخاذهم للموقف الشجاع لم يكن لحميّة أو عصبية، وإنّما كان من أجل إحياء دين الله تعالى ونصرة المظلومين، وهذا الهدف في حقيقته وماهيته هدف رسالي سار عليه الأنبياء عليهم السلام من آدم عليه السلام وصولاً إلى نبينا الخاتم عليه السلام؛ ومن هنا قيل - وما أصدقه من قول -: (الإسلام محمديّ الوجود حسينيّ البقاء).

(١) الروم: آية ١٠.

(٢) آل عمران: آية ١٧٨.

(٣) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ١٠٥-١٠٦.

٤. التوكل

إنّ الإيمان بالله وحده لا شريك له، وأنّه مدبّر هذا الكون ومنظّم جميع شؤونه، إذا كان حقيقياً وصادقاً، فإنّه يثمر بلا أدنى شكّ خصلة التوكل عليه عزّ وجلّ في جميع الأمور والأعمال، والتسليم بأنّ جميع القدرات والقوى الأخرى لا شيء إزاء قدرته وقوّته، فنشّق بعونه وفضله وعدله؛ ولعلّه لهذه العلاقة الوثيقة بين هذين الأمرين نجد أنّ القرآن قد قرن بين الإيمان بالله والتوكل عليه، فقد قال في محكم آياته: ﴿... وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١). ﴿... وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢). ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَابُهُ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا...﴾^(٣).

هذا فيما يتعلّق بالبعد المعنوي والاعتقادي، أمّا بالنسبة إلى البعد السلوكي والعبادي، فهو أيضاً لم ينفكّ عن اقترانه بفضيلة التوكل على الله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

والتقوى التي هي الورع عن محارم الله، قد اقترنت هي الأخرى بالتوكل عليه والاعتماد على مقاديره، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٥).

إذاً؛ التوكل على الله هو حالة ينبغي أن تكون حاضرة في كلّ أنواع العلاقة

(١) آل عمران: آية ١٢٢ و ١٦٠. المائدة: آية ١١. التوبة: آية ٥١. إبراهيم: آية ١١. المجادلة: آية ١٠.

التغابن: آية ١٣.

(٢) المائدة: آية ٢٣.

(٣) الملك: آية ٢٩.

(٤) هود: آية ١٢٣.

(٥) الأحزاب: آية ١ - ٣.

معه عليه السلام، ومن المفترض أن يكون المؤمن متصفاً بهذه الخصلة الحميدة في جميع أموره، وهذا ما نستفيده من قوله تعالى: ﴿... وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ فَذَجَعَلِ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾ (١).

ثم إنه مع هذا الحث الكبير على هذه الفضيلة، إلا أنه من الضروري ألا يُسيء الإنسان الفهم تجاهها، فيهمل ما أمر الله به من الأسباب والوسائل، فيكون كسولاً يتطلّع إلى الحياة الطيبة دون جهد أو عمل، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أكيس الكيسين من حاسب نفسه، وعمل لما بعد الموت، وأحق الحمقى من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني» (٢).

هذا، وأن الإنسان وهو يعيش في خضم هذه البهجة الدنيوية التي زاغت لها الأبصار، وتعلقت بها القلوب، يحتاج دوماً إلى من يذكره بفناء هذه المغريات واللذائذ، وعدم فائدتها إلا بالنحو الذي تمكّنه من السير على جادة الحق؛ وأحد مصاديق هذا التذكير هو إحياء فضيلة التوكل في نفسه، فإنه من خلالها يتخلص من سطوة هذه المغريات وعدم الانجرار وراء متعتها الموهومة.

ولو جئنا إلى الأمور التي تُحيي هذه الفضيلة في نفوس الناس، لوجدنا أن النهضة الحسينية تمتلك دوراً كبيراً جداً في هذا المجال، فإن التماهي بين الإرادة الإلهية والإرادة الحسينية، هو من أروع الأمور التي سجّلتها هذه النهضة المباركة، وهذا التماهي هو عين الثقة بالله عز وجل، هذه الثقة بالنصر الإلهي هي من جعلت الإمام الحسين عليه السلام يُقدم على هذه الحركة التغييرية، رغم كل المحاولات التي كانت تمنع من النصر الظاهري، والتي استند إليها جميع من نصحه عليه السلام بعدم الخروج إلى الكوفة سواء من الأصدقاء أم الأعداء.

(١) الطلاق: آية ٣.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ٢٥٠.

وعلى الرغم من أن مآلات الفعل الذي قام به الإمام عليه السلام ومن معه، كافية في الدلالة على أن هذه الفضيلة كانت مترسخة في نفوسهم، إلا أن الأقوال - أيضاً - لم تخل منها، فقد ورد في خاتمة الوصية التي كتبها الإمام عليه السلام إلى أخيه محمد بن الحنفية أثناء خروجه من مكة المكرمة ما هذا نصه: «... وهذه وصيتي يا أخي إليك، وما توفيقني إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب»^(١). ومن تلك الأقوال أيضاً ما جاء في رده على الضحّاك ابن عبد الله المشرقي، ومالك بن النظر الأرحبي، اللذين أخبرا الإمام عليه السلام بحال أهل الكوفة، وأتهم قد أجمعوا على حربه، فقد كان رده عليه السلام على ذلك: «حسبي الله ونعم الوكيل»^(٢). فالإمام عليه السلام كان يرى بأن إيكاله الأمر إلى الله عز وجل هو المبتغى، وأن أي كثرة بشرية لم تكن تحمل هذه الروح الإيمانية المجاهدة، لا حاجة له عليه السلام بها. وهذا المعنى قد ظهر في كلماته بشكل أكثر وضوحاً وهو في منزل (البيضة)، عندما خطب في أصحابه وأصحاب الحرّ بن يزيد الرياحي، فقد تطرّق إلى خذلان أهل الكوفة له ولأبيه وأخيه عليه السلام، وكذلك ابن عمّه مسلم بن عقيل، وقال في نهاية حديثه عن ذلك: «وسيعني الله عنكم»^(٣).

أمّا دعوات الإمام عليه السلام ومناجاته يوم الواقعة، فهي مليئة بعبارات التوكل على الله تعالى والثقة به، ومنها قوله عليه السلام صبيحة يوم العاشر: «اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقةً وعدة...»^(٤). أمّا مناجاته عليه السلام وهو في لحظاته الأخيرة، فهي الأخرى لم تنفك أيضاً عن ذكر هذه الفضيلة السامية، فقد جاء فيها: «اللهم أنت متعالي المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غني عن الخلائق، عريض الكبرياء... أدعوك محتاجاً، وأرغب إليك فقيراً، وأفزع إليك خائفاً، وأبكي

(١) المصدر السابق: ج ٤٤، ص ٣٣٠.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣١٧.

(٣) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص ٤٣٨.

(٤) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٩٦.

إليك مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكل عليك كافياً، احكم بيننا وبين قومنا، فإنهم غرّونا، وخدعوننا، وخذلوننا، وغدروا بنا، وقتلونا...»^(١).

ومّا تقدّم تبيّن وبوضوح تامّ مدى ملازمة هذه الخصلة الأخلاقية للإمام الحسين عليه السلام في كلّ مفاصل هذه النهضة المباركة. وهنا يأتي السؤال: بأنّ صفة التوكل لديه عليه السلام هل حالت دون قيامه بالتخطيط الدقيق، وتهيئة الأسباب الظاهرية للتعامل مع الأحداث المستجدة، انتهاءً بالمواجهة الشرسة التي وقعت يوم العاشر من المحرم؟ الجواب: كلا، إنّه عليه السلام مع كامل توكله على الله وثقته به، لكنّه لم يترك استخدام الأساليب الصحيحة والمشروعة في نهضته المباركة، ومن تلك الأساليب على سبيل المثال تركه لأخيه محمد بن الحنفية في المدينة؛ ليكون عيناً له يُجرّبه بمجريات الأمور ومآلاتها^(٢)، فقد أراده أن يبقى متواصلاً مع قاعدته، غير منقطع عمّا يُخطط له الأعداء في المدينة المنورة التي لها ثقلها ومكانتها في نفوس المسلمين، ومنها أيضاً إرساله لمسلم بن عقيل (رضوان الله تعالى عليه) إلى الكوفة؛ ليُهيئ له الأرضية المناسبة لقدمه وإمساكه بزمام الأمور في هذه المدينة المنتفضة على السلطة الظالمة، ومنها - كذلك - مفاوضاته مع عمر ابن سعد قائد الجيش الأموي الرامية إلى إيجاد انشقاق كبير بين صفوف الأعداء فيما لو استجاب لدعوة الإمام عليه السلام، هذا الانشقاق الذي كان من الممكن أن يعكس المعادلة في تلك المواجهة. إلى غير ذلك من الأساليب التي بيّنت بأنّه عليه السلام في عين توكله الشديد على الله تعالى، إلّا أنّه لم يترك تهيئة الأسباب الظاهرية المشروعة، فلم يكن تواكلاً وتكاسلاً منه عليه السلام، بل كان توكلًا حقيقياً.

وبناءً على هذا؛ فإنّ إشاعة مفاهيم النهضة الحسينية بين الناس في كلّ زمان ومكان، من ثمراته هو إيجاد هذه الصفة القرآنية الرائعة التي بإمكانها أن تخلق جيلاً ثورياً واعياً، يتحرّك على وفق الضوابط الشرعية ويؤدّي تكاليفه، وهو في الوقت

(١) القمّي، عباس، مفاتيح الجنان: ص ٢٧١-٢٧٢.

(٢) أنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٢٩.

نفسه يعيش حالة التوكّل على الله والثقة به. ولعمري إنّ الأسباب الظاهرية التي قد تُتراءى للبعض بأنّها ضعيفة لو عشنا معها ونحن متّصّفين بهذه الصفة، لو جدنا بأنّها قد توصلنا إلى نتائج مذهلة، لا تُحظر على الصديق فضلاً عن العدو، بينما لو تجرّدنا من هذه الصفة فإنّنا سوف نُمنى بالهزيمة من دون أدنى شكّ، قال الإمام الخميني عليه السلام: «إذا تخلّينا يوماً ما عن اعتمادنا على الله واعتمدنا على النفط، أو على السلاح، فاعلموا أنّ ذلك اليوم هو اليوم الذي سنواجه فيه هزيمتنا»^(١).

٥. جهاد النفس

من الضروري على مَنْ يعيش في دائرة العبودية لله عز وجل ألاّ يكتفي بالإصلاح الشكلي والظاهري، والالتزام السطحي بالشريعة الإسلامية، وإنّما ينبغي له أن يسعى بكلّ ما أُوتي من قوّة إلى إيجاد حالة من التغيير الجذري في داخله؛ من أجل أن يكون مؤدياً ما عليه من تكاليف، وهو يعيش حالة الرضا التام تجاه كلّ ما يواجهه، ويسير في طريق العبودية والتسليم المطلق لله عز وجل. وهذا التغيير الجذري لا يتحقق إلاّ بكبح جماح النفس، والسيطرة على قواها، وجعلها طيّعة لمتطلّبات الشريعة الإلهية، فإنّ الناس جميعاً - إلاّ مَنْ عصم الله - تكون غرائزهم محتاجة إلى رقابة مستمرة، مضافاً إلى ما يكتسبونه من عادات بيئية ومجتمعية ضارّة تحتاج إلى محاربة وإقصاء؛ ولصعوبة هذه المهمة وخطورتها، فقد عبّر عنها الرسول صلى الله عليه وآله بالجهاد الأكبر، فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام «أنّ النبي صلى الله عليه وآله بعث سرّية، فلما رجعوا، قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقِيَ عليهم الجهاد الأكبر. فقيل: يا رسول الله، ما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»^(٢). وعنه عليه السلام أيضاً: «الشديد مَنْ غلب نفسه»^(٣). وكذلك روى الإمام موسى بن جعفر،

(١) الخميني، روح الله، صحيفه إمام: ج ٢٠، ص ٧٧. (ترجمة الباحث).

(٢) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ١٦١.

(٣) المصدر السابق.

عن أبيه، عن آباءه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ»^(١).

ونحن إذ نقدّم دراسة قرآنية حول الآثار المعنوية للنهضة الحسينية، تستوقفنا جملة من الآيات التي حثّت على ضرورة مجاهدة النفس، والوقوف أمام تطلّعاتها التي لا تعرف القيود والضوابط، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٢). فإن الفوز بالجنة واتخاذها مأوى وملجأ يحتاج إلى تحقّق شرطين، أولهما: الخوف من الله المفضي إلى عدم التمرد عليه وعصيان أوامره، وثانيهما: هو السيطرة على هوى النفس وكبح جماحها، فإنّ هذا الأمر هو المنفذ الرئيس لدخول الإنسان إلى معترك الذنوب والمفاسد. كما أنّ الشيطان الخارجي لا يتمكّن من النفوذ إلى داخل الإنسان ما لم يوافق الشيطان الداخلي في منحاه، ويفتح له أبواب الدخول، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(٣) (٤).

وهناك آيات أخر تحذّر الإنسان من مغبة الانصياع لهوى النفس؛ وتبيّن أنّ عاقبة ذلك هي الخيبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٥). أو الوقوع في الضلال عن سبيل الله الموجب للعذاب الشديد، كما قال تعالى: ﴿... وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(٦). أو حصول الفساد

(١) المصدر السابق: ص ١٦٣.

(٢) النازعات: آية ٤٠-٤١.

(٣) الحجر: آية ٤٢.

(٤) أنظر: مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٩، ص ٣٩٨.

(٥) الشمس: آية ٧-١٠.

(٦) ص: آية ٢٦.

في السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾^(١).

أمّا ما هو المراد من هوى النفس الذي تُحذّر الآيات منه؟ فعلى الرغم من وضوحه في الوسط الديني والاجتماعي إلا أنّه لا بأس بذكر بعض الكلمات الصادرة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام في مقام توضيحه وبيان مصاديقه، ومنها ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ إِذَا رَغِبَ، وَإِذَا رَهَبَ، وَإِذَا اشْتَهَى، وَإِذَا غَضِبَ، وَإِذَا رَضِيَ، حَرَّمَ اللَّهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ»^(٢). ومنها ما ورد عنه عليه السلام أيضاً: «مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ مَا يَقُولُ، وَيَعْلَمُ مَا يَعْمَلُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَيَحْجِزُهُ ذَلِكَ عَنِ الْقَبِيحِ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَذَلِكَ الَّذِي ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾»^(٣). وفي الصدد نفسه ذكر القمّي رحمته الله في تفسيره لهذه الآية: «هوى العبد إذا وقف على معصية الله وقدر عليها، ثم تركها مخافة الله، ونهى النفس عنها، فمكافأته الجنة»^(٤).

ومع هذه الفضيلة الأخلاقية (مجاهدة النفس) ودورها في صنع الإنسان، بل المجتمع المسيطر على قواه البهيمية المتمثلة برغبات النفس وشهواتها، وقواه السبعية المتمثلة بانفعالات النفس وردّة فعلها العدوانية تجاه ما تواجهه من أحداث، فإننا سوف نُحقق الغاية التي سعى إليها جميع أنبياء الله ورسله وأوصيائه عليهم السلام، والتي هي عبارة عن انتشال البشرية من حضيض الرذائل والسلوكيات المنحرفة، وإيصالها إلى حضرة الربوبية واتصافها بمقام الخلافة الإلهية.

وهذه الفضيلة الأخلاقية يمكن أن تكون النهضة الحسينية من منابعها الرئيسة، فإنّ الحالة التي عاشها الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه من العزوف عن هوى

(١) المؤمنون: آية ٧١.

(٢) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ١٦٢.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٧١.

(٤) القمّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمّي: ج ٢، ص ٤٠٤.

النفس وشهواتها، وكلّ إغراءات المال والمنصب والعافية والرفاه والحياة والبقاء، كان لها الأثر البالغ في صمودهم في هذه المواجهة الصعبة، مما أفضى إلى انتصارهم المعنوي رغم انتهاء المعركة بحسب الظاهر لصالح بني أمية، ورغم كلّ التحشيدات الإعلامية والأساليب القسرية التي اتّبعتها بنو أمية ومن جاء بعدهم من الطغاة والظلمة إلى يومنا هذا.

ومن المشاهد الرائعة للانتصار الذي حققه أبطال كربلاء في ميادين نفوسهم قبل دخولهم لساحة النزال ومواجهة الموت، ما جاء في المصادر التاريخية بشأن نافع ابن هلال الذي كان شاباً جميلاً، وكان حديث عهد بالزواج، وقد حضرت زوجته معه إلى كربلاء، فعندما همّ نافع بالبراز «تعلّقت بأذياله وبكت بكاءً شديداً، وقالت: إلى أين تمضي، وعلى من أعتمد بعدك»^(١). فهذا الموقف يهزّ كيان الإنسان، خصوصاً الشاب في بداية زواجه، فإنّ نفسه تكون تواقّة للالتقاء بالمحجوب، إلا أنّ نافعاً لما رأى مزاحمة هذا الأمر المشروع لنصرة الدين الحقّ المتمثّل بأبي عبد الله عليه السلام، فإنّه جاهد نفسه وأرغمها على عدم الانصياع لهذه الرغبة، وقد أبدى ذلك بصورة واضحة في جوابه للإمام الحسين عليه السلام، الذي خاطبه قائلاً بعد سماع كلام زوجته: «يا نافع، إنّ أهلك لا يطيب لها فراقك، فلو رأيت أنّ تختار سرورها على البراز. فقال: يا ابن رسول الله، لو لم أنصرك اليوم، فيماذا أجيب غداً رسول الله؟»^(٢).

والمشهد الآخر لمجاهدة النفس هو الوقوف بوجه غريزة حبّ البقاء والحياة، فإنّها من أعظم الغرائز التي تسعى النفس دوماً إلى تحصيلها بشتى الطرق، إلا أنّ هذه الغريزة لم تقف بوجه أبطال كربلاء، فإنّهم أقدموا يتهافتون على الموت والانسلاخ عن هذه الحياة الفانية، غير مباليين برغبات نفوسهم في هذا المجال، بل نجد أنّ بعضهم قد حصل على أمان يضمن لهم عدم ملاحقة السلطات لهم إذا تركوا المعركة، إلا أنّهم لم

(١) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، ص ٥٣٩.

(٢) المصدر السابق.

يعيروا هذا الأمان أيّ اهتمام، بل وأهانوا مَنْ جاء به إليهم، فقد ورد في المصادر بأنّ اللعين شمر بن ذي الجوشن «دعا العباس بن علي وإخوته، فخرجوا إليه، فقال: أنتم يا بني أختي آمنون. فقالوا له: لعنك الله ولعن أمانك، لئن كنت خالنا، أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟!»^(١).

ومن المشاهد الأخرى كذلك حجم مجاهدة النفس الذي تحلّت به بطلة كربلاء العقيلة، فإنّ طبيعة المرأة العاطفية تتفاعل مع المصائب دائماً بطريقة عفوية، فيصدر منها بعض الأفعال كضرب الوجه وشقّ الجيب على الفقيد، كما أنّ بعض النساء قد تسوقهنّ نفوسهنّ إلى الإتيان بأفعال قد حرّمها الشرع، كجزّ الشعر أو نتفه، إلّا أنّ العقيلة لم تنسق وراء هذه الرغبات النفسية العاطفية، بل تحلّت بأعلى درجات الصبر والجلادة، ولم تبرز ما يضعف القضية التي سعى الإمام الحسين عليه السلام إلى تحقيقها من خلال نهضته المباركة، فهي رغم رؤيتها لأخيها عليه السلام وسائر أهل بيتها مجزّرين كالأضاحي يوم العاشر من المحرم، ورغم ما عانت منه طيلة أيام السبي، ومواجهة أعتى طغاة العصر، إلّا أنّها لم تضعف وتركن إلى نفسها، بل إنّها كانت ترى أنّ كلّ ذلك في عين الله تعالى، وهو عز وجل لا يصدر منه إلّا الجمال، وقد تجلّى هذا المبدأ في جوابها لابن زياد الذي خاطبها بالقول: «كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟ فقالت: ما رأيت إلّا جميلاً»^(٢). فهل يمكن أن يصدر هذا المنطق من امرأة يمكن أن تنساق وراء طبيعتها الغريزية وهي تواجه تلك المآسي التي تهتّزّها الجبال الرواسي، لو لم تكن قد صرعت نفسها وانتصرت عليها في ميدان الجهاد الأكبر الذي أشار إليه رسول الله صلّى الله عليه وآله، فيما تقدّم ذكره.

(١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٥٦. وأنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٣١٥.

(٢) البحراني، عبد الله، العوالم (الإمام الحسين عليه السلام): ص ٣٨٣.

هذا وأنّ المشاهد كثيرة جداً، فإذا أردنا سردها قد نحتاج إلى مقال مستقلّ، فإنّ النهضة الحسينية برمتها قد اشتملت على نوعي الجهاد: الأصغر والأكبر.

محصول البحث

إنّ النهضة الحسينية بما حقّقت من انتصار معنوي جعل منها نهضة معطاء تزخر بالآثار المهمّة والحيوية على الصعيدين المادّي والمعنوي، أصبحت جديرة بالبحث والتحقيق من أجل استقصاء هذه الآثار وتبيينها للقارئ العزيز؛ لكي يجعلها مشعلاً يسير في ضوئه ويهتدي به فيما يمرّ به من مواقف مظلمة في هذه الحياة الدنيا. وبما أنّ هذه النهضة كلّها بركات وثمار لا يمكن الإمام بها في هذه المقالة؛ لذلك فقد بنينا على تخصيص عرضنا لهذه الثمرات والآثار بالمعنوية فقط، وقيدنا دراستنا أيضاً بأن تكون في ضوء الآيات القرآنية، قاصدين من ذلك بيان قرآنية النهضة الحسينية على مستوى نتائجها ومخرجاتها.

ونحن إذ نقدّم هذه الدراسة فإنّنا نكون قد قمنا بترسيخ مفهوم المعية التي أقرّها الرسول الأعظم ﷺ في حديث الثقلين، فعدم الافتراق بين القرآن وأهل البيت عليهم السلام ينبغي أن يكون حاضراً في حياة المسلمين، يستشعرونه في كلّ حركاتهم وسكناتهم، فهو المؤمن لهم من الوقوع في الضلال كما نصّر على ذلك ﷺ.

هذا، وأنّنا قد صنّفنا الآثار المعنوية القرآنية المترتبة على هذه النهضة المباركة إلى أربعة محاور، تناولنا في المحورين الأوّل والثاني منها جملة من الآثار العقدية والأخلاقية والتربوية المنبثقة من أقوال وسلوكيات الإمام الحسين عليه السلام ومن معه، في مجمل هذه الحركة التغييرية وما تلاها من أحداث السبي. ففي الجانب العقائدي كانت نهضته عليه السلام ترسيخاً واضحاً وجلياً لما اصطلاح عليه بالأصول الخمسة (التوحيد، العدل، النبوة، الإمامة، والمعاد). أمّا في الجانب الأخلاقي والتربوي فكانت مفاهيم

من قبيل: (العزة والكرامة، الصبر، الإيثار، الشجاعة، التوكل، ومجاهدة النفس)؛ عناوين مهمة ورئيسة ذكرناها لهذه النهضة، يستلهمها الفرد الشيعي خصوصاً أو المحبّ لهم ﷺ عموماً في كلّ موسم تُحيا فيه ذكرى أبي عبد الله عليه السلام، وقد استترنا في عرضنا لهذه الآثار بنور الآيات القرآنية المباركة بُغية تحقيق الهدف المشار إليه أعلاه.

ونظراً لضيق المجال ومحدودية الصفحات المسموح بها في هذا المقال؛ لذلك أرجأنا الحديث عن بقية المحاور إلى قسم ثانٍ لهذا المقال.

والحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١ - الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، محمد بن محمد بن نعمان العكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لتحقيق التراث، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.

٢ - أعيان الشيعة، محسن الأمين، تحقيق وتخرّيج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت - لبنان.

٣ - الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل (تقرير بحث الشيخ السبحاني للمكي)، جعفر السبحاني، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م.

٤ - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي وآخرون، ترجمة وتلخيص: محمد علي آذرشب، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ.

٥ - أنصار الحسين عليه السلام، محمد مهدي شمس الدين (ت ٢٠٠١م)، الدار الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٦ - بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، تحقيق: محمد باقر البهبودي، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م.

٧ - بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، محسن الخزّازي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الخامسة، ١٤١٨هـ.

٨ - تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، مراجعة وتصحيح وضبط: نخبة من العلماء الأجلّاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

٩ - التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٠ - تفسير القمّي، علي بن إبراهيم القمّي (ت نحو ٣٢٩هـ)، صححه وعلّق عليه وقدم له: العلامة طيّب الموسوي الجزائري، دار الكتاب، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

١١ - تهذيب الأخلاق في التريية، أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه (ت ٤٢١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

١٢ - تهذيب الأخلاق، عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، قرأه وعلّق عليه: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، دار الصحابة للتراث، طنطا - مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

١٣ - ثورة الحسين في الوجدان الشعبي، محمد مهدي شمس الدين (ت ٢٠٠١هـ)، الدار الإسلامية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

١٤ - الشجاعة الإيجابية، فيرا بيفر، مكتبة جرير، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

- ١٥ - الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد، الشيخ محمد السند، تحقيق: رياض الموسوي، دار الغدير للطباعة والنشر، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- ١٦ - الصحاح، إسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- ١٧ - عوالم العلوم والمعارف والأحوال من الآيات والأخبار والأقوال (الإمام الحسين عليه السلام)، عبد الله البحراني (ت ١١٣٠هـ)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام بالحوزة العلمية، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٣٦٥ش.
- ١٨ - الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفّاري، دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران، الطبعة الثالثة، ١٣٦٧ش.
- ١٩ - الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم الشيباني، المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- ٢٠ - الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، مؤسّسة الرسالة (ناشرون)، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- ٢١ - اللهوف في قتلى الطفوف، علي بن موسى بن طاووس (ت ٦٦٤هـ)، أنوار الهدى، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٢٢ - لواعج الأشجان، محسن الأمين (ت ١٣٧١هـ)، منشورات مكتبة بصيرتي، طبع سنة ١٣٣١ش.
- ٢٣ - مشير الأحزان، جعفر بن محمد بن نما الحليّ (ت ٦٤٥هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.
- ٢٤ - المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة، عبد الحسين شرف الدين الموسوي (ت ١٣٧٧هـ)، مراجعة وتحقيق: محمود بدري، مؤسّسة المعارف الإسلامية، قم

المقدّسة - إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٢٥ - معاني الأخبار، محمد بن علي بن بابويه القمّي، المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفّاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة - إيران، ١٣٧٩هـ / ١٣٣٨ ش.

٢٦ - المعجم الوسيط، مجموعة مؤلّفين، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

٢٧ - معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ.

٢٨ - معين الخطباء، كاظم البهادلي، نشر مركز الدراسات التخصصية في النهضة الحسينية، قسم الشؤون الدينية في العتبة الحسينية المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م.

٢٩ - مفاتيح الجنان، عبّاس القمّي (ت ١٣٥٩هـ)، تعريب: محمدرضا النوري النجفي، منشورات العزيزي، الطبعة الثالثة، ١٣٨٥ ش / ٢٠٠٦م.

٣٠ - مفاهيم القرآن، جعفر السبحاني، مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الرابعة، ١٤٢١هـ.

٣١ - مقتل الحسين عليه السلام، الموقّف محمد بن أحمد المكي الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ)، تحقيق: محمد السماوي، تصحيح ونشر: أنوار الهدى، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٣٢ - مقتل الحسين عليه السلام، عبد الرزاق الموسوي المقرّم (ت ١٣٩١هـ)، انتشارات الشريف الرضي.

٣٣ - مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ)، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، مطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.

٣٤ - موسوعة شهادة المعصومين عليه السلام، لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، انتشارات نور السجّاد، قم، الطبعة الأولى، ١٣٨١ ش.

٣٥ - موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، دار المعروف للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

- ٣٦- ميزان الحكمة، محمد الريشهري، تحقيق ونشر: دار الحديث، الطبعة الأولى.
- ٣٧- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ)، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٠ هـ.
- ٣٨- وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحرّ العاملي (ت ١١٠٤ هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ.
- ٣٩- ينابيع المودّة لذوي القربى، سليمان بن إبراهيم، القندوزي الحنفي (ت ١٢٩٤ هـ)، تحقيق: سيّد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ.

الصحف

- ٤٠- صحيفه امام (فارسي)، روح الله الخميني (ت ١٤٠٩ هـ).

المواقع الإلكترونية

- ٤١- المعاد في القرآن الكريم والروايات الشريفة، أبو القاسم الديباجي:
<https://www.alraimedia.com/Home/Details?Id=c363cd2b-9c4c-481a-a157-8492eebfcafb>.

الحوار القرآني عند الإمام الحسين عليه السلام

دراسة تحليلية

الشيخ حيدر العريضي*

المقدمة

كيف لا يكون منطقُ الإمام الحسين عليه السلام وسلوكه مُستمدّاً من وحي القرآن الكريم وقد تربّى في حجر النبوة ورضع من صدر الإسلام. إنَّ ديدن سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام عامّة والإمام الحسين عليه السلام خاصّة هو التزام الحوار القرآني مع المخالفين ما استطاعوا إليه سبيلاً، ولا ملجأً للحرب والقتال في قاموس فكرهم إلا إذا اضطّروهم العدو إليها وبعد الإعدار بالندُر؛ لأنَّ الغاية من وجودهم وتحملهم عبء الرسالة هو هداية الضالين ونجاة المسترشدين حتّى دخولهم في واسع رحمة الله تعالى، فالحرب تقتل تلك الغاية المرتجاة وتحجب المقابل عن تلك الرحمة الواسعة، ولا ربح لمتصرّف في القتال والحرب ضمن رسالة ومفهوم الأئمة عليهم السلام، وربما حزن الإمام علي عليه السلام وتوجّع لقتل العدو كما هو حاله عليه السلام في حرب الجمل، فقد قال عليه السلام: «شفيتُ نفسي، وقاتلتُ معشري، إلى الله أشكو عجري وبجري»^(١)، وناشد الإمام الحسين عليه السلام أعداءه أن لا يقبلوا على استباحة دمه، والجناية بحقه وحق أهل بيته وصحبه عليهم السلام؛ لأنَّ ذلك سيكون سبباً لدخول أعدائه نار جهنم^(٢).

* باحث وكاتب إسلامي، من العراق.

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٢٤٩. طه حسين، الفتنة الكبرى (علي وبنوه): ج ٢، ص ٦١.

(٢) أنظر: الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ٢٢٢-٢٢٣.

لقد تخلّد الخطاب الحسيني عبر الأجيال المتعاقبة، فلم يكن خطاباً مؤقتاً يتوجّه لفئةٍ من الناس أو مرحلةٍ زمنيةٍ معينة، بل كان خطاباً يحمل منهج ثورةٍ شاملةٍ ويؤسّس لمدرسةٍ فكريّةٍ، ينهل منها الأحرار في كلّ زمانٍ ومكان، فخلود الخطاب الحسيني مقترنٌ بخلود الخطاب القرآني المعجز ومتفرّع عنه كغصنٍ شجرةٍ مباركةٍ أصلها ثابت وفرعها في السماء.

إنّ أهم ما يميّز الخطاب الحسيني هو التّنوع في التراكيب والأسلوب وبلاغة الدلالات المتكاثرة عند تعدد القراءات وتعمّق التحليلات غوراً في استجداء معانيه المتنامية؛ إذ يجد المتأمّل لذلك الخطاب من الجمل الإنشائية والخبرية المناسبة مع شأن صدور المقال، والمتسقة مع سبب توجيه الكلام من تهديدٍ أو ترغيب.

إنّ المستند الأول في حوار الإمام الحسين عليه السلام هو محكم القرآن الكريم ذو الحجّة البالغة على جميع من اعتنق الإسلام واتّخذ منهجاً لسلوكه وسائر أحواله، ومن خلال استقراء المصادر وجدتُ أنّ استعمال الإمام الحسين عليه السلام لأيّ الذكر الحكيم قد تقسّمت أغراضه بين ما يُثبت حقيقة وجود الخالق ووحدانية أمره ونفاذ مشيئته (جلّ وعلا)، وبين ما يُثبت شروط الخلافة الشرعيّة لعباد الله تعالى في أرضه دون من سواهم من ملوك وجبابرة، وغرض ثالث استعمله عليه السلام في إثبات شرعيّة ثورته وسلامة موقفه من حكم الطاغية يزيد، وقد حاولتُ اتّخاذ منهج التحليل قدر جهدي بحثاً في كتب التفسير والكلام من مصادر الفريقين المعتبرة، والخروج بنتائج علميّة تكون حُجّةً لسائر أهل الإسلام ومن رَغِبَ في معرفة الحقيقة والتمس طريقها، وأرجو أن أكون قد بلغتُ مُرادِي بتوفيقٍ من الله تعالى وحسن رعايته.

تمهيد: معنى الحوار وأهميته

المعنى اللغوي والاصطلاحي

الحوار في اللغة من الحور أي: «التردد إمّا بالذات وإمّا بالفكر... والقوم في حوار: في تردد إلى نقصان... والمحاورة والحوار المرادّة في الكلام، ومنه التحاور قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمْ﴾^(١)»^(٢).

أمّا معنى الحوار اصطلاحاً، هو: تبادلٌ في الكلام بين اثنين وتناقل المعلومات فيما بينهما والتأثر في الأفكار، وهو ما يجري في المحادثات بين المختلفين محاولة للوصول إلى توافق نسبي أو مطلق. إنّ الحوار والجدال لهما معنى النقاش بين طرفين أو أكثر بقصد إظهار حجة معينة، وإثبات حق، ورّد للفساد^(٣).

وعرفت المحاورة بكونها: «عرض لوجهتي نظر، أو هي نوع من توضيح خصائص مختلفة لأمرين»^(٤).

أهمية الحوار

الاختلاف بين عاقلة الناس سمة رافقت البشرية منذ وجودها، وخير سبيل لتفادي آثار الاختلاف السلبية هو الحوار بين الثقافات المتفاوتة والحضارات المتباينة. إنّ السؤال والاستفسار حالة طبيعية لا بدّ أن يمرّ بها الإنسان الباحث حتّى يصل إلى الحقيقة، وخير وسيلة كاشفة عن المبهات ورافعة للشبهات هي الإعلام الصادح بروح الحوار البناء والمتجسّد في ملتقى الخطاب، أو النقاش العلمي، المتوشح برداء

(١) المجادلة: آية ١.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن: ص ١٣٤-١٣٥.

(٣) أنظر: التلمودي، خالد، الحوار في القرآن، مقال في مجلة منارة الدعوة: ص ١، بتاريخ ١/٦/٢٠١٧.

(٤) زيادة، خليل عبد المجيد، الحوار والمناظرة في القرآن الكريم: ص ١٨. نقلاً عن: محمد أحمد: أسس

الحوار مع الآخر وأهميته في الفكر الإسلامي: ص ٢.

الموضوعية والمتجرد عن التعصب الأعمى ونكران الذات، فالإعلام الإيجابي له دورٌ كبيرٌ في نقل الحوار الهادف؛ لترسيخ المبادئ في النفوس وإحداث قفزة معنوية عند الإنسان، كما يستنهض الهمم نحو الصلاح، فالحوار يترك أثراً بليغاً في نفس الإنسان، ويُبلور سلوكه واتجاهاته، ولا يخفى أثره في إثارة انتباهه إلى الحقيقة التي يدعو إليها، فيرسخ الحق في ذهن الضال بكيفية جذابة، وهذا الترسخ يدعو الإنسان ويجفزه لتجسيد ذلك الحق، فمن هنا يتبلور اهتمام الإنسان بضرورة الحوار في نقل الحقائق وهداية الطالب لها^(١).

ولأهمية الحوار فقد حاور الله (سبحانه) الملائكة مع ثبوت حق طاعته؛ لكي يُعلمنا أساس الحوار، كما تعدى الأمر تنزلاً بحواره مع الملائكة ليشمل ذلك إبليس أيضاً، فقد حاور المولى تعالى إبليس عندما أمره بالسجود لآدم فأبى واستكبر، وكانت الحكمة من ذلك أن يُعلمنا كيف نُحاور أعداءنا، كما يتجلى الحوار في حياة الأنبياء والرسل في محاورتهم لأقوامهم خلال الدعوة بأسلوبٍ سلسٍ ولينٍ متحلين بالصبر على ذلك^(٢).

لقد أتبع الإمام الحسين عليه السلام أسلوب الحوار مع الآخرين طيلة مدة إمامته التي استمرت عشر سنوات، فقد تناول الموضوعات العقديّة المتعلقة بالتوحيد الإلهي وصفاته مستعملاً الآيات القرآنية ومستشهداً بمضمونها البليغ تمهيداً لإثبات الخلافة الإلهية ومنها إمامته عليه السلام، وبطلان حكم من سواه من بني أمية، ولم يعدم الحوار مع عدوه حتى في ساحة الحرب رجاء هداية من كانت له أذنٌ واعية، أو دفعه عن إثم التورط بدمه الطاهر.

بناءً على ما تقدّم؛ سينقسم البحث إلى ثلاثة مباحث أتناول في أولها حوار الإمام الحسين القرآني في إثبات التوحيد وصفات الذات الإلهية، والثاني حوار عليه السلام في

(١) أنظر: مركز الأبحاث العقائدية، موسوعة من حياة المستبصرين: ج ١، ص ٥٣-٥٤.

(٢) أنظر: التلمودي، خالد، الحوار في القرآن، مقال في مجلة منارة الدعوة: ص ١، بتاريخ ١/٦/٢٠١٧.

إثبات الخلافة الشرعيّة، وفي الثالث حوار هـ في إثبات أحقيّة موقفه من حكم بني أميّة وشرعيّة نهضته المباركة.

المبحث الأول: حوار هـ القرآني في إثبات الصانع وصفاته

وجدت الحركات المنحرفة عن الدين الإسلامي في عهد بني أميّة أرضاً خصبة لنمو الشبهات والترويج للضلال، فقد سمح بنو أميّة للمرجئة والمجبرة بممارسة نشاطهم الفكريّ بكلّ حرّيّة، بل قدّموا لهم الدعم المادي أيضاً^(١). وكانت فرقة المجبرة - القائلة بمبدأ خلق الله لأعمال العباد - من بدع بني أميّة خاصّةً، استغلّوها في شرعنة حكمهم وتبرير ما يصدر عن ملوكهم من مخالفات شرعيّة صارخة.

لقد انطلق الإمام الحسين عليه السلام بدافع الشعور بالمسؤولية الشرعيّة متصدياً لتلك العاصفة الصفراء، ومدافعاً عن أصول العقيدة الغراء، وذائداً عن الأمانة الكبيرة التي استودعها إيّاه جدّه المصطفى.

كان من أهم المسائل التي حاور فيها أهل الضلال هي مسألة التوحيد الخالص من كلّ شبهة تجسيم أو مثال، فقد استشهد الإمام الحسين عليه السلام بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٣)، فقد ترجم حوار هـ عليه السلام منطلقاً من هذه الآية المحكّمة لنسف كلّ شبهة دخلت القلوب الزائغة عن الحقّ. فوقف عليه السلام بوجه المبطلين مفنّداً مزاعم أهل الضلال بحوارٍ بليغٍ يستحوذ على مجامع القلوب الهائمة لمعرفة ربّها والحائرة في زحمة توهم الشبهات، فقال عليه السلام: «أيّها النّاس، اتقوا هؤلاء

(١) انظر: أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، الأغاني: ج ٦، ص ١٣٢. وأيضاً: ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست: ص ٤٩٣. وأيضاً: مراد، بركات محمد، مذاهب الزنادقة وعقائد الباطنية في الفكر الإسلامي: ص ٢٨-٣٢.

(٢) الأنعام: آية ١٠٣.

(٣) الشورى: آية ١١.

المارقة الذين يُشبهون الله بأنفسهم، يضاؤون قول الذين كفروا من أهل الكتاب، بل هو الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾...^(١). لقد استهل حوارنا عليه السلام بجملة تهديد ووعيد من خطورة الاعتقاد بهذه الشبهات؛ لئلاَّ يثير انتباه الأذهان إلى ما يخلصهم من دواعي العذاب ومسبباته، فكانت هذه المقدمة من صميم القرآن الكريم وجوهره وصفاً للباري بما وصف به نفسه تعالى في مقابل ما يصفه به أهل الضلال ومريدو الفتن. ثم يسترسل عليه السلام بإثبات التوحيد الإلهي بجميع مراتبه وجميل صفاته وبديع أفعاله (جلّ وعلا) بقوله عليه السلام: «استخلص الوحداية والجبروت، وأمضى المشيئة، والإرادة، والقدرة، والعلم بما هو كائن، لا منازعَ له في شيءٍ من أمره، ولا كُفولَه يعادلُه، ولا ضدَّ له ينازعه، ولا سميَّ له يشابهه، ولا مثلَ له يُشاكله»^(٢).

إنَّ من لوازم إثبات صفة التوحيد ونفي الشبيه وفقاً لحوار الإمام الحسين عليه السلام هو إظهار عظمة الخالق، وبيان قدرته وسعة علمه سبحانه لكلِّ عاقل له قدرة التمييز بين تلك العظمة وجبروتها، وبين صفات من يكون للمولى سبحانه شبيهة أو مثالاً - بحسب زعم أهل الضلال - من ذوي الأجسام المحسوسة؛ لتفرده تعالى بالعظمة فجلاً عن أن يحيط به شيءٌ من أبصار المخلوقين القاصرة، وذلك يتضمن انتفاء الشبيه فضلاً عن الشريك من أجسام محدودة بذاتها ومتحيّزة، فكونها مُدرَكة بالأبصار من سمات المحدثات أي: محدودة القدرة، وهي ممَّا لا تليق بمقام الإلهية، وقد تنزّه عنها الواجب بذاته، ولو كانت آلهة لكانت محتجبة عن الأبصار^(٣).

إنَّ سرَّ عظمته (جلّ وعلا) يتجلّى في سعة علمه ونفاذ مشيئته في خلقه مع احتجابه عنهم، فهو سبحانه يراهم ويدرك أحوالهم ولا يعزب عنه علم مثقال

(١) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول: ص ٢٤٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٤٤.

(٣) أنظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: ج ٧، ص ٤١٤.

ذرة، فدفع توهم السذج من أهل الضلال يكون بيان أنه تعالى لا تدركه الأبصار لتعالیه المنافی للجسمية ولوازمها، وقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ دفع آخر لما يسبق إلى أذهان هؤلاء الذين اعتادوا بالتفكر المادي، وأخذوا إلى الحس، وتجانسوا مع المحسوس حتى توهموا أنه تعالى إذا ارتفع عن تعلق الأبصار به خرج حسه أيضاً عن رؤية المحسوس، وانقطع عن مخلوقاته فلا يعلم بشيء كما أنه لا يعلم به شيء، ولا يبصر شيئاً كما لا يبصره شيء، فأجاب تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾، وعلة الدعوى تكمن في قوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، واللطيف هو ما يقابل الكثيف أي: الرقيق النافذ في الشيء، والخبير من له الخبرة المطلقة، فإذا كان تعالى محيطاً بكل شيء حقاً كان شاهداً على كل شيء لا يفقده ظاهر شيء من الأشياء ولا باطنه، فهو تعالى يدرك ملح البصر فضلاً عن المبصر، والباصرة لا تدرك إلا المبصر، فما أعظمه وأجل قدرته سبحانه وتعالى رب العزة عما يصف المشركون^(١).

لقد ألقى أهل الجاهلية الأولى واليهود بضلالهم على من انتحل سمة الإسلام - حقناً لدمه - فصار يبتدع خدعة التشبيه والتجسيم انطلاقاً من واقعه المادي^(٢)، ورفضاً لعبادة ما لا يرى بالعين الباصرة، وغايته العود بالأمة إلى حثتها العظيم وشركها القديم، فتصدى الإمام الحسين عليه السلام لتلك الأفكار الضالة والعقائد المنحرفة صوناً لدين جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله ووحدة أمة الإسلام. لقد خط الإمام الحسين عليه السلام بمداده قبل دمه خارطة التوحيد وسبيل الوصول إلى معرفة الله تعالى، وانتقل بالعقل الإسلامي من جموده على الإدراك المادي إلى التحرر من سجن القصور الذهني والارتقاء بالنفس لرؤية معبودها المجرد عن الحوادث والصفات المادية بالبصيرة القلبية، ومنه تتحقق الغاية الإلهية من إيجاد الخلق بما ذكره سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣).

(١) أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٧، ص ٢٩٢.

(٢) أنظر: الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل: ص ٢٣٢.

(٣) الذاريات: آية ٥٦.

لقد سلك الإمام الحسين عليه السلام طريق أهل الصدق طلباً للجذب بدل الكسب، فاستبدل التحقق بالآثار المادية بكسوة ومضة الأنوار الإلهية كما ظهر في دعائه يوم عرفة، وهو دعاء مَنْ سقاه ربُّه شراباً طهوراً، فصار طاهر السّر عن النظر إلى غير الساقبي، ومصون الضمير عن حبّ الشراب وإن كان طهوراً؛ لأنّ لا مجال فيها لظهور غير المعبود ولا مطلوب فيها إلّا المعبود ولا مقصود فيها إلّا معرفة المعبود بالمعبود لا بغيره من آيات الآفاق أو الأنفس^(١).

فقد ورد عن الإمام الحسين عليه السلام في دعاء يوم عرفة قوله: «إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعي عليك بخدمة توصلني إليك، كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً... إلهي هذا ذلّي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك وبك أستدل عليك»^(٢).

لقد تقدّم الاستدلال بتعليل مسلكه عليه السلام وبيان سببه بقوله: (إلهي ترددي في الآثار يوجب بُعد المزار)، وختم استدلاله بالغاية من اعتماد هذه الوسيلة في مسلكه بقوله: (منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدل عليك)، وهو طريق الخواص (اللّمي) الذي يورث القطع بانتقاله من يقينه بالعلّة (الأظهر وجوداً) إلى المعلول، ويقابله طريق العوام (الدليل الإتي) وهو طريق يورث الظن بانتقاله من المعلول إلى العلّة، فهنا يتحدّ الدالّ والمدلول؛ لأنّه تعالى دلّ على ذاته بذاته دون خلقه، وهو ما انتهجه عليه السلام؛ لأنّ ما عدا ذلك إمّا استدلال عليه تعالى بآيات الآفاق، وفي ذلك ينحاز كلّ واحد من المستدلّ والدليل والمدلول حياله، وإمّا استدلال عليه تعالى بآيات الأنفس، وفي ذلك وإن يتحدّ المستدلّ والدليل ولكن ينحاز كلّ منهما عن المدلول، ومعلوم أنّ الدال إذا

(١) أنظر: جواد آملی، عبد الله، تقرير بحث المحقق الداماد (كتاب الحج): ج ٢، ص ٦٢

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٩٥، ص ٢٢٦. نقلاً عن ابن طاووس في إقبال الأعمال.

لم يكن المطلوب إثباته نفسه فلا يمكن أن يدلّ عليه حقّ الدلالة بخلاف ما إذا كان عينه كما في هذا الدعاء البالغ؛ إذ إنّه ﷺ استدلّ بالله على وجود الله وعرفه من ذاته الظاهر، وحكم بأنّه لا ظهور لغيره تعالى حتّى يكون هو المظهر له^(١).

وكما دأب العقلاء في حوارهم مع الآخرين في اعتمادهم على مبدأ إنكار الأفكار المغلوطة أولاً تمهيداً لنفيها (طريق الهدم)، ثمّ يتبعه مبدأ طلب الإقرار بالأفكار الصائبة والإذعان لها تأسيساً بديلاً لسابقتها المغلوطة (طريق البناء)، فقد سار الإمام الحسين ﷺ بهذا النحو، إذ بدأ بالإنكار - تعميماً لطريق إثبات أرقى من سابقه ومؤيداً له - بمبدأ الأولوية أي: مَنْ كان ثبوته يبدأ من ظهور معلولاته وآثارها وهو المظهر لها فهو أولى بثبوت ذاته بذاته، وإثبات معلولاته يكون متأخراً رتبةً وأقلّ ظهوراً.

ومن روائع حوارهِ ﷺ ما كتبه للحسن البصري جواباً عن سؤاله حول مبدأ القضاء والقدر، ونقضاً لرأي المجبّرة القائل بنسبة كلّ أفعال العباد لله جلّ وعلا عن ذلك؛ لغرض تبرير أفعال ملوك بني أمية من فسق وقتل للنفس المحترمة، فقد انطلق ﷺ من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، مفسّراً للآية بحوارٍ حكيم ابتدأه ﷺ، بقوله ﷺ: «... وَمَنْ حَمَلَ الْمَعَاصِي عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ افْتِرَاءً عَظِيماً، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُطَاعُ بِإِكْرَاهٍ، وَلَا يُعْصَى بِغَلْبَةٍ، وَلَا يَهْمَلُ الْعِبَادَ فِي الْهَلَكَةِ، لَكِنَّهُ الْمَالِكُ لِمَا مَلَكَهُمْ، وَالْقَادِرُ لِمَا عَلَيْهِ أَقْدَرُهُمْ، فَإِنْ اتَّمَرُوا بِالطَّاعَةِ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ صَادِقاً عَنْهَا مَبْطُناً، وَإِنْ اتَّمَرُوا بِالْمَعْصِيَةِ فَشَاءَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ فَيَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا اتَّمَرُوا بِهِ فَعَل، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ هُوَ حَمَلُهُمْ عَلَيْهَا قَسراً، وَلَا كَلْفُهُمْ جَبْراً، بَلْ بِتَمَكِينِهِ إِيَّاهُمْ بَعْدَ إِعْذَارِهِ وَإِنْذَارِهِ لَهُمْ»^(٣). ولقد ذكر بعض أهل التفسير أنّ معنى الآية ﴿وَاللَّهُ

(١) أنظر: جوادي آملی، عبد الله، تقرير بحث المحقق الداماد (كتاب الحج): ج ٢، ص ٦٣.

(٢) الأعراف: آية ٢٨.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٥، ص ١٢٣-١٢٤.

أَمَرْنَا بِهَا ﴿١﴾ هو: أتهم ادّعوا أن لو كان الله لا يريد فعلنا لمنعنا عنه بقدرته، ولا دليل لهم على أن الله أمرهم بمعنى التشريع، وقد مضى ذمّ التقليد وأفعال الجاهلية^(١). فدعوى المجبرة باطلة ومخالفة لصريح محكمات الكتاب المجيد لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٢)، وهو ما قرره عليه السلام بقوله: «إن الله تبارك وتعالى لا يُطاع بإكراه»، فمعنى الاختيار واضح من مضمون الآية المباركة وغيرها من الآيات الناطقة بحق الاختيار للإنسان في الدنيا في جميع شؤون عقائده وسلوكه، ولا تعني معصيته تفوق قدرته على قدرة الله تعالى «ولا يُعصى بغلبة»، فلا عجز في مقام الذات المقدسة، وإنما لها القدرة المطلقة. وهنا قد جمع الإمام الحسين عليه السلام نفي التفويض والجبر معاً حفظاً لحق الله تعالى في صفات الكمال والجلال، فالله تعالى هو مَنْ وهب الوجود بالحياة والقدرة وعلم الناس ما ينفعهم، فإن شكروا نعمته أطاعوه باختيارهم عرفاناً لإحسانه، وإن كفروا نعمته خالفوا شريعته بمشيئته دون أمره سبحانه، فهم وإن كانت طاقتهم وقوتهم من جملة أفضاله وأنعامه، لكنهم عصوا أمر خالقهم ولم يخرجوا عن حدّ مشيئته فلو شاء الله لمنعهم عن معصيته ولهداهم سبيله ولكن حقّ عليهم العذاب بعد الإنذار بما قدّمت أيديهم وبسبب عنادهم بعد معرفتهم للحجج الدامغة.

خلاصة المبحث

انبرى الإمام الحسين عليه السلام من خلال حوارهِ القرآني إلى إثبات كمال الصفات للباري عزّ وجلّ بما ورثه عن أهل بيت الرحمة عليهم السلام، ونفي ما لا يليق عنها كالجسميّة الماديّة والأحوال البشريّة؛ ليدحض مخططات آل أمية الرامية لعودة الناس إلى شرك الجاهليّة وعبودية الأصنام الماديّة والبشريّة.

(١) أنظر: القرطبي، محمد، الجامع لأحكام القرآن: ج٧، ص١٣٥.

(٢) الإنسان: آية ٣.

إنَّ مسلسل مؤامرات بني أمية لم يتوقف عند هذا الحدِّ، بل سجَّل محاولةً أُخرى - من محاولات كثيرة - تصدَّى لها الإمام الحسين عليه السلام في النقض على بدعة الجبرية (عقيدة خلق الأعمال)؛ لأنَّ خطرهما يكمن في شرعنة حكومة آل أمية رغم انتهاكهم للحرمات، فما كان من الإمام الحسين عليه السلام إلا أن يُثبت فساد هذه الدعوى انطلاقاً من تذكير الناس بآيات الله الصادحة بحقيقة أن الله تعالى لا يُكره الناس على طاعته ولا يُجبرهم على معصيته، ولا يختار الملوك بإرادته وإن أذن بمشيئته بعد تحقق مقتضى الأسباب الطبيعية (الفصل بين الأمر والمشيئة)، فهو أمرٌ بينهما يتلخص في بيان أن الله أمر الناس بلزوم أوامره واجتناب نواهيه مع حفظ حق اختيارهم؛ لكي يُثيب المطيعين بجنته ويُعذِّب العاصين بناره، فليس ما ارتكبه العاصي بأمر الله تعالى ولا بخارجٍ عن قدرته سبحانه، بل شاء الله أن تجري الأمور وفقاً لطبيعة نظام العليَّة، فإنَّ الأسباب وإن كانت تجري بقدرته اختباراً لعباده، ولكنَّ الحوادث لا تقع إلا بمشيئته (جلَّ وعلا) حفظاً لسلطنته وقدرته، فإن شاء وقعت وإن لم يشأ لم تقع.

وبذلك فقد هدَّم الإمام الحسين عليه السلام المخطط الأموي معنوياً تمهيداً لإذكاء أوار الثورة بعد سحب بساط الشرعيَّة من تحت هذه الفئة الضالة.

المبحث الثاني: حوارهِ القرآني في إثبات الخلافة الشرعية

كان تأكيد الإمام الحسين عليه السلام على العمل بمضمون محكم القرآن الكريم في اتباع الخليفة الشرعي، وهو المستخلف بأمر الله تعالى وحكمته؛ لأجل إنفاذ مشيئته سبحانه في عالم التكوين الدنيوي وتحقيق إرادته في خلقه، وأنَّ اختيار بيعة الناس لخلفاء الله (جلَّ وعلا) والامتثال لأحكامهم هو سرُّ سعادتهم وصلاح حالهم في الدنيا والآخرة.

لقد استند الإمام الحسين عليه السلام في حوارهِ مع الأمة الإسلامية إلى منطق القرآن الكريم مستشهداً بآياته المباركة كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ... ﴿١﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٢﴾، والمراد من تلكهما الآيتين هو التأكيد على أهمية مقام النبوة والولاية في حياة المسلم، فهو سبب النجاة من مهبط الضلال ومصيدة الشيطان، وله رافدان أحدهما مُبلِّغٌ والآخر مجرٍ ﴿٣﴾، فمن ترك طاعة أولي الأمر سقط بحبال الشيطان.

وأولو الأمر في رأي مفسري العامة هم فئة خاصّة من أهل العلم والفضل والمنزلة الاجتماعية العليا ﴿٤﴾، فمن هم أعلى منزلة وأغزر علماً وأعظم شأناً من أهل بيت النبوة المتمثّل في الإمام علي عليه السلام وبنيه المعصومين عليهم السلام؟! «

لقد قيل لمعاوية: إن الناس قد رموا أبصارهم إلى الحسين عليه السلام، فلو قد أمرته يصعد المنبر ويخطب فإن فيه حصرًا أو في لسانه كلاله. فقال لهم معاوية: قد ظننا ذلك بالحسن، فلم يزل حتى عظم في أعين الناس وفضحنا، فلم يزالوا به حتى قال للحسين: يا أبا عبد الله، لو صعدت المنبر فخطبت. فصعد الحسين عليه السلام على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ فسمع رجلاً يقول: من هذا الذي يخطب؟ فقال الحسين عليه السلام: نحن حزب الله الغالبون، وعتره رسول الله ﷺ الأقربون وأهل بيته الطيبون، وأحد الثقلين اللذين جعلنا رسول الله ﷺ ثاني كتاب الله تبارك وتعالى، الذي فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول علينا في تفسيره، لا يبطينا تأويله، بل نتبع حقائقه. فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، أن كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ

(١) النساء: آية ٥٩.

(٢) النساء: آية ٨٣.

(٣) أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٥، ص ٢٧.

(٤) أنظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج ٥، ص ١٤٠. وأيضاً: الفخر الرازي، محمد

بن عمر، مفاتيح الغيب: ج ١٠، ص ٢٠٠.

فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴿١﴾ ... وأحذركم الإصغاء إلى هتوف الشيطان بكم؛ فإنه لكم عدو مبين... قال معاوية: حسبك يا أبا عبد الله قد بلغت»^(١).

لقد جعل الإمام عليه السلام خط طاعة الله تعالى ممتداً إليهم عليهم السلام بواسطة الملازمة الحكيمية مع طاعة رسول الله بقوله عليه السلام: «... فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، أن كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة»، أي: إن البرزخ الفاصل بين اتباع الحق وطاعة الرحمن عن اتباع الباطل وطاعة الشيطان هو الاعتقاد العملي بولاية أهل بيت النبوة، وبناءً عليه صدر تحذيره عليه السلام للناس: «وأحذركم الإصغاء إلى هتوف الشيطان»^(٢).

إن هذا الحوار القرآني البديع يُحاطب العقل ويذكره بحقيقة قصور الإنسان المعرفي من دون التمسك بمرجعية المعصوم المتجلية في القرآن الكريم (الثقل الصامت) وأئمة أهل البيت (الثقل الناطق)، فإن جعلاً مرجعاً لمعرفته ومصدرراً لسلوكه، استقامت حياته وانتظمت شؤونه وسعد في الدنيا وفاز في الآخرة، وإن أتبع شهواته ووساوس الشيطان اضطربت حياته وزاد بلاؤه وكثرت محنه وشقي في آخرته، وهو ما قررته الآية المباركة: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَنَحْنًا عَلَيْهِم بِرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**^(٣)، فالنتائج تتبع أحسن مقدماتها كما تتأثر الأحداث التاريخية بطبيعة العقل البشري ومستوى إدراكه للحقائق الإيمانية، وعليه كانت دعوة الإمام الحسين عليه السلام الصريحة للأمة إلى ضرورة إدراك الناس للحد الفاصل بين الإيمان والكفر وما يترتب على إثره من نتائج في الدارين، فقد أبرز في حوارهِ فضل أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس، ومقامهم عند الله تعالى بكلامٍ مستوحى من أي الذكر الحكيم.

انطلاقاً مما ذكرَ يسترسل الإمام عليه السلام في إلقاء الحجة البالغة من حوارهِ البليغ،

(١) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ٢٢-٢٣.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الأمالي: ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٣) الأعراف: آية ٩٦.

ويبعث رسالة أخرى فيها مصداق للإمامة يذكرهم فيها بضرورة الإقرار بولاية الإمام علي عليه السلام امتثالاً لتنصيب النبي صلى الله عليه وآله له في غدیر خم وبيعتهم له، وكان ذلك قبل موت معاوية بستتين، فبعد أن حج الإمام الحسين عليه السلام جمع الناس، ثم قال في سؤالٍ تقريري: «أنشدكم الله أتعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نصبه يوم غدیر خم فنادی له بالولاية وقال: ليلغ الشاهد الغائب؟ قالوا: اللهم نعم»^(١)، وهي خطوة متقدمة في الاستدلال على قضية - قياسها معها - حكمها منتج لدليل أفضلية الإمام علي عليه السلام أولاً، ولزوم امتثال أمر رسول الله صلى الله عليه وآله في الاقتداء بولايته ثانياً، وقد أقرّوا وبايعوا الإمام علياً عليه السلام وقتها فلا ينبغي - عقلاً وشرعاً - أن ينكثوا بيعته ويستبدلوها ببيعة من لا حظ له في علم، ولا رصيد عنده من تقوى - مقابل أهل بيت النبوة - وإن تقادمت السنون والأزمان.

وفي سياق متصل يستفهم الإمام عليه السلام الناس بسؤالٍ تقريري آخر - يتضمّن معنى التنبيه إلى سريان مبدأ الولاية لأئمة أهل البيت عليهم السلام وامتدادها الشرعي فيهم من بعد الإمام علي عليه السلام، وطلب الإذعان لولايتهم - بقوله: «أتعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال في آخر خطبة خطبها: إني قد تركت فيكم الثقلين: كتاب الله وأهل بيته، فتمسكوا بهما لن تضلوا؟ قالوا: اللهم نعم»^(٢)، فديمومة الإسلام الحقيقي مرتبطة بدوام التوحي لأئمة أهل بيت الرحمة عليهم السلام والامتثال لأوامرهم والتزام طاعتهم، ولكنّ القوم كانوا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣)، لقد ألقى الإمام الحسين عليه السلام عليهم الحجّة البالغة وألزمهم الامتثال للأمر الإلهي، فبعد اليقين والقطع بصدور هذه الوصايا من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حقّ الأئمة المعصومين عليهم السلام ومع إقرارهم بولايتهم كان أكثرهم جاحدين بها ومنكرين لفضلهم ظلماً وتكبراً.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٣٣، ص ١٨٣.

(٢) المصدر السابق: ص ١٨٤.

(٣) النمل: آية ١٤.

مما تقدّم من أنوار الإمام الحسين عليه السلام الفكرية التي صاغها في حوارية عقدية مستوحاة من كتاب الله العزيز - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - في إثبات مقام الخلافة الشرعية لأهل بيت النبوة عليهم السلام يمكن أن نستخلص منها استنتاجاً نافعاً في بناء كيان المؤمن العقديّ يتضمّن ما يلي:

إنّ الإنسان مهما بلغ من علمٍ ومنزلةٍ اجتماعية لا يخرج عن حقيقة العبودية لله تعالى، ويبقى العبد محتاجاً لعون خالقه وتأييده في خوض عباب هذه الحياة المشحونة بالمشكلات الاجتماعية والسياسية وغيرها من الأمور المادية والمعنوية، ولا يمكن لأيّ إنسانٍ أن يتصدّى لحلّ جميع تلكم المشكلات ما دام غير متكاملٍ من جميع جهات الكمال المادي والمعنوي؛ لأنّ مهام القيادة خطيرة، ومسؤولية أمانة الخلافة الإلهية في الأرض لا يتحمّلها إلاّ مَنْ توافر فيه شرط الكمال والخلو من كلّ نقصٍ يُوجب الخطأ في تنفيذ أحكام الخالق الحكيم بين عباده، فلا يُمكن بحالٍ أن يُصلح المرء غيره ويكمله وهو غير كاملٍ، فضلاً عن كونه فاسداً؛ لأنّ فاقد الشيء بذاته لا يعطيه لغيره، بل هو أحقّ بالتلقّي والاستمداد، فمنّ تسنّم منصباً بغير استحقاق فقد أطاع نفسه الأمّارة بالسوء واستجاب لوساوس الشيطان وصار أداة طيّعة لمكائده المسببة للفساد والهلاك.

إنّ الحوار الحسيني انطلق من وحي الفطرة السليمة مستدلاً على ضرورة اتّباع مَنْ أراد الله تعالى أن يكون خليفةً وحاكماً بين عباده باستحقاقٍ بعد توافر شروط الكمال والتنزّه عن كلّ رجسٍ يمنعه من تحقيق العدل الإلهي، ولا يستحق هذا المنصب إلاّ مَنْ شهد له القرآن الكريم بعصمته وكمال أخلاقه، وقد أمر الله تعالى عباده بلزوم طاعة نبيّه الأكرم وأهل بيته من الأئمة المعصومين؛ لتحقيق الغاية من إيجاد الخلق وتأمين سعادتهم في دار الدنيا وضمان فوزهم في دار الآخرة بالنعيم المقيم.

المبحث الثالث: حوار هـ القرآن في إثبات شرعية ثورته

واجه إعلان الثورة الحسينية - من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة - موجة اعتراض بعض المحييين إشفاقاً، وأصوات انتقاد المغرضين من الأمويين حقداً، وما كان من الإمام الحسين ؑ إلا أن يكون جوابه متناسباً مع معطيات كل معترض بالمداراة للمتعاطفين، ومُفجماً لكل مناوئ بالحجة الدامغة^(١).

لقد توجهت بعض الاعتراضات على نهضة الإمام الحسين ؑ بثهمة التمرد وشق عصا وحدة المسلمين، وأنها مقدمة لإحداث فتنة عظيمة. فكان جوابه ؑ في رد هذه الشبهة - مستمداً من دستور الأمة وثقلها الأول - بحوار مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢)، فبيانه الثوري هو أحسن القول الداعي إلى طاعة الله تعالى ونبذ طاعة الحاكم الأموي، وجهاده في رفض بيعة الطاغية يزيد المشهور بفسقه هو من أفضل الأعمال الصالحة التي ندب إليها الشارع المقدس في التقرب إلى الله تعالى.

إن المتأمل في جواب الإمام الحسين ؑ على رسالة الأشدق - الذي وصمه فيها بثهمة الشقاق ودعاه إلى اللجوء إليه تحت وصايته - يجد فيها مدى صلابته ؑ وتنمره في ذات الله تعالى، وهي سر شجاعته في تحدي الإرهاب الأموي، فقد كان رده ؑ بليغاً في نصه القائل: «أما بعد، فإنه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عز وجل وعمل صالحاً وقال: إنني من المسلمين، وقد دعوت إلى الأمان والبر والصلة، فخير الأمان أمان الله، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمانة يوم القيامة...»^(٣).

(١) أنظر: القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين: ج ٣، ص ٢٥-٣٣.

(٢) فصلت: آية ٣٣.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٤، ص ٥٩١. وأنظر: ابن كثير، إسماعيل بن

عمر، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٦٥-١٦٦.

فآية الدعوة تنطوي على مضامين كثيرة استعملها الإمام الحسين عليه السلام في الردّ على قول المرجف والمتخاذل، فهذه المقولة القرآنية إنّما صدرت من الله (جلّ وعلا) لتكملة الثناء على المؤمنين ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾^(١)، ولتوجيه استحقاقهم تلك المعاملة الشريفة؛ وعليه فصداد هذه المقولة يجمع الظالمين في قصورهم، أي: كيف لا يكونون بتلك المثابة وقد قالوا أحسن القول وعملوا أحسن العمل.

وذكر هذا الثناء عليهم بحسن قولهم عقب ذكر مذمة المشركين ووعيدهم على سوء قولهم، مشعر - لا محالة - أنّ بين الفريقين بوناً بعيداً، طرفاه الحُسنُ المصحح به، وما يُقابله مفهوم السيئ، أي: فلا يستوي الذين دعوا للمعروف وعملوا صالح العمل مع الذين أنكروا الحقّ وعملوا أسوأ العمل، كما لا تستوي الحسنة ولا السيئة، والمعنى: أنّ كفة الداعين للإصلاح راجحة ويلزم قبولها؛ إذ لا أحسن منهم قولاً وعملاً، و(مَنْ) هنا استفهام نفي، أي: لا أحد أحسن قولاً من دعوة الطاعة لله تعالى كقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾^(٢). ومَنْ دعا إلى الله، هو كلُّ أحدٍ نادى إلى عبادته بإخلاص، والدعاء إلى شيءٍ هو أمرُ الناسِ بالتقوى، وتسمية الواعظ - عند بعض العرب - بالداعي؛ لأنّه يدعو إلى التشيع لآل علي بن أبي طالب، وهذا حال المؤمنين حين أعلنوا التوحيد، وهو ما وُصفوا به آنفاً في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾^(٣)، فقد كان المؤمنون يدعون المشركين إلى توحيد الله، وسيد الداعين إلى الله هو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثمّ بين الإمام الحسين عليه السلام الغاية من ثورته وهي الغاية نفسها من خلق الإنسان؛ ليختبره المولى تعالى في هذه الدنيا، فقال عليه السلام: «قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ

(١) فصلت: آية ٣٠.

(٢) النساء: آية ١٢٥.

(٣) فصلت: آية ٣٠.

(٤) أنظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير: ج ٢٥، ص ٢٨٨-٢٨٩.

كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ^(١)، فإذا أقمت في مكاني فبمَن يُمتحن هذا الخلق المتعوس وبماذا يُجتبرون؟ ومَن ذا يكون ساكن حفرتي وقد اختارها الله تعالى لي يوم دحا الأرض... ^(٢). لقد ابتلى الله تعالى الأمة الإسلامية بموقف الإمام الحسين عليه السلام الثوري تجاه الطغيان الأموي، وأبتلي الإمام عليه السلام بتخاذل تلك الأمة وفشلها في الاختبار حتى أذاقها الله تعالى لباس الخوف والجوع بعد تلك الفاجعة العظمى.

بعد أن دافع الإمام الحسين عليه السلام بحواره القرآني عن سلامة موقفه الثوري من كلِّ شائبة، ونزه دعوته عن كلِّ معصية أو فتنة مُردية، تقدّم عليه السلام لإثبات شرعية ثورته ببيان صادق بذكر الله تعالى: **﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... ﴾** ^(٣)، وقوله تعالى: **﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾** ^(٤)، فقد أعلن عليه السلام أن الوازع الرئيس لثورته ودافعه الأساس هو حكم الله تعالى بإقامة دولة العدل والأمر بالمعروف الذي حكم به جدّه المصطفى، والنهي عن المنكر الذي حاربه جدّه خاتم الرسل، ؛ ونتيجة لذلك نسمع بيانه عليه السلام الأوّل لثورته المباركة في وصيته التي كتبها لأخيه ابن الحنفية بعد حوارٍ طويلٍ: «... وأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي عليه السلام، أريد أن أمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام» ^(٥).

لقد تردد مضمون حوار عليه السلام في أذهان الأمة الإسلامية مدوياً بين سلبٍ لكلِّ شُبُهةٍ ونفيٍ لكلِّ تهمَةٍ، وبين إيجابٍ لكلِّ ذريعةٍ شرعيةٍ وإثباتٍ بحُجَّةٍ قويّةٍ؛ لأنَّ

(١) آل عمران: آية ١٥٤ .

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٤٢ .

(٣) آل عمران: آية ١١٠ .

(٤) المجادلة: آية ٢٢ .

(٥) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٢٩-٣٣٠ .

مصدرها قرآني لا يقوى على ردّها المرجفون، ولا يتمكّن أن يُفندّها المبطلون. لقد أيقن المسلمون وقتها بضلالة الطاغية يزيد وفسقه وجوره، ونزاهة الإمام الحسين عليه السلام وعصمته بحبل الله المتين وشرعية ثورته، واتّضحت صورة مشهد طرفي الصراع لديهم بوضوح تام، وهنا يكمن ثبوت حجية الثورة البالغة لكلّ من سمع واعية الإمام الحسين عليه السلام ونداءه، وكان ينقصهم قوّة الإرادة وعلوّ الهمة وشدها، ورسالة العزيمة ورزانتها لبلوغ مدرك الفتح الأعظم وتحقيق النصر الأكبر، كما أنّ حبّهم للدنيا هو الحاجز الأكبر لفلاحهم، ورأس كلّ خطاياهم؛ لذلك لما استشعر الإمام الحسين عليه السلام من الأمة ثقافتها إلى الأرض وحبّها لزينة الدنيا وإيثارها على نعيم الآخرة ذكرهم عليه السلام - وقتها - بفناء الدنيا وخلود الآخرة، وحثميّة لقاء الله تعالى للحساب، فتلا قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(٢).

وتأكيداً لبيانه عليه السلام في وصيته حاورهم وهو في طريقه إلى العراق، فقام في الناس خطيباً وداعياً إلى سبيل الحقّ وصراطه القويم فقد قال عليه السلام: «إنّ هذه الدنيا قد تغيّرت وتنكرت وأدبر معروفها، فلم يبقَ منها إلّا صباغة كصباغة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أنّ الحق لا يعمل به وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محققاً، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة ولا الحياة مع الظالمين إلّا برماً»^(٣).

لقد بين الإمام الحسين عليه السلام أنّ سعادة المرء في الدنيا رهن كرامة العيش وعزة النفس وسيادة المثل العليا، ومن دونها فلا خير في الدنيا؛ إذ تكون كالسجن عيشها نكدًا ونهارها مُظلمًا، وأنّ الإنسان بطبعه يكون مُحبًّا للدنيا، فإن فاق حبه لها حبه للدنيا فقد ابتعد عن الله تعالى وأسخط رسوله صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرين عليهم السلام، كما أنّه عليه السلام

(١) الكهف: آية ١١٠.

(٢) الحديد: آية ٢٠.

(٣) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص ٢٤٥.

يرى أن المرء المحبّ للعالم إذا تمحّص بالبلاء ينسى دينه ويبقى حريصاً على دنياه الفانية، مائلاً عن ثواب آخرته الباقية، كارهاً للموت وهو حتمي عليه. ومن أحبّ دينه وتعلّق قلبه بالله تعالى مشايحاً لرسوله وأوصيائه عليهم السلام لن تضرّه القلاقل ولا تغريه الزبارج، وحين يرى أن الدين في المعمورة مهجوراً عندها يكره الدنيا ويتمنى الموت لملاقاة من أحبه ويتنعم بجواره.

احتجاجه عليه السلام لردعهم عن سفك دمه الطاهر

لقد صدرت من الإمام الحسين عليه السلام في حوارهِ مع الأعداء مناقشات فيها أسئلة تقريرية وأخرى إنكاريّة على غرار الأسلوب القرآني في جداله مع الظالمين، كما نقل أصحاب السير وأرباب التاريخ أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يلقي عليهم الحجّة البالغة وينبّه عدوه بالعواقب الوخيمة من مبارزته وقتاله مع أصحابه وأهل بيته، فقام فيهم خطيباً في أكثر من مرّة مذكراً، وجادلهم منكرّاً عسى أن يثبوا إلى رشدهم ولا يتورطوا في سفك دمه الطاهر، ولكنهم أصروا على قتاله عناداً للحقّ وطمعاً في عطاء زائل، وكانوا في ثواب الآخرة من الزاهدين.

ومن أهم حوارياته الجدليّة مع أعدائه في يوم العاشر من المحرمّ للتعريف بنسبه وحسبه، وقبيل أن تشتدّ الحرب بوطيسها وبعد أن وثب الإمام الحسين عليه السلام متكئاً على سيفه، فنادى بأعلى صوته: «أنشدكم الله، هل تعرفوني؟ قالوا: نعم، أنت ابن رسول الله وسبطه. قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أنّ جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله؟... قالوا: قد علمنا ذلك كلّهُ، ونحن غير تاركيك حتّى تذوق الموت عطشاً»^(١).

لقد أقرّ الطرف المعادي بنسب الإمام الحسين عليه السلام وفضله وحرمة قتاله على غرار إقرار الناس في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ

(١) الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص ٢٢٢-٢٢٣. وأنظر: النيسابوري، محمد بن الفضل، روضة الواعظين: ج ١، ص ٣٩١.

لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ
 وَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ
 الشَّاهِدِينَ ﴿١﴾، الذي جاء في تفسيره أن أتباع الأنبياء والمصلحين قد أقروا بالتزام
 تعاليمهم، وهو بمنزلة الاستحلاف، بعد أن أخذ الله ميثاق النبيين لتبليغ الناس
 أحكام الكتاب وتعليمهم الحكمة، وأن يتعهدوهم بالإيمان بخاتم الرسل وينصروه
 إن أدركوه، ودل على هذا الحلف ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾، والإصر هو العهد،
 والإصر في اللغة الثقل^(١). إنمّا مناشدة تجعل القوم في مساءلة كبيرة أمام الله تعالى،
 وتتبعها أسئلة تقريرية متتالية تُفيد طلب الإذعان وترك الغي والشقاق والعناد من
 خلال تذكيرهم بنسب الإمام الحسين عليه السلام وحسبه الرفيع، والذي يُلقي الحجّة البالغة
 عليهم وتدين إصرارهم مع اعترافهم. فقد كان مثله كمثل مؤمن آل فرعون الذي
 أنكر على قومه متعجباً من إصرارهم على الحنث الوارد في قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمٍ مَا لِي
 أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾^(٢)، فهل يحق للقوم قتال سبط نبيهم من
 غير ذنب ولا جناية أو تقصير؟

ثم ينتقل عليه السلام إلى حوار القوم بحجّة أخرى عامّة بعد حجّة النسب الخاصّة بشأنه،
 فيذكّرهم بالشيعة التي يدينون بها إن كانوا مسلمين حقاً، فيسألهم مرّة أخرى عن
 المبرر الشرعي لقتاله والاقتصاص منه، فقد قال عليه السلام: «يا ويلكم، أتقتلونني على سنّة
 بدلتها؟! أم على شريعة غيرتها؟! أم على جرم فعلته؟! أم على حق تركته؟!»^(٤).

وفي احتجاج آخر للإمام مستعملاً السؤال الإنكاري المتضمّن للتعجب من
 موقفهم العدائي، واستغراباً من إصرارهم على قتاله، فناجزهم بحواره وألقى

(١) آل عمران: آية ٨١.

(٢) أنظر: القرطبي، محمد، الجامع لأحكام القرآن: ج ٤، ص ١٢٥-١٢٦.

(٣) غافر: آية ٤١.

(٤) القندوزي، سليمان بن إبراهيم، ينابيع المودّة: ج ٣، ص ٨٠.

عليهم الحجة متوعداً إيّاهم عذاب الآخرة بندا: (يا ويلكم)، ثم أردف الإمام سؤاله الإنكاري بتعجب «عَلَامَ تَقَاتِلُونِي؟!»: أي: ما هو سبب قتالهم إيّاه وما هو الوجه الشرعي أو العقلي لذلك، فلا يوجد أيّ مبررٍ يوجب قتال الإمام؛ إذ لم يُغيّر سنة باختلاق بدعة، ولم يترك حقاً في ذمته ولم يؤدّه.

لقد أوضح الإمام عليه السلام من خلال جداله أنّ الأُمَّة وقتها أُصيبت بداء انعدام المعايير الصائبة، والانحياز لجهة الباطل بلا دليل شرعي أو عقلي غير اتباعهم الهوى، فأقام عليه السلام عليهم الحجة البالغة والأدلة المقنعة، ولكنهم لم يراعوا ذلك، بل مضوا في غيهم، وسعوا في منهج الخلاف لصريح آيات القرآن المجيد، وما أمرهم به من ضرورة أعمال العقل في التمييز بين أهل الحق والباطل كما قال تعالى: ﴿أَفَجَعَلُ السُّلَيْمِينَ كَالْجُرُومِ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾^(١)، لقد أعماههم الجهل وأضلّهم حُبُّ الدنيا، فقست قلوبهم وصارت كالحجارة التي لم تفسرها قوّة زلزلة الحوار الحسيني وروعته، وبلاغة منطقته، وصدق حديثه.

وخلاصة القول تتمحور حول أسلوب الإمام الحسين عليه السلام البديع في حوارهِ مع الآخرين، وما تمخّض عنه من طرق استدلالية باستعماله لآي الذكر الحكيم؛ لما يحمله من أساليب احتجاجية مقنعة، فقد طرق الإمام عليه السلام جميع السبل العقلية والشرعية لردع أعدائه من التورّط في سفك دمه الطاهر، فدكّرهم بحسبه ونسبه ومقامه في الإسلام، ثمّ عرج إلى توبيخهم وإصرارهم على قتاله كرجلٍ مسلم - على الأقل - لعلّة فقدانهم المبرر الشرعي لمناجزته وعداوته؛ إذ لم يُغيّر سنة ولم يأت بدعة، وقد ألقى عليهم الحجة البالغة ولم يترك لهم عذراً يقدمونه غداً في يوم حسابهم.

ورغم كلّ ذلك البيان البديع والحجج البالغة من حوارهِ عليه السلام لم يستجب إلاّ النزر القليل من المسلمين، ومع قلة العدد وخذلان الناصر صمد عليه السلام مع تلك الثلّة المؤمنة بوجه جيش أعتى الطغاة وأكثرهم فسقاً، وسجّل عليه السلام أكبر حدث شهده

تاريخ الإسلام خاصّة والتاريخ الإنساني بصفة عامّة، وهو حدث واقعة الطف التي شهدت أكبر مأساة بقتل الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه في كربلاء، وسي نساء أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله من كربلاء إلى الشام، وهذا الحدث يُمثّل انعطافة خطيرة في تاريخ المسلمين، ونقطة تحوّل في وعي المجتمع الإسلامي وثقافته؛ لما أحدثته من صرخةٍ مدويّةٍ بوجه الظالمين على مرّ الأزمان مهما كانت هويتهم أو منزلتهم الاجتماعية ومكائنتهم السياسيّة.

فسلام على أبي الأحرار يوم وُلِدَ ويوم استشهد دفاعاً عن بيضة الدين الإسلامي من كيدٍ وزندقة بني أميّة.

نتائج البحث

بعد الاستعراض المقتضب لأسلوب الإمام الحسين عليه السلام الحوارية لا بدّ من الخروج بنتائج عدّة، وهي ما يلي:

١- إنّ المنطلق الأمثل لمعرفة العقائد الإسلاميّة وأصول الدين هو القرآن الكريم؛ لقطعيّة صدوره بإجماع علماء الإسلام، إلّا أنّهم اختلفوا في فهم معناه وتحمل وجوهه؛ بسبب الإعراض عن تأويل المتشابه منه وتفسير محكمات آياته، فقد قام بعض المسلمين بالكشف عن مضمونه بالرأي من دون الرجوع إلى أصوله ومنابع تفسيره.

٢- لقد استعمل الإمام الحسين عليه السلام آي القرآن الكريم في أغلب محاججاته مع المبطلين والمضللين كما هو الحال مع المعترضين على خروجه من المعرضين بعد إعلان ثورته المباركة.

٣- لقد مهّد الإمام الحسين عليه السلام لثورته الكبرى بإثبات أصول الدين الإسلامي؛ لتقوية عقيدة المسلم وزيادة بصيرته، وكشف زيف بني أميّة وضلالهم وبطلان إمامتهم للأمة الإسلاميّة.

٤- عمل الإمام الحسين عليه السلام في توضيح الحقائق ونشرها كمقدمةٍ لبثّ روح الوعي

العقدي في عقول المسلمين قبل استنهاضهم للثورة على أصول الشجرة الخبيثة.
٥- اتسم حوارهِ القرآني ﷺ بقوة البيان وتمام الحجّة البالغة على مَنْ سمع واعيته المباركة؛ لتكون دافعاً لنهضة الأمة بوجه الطغاة، ولكنّ أغلب المسلمين وقتها أعرضوا عن صوت الحقّ ميلاً لهوى النفس الذي أردهم في الهاوية.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- ١ - الاحتجاج على أهل اللجاج، أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، نشر: دار الشريف الرضي، مطبعة شريعت، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ.
- ٢ - الأغاني، علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، تحقيق: د. علي عباس، دار صادر للطباعة، بيروت.
- ٣ - الأمالي، محمد بن علي بن بابويه المعروف بالصدوق (ت ٣٨١هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسّسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- ٤ - الأمالي، محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تقديم: علي أكبر غفاري، مطبعة دار المرتضى، بيروت.
- ٥ - بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، نسخة محققة، دار إحياء الكتب الإسلامية، قم المقدسة، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.
- ٦ - البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ)، دار المعارف، بيروت، ١٤١٠هـ.
- ٧ - تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.
- ٨ - تحف العقول عن آل الرسول، الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني الحلبي (المتوفى في القرن الرابع الهجري)، تقديم: حسين الأعلمي، الناشر: مؤسّسة الأعلمي، بيروت.

٩ - تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للطباعة والنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٠ - التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري المعروف بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، مجلد دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

١١ - حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام (دراسة وتحليل)، باقر شريف القرشي، تحقيق: مهدي باقر القرشي، العتبة الحسينية المقدسة كربلاء، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

١٢ - روضة الواعظين، محمد بن الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨هـ)، تحقيق: مجتبي الفرجي، منشورات دليل ما، قم المقدسة، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ.

١٣ - شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

١٤ - الفتنة الكبرى، طه حسين، مطبعة الهنداوي، القاهرة، ٢٠١٢م.

١٥ - الفهرست، محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم البغدادي (ت ٤٣٨هـ)، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٩٩٧م.

١٦ - كتاب الحج (تقرير بحث المحقق الداماد)، عبد الله جواد الأملي.

١٧ - اللهوف في قتلى الطفوف، علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤هـ)، تحقيق: الشيخ فارس تبريزيان، نشر: مطبعة أنوار الهدى، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٨ - مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، تصحيح: السيد هاشم الرسولي، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ.

١٩ - مفاتيح الجنان، عباس القمي، تقديم: السيد محمد رضا النوري، دار اليوسف، بيروت.

٢٠ - المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

- ٢١ - الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، تقديم وتحقيق: عبد العزيز الوكيل، طباعة مؤسّسة الحلبي، طبعة القاهرة، ١٣٨٧هـ.
- ٢٢ - المناقب، الموفق محمد بن أحمد الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ مالك المحمودي، نشر: مطبعة سيد الشهداء، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
- ٢٣ - موسوعة حياة المستبصرين القسم العقائدي، تأليف ونشر: مركز الأبحاث العقائدية، قم المقدّسة - إيران، النجف الأشرف - العراق، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- ٢٤ - الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، الناشر: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ. الأسوة
- ٢٥ - ينابيع المودّة، سليمان بن الشيخ إبراهيم الحسيني القندوزي (ت ١٢٩٤هـ)، تحقيق: علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

المجلات والبحوث والمواقع الإلكترونية

٢٦ - أسس الحوار مع الآخر وأهميته في الفكر الإسلامي، محمد أحمد:

<http://alhiwartoday.net/node>

٢٧ - الحوار في القرآن، الإمام خالد التلمودي، مجلة منارة الدعوة، ٢٠١٧م.

رمزية الحرف في توظيف الإمام الحسين عليه السلام للنصّ القرآني الفاء والواو أنموذجاً

الشيخ وسيم راقم الوائلي*

المقدمة

إنّ للنصّ القرآني دلالاته اللا متناهية؛ لصدوره من المطلق اللا متناهي، وإنّ لكلّ متلقٍ نصيباً خاصاً من تلك الدلالات التي ينبغي ألاّ تخالف ظاهر القرآن الكريم الحجّة، وإلاّ تمّ رفضها البتّة، ومن هذا المنطلق نجد أنّ الإمام الحسين عليه السلام يبيّن أنّ دلالة القرآن الكريم تبدأ بالعبارة، لكنّها لا تقتصر عليها، فثمة الإشارة، واللطائف، والحقائق، فقد روي عن الحسين بن علي عليه السلام قوله: «نزل كتابُ الله عز وجل على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء عليهم السلام»^(١).

ويحاول البحث الوقوف على شيء من إشارات القرآن الكريم ولطائفه عبر بعض ما وظّفه الإمام الحسين عليه السلام من آياتٍ في ثورته التاريخية، وقد اختار البحث عيّنة من تلك النصوص بقدر ما يسعه المجال، متمثلةً بحرفي (الفاء، والواو) من أوّل

* ماجستير في الشريعة والعلوم الإسلامية، قسم علوم القرآن والحديث، كلية الفقه - جامعة الكوفة، من العراق.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ٢٠. السيزواري، محمد بن محمد، جامع الأخبار (معارج اليقين في أصول الدين): ص ١١٦.

الآيتين اللتين قرأهما ﷺ حين خروجه من المدينة المنورة، حتى وصوله إلى مشارف مكة المكرمة.

وتكمن أهمية الموضوع في كونه متعلقاً بالدلالة المهجورة من النص القرآني أولاً، وبخصوص ما ورد على لسان الإمام الحسين ﷺ ثانياً، والسعي لاستكشاف العلاقة بينهما بناءً على إشارة الإمام الحسين ﷺ من وجود الدلالات العديدة للنص القرآني الكريم؛ ويرجع السبب في اختيار هذا الموضوع إلى الرغبة في إبراز بعض ما هو غير ملتفت إليه في مجال البحوث الأكاديمية على الرغم من إشارة النصوص الروائية المتحدثة عن القرآن الكريم إلى مثله في مقام تحليل النص القرآني.

أما هدف البحث وغايته فهي بيان بعض وجوه السعة الدلالية للنص القرآني الكريم؛ من هنا تتلخّص مشكلة البحث في معالجة الجمود على ظواهر الألفاظ، بشرط المحافظة عليها في مقام التحليل الرمزي، فالرمز لا يُعتدّ به إن خالف الظاهر، وفيما يرتبط بالبحوث السابقة التي تناولت الموضوع نفسه بالدراسة، لم يعثر الباحث على مَنْ درس الرمز فيما وظّفه الإمام الحسين ﷺ من نصوص قرآنية.

ويتوخى البحث إثبات أنّ الرمزية تتعلّق بأصغر مكّونات النصّ القرآني - كالحروف الأبجدية - فضلاً عمّا هو أوسع من ذلك، ولا سيّما في مقام توظيف النصّ من قبل الإمام المعصوم ﷺ، مما يؤكّد وجود القصد في توظيفه، وقد واجهت الدراسة صعوبات تتمثّل في احتياج التحليل الرمزي إلى إنعام النظر طويلاً لاستخراج الدلالات المناسبة في مقام تحليل الحرف القرآني، متبعة المنهج التحليلي لإثبات هذه النتيجة.

تمهيد: مفهوم الرمز

الرمز في اللغة: من رَمَزَ يَرْمُزُ رَمْزًا، وهو: الإشارة، والإيحاء، والتحريك، والضمُّ، أي: ضمُّ شيءٍ إلى شيءٍ^(١).

(١) أنظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، مادة (رمز).

أما اصطلاحاً فقد عرّف بتعريفات عدّة^(١)، منها: أن الدلالة الرمزية بعامة هي: «استدعاءً لشيء ما، يستدعي بدوره شيئاً آخر»^(٢)، وعرّف بأنه: «ما يُشار به إلى المطلوب مع قلة الوسائط وخفاء في المألوم... وسمّي رمزاً؛ لأنه الإشارة من قرب على سبيل الخفية»^(٣)، ومنها أنه: «علامة تمثّل - بطريقة حسّاسة، وبواسطة المشابهة - شيئاً غائباً، أو مدلولاً مجرداً»^(٤)، ومنها: «هو بقيّة التصفية الفكرية والجوهر الأقصى في كلّ تشبيه»^(٥).

وأما الدلالة الرمزية اللفظية فهي: «أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معانٍ كثيرة بإيحاء إليها، أو لمحة تدلّ عليها»^(٦)، والحرف - بصفته لفظاً - يقع في ضمن الدلالة الرمزية اللفظية؛ ف «الرمز وسيلة لغوية تحمل وظائف جمالية عندما تُسهّم في تشكيل تجربة المبدع على نحوٍ مؤتلف مع مكوّنات النصّ الفني، وأياً كانت ضروبها اللغوية والفنية»^(٧).

وقد وقع اختلاف في سعة الدلالة الرمزية اللفظية، فثمة من اعتبرها بأنها الدلالة الأبعد للفظ وأنها غير المجاز والاستعارة والكناية^(٨)، وهناك من أدخل المجاز والكناية وغيرهما في الرمز^(٩)، وهناك من جعل الدلالة الرمزية متفرّعة من الدلالات الأخرى، كالدلالة الصوتية، والصرفية، والنحوية، واللغوية، وغيرها^(١٠).

(١) أنظر: توردوروف، تزفيتان: الرمزية والتأويل: ص ٧٠. وأيضاً: كرم، أنطولان، الرمزية والأدب العربي الحديث: ص ٢.

(٢) توردوروف، تزفيتان، الرمزية والتأويل: ص ٧٠.

(٣) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان: ص ١٠٣.

(٤) آرون، بول. جاك، دينيس سان. فيالا، آلان، معجم المصطلحات الأدبية: ص ٥٤٢.

(٥) كرم، أنطولان، الرمزية والأدب العربي الحديث: ص ٦.

(٦) قدامة بن جعفر، نقد الشعر: ص ١٥٤-١٥٥.

(٧) هنون، هادي، التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية من مكة إلى المدينة: ص ٨٣.

(٨) أنظر: الصدر، محمد، موسوعة الإمام المهدي عليه السلام: ج ٢، ص ١٨٤.

(٩) أنظر: ماكوين، جون، موسوعة المصطلح النقدي (الترميز): ص ٨٧. وأيضاً: الحيدري، كمال،

الرمزية والمثل القرآني: ص ٣٠.

(١٠) أنظر: المقابلة، كمال أحمد فالح، أثر الدلالة اللغوية في التأويل عند المفسرين: ص ٢٤٩.

«وتدرج الرموز في الموروثات الثقافية والدينية والسياسية»^(١)، وقد امتاز القرآن الكريم من بين كل الموروثات الدينية بالرمزية المحتوية على الباطن العميق، مع الحفاظ على ظاهره البين؛ وهذا ما يميّزه عن المذهب الرمزي الذي نشأ في فرنسا^(٢)، الذي صار مثاراً للجدل؛ لأنّه يلغي الظاهر.

وهذا لا ينطبق على رمزية القرآن الكريم؛ لقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق»^(٣)، وقوله عليه السلام: «ويشهد بعضه على بعض»^(٤)، فظاهر القرآن الأنيق لا يُجَلُّ بباطنه العميق؛ إذ العمق فيه فرع عن رموزه الظاهرية الأنيقة، فالنصّ يؤدّي الوظيفتين الظاهرية والباطنية بشكل طولي.

إلا أنّ الكلام فيمن له القابلية على إبراز تلك المعاني القرآنية الباطنية التي أشارت إليها رموزه، وهو ما بينه الإمام الحسين عليه السلام في قوله الشريف المتقدّم: «نزل كتاب الله عز وجل على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء عليهم السلام»، فالخواصّ والأولياء والأنبياء - ومن بمقامهم - لهم القابلية على إبراز تلك المعاني الرمزية، كلّ حسب قدرته وطاقته.

ولتجنّب الإشكالات التي أوردت^(٥) على (التأويلية)، و(الاستنباطية)، و(الفيضية)، و(الإشارية)، و(الصوفية)، و(الشهودية)، وغيرها من المسالك التي

(١) آرون، بول. جاك، دينيس سان. فيالا، آلان، معجم المصطلحات الأدبية: ص ٥٤٣.

(٢) أنظر: العنبي، سارة، الرمزية وتجلياتها في الشعر العربي الحديث: ص ١٢٢.

(٣) خطب نهج البلاغة، لأمير المؤمنين علي بن طالب عليه السلام: ص ٤٩. وأنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي: ج ٢، ص ٨٠٧.

(٤) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ٢٢.

(٥) أنظر: الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن: ج ٢، ص ٣١٠-٣١١. وأيضاً: العيساوي، مشعان سعود عبد، التفسير الإشاري ماهيته وضوابطه: ص ٢٩-٣٠. وأيضاً: الجنابي،

سيروان، مناهج تفسير النصّ القرآني: ص ١٩٠-١٩١.

سلكت أسلوب (الرمزية) في تحليل النصوص القرآنية، لا بُدَّ من اعتماد القرائن العامة والخاصة المتفق عليها في إثبات صحة المعنى الرمزي^(١).

وإذا كان ثمة أكثر من معنى رمزي أخذ المعنى الأقرب والأنسب^(٢)؛ إذ لا بدَّ من استلهاهم التحليل الرمزي من النفوس الصافية؛ لأنها «معانٍ تفيض بها النفس البشرية عند صفائها؛ لتدلَّ على حقائق خفية»^(٣)؛ والله تعالى لا يُخفي الرمز عن الأصفياء؛ إذ إنّ «المتكلم إنّما يستعمل الرمز في كلامه لغرض طيّبه عن كافة الناس، والإفضاء به إلى بعضهم، فيجعل للكلمة أو الحرف اسماً من أسماء الطير أو الوحش أو سائر الأجناس، أو حرفاً من حروف المعجم، ويُطالع على ذلك الموضع من يُريد إفهامه رمزه، فيكون ذلك قولاً مفهوماً بينها، مرموزاً من غيرهما»^(٤)؛ لذا كان التعرّف على المعاني الرمزية خاصّاً، وليس عامّاً.

المبحث الأول: التحليل الرمزي لحرف الفاء

وذلك في أول قوله تعالى: ﴿فَجَرَّ مِنْهَا خَافِقًا يُتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٥).

المناسبة التاريخية لتوظيف النص الكريمة

روي معتبراً^(٦) أنّ الإمام الحسين عليه السلام: «...خرج في جوف الليل يريد مكة في

(١) أنظر: الصدر، محمد، موسوعة الإمام المهدي عليه السلام، ج ٢، ص ١٨٣.

(٢) أنظر: المصدر السابق: ص ١٨٩.

(٣) زينة جليل عبد، الدلالة في لغة الصوفية: ص ١١٧.

(٤) إسحاق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان: ص ١١٢.

(٥) القصص: آية ٢١.

(٦) سيعمل البحث على نقل كلّ خبر من مصادر الفريقين؛ ليكون الخبر معتبراً في مقام البحث، أو ذكر الخبر من مصادر التاريخ الكبيرة والمعروفة، مع الاقتصار على بعض المصادر؛ لأنّ أخبار الثورة الحسينية قد وردت في مئات المصادر، ولا سيّما الأخبار التي نصّت على تضمين النصوص القرآنية الموظفة في الثورة الحسينية.

جميع أهل بيته، وذلك لثلاث ليالٍ مضيّين من شهر شعبان من سنة ستين، فلزم الطريق الأعظم، فجعل يسير وهو يتلو هذه الآية: ﴿فَرَجَّ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١)، فقال له ابن عمّه - مسلم بن عقيل بن أبي طالب - يابن رسول الله! لو عدلنا عن الطريق، وسلكنا غير الجادة، كما فعل - عبد الله بن الزبير - كان عندي خير رأي، فإني أخاف أن يلحقنا الطلب، فقال له الحسين: لا والله يابن عم، لا فارقت هذا الطريق أبداً، أو أنظر إلى أبيات مكة، ويقضي الله في ذلك ما يحب ويرضى^(٢).

التحليل الرمزي لحرف الفاء في النص الكريم

بناءً على التوسع في معنى رمزية الفاء فعلماء الصوت جعلوها رمزاً عن الأحداث التي تُشاكل مخرجها وصوتها^(٣)، والصرفيون جعلوها كرمز عن أول جذر الكلمة^(٤)، والنحويون كرمز دالّ على تحديد العلامة الإعرابية بحسب موقعها من الجملة^(٥)، فتكون تارةً للعطف، وأخرى للجواب، وثالثة للزيادة، ويرمزُ بها أهل اللغة بعامة إلى معانٍ عدّة، كالترتيب والتعقيب، أو مطلق الجمع^(٦)، والسببية، والربط، وإفادتها استحقاق الخبر بالصفة المنصوص عليها^(٧).

ورمزية الفاء أوسع من أن تحصى في هذا المطلب لكثرة معانيها؛ إذ إنّ لها رمزية

(١) القصص: آية ٢١.

(٢) الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٧٣-٢٧٤. وأنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٣، ص ٢٧٠، وج ٥، ص ٨٣. وأيضاً: ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٧٨. وأيضاً: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ج ١٩، ص ٢٣، وأيضاً: الكوفي، أحمد بن أعثم، مقتل الحسين وقيام المختار: ص ٢١.

(٣) أنظر: الفاخري، صالح، الدلالة الصوتية في اللغة العربية: ص ١٤٣.

(٤) أنظر: الضامن، حاتم صالح، الصرف: ص ٢٠.

(٥) أنظر: الرماني، علي بن عيسى، كتاب معاني الحروف: ص ٤٣.

(٦) أنظر: المرادي، الحسن بن القاسم، الجنى الداني في حروف المعاني: ص ٦٣.

(٧) أنظر: المصدر السابق: ص ٧٠.

خاصّة بحسب الوضع والاستعمال^(١)، وأخرى عامّة بصفتها حرفاً أبجدياً له معنىً بحدّ ذاته.

فهناك مَنْ ذكر ما يقارب خمسين إشارة رمزية لحرف الفاء^(٢)، مضمّناً الكلمة المرّمز إليها حرف الفاء، سواءً أكان الحرف في أوّل الكلمة، أم وسطها، أو آخرها، كـ (فضل، كاشف، فناء، الأفلاك، فيض، فاتح)، ووجّه هذه الكلمات نحو مناجاة الذات الإلهية؛ فالله تعالى (فاتح الغيوب)، وفيضه (فيض القدس)، وهو (يدير الأفلاك بمشيئة تسخيره)، و(فيه الفناء)، وهو (كاشف حجب القلوب)، وهو (ذو الفضل).

وثمة مَنْ جعل للفاء دلالة عامّة، وأخرى خاصّة، فالفاء بعامةً أينما وُجِدَتْ فهي ترمز إلى اسم من أسماء الله تعالى، وهو «فالق الحبّ والنوى»^(٣)؛ إذ إنّ كلّ حرف من حروف الأبجدية يدلّ على اسم من أسماء الله تعالى، أمّا الدلالة الرمزية الخاصّة لحرف الفاء، فتختلف بحسب السياق اللفظي الذي ترد فيه، فالفاء في كلمة (تفويض) ترمز بدلالتها إلى «فناء كلّ همّة غير الله»^(٤)، وهو مشتقّ من شروط التفويض.

والفاء ترمز إلى «فناء الناسوتية، وظهور اللاهوتية»^(٥)، وهي «فاتحة الحقّ، التي أنزل الله من فعله إلى الفطرة في الفرقان»^(٦)، وهي «كناية عن زمن الفتوة، وهو بلوغ الأشد»^(٧).
والقرائن العامّة والخاصّة تعمل على ترجيح رمزية الفاء إلى اسم الله تعالى (فالق

(١) أنظر: القرني، أحمد بن علي، معجم الرموز عند المحدثين: ص ١٥٩-١٦٠.

(٢) أنظر: ابن عربي، محيي الدين، توجهات الحروف: ص ٣٨-٣٩.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ٣٨.

(٤) الإمام الصادق عليه السلام، جعفر بن محمد، مصباح الشريعة: ص ١٧٦.

(٥) الكسنزاني، زينب، منتدى المودة العالمي. <http://almuada.4umer.com/t4405-topic>. نقلاً

عن: الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير، مخطوطة (المقامات الأربعين): ص ٥.

(٦) المصدر السابق، نقلاً عن: قاسم محمد عباس، حسين محمد عجيل، رسائل ابن عربي، شرح مبتدأ

الطوفان ورسائل أخرى: ص ٢٤٩.

(٧) المصدر السابق، نقلاً عن: محمد غازي عرابي، النصوص في مصطلحات التصوف: ص ٩٥.

الحب والنوى) في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾^(١)؛ لأسباب عدّة، منها:
السبب الأوّل: نصّ القرآن على الترابط بين اسم الله (فالق الحبّ والنوى) وبين
مادّة (خرج)، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَمَى مِنَ الْمَيْتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾^(٢)، فقد ارتبطت عملية فلق الحبّ والنوى
بالفعل المضارع المستمر (يُخْرِجُ) والاسم (مُخْرِجُ) في سياق واحد، فالفاء رمز عن
اسم الله تعالى ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾، وهو الذي هيأ الأسباب للنبيّ موسى ﷺ
في الخروج من مصر، وهيأ الأسباب لخروج الإمام الحسين ﷺ من المدينة؛ وقد كان
الإمام الحسين ﷺ يعيش هذه الأجواء بيقين تامّ، فسلك الطريق الأعظم، معللاً
ذلك بدرجة الاعتصام والتوكّل على الله تعالى، فكما هيأ الله تعالى الأسباب لخروج
محتوى الحبّ والنوى بإبداع عظيم، فكذلك سيهيئها لمن توكّل عليه توكلًا تامًا.
ويحسن الإلماع إلى أنّ خروج الإنسان مشبه لخروج النبت بنصّ القرآن الكريم،
كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ
جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لَتَسْلُكُنَّ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾^(٣)، وقد حصلت ملازمة تاريخية
بين خروج الإمام الحسين ﷺ من المدينة وبين خروجه للعالم (ولادته الميمونة)،
وذلك في الثالث من شهر شعبان المبارك، وبذلك إشارة رمزية تربط بين التوظيف
واللفظ والمقام وتاريخ الخروج وجعله كنظام الخرز في المسبحة، وهذا يتواءم مع
مقام العصمة لدى الإمام الحسين ﷺ الذي يستلزم الإلهام المفضي إلى الدقّة في كلّ ما
يصدر عن الإمام المعصوم ﷺ من قول وفعل مهما كان صغيراً أو كبيراً.

السبب الثاني: قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ

(١) القصص: آية ٢١.

(٢) الأنعام: آية ٩٥.

(٣) نوح: آية ١٧-٢٠.

الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿١﴾، إنَّ خروج النبي محمد ﷺ من بيته نُسِب إلى الله تعالى، في هذا النصِّ الكريم، وكذلك خروج النبي موسى ﷺ كان بتسيب من الله تعالى، ولولاه لما تمكَّن من الخروج، فجاءت الفاء الداخلة على الفعل في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا﴾ ﴿٢﴾؛ لتشير إلى منَّة الله تعالى على عبده موسى بن عمران ﷺ، الذي نجَّاه بذلك الخروج، وقد كان خروج الإمام الحسين ﷺ بأمر وتكليف إلهي كذلك؛ بدليل قوله ﷺ: «إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، وَأُمِرْتُ فِيهَا بِأَمْرِ أَنَا مَاضٍ لَهُ» ﴿٣﴾، وقد مضى الإمام الحسين ﷺ إلى العراق، فيكون الأمر الذي أُمِرَ به من قبل جدِّه ﷺ هو الأمر بالخروج إلى العراق، وبهذا يكون خروج الإمام الحسين ﷺ من المدينة النبوية قد جاء عقيب هذه الرؤيا التي فسَّرها الإمام الحسين ﷺ بأنَّها أمر لا بدَّ من الامتثال له من دون تأخير.

والرؤيا تُعدُّ حجةً على الإمام الحسين ﷺ؛ لمقدمتين مهمَّتين:

المقدمة الأولى: أنَّ الإمام الحسين ﷺ كان إماماً بنصِّ الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا» ﴿٤﴾.

المقدمة الثانية: أنَّ من خصائص الإمام في القرآن حجّية رؤياه كما في النبي إبراهيم الخليل ﷺ الذي نال مرتبة الإمامة، ثمَّ اختبره الله تعالى بأن يذبح ولده في المنام، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

(١) الأنفال: آية ٥٥.

(٢) القصص: آية ٢١.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٣، ص ٢٥٢. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ١٦٢. الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام: ج ٢، ص ٥٧. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٦٣.

(٤) الصدوق، محمد بن علي، علل الشرايع: ج ١، ص ٢٩٧. الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمّة: ج ٢، ص ٣١. وأنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ج ١٨، ص ٣.

فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَأْتَبْتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾، وكذلك رؤيا الإمام الحسين عليه السلام تُعَدُّ أمراً إلهياً جاء عن طريق النبي صلى الله عليه وآله، زيادة على خبر الفريقين عن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَيَأْتِي رَأَى؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَخَيَّلُ بِي»^(٢). وقد توافقت الأحداث والأسباب الأخرى مع هذا الأمر الذي أمر به الإمام الحسين عليه السلام؛ لتتشارك تلك الأسباب بمجموعها في ضرورة خروجه من المدينة باتجاه مكة، ثم إلى العراق، إلا أن الدافع لخروجه عليه السلام هو ما ذكره في أكثر من موطن كقوله عليه السلام لأخيه محمد بن الحنفية: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ما فارقتك، فقال: يا حسين اخرج، فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً. فقال محمد بن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟ قال: فقال [لي صلى الله عليه وآله]: إِنَّ اللَّهَ قَدْ شَاءَ أَنْ يَرَاهُنَّ سَبَايَا»^(٣)، وقوله عليه السلام: «كَأَنِّي بِأَوْصَالِي تَقَطَّعُهَا عَسَلَانِ الْفُلُوتِ بَيْنَ النَّوَاسِيسِ وَكَرْبَلَاءَ، فَيَمْلَأَنَّ مِنِّي أَكْرَاشًا جَوْفًا، وَأَجْرِبَةَ سَغْبًا، لَا مَحِيصَ عَنْ يَوْمِ خَطِّ بِالْقَلَمِ»^(٤)، وغير ذلك كثير.

فالإمام الحسين عليه السلام قد خرج عقيب هذا الأمر النبوي الإلهي، وهذا لا ينافي خروجه لدعوة أهل العراق؛ لأنَّ التخطيط الإلهي تتوافق فيه جميع الظروف، كتهديد والي المدينة، ودعوة أهل العراق له، وقراءته للظروف المحيطة به، ورؤيا النبي صلى الله عليه وآله، وتمحيص إيمان الناس، وإصلاح الأمة، وغير ذلك من الظروف الموضوعية التي تشترك في ضرورة مباشرة الإمام الحسين عليه السلام بالخروج من المدينة، على غرار مبادرة النبي موسى عليه السلام في الخروج من مصر.

(١) الصافات: آية ١٠٢.

(٢) ابن حنبل، أحمد، المسند: ج ١، ص ٢٧٩. وأنظر: النسائي، أحمد بن شعيب، السنن الكبرى: ج ٤، ص ٣٨٤. وأيضاً: الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ج ١، ص ٣٦٨.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٦٤. ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٤٠.

(٤) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٢٣.

المقدمة الثالثة: أنه من الطرق المتعارفة في اختصار الكلمات ما يكون من خلال جعل الحرف الأول رمزاً عن الكلمة أو المركب^(١).

المقدمة الرابعة: أن جعل الحروف رمزاً لأسماء الله تعالى موافق للقرآن الكريم الذي نصّ على ارتباط كل شيء بالله تعالى، وأن كل شيء مسبح لله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَّسْبُوحٌ لِّهِ تَعَالَى﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(٢)، وحرف الفاء من تلك الأشياء التي تسبح لله تعالى، وذلك من خلال دلالة الرمزية العامة على اسم من أسماء الله تعالى، وهو ﴿فَالِقُ اللَّحْمِ وَالتَّوَوُّبُ﴾، وهذا ما كان عليه مقام الإمام الحسين عليه السلام الذي لم ينفك عن ذكر الله تعالى في كل موطنه ومقاصده، دقيقها وكبيرها.

ومن الجدير ذكره أن الله تعالى قال في سياق الحديث عن خروج النبي موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣)، وهو يتعلّق بالإمام الحسين عليه السلام كأحد مصاديق المحسنين الذين خرجوا بتوفيق الله تعالى، بناءً على قانون (السنن الإلهية) في القرآن الكريم؛ فنجاة النبي موسى عليه السلام بالخروج كانت بتأييد خاص من الله تعالى، ولولاه لكان النبي موسى عليه السلام من الهالكين، وكذلك الإمام الحسين عليه السلام، نجّاه الله تعالى بنيله المقامات العالية التي لا ينالها إلا بالشهادة، كما في خبر جدّه عليه السلام: «وإنّ لك في الجنة درجات، لا تنالها إلا بالشهادة»^(٤).

وتشير الفاء إلى أن عملية الفلق للحب والنوى تُسهم بإخراج مادّة البذرة من غلافها الذي لا يمكنها اجتيازه لولا هذا الفلق، بل هي سبب للحياة بعد الموت،

(١) أنظر: القرني، أحمد بن علي، معجم الرموز عند المحدثين: ص ١٩. وأيضاً: محمود مختار، وآخرون، الرموز والوحدات والدلالات في اللغة العلمية العربية: ص ١٤. وأيضاً: المامقاني، محمد رضا، معجم الرموز والإشارات: ص ١٥٢-٢٨٨.

(٢) الإسراء: آية ٤٤.

(٣) الصافات: آية ١١٤-١٢١.

(٤) الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص ٢١٧. البحراني، هاشم بن سليمان، مدينة معاجز الأئمة الاثني عشر ودلائل الحجج على البشر: ج ٤، ص ٣٦١.

وكذلك خروج النبي موسى عليه السلام من مصر بعد أن كان محاطاً بقشرها المتمثل بجلاوزة مصر الذين أحكموا السيطرة على أهلها، وأخذوا يذبحون الأبناء، ويستحيون النساء، إلا أن الله تعالى قد نجى النبي موسى عليه السلام، وأخرجه ليعلوا كما تعلوا الشجرة بعد خروجها من الثمرة.

وفعلاً قد كان خروج النبي موسى عليه السلام سبباً لعلوه، فقد آتاه الله مقامات عالية بعد خروجه من مصر كما في قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١)، فكان الخروج سبباً لنمو النبي موسى عليه السلام وعلوه، وحصوله على أمرين مهمين بعد درجة النبوة، وهما (الحكم والرسالة)؛ لأن ثمة فرقاً بين هذه المقامات الثلاثة بنص القرآن الكريم الذي استخدم العطف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾^(٢)، وقد كان الكتاب والحكم من ثمرات الخروج من مصر.

أما خروج الإمام الحسين عليه السلام من المدينة، فقد كان بتوفيق من الله تعالى (فالق الحب والنوى) الذي نجى الإمام الحسين عليه السلام من أن يُقتل في المدينة، وهياً له الخروج منها من أجل تحقيق الأهداف العظمى التي يسعى لها^(٣)، وقد أشار عليه السلام إلى ذلك في سياق خروجه وتلاوته للآية الكريمة بقوله عليه السلام: «ويقضي الله في ذلك ما يُحب ويرضى»^(٤).

المبحث الثاني: التحليل الرمزي لحرف الواو

وذلك في أول قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٥).

(١) الشعراء: آية ٢١.

(٢) الجاثية: آية ١٦.

(٣) أنظر: الصدر، محمد، أضواء على ثورة الحسين عليه السلام: ص ٧٩.

(٤) الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٧٤. الكوفي، أحمد بن أعثم، مقتل

الحسين عليه السلام: ص ٢١.

(٥) القصص: آية ٢٢.

المناسبة التاريخية لتوظيف النص الكريم

رُوي أنّ الإمام الحسين عليه السلام خرج من المدينة: «... وسار حتّى وافى مكّة، فلما نظر إلى جبالها من بعيد، جعل يتلو هذه الآية: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾»^(١).

التحليل الرمزي لحرف الواو في النص الكريم

مرّ بنا تعريف الدلالة الرمزية واختلاف مسالكها، وللواو نصيب من ذلك؛ فعلماء الصوت^(٢) يرمزون بحرف الواو إلى الأحداث التي تُشاكلُ مخرجه وصوته، والصرفيون^(٣) يعدّونه أحد رموز إعلال الكلمة، ومن حروف الزيادة العشرة^(٤)، والنحويون^(٥) يعدّونه كرمز دالّ على تحديد العلامة الإعرابية بحسب موقعه من الجملة كواو العاطفة، والقسم والزيادة، ويرمزُ بها أهل اللغة^(٦) عامّة إلى معانٍ عدّة: كالاجتماع، والمعيّة، والإنكار، والاستذكار، والاستفهام، وغير ذلك.

ورمزية الواو أوسع من أن تحصى في هذا المطلب لكثرة معانيه؛ إذ إنّ له رمزية خاصّة بحسب الوضع والاستعمال^(٧)، وأخرى عامّة بصفته حرفاً أبجدياً له معنى رمزي بحدّ ذاته، وهذا الأخير مقصد البحث؛ فهناك مَنْ ذكر ما يُقارب الثلاثين دلالة رمزية لحرف الواو^(٨)، مضمّناً الكلمة المرّمز إليها حرف الواو، سواءً أكان

(١) الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢٧٤. الكوفي، أحمد بن أعثم، مقتل الحسين عليه السلام: ص ٢١. وأنظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج ٣، ص ٢٧٠، وج ٥، ص ٨٣. وأيضاً: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ج ٢، ص ٣٥-٣٦.

(٢) أنظر: الفاخري، صالح، الدلالة الصوتية في اللغة العربية: ص ١٤٣.

(٣) أنظر: الضامن، حاتم صالح، الصرف: ص ٢٠.

(٤) أنظر: الرماني، علي بن عيسى، كتاب معاني الحروف: ص ١٧٠.

(٥) أنظر: المصدر السابق: ص ٥٩-٦٤.

(٦) أنظر: المرادي، الحسن بن القاسم، الجنى الداني في حروف المعاني: ص ١٥٩-١٦٣.

(٧) أنظر: القرني، أحمد بن علي، معجم الرموز عند المحدثين: ص ١٥٩-١٦٠.

(٨) أنظر: ابن عربي، محمد بن علي، توجّهات الحروف: ص ٤٢-٤٣.

الحرف في أوّل الكلمة، أم في وسطها، أم في آخرها: ك (واسع، مذموم، نور، سُمُو، نفوس)، وموجّهاً هذه الكلمات وغيرها نحو مناجاة الذات الإلهية؛ فالله تعالى (وسع علمه كلّ معلوم)، و(تعالى الله عن كلّ مذموم)، و(نوره يضيء كلّ شيء)، و(السمو والارتقاء يكون بأسمائه)، و(إليه تنقاد النفوس الأبية).

وثمة من جعل للواو دلالة عامّة، وأخرى خاصّة، فالواو بعامة أيّنا وجدت فهي ترمز إلى اسم من أسماء الله تعالى، «وأما الواو فواحد صمد لم يلد ولم يولد»^(١)؛ إذ إنّ كلّ حرف من حروف الأبجدية يدلّ على اسم من أسماء الله تعالى، أمّا الدلالة الرمزية الخاصّة لحرف الواو فتختلف بحسب السياق اللفظي الذي ترد فيه، كما في كلمة (تفويض)، فهي ترمز إلى «وفاء العهد، وتصديق العهد»^(٢)، وهو من شروط التفويض لله تعالى.

وقد نُقِلَ أنّ الثقافة التركية تقدّس حرف الواو؛ فقد قالوا: «يولد الإنسان في هيئة حرف الواو، ويمثّل هذا النفس الصالحة... [و] هو رمز لحكمة، ووحدة الله... [و] حرف الواو يمثّل شروط الإيمان، فهو رمز في حساب الأبجدية (أبجد هوز)، كما أنّ حرف الواو هو الجوهر الذي يربط بين جملتين... [و] في فنّ زخرفة التوليب يرمز إلى الله؛ والدلالة على وحدانية الله لاحتوائه على الوحدة، التوحيد، والوحدانية على حرف الواو... [و] يشير الفلاسفة المعاصرون [إلى] أنّه عند النظر إلى الكلمات التي تبدأ بحرف الواو فإنّها تعمل جميع المهام التي تتطلّب المسؤولية، هذه الوظائف والمهام (والي - وزير - وكيل - ولي - وريث - والدة - وعد)»^(٣).

والقرائن العامّة والخاصّة ترجّح رمزية الواو وإشارته إلى اسم الله تعالى (واحد صمد، لم يلد ولم يولد) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ

(١) الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ١.

(٢) الإمام الصادق عليه السلام، جعفر بن محمد، مصباح الشريعة: ص ١٧٦.

(٣) تركيا بوست، علاقة روحية تجمع بين الأتراك وحرف (الواو) فما سببها؟ ٢٩ ديسمبر ٢٠١٧ م.

يَهْدِينِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾؛ ويمكن تأكيد ذلك بأمر:

الأمر الأول: ذكر بعض العلماء^(٢) أن كل شيء في الكون فيه آية تشير إلى وحدانية الله تعالى؛ لذا فحرف الواو داخل في هذه القاعدة العامة، ويشير إلى وحدانية الله تعالى، وهو ما يتناسب مع مقام الإمام الحسين عليه السلام الداعي إلى وحدانية الله تعالى عبر دعوة الإصلاح في أمة جدّه صلى الله عليه وآله.

الأمر الثاني: إن كل شيء يسبح بحمد الله تعالى بنص القرآن الكريم: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا نفقهون تسبيحهم﴾^(٣)، والتسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به تعالى^(٤)، وأول شيء ينزه عنه هو الشريك، والوالد، والولد؛ فيكون الواو من ضمن المسبحين لله تعالى بالمعنى الذي نص عليه القرآن الكريم، ومن باب أولى إذا كان الحرف في الآية الكريمة قد صدر من لسان الإمام الحسين عليه السلام الذي ربط كل وجوده بالتوحيد، كما في دعائه الشهير: «وأنا أشهد يا إلهي بحقيقة إيماني، وعقد عزمات يقيني، وخالص صريح توحيدي، وباطن مكنون ضميري، وعلائق مجاري نور بصري، وأسارير صفحة جبيني، وخرق مسارب نفسي، وخذاريف مارن عرني...»^(٥)، وكلمة الإمام الحسين عليه السلام مفصلة في هذا الصدد لا يتسع البحث لسردها.

الأمر الثالث: إن سورة الإخلاص (سورة التوحيد) تعدّ ثلث القرآن الكريم؛ وذلك لعظمة مضامينها التي تتوافق مع رمزية الواو إلى اسم الله تعالى، مع وجود أسماء أخرى ك(وهّاب، ولي، وارث)، إلا أن الحرف أشار برمزيته إلى أبرز الأسماء الحسنى، وهو ما يتناسب مع توظيف الإمام الحسين عليه السلام، ونطقه بالنص الكريم مع

(١) القصص: آية ٢٢.

(٢) أنظر: الصدر، محمد، فقه الأخلاق: ج ١، ص ٢٠٨.

(٣) الإسراء: آية ٤٤.

(٤) أنظر: الصدر، محمد، مئة المثان في الدفاع عن القرآن: ج ٣، ص ٧٧.

(٥) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج ٢، ص ٧٦.

رؤيته لمكة المكرمة التي ترمز إلى بيت التوحيد، ومنطلقه لكل العالم، والتي هي أول بيت وضع للناس.

الأمر الرابع: إن رمزية الحرف إلى الكلمة المفتحة بالحرف نفسه من الأساليب المتعارفة بعامة في فنّ الرموز^(١)، ورمزية الحرف إلى أسماء الله تعالى أولى من غيرها، والواحد أولى الأسماء؛ لأهمية التوحيد، ولا سيّما عند الإمام الحسين عليه السلام الذي كانت حياته تجسيدا واقعياً للتوحيد الإلهي قولاً وفعلاً وعملاً، وقد أثبت توحيده التام بتضحيته العظيمة، كما في قوله المتقدم: «وخالص صريح توحيدي»، فتوحيده كان صريحاً وخالصاً من كلّ شائبة، وبذلك يحصل التواءم بين الواو ورمزيتها وتوظيف الإمام الحسين عليه السلام للنصّ المفتوح بها.

وبعد ترجيح هذا المعنى الرمزي للواو في سياق التوظيف، يجدر البحث عن العلاقة بين دلالاته في مقام توظيف النصّ الكريم، ونزوله بعمق رمزي يحاكي مقام التوظيف؛ فقد تحدّث المعنى المرموز إليه عن مجموعة من أسماء الله تعالى، وهي: (الواحد، الصمد، لم يلد، ولم يولد)، وهذه الصفات تقسّم إلى قسمين: إيجابية، وسلبية، والإيجابيتان هما: (الواحد، والصمد)، والسلبيتان هما (لم يلد، ولم يولد)، وهذه المعاني تحمل في طياتها سرّ خروج النبيّ موسى عليه السلام، وخروج الإمام الحسين عليه السلام؛ إذ إنّهما خرجا من أجل توحيد الله تعالى، وترك عبادة الأوثان والأصنام والهوى، وترك عبادة كلّ شيء إلا هو جلّ جلاله، مما حال الطاغوت دون تحقّقه؛ إذ جعل نفسه في مقام الربّ المتصرّف في عباد الله.

وكان قصد الإمام الحسين عليه السلام إلى بيت الله الحرام، وهو (رمز التوحيد) لله تعالى، ونفي الوالد والولد، مشابه لقصد النبيّ موسى عليه السلام إلى بيت من بيوت الله، وهو

(١) أنظر: القرني، أحمد بن علي، معجم الرموز عند المحدثين: ص ١٩. وأيضاً: مختار، محمود، وآخرون، الرموز والوحدات والدلالات في اللغة العلمية العربية: ص ١٤. وأيضاً: المامقاني، محمد رضا، معجم الرموز والإشارات: ص ١٥٢-٢٨٨.

بيت النبي شعيب عليه السلام؛ فقد ذكرت التفاسير^(١) في معنى قوله تعالى: ﴿ **فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ** ﴾^(٢) أنها بيوت الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

وثمة معنى آخر يناسب دلالة حرف الواو الإشارية، وهو أن النبي موسى عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام كانا يعيشان في بواطنهما بشكل تام مع الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، وإن كانا ينظران إلى الأسباب والمسببات، فالتوجه تلقاء (مدين)، والخروج من المدينة أو من مصر في أحوال معينة، يهدف إلى توحيد الله تعالى، من دون أي غرض آخر، وإن بدا ذلك من بعض المواقف الظاهرية من النبي والإمام عليهم السلام مما يستلزمه هذا العالم، فهما كما جاء في الدعاء «حتى تكون أعمالي وأورادي كلها رداً واحداً، وحالي في خدمتك سرمداً»^(٣)؛ فالواو بدلالاتها الرمزية مرتبطة بتوحيد الله تعالى الذي هو سرّ التسديد والتأييد للنبي والإمام عليهم السلام، وهذا عين ما صرح به الإمام الحسين عليه السلام؛ إذ ربط بين ظاهره وباطنه، وعلاقتها الوثيقة بالتوحيد في قوله عليه السلام: «وخالص صريح توحيد، وباطن مكنون ضميري».

نتائج البحث

توصل البحث إلى جملة من النتائج المهمة في مجال الدلالة الرمزية للحرف القرآني، منها:

أولاً: إن الحرف القرآني بعامة يرمز إلى أسماء الله تعالى، فلا شيء في الوجود ينفك عنه (جلّ جلاله)، ومن ذلك حروف الأبجدية من الألف إلى الياء، وكل ذلك جاء متوائماً مع التوظيف الحسيني للنص القرآني.

(١) أنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن: ج٧، ص٤٣٢. وأيضاً: الحويزي، عبد علي بن جمعة، تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٤٩.

(٢) النور: آية٣٦.

(٣) القمي، عباس، مفاتيح الجنان: ص١١٩.

ثانياً: إنَّ توظيف النصِّ القرآني من قبل الإمام الحسين عليه السلام يدعو إلى توسيع الفكر في ميدان تحليل نصِّ القرآن الكريم؛ لأنَّه مَنَّ أشار إلى سعة دلالة النصِّ القرآني، وعدم اقتصراره على دلالة العبارة.

ثالثاً: كشف البحث عن جملة من العلاقات الرمزية بين الحرف الموظَّف في مقام دلالاته التي نزل بها والمقامات التي وظَّف فيها من قبل النبيِّ والإمام المعصوم عليهما السلام.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

الكتب

- ١ - الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، محمد بن محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالمفيد (ت ٤١٣ هـ)، تحقيق: مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، دار المفيد، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.
- ٢ - أصول الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٨ هـ)، مؤسَّسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ.
- ٣ - أضواء على ثورة الحسين عليه السلام، محمد محمد صادق الصدر (ت ١٤١٩ هـ)، تحقيق: كاظم العبادي، هيئة تراث السيِّد الشهيد الصدر عليه السلام، دار ومكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م.
- ٤ - إقبال الأعمال، علي بن موسى بن جعفر بن طاووس، تحقيق: جواد القيومي الإصفهاني، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
- ٥ - بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ)، مؤسَّسة الوفاء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ.
- ٦ - البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ.

٧ - البرهان في وجوه البيان، إسحاق بن إبراهيم (ت ١٩٦٧م)، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة - مصر.

٨ - تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار التراث، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

٩ - التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف - العراق، ١٣٨٣هـ.

١٠ - التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية من مكة إلى المدينة، هادي هنون، العتبة العلوية المقدسة - مكتبة الروضة الحيدرية، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.

١١ - التفسير الإشاري ماهيته وضوابطه، مشعان سعود عبد العيساوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ.

١٢ - تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة الحويزي (ت ١١١٢هـ)، تحقيق: السيد علي عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٣ - توجّهات الحروف، محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي (ت ٦٣٨هـ)، تحقيق: عبد الحميد بن السيد بن أحمد الطائي، مكتبة القاهرة، القاهرة - مصر، الطبعة العاشرة، ١٤٢٥هـ.

١٤ - جامع الأخبار (معارج اليقين في أصول الدين)، محمد بن محمد السبزواري، تحقيق: علاء آل جعفر، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ / ١٩٩٣م.

١٥ - الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن القاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق: فخر الدين قباوة، الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١٦ - الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطولان كرم، دار الكشاف، بيروت - لبنان، ١٩٤٩م.

- ١٧ - الرمزية والتأويل، تزفيتان توردوروف، ترجمة وتقديم: إسماعيل الكفري، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ.
- ١٨ - الرمزية والمثل القرآني، كمال الحيدري، بقلم: طلال الحسن، ١٤٣٤ هـ.
- ١٩ - الرموز والوحدات والدلالات في اللغة العلمية العربية، محمود مختار، وآخرون، مجمع اللغة العربية، ٢٠٠٣ م.
- ٢٠ - شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
- ٢١ - الصرف، حاتم صالح الضامن، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث، كلية الدراسات الإسلامية، دبي.
- ٢٢ - فقه الأخلاق، محمد محمد صادق الصدر (ت ١٤١٩ هـ)، هيئة تراث السيد الشهيد الصدر عليه السلام، دار ومكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، بيروت - لبنان، ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م.
- ٢٣ - كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، تصحيح: أسعد الطيب، أسوة، قم - إيران، الطبعة الثالثة، ١٤٣٢ هـ.
- ٢٤ - كتاب معاني الحروف، علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤ هـ)، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق، جدة - السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ.
- ٢٥ - مسند أحمد، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، دار صادر، بيروت - لبنان.
- ٢٦ - مصباح الشريعة، جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، منشورات مؤسسه الأعلمي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ.
- ٢٧ - معاني الأخبار، محمد بن علي المعروف بالصدوق، مؤسسه التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ.
- ٢٨ - معجم الرموز والإشارات، محمد رضا المامقاني، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ.

٢٩ - معجم المصطلحات الأدبية، بول آرون، دينيس سان (جاك)، آلان فيالآ، ترجمة: محمد محمود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.

٣٠ - مفاتيح الجنان، عباس القمّي (ت ١٣٥٩هـ)، العتبة الكاظمية المقدّسة، بغداد - العراق، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.

٣١ - مقتل الحسين، محمد بن أعثم الكوفي (ت ٣٠٤هـ)، انتشارات أنوار الهدى، قم - إيران، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٣٢ - مقتل الحسين عليه السلام، الموقّق محمد بن أحمد المكيّ الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ)، انتشارات أنوار الهدى، الطبعة الرابعة، ١٤٢٨هـ.

٣٣ - مناهج تفسير النصّ القرآني، سيروان الجنابي، دار ومكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.

٣٤ - مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ)، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٣٥ - منّة المئان في الدفاع عن القرآن، محمد محمد صادق الصدر (ت ١٤١٩هـ)، مؤسّسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.

٣٦ - موسوعة الإمام المهدي عليه السلام، محمد محمد صادق الصدر (ت ١٤١٩هـ)، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٣٧ - موسوعة المصطلح النقدي (الترميز)، جون ماكوين، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، دار المأمون، بغداد - العراق.

٣٨ - نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

٣٩ - نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، جمعه: الشريف الرضي، تقديم وشرح: الشيخ محمد عبده، مؤسّسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى،

١٤٢٧هـ.

المواقع الإلكترونية

٤٠ - أثر الدلالة اللغوية في التأويل عند المفسرين، كمال أحمد فالح المقابلة، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، العدد (٣/ب)، المجلد الخامس، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م. www.pdfactory.com

٤١ - الدلالة الصوتية في اللغة العربية، صالح الفاخري، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية - مصر، منتدى سور الأزبكية. www.Books4ALL.NET

٤٢ - الرمزية وتجلياتها في الشعر العربي الحديث، سارة العتيبي، قسم اللغة العربية، كلية التربية بالمزاحمية - جامعة شقراء، المرسل، ٢٥ / ٢ / ٢٠١٧م.

٤٣ - علاقة روحية تجمع بين الأترك وحرف (الواو) فما سببها؟ تركيا بوست، ٢٩ ديسمبر ٢٠١٧م. <https://www.turkey-post.net/p-235277>

٤٤ - منتدى المودة العالمي، زينب الكسنزاني. <http://almuada.4umer.com/>. t4405-topic. نقلاً عن الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير، مخطوطة المقامات الأربعين.



دراسات حسينية

◆ النهضة الحسينية والبعثة النبوية.. القسم الأول: دراسة مقارنة في

الخلفية والأهداف

◆ قراءة في كتاب: (الحسين عليه السلام وبطلة كربلاء) للشيخ محمد جواد مغنية

النهضة الحسينية والبعثة النبوية

القسم الأول: دراسة مقارنة في الخلفية والأهداف^(١)

العلامة السيّد سامي البدري*

مقدمة

تُعدّ الدراسات المقارنة في حقل التاريخ عملاً متأخراً نوعاً ما، ينبغي لنا أن نواصل العمل عليه؛ لأننا سوف نتعرّف من خلاله على حقائق وقضايا جديدة لا يمكننا أن نحصل عليها إلا من خلال المقارنة. وعليه؛ فقد قمتُ شخصياً بدراسات مقارنة متعدّدة، منها: المقارنة بين سيرة موسى عليه السلام وأهل بيته مع سيرة محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام على مدى أكثر من أربعة عشر قرناً، وكانت النتائج باهرة جداً.

وقد شجّعني هذه المقارنة على أن أُجري مقارنة بين البعثة النبوية وسيرة أهل البيت عليهم السلام، وقد ذكرتُ جدولاً مختصراً بهذه السيرة في كتابي (الإمام الحسن عليه السلام في مواجهة الانشقاق الأموي)^(٢)، يُبيّن هذا الجدول التطابق العجيب والمثير جداً بين مراحل السيرة النبوية مع سيرة الإمام علي عليه السلام والإمامين الحسن والحسين عليهم السلام، بدءاً من الخلفيات، ثمّ الهدف، ثمّ المراحل، ثمّ النهاية (الفتح والتركة)؛ بمعنى: لو أخذنا سيرة علي والحسن والحسين عليهم السلام، لوجدنا مراحل مسيرتهم التي تنتهي بالفتح الحسيني، وتركة الحسين عليه السلام المتمثلة بكتاب الله والأئمة التسعة من ذريته، تتطابق

(١) هذا البحث عبارة عن ندوة علمية أُقيمت في مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية، بتاريخ ١/٩/٢٠١١.

* باحث وكاتب إسلامي، وأستاذ في الحوزة العلمية، من العراق.

(٢) هذا الكتاب ظاهره تاريخ، ولكن واقعه هو المنهج التاريخي في إثبات إمامة أهل البيت عليهم السلام.

كاملاً مع مراحل البعثة النبوية بخصوص الخلفية، والهدف، والمراحل، والفتح، والتركة، وقد اقتطعت جزءاً من هذه الدراسة المقارنة فيما يتعلق بالحسين عليه السلام.

إنّ الفضل - كلّ الفضل - يعود في دراساتي لأحاديث أهل البيت عليهم السلام، خصوصاً تلك الدراسات التي اكتشفت فيها جديداً في السيرة والتاريخ، فقد كنتُ أتعامل مع تلك الروايات كمفاتيح، وهذا الذي ينبغي أن ننطلق منه في روايات أهل البيت عليهم السلام، فبين أيدينا كمّ هائل من التراث. نعم، ربّما بعضه لا يصلح باعتباره قد نُسب إليهم خطأً، أمّا بعضه الآخر فيصلح حينما تصحّ النسبة أو حينما يفتح لنا آفاقاً جديدة؛ إذ أحياناً تأتي رواية عن الإمام عليه السلام مرسلة ولا نمتلك ما يُثبت صحتها، ولكنّها كمفتاح بإمكانها أن تُعطي فوائد معرفية وعلمية.

وقد يرد هنا سؤال، وهو: كيف نعرف - على سبيل المثال - أنّ هذا المفتاح نافِعٌ وصحيحٌ؟

الجواب: حينما يفتح لنا باباً من المعرفة - وهذه قضية واقعية - ونتحرك في الداخل نجد خزائناً وعلماً؛ فنكتشف أنّ هذه الرواية هي لهم، وخاصّة إذا كانت هذه الخزانة تشتمل على معلومات جديدة ما كنا نطمح أن نكتشفها إلا ببركة هذا المفتاح؛ ولذلك لا نحتاج معه إلى تصحيح السند، وإنّما الأثر الواقعي الذي حقّقه المفتاح هو دليل على صدق نسبتها إلى الأئمة عليهم السلام.

إنّ دراستنا هذه تهدف إلى بيان التشابه الحاصل بين حركة النبي صلى الله عليه وآله وحركة الإمام الحسين عليه السلام في جميع المراحل، سواء الخلفية منها، أم الهدف، أم المراحل، أم الفتح والتركة؛ وعليه نعقد دراستنا هذه في مباحث عدّة:

المبحث الأول: خلفية البعثة النبوية والنهضة الحسينية

إنّ إحدى نقاط الاشتراك بين البعثة النبوية والنهضة الحسينية هي الخلفية؛ ولذا نطرح هذا البحث أولاً ببيان الخلفية من البعثة النبوية، ثمّ بيان خلفية النهضة الحسينية.

الأمر الأول: خلفية البعثة النبوية

إن الخلفية الداعية لبعثة النبي ﷺ هي تحريف دين إبراهيم من قبل قريش^(١)، مع أنها كانت تؤمن بدين إبراهيم، وتنتمي إليه وإلى قبلته، وتعمل بشريعته، فهي منذ زمن قصي إلى زمن عبد المطلب لا تعبد الأصنام وإن كانت معلقة على الكعبة؛ لأنّ الذي علّق الأصنام على الكعبة هم قبيلة خزاعة، حينما تولّت البيت بقيادة عمرو بن لحي والذي جاء بهبل^(٢) من سوريا، فعادت الأيام بأن تنصب خزاعة - وخزاعة هي قبيلة تنتمي إلى إبراهيم أيضاً - الأصنام فعلقت هبل (بعل) على الكعبة.

والسؤال المطروح هو: من هم قريش؟ الجواب: هم ذرية فهر؛ إذ ظهر هذا اللقب أيام قصي، فلقب قصي بقريش^(٣)؛ لأنّه جمع ذرية فهر، وكانت قبل ذلك بيوتاً متفرقة، فجمعها لما استولى على البيت في حربه مع خزاعة، مستعيناً بأخيه لأمه رازح، الذي كان شيخ عشيرة خزاعة في الشام، وكذلك بولد عمّه؛ إذ كانوا بيوتاً متفرقة يشعرون أنّ خزاعة انتزعت منهم موقع السدانة، وهم الأولياء الشرعيون. ومن الطبيعي أنّ الأسرة التي تشعر بأنّ حقّها مغتصب سوف تكون بمعزل عن البدع التي يأتي بها الغاصبون - وربّ ضارّة نافعة - فعصّب حقهم كان في ضررهم، لكنّه قد صانهم من جهة أخرى، وهي: عدم وقوعهم تحت تأثير هذه البدعة؛ أي: بدعة أن يؤتى بالصنم ويوضع في الكعبة.

آباء النبي ﷺ حملة الوصية الإبراهيمية

انتهت الوصية إلى قصي من زمن إسماعيل، وهي وصية إبراهيم التي تحمل

(١) من المعروف أنّ إبراهيم عليه السلام صاحب كتاب، إلّا أنّه قد ضيّع.

(٢) هبل هو: مقلوب بعل، وبعل هو مردخ في بابل الذي علّق إبراهيم عليه السلام الفأس برقبته يوم حطّم الأصنام، وهو - بنظرهم - أحد الملائكة؛ إذ كانوا يعبدون الملائكة، وأحياناً يُعظّم ملك من الملائكة بسبب من الأسباب أكثر من غيره، فيصبح رمزاً لتلك المدينة التي علّقت في معابدها أو اهتمّت به.

(٣) معنى قريش: التجمّع. أنظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، ج ٥، ص ٣٩.

نبوءة محمد ﷺ واثنى عشر إماماً من أهل بيته عليهما السلام، وهي ما زالت مسجلة في التوراة المتداولة عالمياً اليوم، وتُسمى بركة إسماعيل. يقول إبراهيم عليه السلام: «يا رب، بارك في إسماعيل بعدما رأيتَه قد استجاب لأمرِك. قال: ها أنا باركته وأثمرته ونميتَه جدّاً جدّاً، اثنى عشر رئيساً يلد، وأجعله أمةً كبيرة»^(١). فكان يتداول هذه الوصية أوصياء إبراهيم من ذرية إسماعيل. هذا في الترجمة العربية.

وإذا رجعنا إلى الأصل العبري نجد أنّ لفظ (جدّاً جدّاً) يقابله عبارة (بمئود مئود)، وتعني كذلك: (جدّاً جدّاً). يقول علماء اليهود الذين أسلموا: إنّ هذا اللفظ هنا (بمئود مئود) بحساب الجمل يساوي (٩٢)، وهي القيمة العددية لاسم النبي المبعوث، فكأنّه كان هنا اسم محمد ﷺ وحرفوه إلى كلمة (بمئود مئود).

فآباء النبي ﷺ أوصياء إبراهيم من ذرية إسماعيل، يحملون النبوءة، ويحملون تراث إبراهيم عليه السلام، وإن انحرفت الفروع والذرية، فهؤلاء الأوصياء لا ينحرفون. وقصّي هو من جملة هؤلاء الأوصياء، وقد ذكرت كتب التاريخ أنّ أجداده كانوا يسيرون بالنبي ﷺ، إلى أن انتهت إليه الوصية، واستطاع أن يسترجع البيت، فأسس التجمّع من ذرية (فهر) الذي يُعدّ وصياً أيضاً. وعليه؛ فقد استمرت الوصية في بيته بالنصّ، على خلاف ما هو مشهور في كتب التاريخ من أنّ قريشاً ابتكرت الوصية، فالوصية مستمرة من إسماعيل إلى أبي طالب؛ وصية تحمل البشارة بالنبي المكي، وأنّ هذا البيت أُسس ليستقبل محمداً ﷺ.

قريش وعبادة الأصنام

إنّ النظرية المطروحة هي أنّ قريشاً لم تكن تعبد الأصنام على الرغم من أنّها معلّقة على الكعبة، ولم يعترض على ذلك قصي؛ لأنّ عبادة الأصنام قضية لها واقع، فكانت تعبدها كنانة - وهي أكبر قبيلة في ذرية إسماعيل - وكذلك خزاعة وقضاعة

(١) سفر التكوين، الإصحاح (١٧)، الفقرة: ٢٠.

في الشام؛ ولذا فإن الاعتراض على المعبودات والمنع منها سوف يفوّت على قصي السيطرة على الكعبة، وتأسيس تجمّع في مكّة ينتظر النبي الإسماعيلي المكي محمداً ﷺ. وعليه؛ فتحطيم الأصنام سوف يفوّت مكاسب كثيرة، وعلاوةً على ذلك أنّ تحطيمها ليس وظيفه أيّ أحدٍ، وفي أي مكان، وخصوصاً إذا كان المكان هو مكّة.

نعم، إنّ قريشاً بعد وفاة عبد المطلب انفتحت على الشرك وبدأت تعبد الأصنام^(١)؛ لسبب قد اهتدينا إليه، وهو: أنّ بطون قريش حسدت بيت هاشم - المتمثّل بعبد المطلب وبيته^(٢) - حول الزعامة، وانتظروا موت عبد المطلب، فقاموا بالانقلاب على أبي طالب وادّعوا أنّهم آل الله^(٣).

وكيف يمكن لقريش أن تنجح في انقلابها هذا؟ كان تحليلنا هكذا: إنّها قامت بالتقرّب إلى الأصنام في بداية الأمر كعملٍ سياسي؛ من أجل كسب قبائل كنانة وقُضاعة وخزاعة، فعبدوا هذه الأصنام تدريجياً خلال الأربعين سنة، وما تعني عبادتهم إلاّ التقربّ بهذه الأصنام إلى الله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٤)، ولم يكونوا يعتقدون أنّ هذه الأصنام تخلق وتبعث الرسل وما شاكل ذلك، فهم باقون على دين إبراهيم.

ربما يستغرب أحدٌ كيف يكون ذلك؟! نقول: ها هم بنو إسرائيل قد بنو بيت المقدس، وكانت القبلة إليه وعندهم التوراة، إلاّ أنّهم بعد سليمان - وسليمان امتداد

(١) خلافاً للرؤية المشهورة بأنّ قريش كانت تعيش الشرك قبل ذلك.

(٢) كان عند هاشم عبد المطلب فقط؛ ولذلك حينما نقول: بني هاشم، أو نقول: بني عبد المطلب، فواحدٌ. وكان وصي عبد المطلب هو أبو طالب.

(٣) مصطلح (آل الله) برز على يد عبد المطلب، لما دفع الله به الفيل؛ فقد كان لعبد المطلب موقفٌ واضحٌ جداً في قصة الفيل، إذ قال لقريش: تعالوا نقاتل والنصر من الله تعالى. فرفضوا وقالوا: لا طاقة لنا بذلك. فالله تعالى أيد عبد المطلب وصار هو الأولى بالله من الناحية الواقعية؛ لأنّ نصر الله جرى على يده، فادّعت قريش هذا اللقب بعد موته، وقالوا: بل نحن آل الله، الله تعالى دفع عنّا جميعاً ولا يختصّ ذلك ببني هاشم؛ فظهرت بيوت قريش وادّعت الزعامة، وأحدثوا البدع.

(٤) الزمر: آية ٣.

لموسى - انحرفوا وعبدوا الأصنام، مع اعترافهم بأنهم على دين موسى، وأنهم يحملون التوراة، ويحجّون إلى البيت، فعبدوا الأصنام وضاعت عندهم التوراة، فأخرجها لهم بعد السبي البابلي (عزير) مرّة ثانية^(١)؛ لأنّه كان يملكها كوثيقة يتداولها آل هارون، وعزير آخر آل هارون قبل السبي البابلي.

فإذاً، هناك تشابه كبير جداً وواضح؛ فبنو إسرائيل على دين موسى ﷺ، ويؤمنون بتوراة موسى، ولكنها فقدت، وكذلك قريش، فهم على دين إبراهيم ﷺ، ويؤمنون أنّ إبراهيم رسولٌ وله صُحفٌ، ولكنها فقدت كذلك.

فتح الطريق إلى الله

مّا تقدم يتّضح أنّ خلفية البعثة النبويّة، هي كون قريش قد حرّفت دين إبراهيم ﷺ حينما عبدت الأصنام، وهذا يعني تحريف العقيدة الدينية المتمثلة بالتوحيد، وتحريف الإمامة الإبراهيمية - أيضاً - التي كانت تُعلّم الناس حجّ إبراهيم ﷺ، ولكن تحوّل الأمر، فصار الذي يُعلّم الناس الحجّ قريشٌ كلّها، وصار الحجّ بثيابٍ قرشيّة، فإذا طاف الحاج بثيابه، عليه أن يرميها مهما كانت قيمتها، وعليه أن يعمل بفتاوى قريش المشركة.

فمن هنا أغلق الطريق إلى الله لأغلب القبائل والأفراد وذلك لسببين:

الأول: بفعل إمامة قريش وبدعها؛ ولذا يُحتاج إلى هدم هذه الإمامة، وإلى تحطيم الأصنام؛ لأجل أن يفتح الطريق من جديد.

الثاني: بفعل الأخبار والرهبان الذين حرّفوا التوراة.

فالطريق إلى الله في عامّة الأرض قد أغلق تماماً. نعم، الطريق عند بني هاشم مفتوح؛ لأنّهم لم يسايروا قريش في تحريفها لدين إبراهيم؛ لذلك قال الله تعالى:

(١) عزير: هو الذي قال عنه القرآن الكريم: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُجِيءُ هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١). إلى هنا إذا وقفنا، قد يُظنُّ أن كلَّ أهل مَكَّة (الأميين) في ضلال؛ لذلك دفع القرآن الكريم هذا الظنَّ أو التوهم، فقال: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهُمْ﴾^(٢)؛ أي: من أهل مَكَّة، ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾^(٣)؛ أي: ما سايروا وما لحقوا بقومهم في ضلالهم إلى البعثة.

وليس المقصود بذلك (أهل فارس) كما هو مشهور عن أبي هريرة، واشتهر أيضاً في كتب التفاسير، فهذا كلام مشهور لا أصل له، وإنما أصله رواية عن أبي هريرة ونظرائه، وقد وُضِعَتْ في العهد العباسي؛ من أجل أن تُعْتَمَّ على الظهور الحقيقي للآية الكريمة، وهو ظهورٌ في وجود فئة من أهل مَكَّة على خطِّ إبراهيم، وهو ما تجلَّى في دعوة إبراهيم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾^(٤) إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾^(٥). فمن هو هذا الرسول الذي سيفتح الطريق من جديد إلى الله؟ من المؤكَّد هو النبي الأميُّ المكيُّ محمد ﷺ، الذي يُصطَفَى من هذه الأمة المسلمة لِيُبعَثَ فاتحاً.

إذاً، يوجد في مَكَّة خطان: خطُّ من ذرية إبراهيم قد انحرف عن دين إبراهيم وعبد الأصنام. وخطُّ آخر هو الأمة المسلمة (المتمثلة ببني هاشم) التي اختار الله منها محمداً ﷺ مبعوثاً: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ...﴾^(٦). فورد أولاً: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، بعد ذلك: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

(١) الجمعة: آية ٢.

(٢) الجمعة: آية ٣.

(٣) الجمعة: آية ٣.

(٤) البقرة: آية ١٢٧-١٢٨.

(٥) البقرة: آية ١٢٩.

(٦) البقرة: آية ١٢٩.

بخلاف قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿... يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾^(١)، فهنا وقعت التزكية قبل التعليم؛ لأن هناك مشركين في ضلالٍ مبين، أمّا في سورة البقرة فالتزكية وقعت بعد التعليم؛ لأنهم مسلمون، والمسلم لا يحتاج إلى التطهير. والمسلم هنا على مستوى إسلام إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ...﴾^(٢)، فهذه الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل، إسلامها كإسلام إبراهيم وإسماعيل، فأخذ الإسلام هنا بمعناه اللغوي؛ أي: الانقياد لله تعالى كاملاً؛ ولذا لا بدّ أن تُقرن الآية في سورة الجمعة مع الآية في سورة البقرة؛ لنصل إلى هذه النتيجة.

إنّ فكرة وجود أحنافٍ خارج بني هاشم أمرٌ صحيح وممكن، إلا أنّهم أفراد معدودون في قبائلهم، أمّا كفته، أو أسرة، أو عشيرة، فبنو هاشم كانوا على الإسلام؛ ولذلك رأيناهم يربطون وجودهم ومصيرهم بمحمد ﷺ، وقريش قاطعتهم مقاطعة تامّة خلال ثلاث سنوات كما هو معلوم.

الأمر الثاني: خلفية النهضة الحسينية

خلفية النهضة الحسينية تشابه الخلفية التي أوجبت بعثة النبي ﷺ، ليفتح الطريق إلى الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك تُعدّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام عملاً عظيماً ورسالياً، فلولا نهضته عليه السلام لبقى الطريق إلى عبادة الله تعالى على الطريقة التي جاء بها الرسول محمد ﷺ، مُغلَقاً أمام الناس جميعاً؛ لأنّ قریش عِبرَ بني أمية عَرَضَتْ نفسها للناس من خلال الإعلام على أنّهم خلفاء الله، وأنّهم أئمة الهدى، وأنّهم آل النبي.

الخلافة القرشية ودورها في تحريف الإمامة الإلهية

كيف استطاع بنو أمية أن يعرضوا أنفسهم لخلفاء الله وأئمة هدى؟ الجواب على

(١) الجمعة: آية ٢.

(٢) البقرة: آية ١٢٨.

ذلك: أتهم استندوا إلى تجربة مسبقة، هي حكومة قريش بعد النبي ﷺ مباشرة، تلك الحكومة التي أفرزتها عملية السقيفة التي كانت - في الحقيقة - مرحلة إخراج، وإلا فقبل السقيفة كان هناك حزبٌ يتبنى أطروحة كانت تقوم على أساس شعار (حسبنا كتاب الله)، ففُصلَ بين كتاب الله وبين السنة النبوية، فهي حركة قادتها قريش وليس الأنصار؛ إذ لا تتجرأ الأنصار أن تقود وتطرح حركة بهذا الشعار؛ لذلك نلاحظ من الحوارات الأساسية في سقيفة بني ساعدة لما قالت الأنصار: «منا أميرٌ ومنكم أمير»^(١)، قال لهم أبو بكر: «... لكن قريش أولى بمحمدٍ منكم»^(٢)، مذكراً إياهم أيام الجاهلية من أين كانوا يأخذون دينهم وحجّهم؟! إذ إن قريش قبيل البعثة هي التي كانت تقود إلى الله على طريقتهما، وعليه انسحب الأنصار.

إذاً، قريش رفعت شعار (حسبنا كتاب الله)، وبدأ التحريف في دين محمد ﷺ، ومن أبرز ما حرّف هو الإمامة الإلهية.

فصحيحٌ أنّ الإمامة بعد النبي ﷺ، هي موقعٌ تشريعي وتنفيذي، ولكن بشرط ألاّ يمسّ تشريعات الله ولا نبيه بشيء. فتشريعات الإمامة الإلهية بعد النبي ﷺ تأتي لتحافظ على تشريعات النبوة وتشريعات الله مسبقاً؛ لأنّ الدين تقرّر كونه كتاباً وسنة، فإذا جاء الإمام بعد النبي ﷺ وأراد أن يُشرّع في منطقة له فيها حق التشريع، لا بدّ أن يكون هذا التشريع لصيانة تشريع النبي ﷺ، كما أنّ تشريع النبي ﷺ لصيانة تشريع الله سبحانه وتعالى.

ومن المؤسف جداً أنّ بحث الإمامة لا يبدأ فيه ببحث النبي ﷺ، فإنّ إمامة أهل البيت  - كما في عقيدة الشيعة - إنّها هي استمرار لإمامة النبي ﷺ وامتداد لها، لا تختلف عنها في كلّ شيء، فما يشرّعه الأئمة دينٌ؛ ولذلك ينبغي أن نفهم الإمامة من مرحلة النبوة.

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق.

حينما جاءت الخلافة القرشية استغلّت هذه الناحية، لا لأجل أن تحافظ على التشريعات الإلهية والنبويّة؛ وإنما لأجل أن تُهدّم التشريعات الإلهية والنبويّة، وأنتجت ما عُرِفَ بـ(سيرة الشيخين)، فسيرة الشيخين مصطلحٌ يُراد به ما أسسه الخليفان من قضايا خالفوا فيها السنّة النبويّة، فهي - إذًا - تشريعات جديدة، وبدعٌ حلّت محلّ تشريعات الله وسنن نبيّه^(١). وفي الحقيقة، أنّ سيرة الشيخين هي معلّمٌ للإمامة الدينيّة التي ادّعتها قريش بعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهناك رواية واضحة المعالم جدًّا يرويها مسلم وغيره، عن أبي موسى الأشعري، قال: «قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، وَهُوَ مَنِيخٌ بِالْبَطْحَاءِ. فَقَالَ: بِمِمْ أَهَلَّتْ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَهَلَّتْ بِأَهْلَالِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ). قَالَ: هَلْ سُقْتَ مِنْ هَدْيٍ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَطَفَّ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، ثُمَّ حَلَّ. فَطَفَّتُ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، ثُمَّ أَتَيْتُ امْرَأَةً مِنْ قَوْمِي، فَمَشَّطْتَنِي وَغَسَّلتْ رَأْسِي. فَكُنْتُ أُفْتِي النَّاسَ بِذَلِكَ فِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ وَإِمَارَةِ عُمَرَ، فَإِنِّي لِقَائِمٌ بِالْمَوْسِمِ إِذْ جَاءَنِي رَجُلٌ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي شَأْنِ النَّسْكِ؟! فَقُلْتُ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ كُنَّا أَفْتِينَاهُ بِشَيْءٍ فَلْيَتَدَّ، فَهَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَادِمٌ عَلَيْكُمْ، فَبه فائتموا»^(٢).

ومعنى قوله: «فهذا أمير المؤمنين قادم عليكم، فبه فائتموا»، أنّه إمامٌ ديني؛ ولذلك بلغت الخلافة القرشية في عهد الخليفة الثاني إلى مرحلة أنّ باستطاعتها أن تُشرّع.

الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَام في مواجهة الانحراف القرشي

وقف أمام هذه التجربة علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَام حين عرضوا عليه في الشورى:

(١) ومن أبرزها حج التمتع، وهو من القضايا التي ينبغي أن يتعرّف عليها كلّ مسلم، فإنّ هذا الحج - وهو من أبرز العبادات التي جاء بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الصلاة - كان أوضح معلم من معالم تأثير الخلافة القرشية على تحريف الدين. وكذلك الصلاة التي وقعت فيها زيادات ما لم تكن في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كالنكف مثلاً.

(٢) النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم: ج ٤، ص ٤٥.

«لنا الله عليك، إن وليت هذا الأمر، أن تسير فينا بكتاب الله، وسنة نبيه، وسيرة أبي بكر وعمر»^(١). وهذا معناه: تعال نباعك على سيرة الشيخين؛ لأن كتاب الله وسنة نبيه مفروغ عنها. لكنهم يعرفون علياً عليه السلام لن يقبل ملكاً فيه ضرباً وتحريفاً لدين الله تعالى، فقال: «أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه»^(٢)؛ ولذا رفض عليه السلام هذا الأمر؛ إذ لو أراد أن يُشرع لا يحتاج إلى بيعة الناس، وإنما الله تعالى منحه ذلك عبر النبي صلى الله عليه وآله من خلال قول النبي صلى الله عليه وآله: «من كنت مولاه، فهذا عليٌّ مولاه»، فكل ما للنبي صلى الله عليه وآله من صلاحية في الولاية، فهي لعليٍّ عليه السلام، سواء أكانت تشريعية أم تنفيذية^(٣). نعم، عندما عرّضت على عثمان قبلها؛ لأنه يعتقد أن هذا الأمر ليس مجرد تنفيذ أو حكم سياسي، بل هو خلافة وإمامة دينية، وأن قبوله بسيرة الشيخين معناه إمكان الإضافة على ذلك، ومسألة الموضوع أكبر شاهد على ذلك^(٤).

فصار في الحقيقة عندنا تجربة بعد النبي صلى الله عليه وآله، هي تجربة قريش المسلمة التي حرّفت دين محمد صلى الله عليه وآله وشريعته، كما حرّفت قريش المشركة دين إبراهيم وشريعته؛ فنهض عليٌّ عليه السلام في مواجهة قريش المسلمة وأبطل كلّ تشريعاتها، وأحيا من جديد سنن النبي صلى الله عليه وآله والإمامة الدينية المتمثلة بأهل بيته عليهم السلام، هؤلاء الذين كلّفهم الله تعالى حفظ الشريعة ﴿... فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾؛ أي: كفر تأويل لا كفر تنزيل، ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبُهِدَتْ لَهُمْ أَعْيُنُهُمْ﴾^(٥)؛ يعني: ببيانهم اقتده.

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٦٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) علماً أن الولاية التشريعية أعظم من الولاية التنفيذية، فالولاية التنفيذية يمكن للإنسان أن يقبلها أو لا يقبلها (يجمدها)، كما صنع الإمام الحسن عليه السلام، وإنما الأصل الولاية التشريعية؛ لأنها هي الدين الذي يجب على الناس أن يتديّنوا به.

(٤) هناك بحثٌ للسيد على الشهرستاني، طبع مستقلاً تحت عنوان: (وضوء عثمان).

(٥) الأنعام: آية ٨٩-٩٠.

وعند التأمل في التاريخ إلى سنة (٢٧هـ) نرى أن هناك مشكلة قد حدثت في المجتمع الإسلامي؛ إذ صار هنالك خطآن: خط عثمان وبنو أمية، وخط قريش التي كانت ناقمة على الخط الأول. والمشكلة الأساسية بين قريش وعثمان في الحقيقة، هي مشكلة سياسة تتعلق بالسلطة والمال، أما القاعدة العامة لحكم البلاد الإسلامية، فهي سيرة الشيخين؛ فلا يعرفون حجاً إلا من خلال حج عمر، ولا يعرفون وضوءاً إلا من خلال عثمان، ولا يعرفون زكاة إلا من خلال الأنصبة التي كان يشخصها عمر، وهكذا. نعم، هناك خط واضح وهو خط علي عليه السلام الذي أراد أن يميز نفسه بأنه ليس مع قريش في نهضتهم من أجل الملك في ذلك الظرف السياسي العصيب، فأهل البيت عليهم السلام لا يتحركون نتيجة اجتهاد شخصي أبداً؛ لأن حركتهم من أجل حفظ النبوة الخاتمة، فكان لعلي عليه السلام سبعون عهداً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عهداً مفصلة، وقد أنجز بعضها، فجاءت الفرصة المناسبة للرد على السلطة، فقرر أمير المؤمنين عليه السلام أن يُحيي حج التمتع في تلك السنة، في ظل تصارع الحزبين (بنو أمية وقريش)، فأحياه بتوفيق إلهي ووصية نبوية.

استعان الإمام علي عليه السلام بأدوات تتحمل الأذى؛ باعتبار أن نهضته عليه السلام كبعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة؛ إذ سوف يواجه حكماً أقوى من قريش، فكان أبو ذرٍّ وعمار والمقداد وغيرهم ممن معه قد اتفق معهم أن يحجوا تلك السنة على أن يضعوا دماءهم على أكفهم؛ لأن القيام بالحج على أساس سنة النبي (حج التمتع)، هو خلاف التيار^(١).

ففي البخاري عن مروان بن الحكم، قال: «شهدت عثمان وعلياً، وعثمان ينهى عن المتعة، وأن يجمع بينهما، فلما رأى علي، أهل بهما، لبيك بعمره وحجة، قال: ما كنت

(١) إن الروايات واضحة ومحفوظة في كتب الحديث والتاريخ، فيما يتعلق باختلاف علي عليه السلام وعثمان في الحج.

لأدع سنّة النبي ﷺ لقول أحد^(١) «^(٢). فإنّ الوقت قد حان لإحياء سنّة النبي ﷺ، بعد أن كانت مخالفة حجّهم جريمة يُعاقب عليها؛ إذ قال الخليفة الثاني: «متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حلالاً، أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما: متعة النساء، ومتعة الحجّ»^(٣).

فالمجتمع قد رأى تحوّلاً حدث في موسم الحجّ، فهناك حجّ جديد يروونه أهل البلاد المفتوحة شرقاً وغرباً^(٤). فأحدث الإمام عليّ عليه السلام ثورةً بالحجّ؛ إذ يسأل الناس الصحابة: ما هذا الحجّ؟ فيأتي الجواب: هذا الذي كنّا نحجّ به على عهد رسول الله ﷺ.

فإذاً، مشروع الإمام عليّ عليه السلام إحياء سنّة النبي ﷺ، ونجح في ذلك فعلاً بعد قتل عثمان من قبل قريش التي كانت ترجو أن الناس سوف يبائعون واحداً منهم كطلحة والزبير - مثلاً - إلا أن الجماهير تركتهم وذهبت إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فإذا بطلحة والزبير يمدّون يد المبايعه لعليّ عليه السلام رجاءً للمنصب، إلا أن مشروعه عليه السلام ليس فيه مساومة على الملك والمحاصصة. ومع ذلك كلّه فقد انقسم المجتمع الكوفي على قسمين:

القسم الأول: قسم باقٍ على سنّة الخلفاء، ومع ذلك فقد ترك أمير المؤمنين عليه السلام الناس وحرّبتهم من دون إكراه^(٥).

(١) هناك نسخة لـ(صحيح البخاري) مطبوعة في أربع مجلدات وبهامشه تعليقة السندي، يقول: «ما كنت لأدع سنّة النبي ﷺ لقول أحد من الناس».

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج ٢، ص ١٥١.

(٣) الجصاص، أحمد بن علي، أحكام القرآن: ج ٢، ص ١٩١ وغيره.

(٤) لأنّ حجّ التمتع معناه عندما يصل الحاج إلى البيت يطوف سبعة ويصلي ركعتين، ثم يسعى بين الصفا والمروة، ويحلّ، إلا أنّ من يعمل بسيرة الخليفة الثاني لا يجوز له أن يحلّ.

(٥) كان جماعة يصلّون صلاة التراويح في مسجد الكوفة أيام شهر رمضان في السنة الأولى عند مجيء أمير المؤمنين عليه السلام، فقد «روي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما اجتمعوا إليه بالكوفة فسألوه أن ينصب لهم إماماً يصلّي بهم نافلة شهر رمضان، فزجرهم وعزّفهم أنّ ذلك خلاف السنّة، فتركوه واجتمعوا

القسم الثاني: هم ممن وعى وبدأ ينهى عن تلك البدع، فبعد مرور خمس سنوات وثلاثة أشهر صار أهل العراق يحملون مشروع علي عليه السلام في البلاد الشرقية؛ لأن الجبهة الغربية تحمل مشروع الخلفاء؛ إذ تمكّن معاوية أن يفصلهم، خصوصاً بعد حرب صفين؛ إذ جعل سبّ علي عليه السلام ولعنه بشكل علني، وذلك - حسب رأيهم - أن علياً عليه السلام قد أفسد في دين عمر الذي يعتبرونه دين الله، وعُرِضت إمامة علي عليه السلام على أنها إمامة ضالة.

فالبدة التي نصرت علي بن أبي طالب عليه السلام في مشروعه، وساندته في حروبه التي دافع بها عن مشروعه، في قبال من حاول وأد ذلك المشروع، هي الكوفة، فلا نجد غير أهل الكوفة أنصاراً لعلي عليه السلام في مشروعه الذي هدَفَ إلى إحياء سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولولا بقاء الكوفة معه عليه السلام في مشروعه لما استطاع عليه السلام أن يستمرّ مدة حكمه، وما يرد من كلمات تُنقل هنا وهناك في بعض المصادر في ذم أهل العراق، وأنهم أهل الشقاق والنفاق! وأنهم قد ملأوا قلبه قيحاً... فهذه من المعيب أن نقبل بها، أو أن نصدّقها؛ لأنّها لا تليق بإنسان يعتقد بنجاح عمله، وعقيدتنا أنّ أهل البيت عليهم السلام نجحوا في مسيرتهم وما فشلوا تماماً؛ لأنّ الهدف ليس هو إقامة الحكم فحسب، حتّى يقال: إنّ في زمانه وقعت حروب ثلاثة بين المسلمين، بينما في زمن الخلفاء فقد فُتحت بلدان عديدة، فعلي عليه السلام بويع لا على أساس إقامة حكم، بل بويع على أساس أن يواصل مشروعه الذي نهض به سنة (٢٧هـ).

الإمام الحسن عليه السلام في مواجهة الانحراف الأموي

استشهد أمير المؤمنين عليه السلام والمجتمع على جبهتين: جبهة شرقية تؤمن بأنّ علياً عليه السلام إمام أحياء سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجبهة محدثة في الشام تعتقد أنّ علياً عليه السلام يستحقّ اللعن.

لأنفسهم وقدموا بعضهم، فبعث إليهم ابنه الحسن عليه السلام فدخل عليهم المسجد ومعه الدرّة فلما رآه تبادروا الأبواب وصاحوا: وا عمراه! ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ٢٨٣.

جاء الإمام الحسن عليه السلام وبايعه أهل العراق بيعة مستقرّة^(١)؛ إذ لا يوجد أفضل منه يُقيم فيهم العدل، حتّى وقع الصلح الذي كان يهدف الإمام من خلاله فتح الشام بأطروحة علي عليه السلام^(٢)؛ باعتبار أن فتح الشام كان منحصرأً بالصلح؛ لأنّ معاوية لا يقبل أن يتنازل عن الملك، فإمّا أن تبقى هناك دولتان: دولة تحمل مشروع علي عليه السلام، ودولة تحمل مشروع الشيخين، وهذا ليس فيه نتائج مسرّة، وإمّا أن يهدم الإمام أطروحة الشيخين ويكشف حقيقتها لأهل الشام، ويبيّن لهم أنّ هذا خلاف سنّة النبي صلى الله عليه وآله، ويقدمّ لهم مشروعه عليه السلام على أنّه الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّ عمله هذا لأجل إحياء سنّة النبي صلى الله عليه وآله.

وبالفعل، فقد نجح الحسن عليه السلام في ذلك؛ ففي سنة (٤٨ هـ) لحقت الشام بالكوفة، حتّى بدأت تُذكر في الشام فضائل علي عليه السلام، وسيرته، ونهضته في إحياء السنّة، حتّى انسحبت إلى البلاط أيضاً، وهذا هو الفتح.

وعليه صار واضحاً للناس في أيام صلح الإمام الحسن عليه السلام الذي استمرّ عشر سنوات، أنّ هناك دينين: دين قريش ودين علي عليه السلام. دين علي عليه السلام هو دين رسول الله صلى الله عليه وآله، ودين قريش هو دين الخلفاء الثلاثة تماماً. هنا اشترط الحسن عليه السلام على معاوية أن يبقى الناس أحراراً وأن لا تتدخل السلطة في الجانب الديني. فما فعله الإمام الحسن عليه السلام بحق كان عملاً عظيماً.

رأى معاوية أنّ الإمام الحسن عليه السلام أحيا مشروع أبيه، حتّى أصبح ذكر أبيه يعمّ البلاد، فخطّط للقضاء على مشروعه، فسدّ إليه السّم، وهو بداية الانقلاب

(١) خلافاً لما ترويه بعض كتب التاريخ من أنّها بيعة مهلهلة، هذا كلّ كذب وعمل إعلامي مزيف، فصلّناه في كتابنا (الإمام الحسن عليه السلام في مواجهة الانشقاق الأموي)، وهو من أهمّ الدراسات الإسلامية المعاصرة؛ لأنّه يطرح رؤية في قبال الرؤية المشهورة القائلة: إنّ مرر تسليم الحسن عليه السلام للملك؛ هو ضعف جيش الكوفة.

(٢) باعتبار أنّ أهل الشام ما زالوا بعيدين عن إمامة علي عليه السلام، والقائم عندهم هو إمامة الشيخين.

الأموي على الإمام الحسن عليه السلام، وقد سمع المجتمع كله بحالة الإمام الحسن عليه السلام، ووقع التساؤل بين الناس: مَنْ الذي له مصلحة في أن يغتال الحسن عليه السلام بالسُّم؟ إذ لا مصلحة لأيِّ جهةٍ في ذلك إلا بني أمية^(١).

وعليه؛ فقد قامت السلطة الأموية بطرح بديل في المجتمع ألا وهو التجربة القرشية (تجربة قريش المسلمة)، فأعادتها من جديد؛ ولذلك منعوا الكثير من السنن النبوية الصحيحة التي انتشرت على عهد الإمام علي عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام في كل الأمة المسلمة، وذلك بعد أن عرف الناس أن الإمامة الدينية حق لأهل البيت عليهم السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله، وأن إمامة قريش باطلة؛ لأنها حرّفت دين الله.

وبعد مضي عشر سنوات تكوّن هناك جيلٌ جديد يؤمن بالأطروحة الأموية، وقد تواجد جزء منه في الكوفة؛ إذ من سنة (٥١ هـ) هجر زياد بأمر من معاوية (٢٥) ألف شيعة بعوائلهم من الكوفة والبصرة، وأسكن محلّهم نظراءهم من قبائلهم في الشام، وكانوا موالين لمعاوية؛ بمعنى أنه أحدث تغييراً سكّانياً في الكوفة على مدى عشر سنوات، فهذا التغيير السكّاني والولادات الجديدة أصبحت الكوفة لا تحمل مشروع علي عليه السلام، بل أصبحت تحمل أطروحة الشيخين مثلما أسست أول مرّة.

رأي ونقد

هناك نظرية مطروحة للشهيد الصدر رحمته الله بأنّ الصلح استهدف توضيح الحق؛ لوجود شبهة أحاطت به.

(١) هناك من الباحثين المستشرقين مَنْ يتبنّى رؤية بني أمية وبني العباس في أنّ معاوية بريءٌ من دم الحسن عليه السلام؛ إذ نقرأ في دائرة المعارف الإسلامية ل(فنسيك) وآخرين، والتي طُبعت بالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، وهي في كلّ المكتبات العالمية، ومن المعلوم أنّ الموسوعات يُهتم بها، وتعدّ المعلومة التي تتضمنها الموسوعة هي خلاصة البحوث، فهي معلومة مستقرّة. فهؤلاء ينظرون إلى معاوية على أنّه بريءٌ من دم الحسن عليه السلام، وأنّه لا مصلحة لمعاوية في ذلك، بينما علماء الشيعة يرون في أبحاثهم أنّ المسؤل عن ذلك هو معاوية.

وفي مقام التحليل لهذه النظرية؛ نرى أنّ السؤال المطروح: مَنْ هو المخاطب بهذا الكلام؟

إن السيد الشهيد الصدر عليه السلام يرى: أنّ المخاطب به العراق. فالحسن عليه السلام صالح معاوية، وهذا يعني أنّ أهل العراق ما كان الحق واضحاً عندهم؛ بدليل عدم الطاعة لعلي عليه السلام مسبقاً.

وهذا الكلام فيه تأمل؛ لأننا إذا درسنا مجتمع الكوفة، أو درسنا نهضة علي عليه السلام من سنة (٢٧هـ)، نشاهد أنّ الحق بدأ يتّضح بأنّ الخلافة حُرِّفت، وأنّ علياً عليه السلام بدأ ينهض لإحياء سنّة نبويّة، فعلي عليه السلام صاحب حركة حقّانية واضحة، وأهل الكوفة إنّما نصرُوا علياً عليه السلام في حرب الجمل؛ لأنّهم رأوا أنّ طلحة والزبير نقضوا عهدهم معه عليه السلام في مواجهة يصدر منه عليه السلام أيّ شيء يوجب نقض العهد معه، فازدادت نصرتهم لعلي عليه السلام في مواجهة معاوية، وبالتالي فمهما لحق بهم من أذى في حرب الجمل وصقّين، فإنه لم يزدتهم إلاّ إيماناً وتسليماً.

نعم، الانشقاق الذي حصل في الشام داخل جيش علي عليه السلام، كان باعتبار أنّ ذلك الجيش لم يُبنَ على أساس الاعتقاد بإمامة علي عليه السلام، بل هنالك حرب قائمة مع الظالم الذي خرج على الحق، وهي مسألة عامّة لا تستوجب أن يكون مَنْ يعتقد بإمامة علي عليه السلام، هو الذي يقاتل فقط؛ لأنّها حرب على العطاء، ثمّ يأخذ العطاء إذا دخل في هذه الحرب، فقد دخل مع علي عليه السلام أناس يتديّنون بسنّة عمر، ويحجّون على طريقتة، ومع ذلك لم يمنعهم علي عليه السلام من المشاركة في الحرب.

ولذلك، فإنّ مَنْ قاتل في جيش علي عليه السلام صنفان: صنفٌ يؤمن بإمامته وبمشروعه، وصنفٌ آخر لا يؤمن بذلك، وهم الذين انشقوا عن جيش علي عليه السلام. فالخوارج في الحقيقة لم يكونوا في الأصل شيعة لعلي عليه السلام ثمّ انشقوا عنه في صفين، وإنّما هؤلاء بقوا أوفياء لما ألفوه من تشريعات عمر، والآن يرون أنّ السير على طريقة علي عليه السلام والأخذ برأيه معناه إلغاء أيّة قيمة لما كانوا يعتقدون به، ولذلك رفعوا شعار تحطّئة علي عليه السلام، فصارت حرب النهروان، فهذه نقطة مهمّة جداً؛ إذ نرى - للأسف الشديد -

في مصادر التاريخ أن هؤلاء من شيعة علي عليه السلام، حتى جعلوا عبد الرحمن بن ملجم ^(١) من شيعته أيضاً!!

فالكوفة بهذه الحروب الثلاث تدريجياً تمحص إيمانها بعلي عليه السلام، وأتضح الحق فيها، فلا يصح أن يقال: بأن هؤلاء لا يعرفون الحق، وأنهم يحتاجون إلى صلح حتى يكتشفوا بأن معاوية يُريد سلطة، فهذا هو معاوية عندما نزل بالنخيلة ^(٢) خطب قائلاً: «إني والله، ما قاتلتكم لتصلّوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا، ولا لتزكّوا، إنكم لتفعلون ذلك، ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك، وأنتم له كارهون» ^(٣). فكان يعلم العراقيون أن معاوية على الباطل، بل عرفوا بطلان من سبقه أيضاً بشكل واضح.

النهضة الحسينية وتحرير مشروع علي عليه السلام

أكمل معاوية الانقلاب بتنصيب ولده، وعليه يتّضح أن معاوية لم يسع إلى تحريف الإسلام فحسب، بل يسعى إلى حصر الإمامة الإلهية في أسرته، فعرض نفسه إماماً إلهياً، ومن بعده الذي يقود إلى الله هو ابنه يزيد ^(٤). وهذا الأثر للإمامة الدينية بقي إلى القرن الثالث، فهذا السجستاني في كتابه (المصاحف) يستشهد على قراءة ﴿مَلِكِ يَوْمِ﴾

(١) عبد الرحمن بن ملجم من رموز ذلك الخط. كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن يختار له منزلاً بجوار منزله؛ حتى يعلم الناس قراءة القرآن، ومنه تم تأسيس قراءة القرآن بلا تفسير. وعليه: فهو ليس من شيعة علي عليه السلام، ولا يُحسب عليهم، فإن شيعة علي عليه السلام هم الذين يقرأون القرآن ويفسرونه للناس، ويحدّثون بأحاديث النبي صلى الله عليه وآله.

(٢) النخيلة: موقع بالقرب من الكوفة. أنظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان: ج ٢، ص ١٥٨.

(٣) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ١٤. أنظر: ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق: ج ٥٩، ص ١٥٠.

(٤) في سنة (٥٥ هـ) لما عُرضت قضية بيعة يزيد، وكان البادي لها كما يبدو المغيرة بن شعبة، طلب من معاوية على الأقل تغيير سيرة ولده!، فغيّر السيرة وعُرض كمجاهد، حتى قاد المسلمين في جهاد القسطنطينية وفتحها، وكان مصطحباً معه محظياته، لكن تستر عليهم، وما كان يشرب الخمر أمام الناس؛ لكي يُعرض إماماً دينياً.

الدين ^(١) برواية عن ابن شهاب: «أنه بلغه أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأبا بكر، وعمر، وعثمان، و[معاوية]، وابنه يزيد بن معاوية، كانوا يقرؤون: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾» ^(٢). فلا استشهاد بقراءة يزيد يعني كونه قد عرّض كإمام ديني.

إذاً، بنو أمية حرّفوا دين محمد ﷺ، وارتكزت في تحريفها الإمامة الإلهية والشريعة النبوية على تجربة قريش المسلمة. فأغلق الطريق إلى الله تبارك وتعالى كما أغلق الطريق زمن قريش قبيل البعثة ^(٣).

فجاء دور الحسين عليه السلام، وذلك بعد هلاك معاوية، وما نهضته إلا من أجل تحطيم الخلافة على مستواها الأموي والقرشي وإن كان أمير المؤمنين عليه السلام قد حطّم في سيرته الإمامة الدينية لقريش، لكن بمجيء بني أمية وانطلاقتهم من جديد يكون قد عتمّ على إمامة أهل البيت عليهم السلام.

وعليه؛ فإحياء دين محمد ﷺ وشريعته على يد الحسين عليه السلام ليس مشروعاً وليداً، بل الحسين عليه السلام تابع لمشروع أبيه عليه السلام، فعلي عليه السلام هو المؤسس لحركة إحياء دين محمد ﷺ، فلولاها لانتهى ذلك الدين؛ لأنّ قريشاً خلال (٢٤) سنة عتمّت على سنّة النبي ﷺ، وطوّقتها ومنعت من نشرها، حتّى صار الدين عبارة عن كتاب الله وسيرة الشيخين، فوقف علي عليه السلام في وجه تحريف قريش، وأرجع الإمامة الإلهية التي بشر بها وبلّغها النبي ﷺ.

إنّ طريقة بني أمية لتركيز الضلال في المجتمع، تتمثّل بالإمامة والخلافة الأموية،

(١) الفاتحة: آية ٤.

(٢) السجستاني، عبد الله، المصاحف: ج ٣، ص ٣٩٢.

(٣) لأنّه كان معروفاً في المجتمع أنّ الذي يُريد أن يتحرّك إلى الله ويحجّ البيت، عليه أن يطوف بتياب قرشية، وهنا أيضاً أغلق الطريق، فأبى مجاهد يُريد أن يتقرّب إلى الله تعالى بدمه عليه أن يبيع الخلافة، وأن يأخذ أمر الجهاد من يزيد وقبله أبوه معاوية، وهكذا إذا أراد أن يحجّ عليه أن يحجّ حجّ عمر. وما تركيزهم على الجهاد إلا لأنّه إمساك للناس عن أهمّ موقع للقربة إلى الله تعالى، فصار الذي يملك القربة إلى الله تعالى ببذل الدم، هو يزيد ومن قبله معاوية.



وبدع الخلفاء السابقين التي طُرِحَتْ على أمتها هي الدين، وبالمعنى من نشر أحاديث النبي ﷺ في حق علي عليه السلام، وهي استراتيجية اعتمدها الخلافة الأموية لنشر الضلال بعنوان أنه هدى، لتطويق الهدى الحقيقي وأحاديث النبي ﷺ وترتيب عقوبة على مَنْ يروي حديثاً من قبيل: أحاديث الغدير، والمباهلة، والمنزلة، وغيرها؛ أي: الأحاديث التي تؤسس الإمامة الإلهية لعلي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام. من جهة أخرى، هناك استراتيجية لمحاصرة الخط الهادي وتصفية أصحابه^(١)، وتبني الأحاديث المكذوبة الموضوعية؛ من أجل أن تؤسس إمامة مبنية على الكذب.

إذاً، كان أمام الحسين عليه السلام خلافة تزعم أنها تمتد إلى رسول الله ﷺ، ولكن حقيقتها أنها إمامة تدعو إلى تحريف سنة النبي ﷺ، ولعن أئمة الهدى الذين عيّنهم الرسول ﷺ، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَلَيْسَ الْإِسْلَامُ لُبْسَ الْفُرِّوْ مَقْلُوبًا»^(٢). الإسلام يدعو إلى كتاب الله وسنة النبي ﷺ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِزَّتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَى الْحَوْضِ»^(٣). إلا أن العترة حُوصرت بعد النبي ﷺ، وعظيم أهل البيت علي عليه السلام يُلعن ويُتقَرَّبُ إلى الله بلعنه، وأعداء الإسلام - الذين حاربوا الإسلام على مدى عشرين سنة - يعرضون أنفسهم أئمة هدى!

إذاً، خلفية النهضة الحسينية، هي حفظ الدين الإسلامي والدفاع عنه، والوقوف بوجه بني أمية الذين يعملون على تحريف دين محمد ﷺ وشريعته، والتي لم يبقَ فيها إلا قول (لا إله إلا الله)، وعلى رأس ما حُرِّفَ هو الإمامة الإلهية. يقول الإمام الرضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله ﷺ، عن جبرئيل، عن الله عز وجل: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

(١) بل أكثر من هذا، فإن هناك مَنْ هُدم داره، ورُفِعَ اسمه من دار العطاء بتهمة حبّ علي عليه السلام.

(٢) عبده، محمد، شرح خطب نهج البلاغة: ج ١، ص ٢٠٩، الخطبة ١٠٨.

(٣) ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج ٣، ص ١٤، و ص ١٧، و ص ٢٦.

حُصْنِي، فَمَنْ دَخَلَ حُصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي». قال الراوي: فلَمَّا مَرَّتِ الرَّاحِلَةُ، نادانا: «بشروطها، وأنا من شروطها»^(١).

فالإمامة الإلهية الدينية، هي الإمامة المتمثلة بعلي وأهل بيته عليهم السلام الذين من عرفهم فقد عرف الله؛ بمعنى: أن التوحيد لا يقف عند قولنا: (أشهد أن لا إله إلا الله)، بل لا بد أن ترتب عليه الآثار؛ أي: الشهادة بأن محمداً رسول الله، وأن علياً ولي الله. وعليه؛ يكون الإيمان بالولاية هو تمام التوحيد، وإلا بقي ناقصاً.

المبحث الثاني: الهدف من البعثة النبوية والنهضة الحسينية

تقدّم أن إحدى نقاط الاشتراك بين البعثة النبوية والنهضة الحسينية هو الهدف، وعليه نبيّن في هذا المبحث الهدف من البعثة النبوية، ثم نذكر هدف النهضة الحسينية.

الأمر الأول: هدف البعثة النبوية

أتضح وجه المقارنة بين خلفية بعثة النبي صلى الله عليه وآله، وبين خلفية نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وعليه يصبح الهدف واضحاً جداً من خلال ما تقدّم؛ فههدف البعثة النبوية تحرير دين إبراهيم وتحرير مدينته (مكة)، أي: فتح الطريق إلى الله تعالى، بتقديم الكتاب الإلهي الصحيح ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(٢)، وقد نجح النبي صلى الله عليه وآله في ذلك فعلاً.

الأمر الثاني: هدف النهضة الحسينية

تقدّم أن خلفية النهضة الحسينية هي الوقوف بوجه بني أمية الذين يعملون على تحريف دين محمد صلى الله عليه وآله، وعليه يكون هدف النهضة هو فتح الطريق إلى الله تعالى بتهديم إمامة بني أمية الدينية، كما هُدمت الإمامة الدينية لقريش المشركة، وتقديم حملة كتاب الله تعالى، والذين هم الأئمة عليهم السلام.

(١) الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ١٤٥.

(٢) الرعد: آية ٤٣.

هذا هو التطابق العجيب بين حركة الحسين عليه السلام وبين بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكما نجح النبي صلى الله عليه وآله في الوصول إلى الهدف من المشروع الملقى على عاتقه، كذلك نجح الإمام الحسين عليه السلام في تحقيق الهدف بنهضته؛ لأن الكوفة بعد ثلاث سنين من شهادته عليه السلام، أُقيمت فيها دولة علي عليه السلام من جديد، وانفتحت على الإمامة الإلهية لعلي عليه السلام، ومنذ ذلك الوقت وإلى يومنا هذا، بل وإلى ظهور الإمام المهدي عليه السلام تحمل الكوفة وظهرها النجف مشروع علي بن أبي طالب عليه السلام، ولم يتبدل أهل العراق منذ نهضة الحسين عليه السلام إلى اليوم، وهم يحملون لواء الإمامة الدينية لأهل البيت عليهم السلام.

نعم، قد بقيت الإمامة الدينية عند أهل الشام مستمرة بعد يزيد في بني مروان، ولكنها انكسرت في بقية الأقطار الإسلامية وخصوصاً في العراق.

إذاً، نهضة الحسين عليه السلام تستهدف إحياء سنة النبي صلى الله عليه وآله والإمامة الإلهية، وتحرير مشروع علي عليه السلام؛ من أجل أن ينطلق من جديد في الأمة.

فالمشكلة بعد النبي صلى الله عليه وآله لم تكن في التوحيد ولا في الشرك، بل الكلام في الإمامة. فمكة القريشية منذ الخلافة الأولى إلى اليوم تعادي إمامة أهل البيت عليهم السلام، وفي آخر الزمان من المفردات الأساسية التي ستكون على وجه الأرض في مكة وفي العراق وفي الشام هو عودة العباسيين والأمويين، فالمعركة ستكون معركة مع من يمثل هذه الحكومات التي تبنت تحريف دين محمد صلى الله عليه وآله، والمهدي عليه السلام هو الذي يمثل آباءه في حمل قضية الإمامة.

طريقة الحسين عليه السلام لإحياء السنة في المجتمع الإسلامي

بعد العرض المتقدم يقع التساؤل التالي: ما هي الطريقة الحسينية لإحياء دين محمد صلى الله عليه وآله في المجتمع آنذاك؟ أي: ما الذي تحتاج إليه الأمة لترجع الهداية من جديد

إلى المجتمع؟

ما تحتاج إليه الأمة أمران:

الأول: أن يُفْضَح أمر الخلافة (الفضح الفكري)، وعرضها على كونها خلافة ضالّة باطلة، وأنّ هذه التشريعات هي بالأصل بدع، فإذا عرف المسلمون ذلك فُتِحَ الطريق من جديد.

الثاني: إزالة صفة القوّة، بمعنى أن تُزال الطغمة التي ترعى هذا الضلال بالقوّة، وإلا يبقى الخوف والخضوع حاضرًا في المجتمع، بعد أن استطاعت السلطة الأمويّة أن تُخضع المجتمع لأفكارها؛ إذ أماتوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا ذلك من صفات الخوارج، وغالوا في مسألة نشر أحاديث النبي ﷺ في قتال الخوارج، وزادوا عليها. وعليه؛ سوف تلاحق تهمة الخوارج أيّ نائرٍ وإن لم يكن من خطّ الخوارج^(١)، ولو تتبّعنا نصّ العهد الذي كُتِب في زمان عبد الملك، والذي ورّعه الوليد بن يزيد بن عبد الملك في مرحلة متأخّرة، عندما أراد أن يأخذ العهد لولده، نقرأ فيه أنّ من علامة تأييد الله للخلافة أن أنظروا الذين يخرجون عليها كيف صنع الله بهم! فهذا الإعلام مطروح من أيام معاوية ويزيد؛ إذ نرى قول ابن زياد للسيدة زينب ؓ: «كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟»^(٢)، فقالت ؓ: «ما رأيت إلاّ جميلاً»^(٣). فهم يستدلّون بهذا السبيل، فقطعوا الرؤوس ومارسوا مع أهل البيت ؓ ظواهر لا تُمارس حتّى مع أهل الشرك، معتبرين ذلك دليلاً تكوينياً بأنّ الله هو الذي أمر بذلك!

وعليه؛ فقد عمّ الخوف كلّ شخص حتّى على مستوى ابن الزبير الذي هو منافس لمعاوية، فقد كان يخشى ملاحقة الإعلام الأموي وإلصاقهم تهمة الخارجي

(١) إنّ التهمة بـ(الخارجي) تعني: سلب الدين عنه، باعتباره مارقاً، فأبى أذى يلحق به يكون من استحقاقه.

(٢) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج ٥، ص ١٢٢.

(٣) المصدر السابق.

عليه، فكان المجتمع ينتظر شخصاً آخر لا يمكن أن يُصَبَّغَ بصبغة الخوارج، وما هو إلا الحسين عليه السلام.

فالحسين عليه السلام أمامه واقع مرير، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يُعمل بهما، وشبهة الخوارج سوف تلحق بأيّ شخص يقاوم السلطة، وعليه لا بدّ أن يفتح ذلك بالجهاد من أجل الإطاحة بهذه الطغمة وإن لم يُقم هنالك دولة؛ إذ كان يهدف بالدرجة الأولى إلى تحريك المجتمع في قبال الحكم الأموي، منطلقاً من عقيدة ترى أنّ الدين يدعو إلى الإطاحة ببني أمية وعدم التزام طاعتهم. هذا هدفٌ مهمٌ سعى إليه الحسين عليه السلام بعد أن رأى المجتمع المتدينّين على صنفين: مجتمع جديد يرى في طاعة بني أمية ديناً، ومجتمع قديم يعرف الحق لكن لا يستطيع أن ينهض به خوفاً من الشبهة.

رأي وتقد

هناك نظرية مطروحة للشهيد الصدر عليه السلام تقول: إنّ نهضة الحسين عليه السلام استهدفت تحرير الإرادة؛ لأنّ الحقّ لما اتّضح كانت الإرادة ضعيفة وغير قادرة على الحركة. وفي مقام التحليل والنقد؛ نقول: إنّ الصحيح هو القول: بأنّ الأمة تحتاج إلى إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنّ الإعلام الأموي طوّق أيّ حركة لذلك بشبهة (الخارجي)؛ ولذا فقد فتح الإمام عليه السلام حركة الجهاد الداخلي بطريقة أخرى تختلف عن طريقة الخوارج؛ لأنّ الخوارج يكفرون كلّ الناس الذين يطيعون السلطة، وهو مفسدة في المجتمع، بينما حركة الحسين عليه السلام حركة سلمية في التعامل مع العدو، وإلا كيف نبرّر أنّ الحسين عليه السلام يكفّ عن قتال الحرّ، بينما بعض أصحابه طلبوا قتاله، فجاءهم الجواب من الحسين عليه السلام: «ما كنت لأبدأهم بالقتال»^(١)، ففرق كبير بين المنهجين.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٨٠.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

* الكتاب المقدس، الكنيسة، الناشر: دار الكتاب المقدس، ١٩٨٠م.

١ - أحكام القرآن، أحمد بن علي الجصاص (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢ - الإرشاد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لتحقيق التراث، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣ - بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، تحقيق: محمد الباقر البهودي، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٤ - تاريخ يعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب يعقوبي (ت ٢٨٤هـ)، دار صادر، بيروت - لبنان.

٥ - تاريخ مدينة دمشق، علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ.

٦ - خطب نهج البلاغة، تحقيق وشرح: الشيخ محمد عبده (ت ١٩٠٥م)، دار الذخائر، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠ش.

٧ - شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٨ - صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة إستانبول، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

- ٩ - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، دار الفكر، بيروت - لبنان، طبعة مصحّحة ومقابلة على عدّة مخطوطات ونسخ معتمدة.
- ١٠ - العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسّسة دار الهجرة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.
- ١١ - عيون أخبار الرضا عليه السلام، محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تحقيق وتصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- ١٢ - الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٤١١هـ.
- ١٣ - مسند أحمد، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت - لبنان.
- ١٤ - المصاحف، عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٣١٦هـ)، دراسة وتحقيق ونقد: الدكتور محب الدين عبد السبحان، دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- ١٥ - معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

قراءة في كتاب: (الحسين عليه السلام وبطلة كربلاء) للشيخ محمد جواد مغنية

م. م. هبة الأسدي*

المقدمة

مما لا يخفى أن المؤلفات والدراسات التي كُتبت في الإمام الحسين عليه السلام وثورته المباركة هي كثيرة ومتنوعة؛ لما لهذا الجانب من أهمية بالغة في بيان حقيقة الثورة، وما كان قبلها وبعدها من أحداث ومؤثرات، ولكن هناك جانباً مهماً آخر غير التأليف، ألا وهو البحث والتحقيق والدراسة في ذات الكتب والمؤلفات نفسها؛ لبيان المنهجيات والأهداف التي كُتبت من أجلها، سواء الدراسات والقراءات التحليلية، أو الدراسات النقدية، أو الوصفية لمنهجيات تلك الكتب والمؤلفات، ومن هنا جاءت أهمية مثل هذا النوع من الدراسات للتراث الحسيني، وما سألته في قراءتي هذه ما هو إلا مثال لذلك.

كتاب (الحسين وبطلة كربلاء) يعدّ أحد تلك الكتب الحسينية، لمؤلفه محمد جواد مغنية، وهو أحد أشهر العلماء والمفكرين في القرن الماضي، ويعدّ الشيخ من الذين أبدعوا في شتى الميادين والمجالات الإسلامية والاجتماعية، فله كثير من المقالات والمنشورات؛ إذ كان كثير الذبّ عن مذهب التشيع بلسانه وقلمه ضدّ

* ماجستير في الشريعة والعلوم الإسلامية، كلية الفقه/ جامعة الكوفة، وعضو في القسم النسوي في مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية في النجف الأشرف.

التجني والافتراءات^(١)، ويذكر في مقدمته لهذا الكتاب أهمية اختياره له والهدف من تأليفه، بما نصّه: «وأيّ شيء أفضل من الحديث عن العترة الطاهرة ومناقبتهم؟! وأي علم أجدى وأنفع من علومهم ومواعظهم؟! إنها تذكّر الله، وتبعث على طاعته، والبعد عن معصيته، إنها كالغيث تُحيي النفوس بعد موتها، وتجعلها مع الخالدين والأنبياء والصالحين، وبمقدار ما يبلغ الإنسان من علوم أهل البيت يبلغ حدّه من العظمة والخلود»^(٢).

المبحث الأول: المؤلف ومكانته العلمية

ولادته

ولد الشيخ مغنية عام (١٩٠٤م) في قرية (طير دبا) في قضاء صور ببلبنان، واختار له أبوه اسم محمد جواد، وكان محمد جواد واحداً ممن حرمتهم يد المنون حنان أمّه العلوية، وهو دون سنّ الرابعة من عمره، فأضحى والده العالم سنده وأمله في الحياة، وفي سنّ العاشرة فجعه الدهر للمرّة الثانية برحيل ذلك الوالد^(٣).

نشأته العلمية

لم تكن المشاق والصعوبات التي واجهها محمد جواد عزمه الراسخ، وإرادته الصلبة، فبدأ مشواره في تحصيل العلم ببلبنان، حيث درس كتاب (الأجرومية)، وشرطاً من كتاب (قطر الندى)، ثم عزم على الرحيل إلى النجف الأشرف، ليستأنف مشواره في طلب العلم في جوار قبّة أمير المؤمنين عليه السلام ومولى المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام، وبعد دخوله العراق استقرّ الشيخ في النجف، واشتغل بتحصيل العلوم

(١) أنظر: الصفار، محمد طاهر، (محمد جواد مغنية.. الكفاح في رحلة العلم والعطاء) على الموقع:

<https://imamhussain.org/literature/26948>

(٢) مغنية، الحسين عليه السلام وبطلة كربلاء: ص ١٦.

(٣) أنظر: أحمدى، مهدي، الشيخ محمد جواد مغنية فقيه مجتهد: ص ١٤-١٥.

الدينية في حوزة النجف العريقة بتراثها الديني والعلمي، فاشتغل بدراسة الصرف والنحو والمنطق وغيرها من الدروس، وأتمّ دراسة كتاب (قطر الندى) على يد أخيه، كما أعاد دراسة كتاب (الأجرومية) للمرة الثانية على يد السيّد محمد سعيد فضل الله، وفي هذا المضمار أفاد كثيراً من علماء جبل عامل المقيمين في النجف، وبعد إكماله المقدمات حضر عند كلّ من المراجع العظام: السيّد حسين الحماّمي، والسيّد الخوئي، وآية الله محمد حسين الكربلائي^(١).

بقي محمد جواد مدّة أحد عشر عاماً مكبّاً على طلب العلم، متحمّلاً جميع المشاق والصعوبات التي كان عموم طلاب العلم يواجهونها آنذاك، حتّى تنهى إليه خبر وفاة أخيه الأكبر الذي كان يؤدّي مهمّة الدعوة والإرشاد في قرية (معركة)، فاضطرّ إلى أن يغادر النجف باتجاه وطنه لبنان، وبعدها هاجر الشيخ إلى قرية (طير حرفا) في عام (١٣٥٨هـ) بعد مدّة قضاها في قرية (معركة) استمرّت قرابة ثلاث سنوات، وكان يقصد فيها منطقة تُدعى (وادي السروة) في جنوبي (طير حرفا)، فقد وجد مغنية في هذا المكان أفضل مكان للقراءة والتحقيق، ولذا أسماه (غرفة القراءة)، وفي هذا المقطع من عمره قرأ مغنية لـ(نيتشه) و(شوبنهاور) و(تولستوي) و(العقاد) و(طه حسين) و(توفيق الحكيم)، وإلى جانب مطالعته شرع في الكتابة والتأليف، فكتب خلال ارتياده هذا المكان عدّة كتب، هي: (الكमित ودعبل، الوضع الحاضر في جبل عامل، والتضحية)، قضى محمد جواد مغنيّة حوالي عشر سنوات من عمره في تلك المنطقة، حتّى رحل عنها إلى بيروت عام (١٣٦٧هـ)^(٢).

أساتذة الشيخ مغنية

من جملة أساتذة الشيخ محمد جواد مغنية الذين تتلمذ على أيديهم:

(١) أنظر: المصدر السابق: ص ٢٣-٢٧.

(٢) أنظر: المصدر السابق: ص ٢٧-٣٣.

- ١- الشيخ عبد الكريم مغنية.
- ٢- السيّد محمد سعيد فضل الله.
- ٣- السيّد أبو القاسم الموسوي الخوئي.
- ٤- الشيخ محمد حسين الكربلائي.
- ٥- السيّد حسين بن علي بن هاشم الحماي، المعروف بالسيّد حسين الحماي^(١).

مؤلفاته وآثاره

تميّز الشيخ مغنية كثيراً في مجال الكتابة والتأليف، ويرجع ذلك إلى مطالعته المعمّقة والواسعة، فقد كان دائم القراءة، يذكر ذلك في كتابه (تجارب الشيخ محمد جواد مغنية) بقلمه، حيث يقول: «قضيت في حياة التأليف والكتابة أمداً غير قصير، وتطوّر أسلوبِي، واتّسعت أفكارِي يوماً بعد يوم...»^(٢)، وكان يرى في المطالعة والكتابة شغله الأساسي، ومن المميزات البارزة التي اتّسمت بها كتبه أنّ الكثير منها جاءت في قطع جيبي، وبشكل موجز، وكان هدفه سهولة حملها في الجيب، وقراءتها في أيّ وقت^(٣). إنّ الكثير من تأليفات الشيخ مغنية تدور حول عقائد الشيعة، وحياة أهل البيت عليهم السلام، وتفسير القرآن، كما كان له مساهمة في إكمال موسوعة (دائرة المعارف) للبيستاني، والكثير من تأليفاته قد تمّت ترجمتها إلى اللغة الفارسية^(٤). وقد طبعت كتب الشيخ أيضاً في موسوعتين: (عقليات إسلامية)، و(فلسفات إسلامية)، وإلى جانب هذا التراث من الكتب كانت له مقالات عديدة في قضايا شتى، نُشرت في الصحف والمجالات^(٥).

(١) المصدر السابق: ص ٣٣-٣٤.

(٢) مغنية، محمد جواد، تجارب الشيخ محمد جواد مغنية، (إعداد: عبد الحسين مغنية): ص ١٤٦.

(٣) أنظر: أحمدي، مهدي، محمد جواد مغنية فقيه مجدد: ص ٨٥.

(٤) أنظر: المصدر السابق: ص ٨٥-٨٦.

(٥) أنظر: المصدر السابق: ص ٨٦-١٠٩.

وبلغت مؤلفاته حوالي سبعة وخمسين مؤلفاً، كان من أبرزها:

- ١- الإسلام مع الحياة.
- ٢- الشيعة والحاكمون.
- ٣- بين الله والإنسان.
- ٤- إمامة علي والعقل.
- ٥- الإمام الحسين عليه السلام والقرآن.
- ٦- مع بطة كربلاء.
- ٧- المجالس الحسينية.
- ٨- عليّ والقرآن.
- ٩- معالم الفلسفة الإسلامية.
- ١٠- إسرائيليات.

وفاته ومدفنه

بعد عمر قضاه الشيخ مغنية في سبيل إعلاء كلمة الإسلام العزيز، وجهود خيرة في سبيل التقريب بين المذاهب الإسلامية، وفي الساعة العاشرة من ليلة التاسع عشر من محرّم الحرام لعام (١٤٠٠هـ)، وعن عمر ناهز السادسة والسبعين، انتقلت روح هذا الرجل العظيم إلى الرفيق الأعلى إثر مرض قلبي لازمه عامين، ثم نُقل جثمانه الطاهر إلى مدينة النجف الأشرف، فُشِّع تشييعاً يليق بمقامه، وقد صلّى على جنازته السيّد أبو القاسم الموسوي الخوئي رحمته الله، ثم دُفن في إحدى حجرات الحرم العلوي المطهر، وأعلن ذلك اليوم يوم عطلة رسمية لمدينة النجف وحوزتها وأسواقها، وقد خلّف الشيخ ولداً واحداً اسمه (عبد الحسين)^(١).

(١) أنظر: المصدر السابق: ص ١٥١-١٥٣.

المبحث الثاني: الخصائص العلمية والفنية للكتاب

تسمية الكتاب

بعد ما صدر للمؤلف الشيخ مغنية كتاب (المجالس الحسينية) الذي تصدّى فيه لبيان الأسباب والعوامل التي ساهمت في تكوين حادثة عاشوراء، وفلسفة البكاء، وعقائد الشيعة في خصوص عاشوراء والإمام الحسين عليه السلام، وقد طُبِعَ هذا الكتاب تحت عنوان (التضحية) أيضاً، وقام الأستاذ فيروز حريجي بترجمته إلى الفارسية تحت عنوان: (شيعة وعاشوراء)؛ صدر بعد ذلك للمؤلف كتابه الآخر بعنوان: (مع بطله كربلاء)، وإلى جانب صدور هذا الكتاب الأخير بصورة مستقلة صدر مع كتاب (التضحية) أو (المجالس الحسينية) في مجلد واحد تحت عنوان: (الحسين وبطله كربلاء)، فصار في كتاب واحد قد اشتمل على ثلاثة أقسام رئيسية، كلّ قسم منها عبارة عن كتاب مستقل.

أبرز مميّزات الكتاب ونواقصه

- ١- غياب منهج التسلسل العلمي لمحتوى الكتاب من حيث تقسيمه إلى فصول ومباحث ومطالب؛ وذلك يرجع إلى أنّ هذا الكتاب مؤلّف من ثلاثة أقسام، كلّ قسم منها عبارة عن كتاب كامل، وكما ذكرت فقد تمّ دمج هذه الكتب الثلاثة في كتاب واحد؛ ممّا أفقده التقسيم العلمي لمحتواه.
- ٢- تعامل الشيخ مغنية مع الشبهات والموضوعات الهامة التي طرحها في كتابه بشكل موضوعي ودقيق، بعيداً عن التطرّف والتعصّب، وقد كانت أغلب هذه الموضوعات المطروحة تخصّ المذهب الإمامي بشكل عام، والقضية الحسينية على وجه الخصوص.
- ٣- بروز الطابع التوثيقي للمصادر والمراجع في كلّ مفاصل الكتاب، حيث

نجد أنه يرجع بالمعلومة إلى مصادرها الأولى وبدقة متناهية، حيث كثرت الحواشي والإرجاعات في كتابه إلى مختلف المصادر الأولى، سواء العقائدية منها، أو الفقهية، أو التاريخية، أو الرجالية، أو الأخلاقية، وغيرها من المصنّفات.

المبحث الثالث: منهجية المؤلف في الكتاب

اشتمل كتاب الشيخ مغنية على ثلاثة أقسام رئيسة، وكلّ قسم منها كان عبارة عن كتاب مستقل، كما بيّنا ذلك في موضوع تسمية الكتاب، وهذه الأقسام كالتالي:

القسم الأول: المجالس الحسينية

إنّ كتابه هذا «المجالس الحسينية» هو من نوع جديد بين الكتب الخاصّة بهذا الموضوع، فهو يجيب بأجوبة واضحة ومقنعة عن كلّ ما يجول بأذهان الشباب وغير الشباب، ويتساءلون عنه حول إقامة الشيعة عزاء الإمام الحسين عليه السلام طوال أيام السنة، وحول البكاء، وصحبة سيّد الشهداء عليه السلام النساء والأطفال إلى موقع المعركة، وما إلى ذلك من التساؤلات التي يمكن أن تخطر وتمر بالبال.

وأيضاً في كلّ مجلس من مجالس الكتاب ثورة عاصفة على الظلم وأعداء الحرّية، ومن أجل هذا وغيره أقبل على قراءة الكتاب الشباب المتعلّم، ولم يجد فيه المتحذلق منفذاً للظلم والغمز، ونفدت جميع نسخ الطبعة الأولى بوقت قصير، ثمّ نسخ الطبعة الثانية، وما زال الطلب قائماً وملحاً^(١).

موضوعات الكتاب

تناول الكتاب موضوعات عدّة، منها:

١- الشيعة ويوم عاشوراء

أجاب في هذا الموضوع عن التساؤل الموجّه للشيعة الإمامية حول إحيائهم

(١) مغنية، محمد جواد، المجالس الحسينية: ص ٥.

لذكرى عاشوراء، واهتمامهم البالغ بهذه المناسبة، ونص ذلك كالتالي: «لماذا يهتَم الشيعة هذا الاهتمام البالغ بذكرى الحسين، ويُعلنون الحداد عليه، ويُقيمون له عشرة أيام متوالية من كل عام؟ هل الحسين أعظم وأكرم على الله من جدّه محمّد وأبيه علي؟!»^(١).
وقد أجاب الشيخ مغنية عن هذا التساؤل بكلّ موضوعية وشفافية، مستنداً إلى مصادر أولية كثيرة، سواء منها ما كان تابعاً للمذهب الإمامي أم للمذاهب الأخرى، وكان ممّا ذكر في: «الجواب: أنّ الشيعة لا يفضّلون أحداً على الرسول الأعظم ﷺ، إنّهُ أشرف الخلق دون استثناء، ويفضّلون عليّاً على الناس باستثناء الرسول... إنّ الشيعة الإمامية يعتقدون أنّ محمّداً لا يوازيه عند الله ملك مقرب، ولا نبيّ مرسل، وأنّ عليّاً خليفته من بعده، وخير أهله وصحبه، وإقامة عزاء الحسين مظهر لهذه العقيدة، وعملٌ مجسّم لها...»^(٢).

٢- مودّة أهل البيت ﷺ

تطرّق المؤلّف هنا إلى الرأي القائل: «ولقد تقوّلت فئة من الناس الأفاويل في عقيدة التشيع، وافتروا عليهم بما يغضب الله والرسول، ولكنّ للشيعة تاريخاً طويلاً وحافلاً بالحوادث والثورات، والعلوم والآداب، وكلّها تُنبئ عن حقيقة التشيع، فيستطيع طالب الحقّ أن يعرفه بنظرة واحدة إلى آثار علمائهم أو أدبائهم...»^(٣).

فكان من جوابه وتوضيحه لذلك قوله: «فعقيدة التشيع إذن ترتكز على أمرين: حسن الاعتقاد، وصفو الودّ لأهل البيت، وحسن الاعتقاد هو الإيمان بالله وكتابه، وبالنبيّ وسنته، وقد أوجب القرآن والحديث مودّة أهل البيت، وإنّ إنكار مودّتهم وولائهم إنكار كتاب الله وسنة الرسول.

ولسائل أن يسأل: هل من دليل يلزم الناس بمودّتهم غير شهادة كتاب الله والحديث؟

(١) مغنية، محمد جواد، الحسين ﷺ وبطلة كربلاء: ص ١٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١٩-٢٠.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٧.

هل من سبيل يقنع من لا يؤمن بالله ولا بالرسول، يقنعه بدليل معقول مقبول أن مودة أهل البيت يفرضها الوجدان... أجل، إن من يوالي الحق والعدل يوالي أهل البيت، ومن يعادي الحق يعادي أهل البيت؛ لأن أهل البيت هم الحق، والحق هو أهل البيت...»^(١).

٣. رضا الله رضانا أهل البيت

ذكر المؤلف هنا مقاطع من كلام سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام من دعائه يوم عرفة؛ لبيان كيفية معرفة أهل البيت بالله سبحانه، وكيف أتهم عليه السلام «عرفوه حتى كأنهم يرونه وجهاً لوجه، وحتى كأنهم يسمعون أوامره ونواهيته رأساً وبلا واسطة، ولقد فتح الله لهم أبواب العلوم بربوبيته وعظمته... وشرّفهم بالفضائل على جميع خلقه»^(٢)، ويبيّن أيضاً أنه «لا يُقاس المؤمن المخلص بالاعتقادات والعبادات، وإنما يقاس إيمانه وإخلاصه بالتسليم لأمر الله»^(٣)، وذكر أمثلة لذلك، كجزاء ابن زياد لابن سعد قاتل الحسين عليه السلام طمعاً في ملك الري، فحرمه من الملك، ثم سلّط الله عليه المختار، فذبحه على فراشه، ومثال أصحاب الحسين عليه السلام الذين لبّوا نداءه، ورحلوا معه، وبذلوا مهجهم دونه؛ طلباً لمرضاة الله تعالى^(٤).

٤. روح النبيّ والوصي

تطرق الشيخ مغنية إلى روايات ومشاهد لمن حضروا واقعة الطف، حول شجاعة الإمام الحسين عليه السلام، ومضي عزمه، وصبره، وإيمانه، وغير ذلك من مشاهد تعجّب الرواة منها، قائلاً: «هنا تبرز خصائص الإمامة والعصمة، ونجد السرّ الذي

(١) المصدر السابق: ص ٢٧-٢٨. ومن الملاحظ عند متابعة المصادر التي اعتمدها المؤلف في المقام، وبعد مراجعة جملة منها تتضح دقته العالية في النقل؛ مما ينبع عن تثبته وأمانته العلمية.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٣.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٤.

(٤) أنظر: المصدر السابق: ص ٤٥. من جملة المصادر المعتمدة من قبل المؤلف: تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٤٤٣، ومقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي: ج ٢، ص ٢٤. وبعد مراجعة هذه المصادر تبين أنّ المؤلف قد اعتمد على نسخ غير ما بأيدينا، بسبب اختلاف الطبعات لهذه المصادر وتعددتها.

يُميّز أهل البيت عن غيرهم من النَّاس الذين يصعب عليهم كلُّ شيء إلا معصية الله، فإنَّها أهون عندهم من التنفس وشرب الماء، إنَّ الحسين بشر يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ولكنَّه يحمل صفة تجعله فوق النَّاس أجمعين»^(١).

ثمَّ يتساءل قائلاً: «هنا يقف العقل حائراً ومتسائلاً: هل في الكون أعظم وأكبر منزلة عند الله من الحسين؟ هل ضحَّى أحد في سبيل الله والحقِّ كما ضحَّى الحسين؟ وهل وجد من هو في عمقه ورحابته؟! ولو ابتلي أحد بما ابتلي به الحسين لوجدنا وجهاً للموازنة والمقاربة... أمَّا كلُّ هذه مجتمعة فلم تكن لأحد غير الحسين، ولن تكون أبداً! وبالتالي، فإننا نتساءل: هل في الكون أعظم من الحسين؟ ونحن نؤمن بأنَّه الصورة الكاملة لعظمة جدِّه محمَّد، وأبيه علي»^(٢).

٥- خروج الإمام عليٍّ بأهله

ذكر الشيخ مغنية تحت هذا العنوان دور المرأة في واقعة الطف، و«ما كان لها من أبعد الأثر في الكشف عن مخازي الأمويين، وانهيار حكمهم... فمن النساء من دفعت بابنها أو زوجها إلى القتال بين يدي الحسين؛ تقرباً إلى الله والرسول ﷺ... ومنهنَّ من تظاهرن ضدَّ حكام الجور الذين قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ... وبذلك نجد الجواب عن السؤال: لماذا صحب الحسين معه النساء والأطفال إلى كربلاء؟! وما كان أغناه عن تعرّضهم للسبي والتنكيل؟!... لقد رأى الناس في السبايا من الفجاعة أكثر مما رأوا في قتل الحسين، وهذا بعينه ما أراده الحسين من الخروج بالنساء والصبيان، ولو لم يخرج بهنَّ لما حصل السبي والتنكيل، وبالتالي لم يتحقَّق الهدف الذي آراه»^(٣) الحسين من نهضته،

(١) المصدر السابق: ص ٤٨. استدلل هنا المؤلِّف بما ذكره العقاد في كتابه (أبو الشهداء) من بيان لذكر فضائل الإمام الحسين عليٍّ.

(٢) المصدر السابق: ص ٥١.

(٣) هكذا وردت هذه الكلمة في المصدر المنقول عنه، ولعل تصحيحاً وقع فيها، وأنَّ الأصل فيها هو: أراد.

وهو انهيار دولة الظلم والطغيان... هذه هي المصلحة في خروج الحسين بنسائه وأطفاله إلى كربلاء، وما كان لأحد أن يدركها في بدء الأمر إلا الحسين وأخته زينب، عهداً إلى الحسين من أبيه علي، عن جدّه محمّد، عن جبريل، عن ربّ العالمين، سرّاً لا يعلمه إلا الله، ومن ارتضاه لعلمه ورسالته»^(١).

٦- يوم الطفّ يوم الفصل

بيّن الشيخ مغنية هنا أنّ يوم الطفّ يشبه يوم القيامة من جهات: منها: ما ذكر في القرآن الكريم من أنّه «وعدّ الشيطان أتباعه بالفوز والنجاة، وحذّرهم الله منه، فعصوا الرّحمن، واتبعوا الشيطان، ولما جاء يوم الفصل أنكرهم، وتبرأ منهم... ووعد عبيد الله بن زياد عمر بن سعد ولاية الريّ إذا قاتل الحسين، وكان يتطلّع إليها، ويطمع فيها، فقبل وقاد الجيوش، وحذّره سيّد الشهداء من العاقبة... وأخلف ابن زياد بوعدة لابن سعد، كما أخلف الشيطان مع أتباعه، وصدق الحسين، فلم تمض الأيّام حتّى قُتل عمر وابنه حفص على يد المختار...»^(٢).

ومن تلك الجهات قوله تعالى: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْبَعْثِ لَارِيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(٣)، وانقسم الناس في كربلاء فريقين: فريقاً مع الحسين، وفريقاً مع ابن سعد، وبرز كلّ إنسان على حقيقته، وأخذ المكان الذي يستحقّه، فلم يختلط الطالح مع الصالحين، ولا الصالح مع المجرمين، تماماً كما هو الشأن في يوم القيامة، حيث لا رياء ولا نفاق ومساومات... ومن تتبّع سيرة أصحاب الحسين لا يجد لإخلاصهم وعزمهم نظيراً بين الشهداء، وأتباع الأنبياء، كما لا يجد شبيهاً لتضحيات الحسين في التأريخ كلّه»^(٤).

(١) مغنية، الحسين عليه السلام وبطلة كربلاء: ص ٥٣-٥٦. اعتمد المؤلف على مصادر عدّة، منها: تاريخ الطبري: ج ٥، ومقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي: ج ٢.

(٢) المصدر السابق: ص ١٠٩-١١٠.

(٣) الشورى: آية ٧.

(٤) مغنية، الحسين عليه السلام وبطلة كربلاء: ص ١١١-١١٢. واعتمد المؤلف هنا على مصادر، منها: مناقب

آل أبي طالب: ج ٣، وتاريخ الطبري: ج ٥، وتاريخ ابن الأثير: ج ٣.

٧. بدرٌ والطف

ذكر المؤلّف هنا وجه الشبه بين معركة بدر ومعركة الطف، فيبين أنّه «كان أصحاب الرسول ﷺ في بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وكان المشركون ألف رجل، وكان أصحاب الحسين ﷺ في كربلاء ثلاثة وسبعين، وجيش العدو ثلاثين ألفاً أو يزيدون، وقال النبي ﷺ لقريش يوم بدر: خلّوني والعرب، فإنّ أك صادقاً كتتم أعلى بي عيناً، وإنّ أك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمري، فارجعوا. فأبوا عليه إلا القتال، وقال الحسين ﷺ لجيش ابن زياد: كتبتم إليّ أن قد أينعت الثمار واخضرّ الجناب، وإنّما تقدم على جنود مجنّدة، فأقبل. فإنّ كتتم كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض. فأبوا عليه كما أبى المشركون على جدّه من قبل... وكان أصحاب الرسول يوم بدر يتسابقون إلى الموت؛ ليصلوا إلى أماكنهم في الجنة... وهكذا كان الرجل من أصحاب الحسين يستقبل الرماح والسيوف بصدّره ووجهه؛ ليصل إلى مكانه في الجنة... وانتشر الإسلام بعد غزوة بدر، وتحرّر الضعفاء من سيطرة الأقوياء، وولد بكريلاء مبدأً جديد، هو الإيمان بأنّ الموت في سبيل الحقّ خير من الحياة مع المبطلين، وقضى هذا المبدأ على الأمويين وسلطانهم الجائر»^(١).

٨. السيّدة زينب رمزٌ لشيء عميق الدلالة

ذكر المؤلّف هنا موضوع احتفال أهل مصر بمولد السيّدة زينب ﷺ، وكيف يحتشد الناس من الرجال والنساء، ورغم صعوبة الطقس والبرد الشديد فلا يمنعهم ذلك من الحضور والاحتفال بمولد السيّدة ﷺ، ومّا ذكر في ذلك: «يحتفل المصريون في كلّ عام بمولد السيّدة زينب، وتجتمع الحشود لهذه الغاية في مسجدتها بالألوف. وكتب محرّر مجلّة (الغد) مقالاً خاصّاً بهذه المناسبة عن السيّدة، قال: طوال ثلاثة أسابيع

(١) المصدر السابق: ص ١٢٣-١٢٧. اعتمد المؤلّف هنا على مصادر تاريخية كثيرة، منها: تاريخ ابن الأثير: ج ٢، تاريخ الطبري: ج ٤، السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢، تاريخ يعقوبي: ج ٢.

في الشهر الماضي، وكانت حشود من الرجال والنساء والأطفال تتجه إلى حيّ السيّدة، وتطلّ تلك الحشود الكبيرة ساهرة رغم البرد الشديد حتّى الفجر، وسط الأنوار الزاهية، ألوف من الناس تستمتع فعلاً بالمولد الكبير لبطلة كربلاء... زينب أخت شهيد الإسلام الخالد الحسين بن علي^(١)... ومرة أخرى نقول مع محرّر المجلّة: إنّ السيّدة زينب رمزٌ لشيء عميق الدلالة، إنّها لكلمة بالغة، ما أنطق بها الكاتب إلّا الحقّ، وإلاّ عظمة السيّدة، إنّها لكلمة تحمل من المعاني ما تضيق عنها المجلّدات، وكلّ مآثر أهل البيت الطاهر لا تتسع لها الكتب والأسفار^(٢).

القسم الثاني: مع بطلة كربلاء

يذكر الشيخ مغنية سبب تأليفه لكتاب (مع بطلة كربلاء) بما نصه: «فقد رغبت إليّ إحدى دور النشر والتوزيع أن أضع لها كتاباً في السيّدة زينب بنت أمير المؤمنين عليها وعلى آبائها أفضل الصلاة والسلام)، فقلت لصاحب الدار: إنّ الذين ألفوا في هذا الموضوع لم يقصّروا، ولم يتجافوا عن الغاية المنشودة من التأليف، بل بعض هؤلاء قد اجتذب إليه القراء، واستقبلوا كتابه أحسن استقبال، فقال: إنّك كتبت في فضائل أبيها أمير المؤمنين، مع أنّ غيرك كتب، واجتذب إليه القراء، فتوكّلت على الله عزّ وجلّ، وكتبت هذه الصفحات، وحاولت - ما أستطيع - أن أضيف إلى ما كتبوا أشياء لها أهمّيّتها، على أن لا أضايق القارئ بذكر مطوّلات منقولة من هنا وهناك، وإذا كتب البعض تملّقا للجمهور، أو رغبة في شيء يطلبه، فإنّ هديّ الأوّل والأخير أن أوحى إلى القارئ الشعور بعظمة السيّدة وآل بيت الرّسول صلّى الله عليه وآله...»

هذا مع العلم بأنّ كلّ من كتب في فضائل أهل البيت ومناقبهم - منذ البداية حتّى

(١) مجلّة الغد، العدد ٢، فبراير ١٩٥٩م: ص ٩، تحت عنوان: (مولد السيّدة وأعيان الأئمة العربية)، وقد تمّت مراجعة المصدر، ووجدنا أنّ المؤلّف قد نقل النصّ دون أي اختلاف عن الأصل.

(٢) مغنية، الحسين عليه السلام وبطلة كربلاء: ص ١٧٧-١٩٠.

اليوم - لم يتجاوز المرحلة الأولى، ولن يتجاوزها مهما أطب وأطال، ولا أعرف أحداً عرض هذا الموضوع عرضاً وافياً، حتى العلامة المجلسي في بحاره وأنواره، والسرّ هو طبيعة الموضوع، فإنه أسمى وأعظم من أن تصل العقول إلى كنهه وحقيقته، وقد سبق أن كُتبت خمسة كتب في أهل البيت وفضائلهم ما عدا هذا الكتاب، وهي في مجموعها تعبر عن عظمتهم تعبيراً جزئياً، أو قل: إنها ليست تصويراً لتلك العظمة، وإنما هي مجرد إقرار واعتراف بمنزلتهم ومكانتهم، وكذلك هذه الصفحات، إن هي إلا إقرار واعتراف بعظمة بنت الوحي والنبوة^(١).

وقد طرح في هذا الكتاب أو الجزء الموضوعات التالية:

١- نسب السيّدة زينب عليها السلام

ذكر الشيخ مغنية هنا نسب السيّدة زينب عليها السلام، فذكر اسم الأب والأجداد والأمّ والإخوة والأخوات والأعمام، ثم تطرّق لذكر نسب أبيها علي عليه السلام بشيء من التفصيل، حيث ذكر قضية إسلام أبي طالب، فأجاب عن مواضع الخلاف بين الطائفتين فيما يخصّ إسلام أبي طالب، ثم عرّج على ذكر نسب السيّدة فاطمة بنت أسد، ثم ذكر موضوع الانتساب إلى النبي صلى الله عليه وآله، وشرف ذلك الانتساب إلى أن ختم بقوله: «وبالتالي؛ فإنّ الانتساب إلى النبيّ بالاسم واللفظ يصحّ لمجرّد الولادة، أمّا الانتساب إليه بالروح، فيبحث - أولاً وقبل كلّ شيء - عن دلائله في النوايا والأعمال التي ترضي الله سبحانه، لا في سلسلة الآباء والأجداد»^(٢).

ثم ذكر حياة السيّدة زينب عليها السلام في بيت أمّها فاطمة عليها السلام، ثم خصّ جعفرّاً الطيّار بموضوع تطرّق فيه لبيت أبي طالب وإسلامه، وأخلاقه، ومنزلته عند الله ورسوله صلى الله عليه وآله، ثم تطرّق لموضوع الهجرة إلى الحبشة، واستشهاده، ثم انتقل إلى بيان شيء من حياة عبد الله بن جعفر^(٣).

(١) المصدر السابق: ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٨٤.

(٣) أنظر: المصدر السابق: ص ٢٨٤-٣٠٧. اعتمد الشيخ مغنية في هذا الموضوع على مصادر عدّة،

٢- زواج السيِّدة زينب ؑ

تطرق الشيخ مغنية لموضوع زواج السيِّدة الحوراء ؑ، وقد شبه قضية زواجها بزواج أمها الزهراء ؑ حيث قال: «حين بلغت الزهراء مبلغ الزواج كثر طلباها، فرفضهم النبيّ جميعاً؛ لعدم الكفاءة، وزوجها عليّاً؛ لأنّها منه، وهو منها، وهما من النبيّ في الصميم، ونفس الشيء حصل لابنتها الحوراء، طلبها كثيرون، فردّهم الإمام، وزوجها ابن أخيه عبد الله، ومن أوّلَى بها منه، وهو ابن عمّها للأب والأم، وسبق أبوه جعفر الطيّار إلى الإسلام، وهاجر وجاهد واستشهد في سبيله»^(١).

ثمّ ذكر المؤلّف موضوعات متعلّقة بهذا الجانب، منها شرف المصاهرة، حيث يقول: «وإذا لم يكن النبيّ جدّاً لأولاد جعفر، فإنّه لهم بمنزلة الأب والجد، وهو وليهم في الدنيا والآخرة، ولا شيء أحبّ إلى الجدّ من اقتران أحفاده بعضهم ببعض، لأنّ في ذلك تأكيداً لنسله، وامتداداً لنوع من وجوده»^(٢).

ثمّ عرّج المؤلّف على ذكر حياتها الزوجيّة ببعض التفاصيل، وذكر أولادها وعددهم واستشهادهم^(٣)، وأجاب أيضاً عن عدّة تساؤلات فيما يخصّ زوجها عبد الله، وعدم خروجه لكربلاء، حيث قال في ذلك: «والذي نعتقه أنّ عبد الله بن جعفر كان مطيعاً للإمامين الحسن والحسين بعد عمّه، وأنّه لم يخالف لها أمراً... ولكن الحسين ؑ لم يلزمه بالخروج، ولم يوجب عليه ذلك، بل ترك له الخيار... ولو أنّ الحسين أوجب عليه الخروج لأسرع إلى الإجابة...»^(٤).

منها: أنساب الأشراف، تاريخ اليعقوبي، سيرة ابن إسحاق، وقد تمّت مراجعتها، وقد لوحظ أنّ هناك اختلاف في طبعات المصادر المعتمدة من قبله.

(١) المصدر السابق: ص ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٠٩-٣١٠.

(٣) اعتمد المؤلّف في هذا الموضوع على عدّة مصادر، منها: زينب الكبرى للنقدي، ناسخ التواريخ لمحمّد تقي سبهر، شرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي.

(٤) مغنية، الحسين ؑ وبطلة كربلاء: ص ٣٠٩-٣١٥.

٣. المصائب والأحزان

ذكر المؤلف في هذا القسم المصائب التي جرت على السيِّدة الحوراء عليها السلام، وذكر أنّه «شاءت الأقدار أن تلقي بالسيِّدة الحوراء عليها السلام في أحضان المصائب والأحزان منذ الطفولة إلى آخر يوم في حياتها، فمن يقف على سيرتها يجد سلسلة من حلقات متّصلة من الآلام منذ البداية حتّى النهاية... شاهدت زينب وفاة جدّها الرسول، وما تركه من آثار، وشاهدت محنة أمّها الزهراء، وندبها لأبيها في بيت الأحزان... وشاهدت قتل أبيها أمير المؤمنين عليه السلام، وأثر الضربة في رأسه، وسريان السمّ في جسده الشريف... وشاهدت أباها الحسن أصفر اللون، يجود بنفسه، ويلفظ كبده قطعاً من أثر السم...»

أمّا ما شاهدته في كربلاء، وحين مسراها إلى الكوفة والشام مع العليل عليها السلام والنساء والأطفال، فيفوق الوصف، وقد وضعت فيه كتب مستقلّة، هكذا كانت حياة السيِّدة... حياة مشبعة بالأحزان، متخمة بالآلام، لا تجد منها مفرّاً ولا لها مخرجاً... وبعد، فإنّ الأحداث التي مرّت بالسيِّدة زينب لفتت إليها الأنظار، فتحدّث عنها المؤرّخون وأصحاب السير في موسوعاتهم، ومنهم من وضع في سيرتها كتباً مستقلّة، وأشاد الخطباء بفضلها وعظمتها من على المنابر، ونظم الشعراء القصائد في أحزانها وأشجانها وصبرها وثباتها^(١).

وتطرّق المؤلف - هنا أيضاً - إلى موضوعات أخرى، منها: نوايا يزيد، الحسين ومعاوية، فوران الحقد، الخروج بالنساء، في الكوفة والشام، الدعوة لأهل البيت، صور من كربلاء، ابتسام الحسين، المرتزة، لحظات في نور أم هاشم، شأن أهل البيت، أدب الشيعة^(٢).

(١) المصدر السابق: ص ٣٢١-٣٢٨، اعتمد المؤلف في هذا الموضوع على عدّة مصادر أولية، وقد تمّ الرجوع إليها، وهي كالتالي: مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٢٣٣، الخصال للشيخ الصدوق: ص ٣٧١، الاختصاص للشيخ المفيد: ص ١٧٠. ولم أجد المطابقة من حيث ذكر أرقام الأجزاء وأرقام الصفحات؛ ولعل ذلك لاختلاف النسخ وتعدّد الطباعات.

(٢) أنظر: المصدر السابق: ص ٣٢١-٣٨٩.

٤- قبر السيدة

تطرق الشيخ هنا إلى تاريخ وفاة السيدة زينب عليها السلام، ومكان قبرها، فقال: «انتقلت السيدة إلى جوار ربها في (١٥ رجب سنة ٦٥ هـ)، فعاشت بعد أخيها الحسين (٤ سنوات و٦ أشهر و٥ أيام)، وقيل: إنها أول من لحق به من أهل بيته عليهم السلام.

واختلفوا في قبرها على عدة أقوال، منها: إنها دفنت في مدينة جدها رسول الله صلى الله عليه وآله... القول الثاني: إنها دفنت في قرية بضواحي دمشق... القول الثالث: إنها دفنت في مصر^(١). ولم يرجح الشيخ مغنية أحد الآراء في مكان دفنها، واكتفى بالقول: «ويلاحظ أنّ علماءنا الذين عليهم الاعتماد، كالكليني والصدوق والمفيد والطوسي والحلي، لم يتعرضوا لمكان قبرها، حتى نرجح بقولهم - كلاً أو بعضاً - أحد الأقوال الثلاثة، فلم يبق إلا الشهرة بين الناس، ولكن الشهرة عند أهل الشام تعارضها الشهرة عند أهل مصر، وهكذا لا يمكن الجزم بشيء...»^(٢).

القسم الثالث: مقالات في أهل البيت عليهم السلام

في هذا القسم من الكتاب ذكر المؤلف عدداً من المقالات التي تخص أهل البيت عليهم السلام لعدة كتّاب ومفكرين، وأهم ما جاء في هذه المقالات من موضوعات ما يلي:

١- الحسين عليه السلام ومعنى الاستشهاد

ذكر الشيخ مغنية هذه المسرحية التي كتبت بقلم كمال النجمي، قائلاً: «في طباعة كويتية أنيقة، صدرت هذه المسرحية الشعرية، ذات الفصول الخمسة، والمناظر

(١) المصدر السابق: ٣٩٥-٣٩٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٩٧. اعتمد المؤلف هنا على مصادر أولية عدّة، وقد تمّت مراجعتها، فكان بعضها موافقاً لما بأيدينا من تلك المصادر، وذلك مثل: أنساب الأشراف: ج ٢، ص ١٨٩، والبعض الآخر لم يكن موافقاً لاختلاف النسخ والطبعات، ككتاب: الكامل في التاريخ: ج ٣، ص ٣٩٧، تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢١٣، وغيرهما تمّت مراجعته.

العشرين، طباعتها كويتية؛ لأن مؤلفها الشاعر المصري الشاب محمد العفيفي مقيم في الكويت... عنوان المسرحية الجديدة: (هكذا تكلم الحسين)... الحقيقة أن العفيفي كان يسعه أن يسمي مسرحيته: (هكذا فعل الحسين)، لولا أن الحسين حين قال فعل، فكلامه كان دعوة إلى عمل، وبداية عمل، ودفاعاً عن عمل، وفي النهاية مشى إلى الحرب ليصبح كلامه حياةً وموتاً، مقاومةً واستشهاداً!

أراد الشاعر أن يبين بالفعل أو بالدراما أن الكلمة حين تنبعث مخلصاً صادقة، لا تنطفئ في العواصف، بل تتضوأ عملاً ونجاحاً، أو تشتعل مقاومةً واستشهاداً، وإذا فاتها الصدق والإخلاص، فما أهدح الكارثة، وما أرخص الكلام!...

والإمام الحسين بن علي - بطل المسرحية - شخصية تاريخية لا يجهلها أحد، وما زال التأريخ مهجراً خصباً للشعر المسرحي في العالم كله قديماً وحديثاً... ومسرحية (هكذا تكلم الحسين) تعود بنا سياسياً وفكرياً إلى القرن الأول الهجري، ولكنها تقف على خشبة عصرنا بمضمون لم يستنفذ أغراضه، فضلاً عن أنها بغير هذا المضمون الإنساني الشامل قادرة على مخاطبة جمهور ديني خاص، هو جمهور الشيعة، ومأساة الحسين جرح في قلب هذا الجمهور لا يتدمل.

تدور المسرحية حول الصراع بين الإمام الحسين بن علي وبين الخليفة يزيد بن معاوية... كان الحسين مناضلاً بالقول والعمل على طريقة المسلمين الأولين... الحسين خرج يتكلم، ويرشد الناس، ويردع المفسدين ويجاهد... ثم مشى إلى الحرب، ليصبح كلامه حياةً وموتاً، مقاومةً واستشهاداً^(١).

٢- السيدة زينب عليها السلام

هذا المقال بهذا العنوان لكاتبه محمود يوسف كان خاصاً بالسيدة زينب عليها السلام، ذكر فيه مولدها وحياتها مع عائلتها المطهرة، وملخص ما جاء في هذا المقال: «السيدة

(١) المصدر السابق: ص ٤٠١-٤٠٤. ولم يشر المؤلف في ذكر هذه المسرحية إلى أي مصدر.

زينب (رضي الله عنها) من هذه الذرية الطاهرة الصالحة المؤمنة، أمها فاطمة الزهراء بنت الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وأبوها علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، ولدت في شعبان من السنة الخامسة للهجرة، فحملتها أمها وجاءت بها إلى أبيها، وقالت: سمّ هذه المولودة. فقال لها عليه السلام: ما كنت لأسبق رسول الله صلى الله عليه وآله. وكان في سفر له، ولما جاء النبي وسأله عن اسمها، قال: ما كنت لأسبق ربي. فهبط جبريل يقرأ على النبي السلام من الله الجليل، وقال له: اسم هذه المولودة زينب، فقد اختار الله لها هذا الاسم...

وللسيدة زينب في طفولتها مواقف تريح النفس، وتطمئن الحس، وتبشر بمستقبل لها عظيم... وقدّر للسيدة زينب أن تفقد جدّها صلى الله عليه وآله وهي في الخامسة من العمر، وفقدت أمها الزهراء بعد ذلك بشهور قلائل، فحزنت - وهي الصبية الصغيرة - عليها حزناً شديداً، وعندما بلغت سنّ الزواج طلبها شباب هاشم وقريش، واختار لها والدها عبد الله بن جعفر.

وكُتِبَ على السيدة زينب الجهاد مع الحسين عليه السلام، وتابعت قتلى بني هاشم... وتحركّ موكب الأسرى والسبايا من آل البيت النبوي الشريف... وذهبت السيدة زينب إلى المدينة، وكان وجودها فيها كافياً لأن تلهب المشاعر، وتؤلّب الناس على الطغاة، فأخرجت من المدينة بعد أن اختارت مصر داراً لإقامتها^(١).

٣. ثأر الله

ذكر الشيخ مغنية هذا المقال للكاتب أمير إسكندر، يتكلّم فيه عن خروج الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق، وسبب ذلك الخروج، وما واجهه من عذاب ومعاناة في تلك

(١) المصدر السابق: ص ٤٠٥-٤٠٩. وقد اعتمد المؤلف هنا على عدّة مصادر أولية فيما يخصّ تسميتها عليها السلام، وكلامها مع والدها علي عليه السلام، وكذلك كلامها في يوم عاشوراء، ومقاطع من خطبها عليها السلام. ومن المصادر التي أشار إليها المؤلف: مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢٦١، وبعد مراجعته وجدناه مطابقاً لما نقل، وبلاغات النساء: ص ٢٨، وبعد مراجعته أيضاً كان الاختلاف برقم الصفحة، ولعلّ ذلك لاختلاف الطبعات، وأيضاً ما نقله بخصوص كلامها يوم عاشوراء، وعند سقوط أخيها الحسين عليه السلام، فكان عن الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٣٦، وبعد مراجعته تبين أنّه في: ج ٣، ص ٤٣٤، وبالتأكيد هذا يعود لاختلاف الطبعة المعتمدة لديه عمّا في أيدينا.

الرحلة، وكيف آلت الأمور إلى مقتله عليه السلام، وملخص ما جاء في المقال: «منذ ثلاثة عشر قرناً خرج الحسين من أرض الحجاز متوجّهاً صوب العراق، مليئاً نداء أهلها؛ كي يُعلي كلمة الله الحقيقية، كلمة الحقّ والعدل والحرية... رحلة عذاب طويلة ومجيدة، ما كان يقوى عليها سوى أصحاب الرسالات وحدهم، ناضل فيها الحسين بالكلمة والسيف معاً... قُتل الحسين... ولكنه أسمى في عصره وفي كلّ العصور نداء يصرخ في المؤمنين والمناضلين، من البسطاء والفقراء...»

أيمكن أن نعتز في تراثنا على قصّة خروج الحسين واستشهاده، لنستلهم منها العبرة والمثل والقدرة على الفداء؟ هل يمكن للفنّان الذي يعيش بفكره ووجدانه هذه القصّة، أن يقاوم في نفسه الرغبة العميقة والمخلصة في تجسيد أحداثها بوسيلته الخاصّة، أيّاً كانت: شعراً، أو لوناً، أو نغمًا، أو حركةً، أو هذه كلّها معاً؟...

هكذا صنع شاعر كبير هو عبد الرحمن الشرقاوي، وهكذا صنع مخرج مسرحي كبير هو كرم مطاوع، لقد كتب الشرقاوي مأساة الحسين أو ملحّمته في مسرحية شعرية هي بالتأكيد آخر نقطة بلغها في رحلته الفكرية والفنية... وتناولها كرم مطاوع من بعده، فركّز فصولها، وكثّف مشاهدتها، حتّى يمكنه تجسيدها على خشبة المسرح... وأنا لا أكتب في هذا السطور نقداً للنصّ المسرحي المنشور في كتاب، أو للعرض المسرحي... أريد أن أشير إلى رحلة هذه المسرحية الطويلة خلف كواليس المسرح، وهي رحلة حافلة بأشدّ ألوان العذاب للفكر والضمير... فمسرحية الحسين تتعرّض الآن مثلها تعرّض الحسين نفسه في الماضي للتنكّر والإنكار! وهي توشك أن تلقى مصيره الدامي، محتنقة وسط حصاد قوى غريبة، تسلك سلوكاً غير مبرّر وغير مفهوم^(١).

٤- معنى الاحتفال بمولد السيّدة: المثال لعظمة الفداء، وسيادة الحبّ، والداعية إلى وحدة الصفوف

جاء هذا المقال عن احتفال أهل مصر بمولد السيّدة زينب عليها السلام، وحفيدة

(١) المصدر السابق: ص ٤١١-٤١٣. لم يشر المؤلّف في هذا المقال إلى أيّ مصدر.

النبِيِّ ﷺ من ابنته فاطمة الزَّهراء عليها السلام، فذكر الشيخ مغنية: «أنّ مئات الألوف من الناس يفدون إلى الحلي الزينبي؛ للمشاركة في هذا الاحتفال، يقودهم إليه حبّ النبي ﷺ وعترته، فالسيّدة زينب عليها السلام بضعة منه، وعطر من سيرته، وقبس من نوره... وكان حظّ السيّدة زينب أن تكون المكرّسة لمواساة أخيها الإمام الحسين، وأنّ تمضي معه على طريق مآساته إلى آخرها... ولما أوت إلى المدينة لم تنثن عن ذكره حتّى ضجروا بها، وضجرت بهم، وطلبوا إليها أن تختار غير المدينة منزلاً، وجاءها نساء من بني هاشم وعلى رأسهنّ ابنة عمّها (زينب بنت عقيل) التي قالت لها مشفقة عليها: يا ابنة عمّي، قد صدقنا الله وعده، وأورثنا الأرض تنبؤاً منها حيث نشاء، وسيجزى الله الشاكرين... ارحلي إلى بلد آمن»^(١).

وتطرّق الشيخ مغنية في هذا القسم إلى مقالات أخرى كانت تحت عناوين متعدّدة، منها: (يسأل ابنته في العيد)، و(أهل البيت)، و(أصغر البنات)، و(الإمام علي)، و(الحسن)، و(الحسين)، و(أمّ العواجز)، و(لحظات في نور أم هاشم)، و(كتاب للإمام جعفر الصادق)، و(خلافة النبي ﷺ لمن بات على فراشه)، و(الشعب المصري وآل البيت)، و(حقّ الجماعة يغلب حقّ النفس)، و(نظرة والنبي)^(٢).

خلاصة البحث

١- الحسين وبطلة كربلاء أحد الكتب الحسينيّة للشيخ محمّد جواد مغنية الذي تميّز بكثرة مقالاته ومؤلفاته، خاصّة فيما يرتبط بالذبّ عن مذهب أهل البيت عليهم السلام (المذهب الشيعي).

٢- أصل هذا الكتاب هو ضمّ أكثر من كتاب للشيخ مغنية تحت هذا العنوان،

(١) المصدر السابق: ٤٣٩-٤٤٣. نقلاً عن وفيات الأئمّة: ص ٤٦٨. وقد تمّت مراجعة هذا المصدر، وتبيّن أنّه قد تمّ نقل النص من قبل المؤلّف كما هو في المصدر المنقول منه.

(٢) أنظر: المصدر السابق: ص ٤١٧-٤٦١.

وتلك الكتب هي: (المجالس الحسينية) الذي طبع بعنوان (التضحية)، والذي ترجم للفارسية تحت عنوان (شيعه وعاشوراء)، والكتاب الآخر هو (مع بطله كربلاء)، فصدر فيما بعد الاثنان معاً تحت عنوان (الحسين وبطله كربلاء).

٣- يشتمل الكتاب على ثلاثة أقسام رئيسة، كل قسم منها عبارة عن كتاب مستقل، وهذه الأقسام هي: المجالس الحسينية، مع بطله كربلاء، مقالات في أهل البيت.

٤- من معالم الكتاب الموضوعية التي تعامل بها الشيخ مغنية مع الشبهات والتساؤلات الموجهة للمذهب الإمامي بشكل عام، ولل قضية الحسينية بشكل خاص. ٥- ومن معالم الكتاب أيضاً إرجاع المعلومات والأدلة التي استدلل بها الشيخ مغنية في ردوده إلى مصادرها الأولية، سواء العقائدية منها، أو الفقهية، أو التاريخية، وغير ذلك، وبمنتهى الدقة.

٦- كان القسم الأول من الكتاب الذي هو بعنوان (المجالس الحسينية) خاصاً بالإجابة عمّا يجول في أذهان الشباب وغيرهم، وما يتساءلون عنه فيما يرتبط بإقامة الشيعة لعزاء الحسين عليه السلام، والبكاء، واصطحاب سيّد الشهداء عليه السلام للنساء والأطفال إلى أرض المعركة، وغير ذلك من التساؤلات.

٧- وفي القسم الثاني الذي عنوانه (مع بطله كربلاء) ذكر المؤلف سبب تأليفه لهذا الكتاب، وأنّه كان بسبب طلب إحدى دور النشر والتوزيع تأليف كتاب حول السيّدة زينب بنت أمير المؤمنين عليها السلام، فقام بتأليفه وجعله خاصاً بها، وبكلّ ما يتعلق بحياتها عليها السلام.

٨- والقسم الثالث من الكتاب تحت عنوان (مقالات في أهل البيت)، ذكر فيه الشيخ مغنية عدداً من المقالات لمختلف الكتّاب والمفكرين، ترتبط بأهل البيت عليهم السلام بشكل عام.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- ١ - أبو الشهداء الحسين بن علي، عباس محمود العقاد، دار النهضة للطباعة، مصر.
- ٢ - الاختصاص، أبو عبد الله محمد بن النعمان العكبري البغدادي، الملقب بالشيخ المفيد (ت ١٣٤ هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، السيد محمود الزرندي، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدّسة - إيران، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.
- ٣ - الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد (ت ١٣٤ هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام، دار المفيد للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.
- ٤ - الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
- ٥ - بلاغات النساء وطرائف كلامهنّ وملح نوادرهنّ وأخبار ذوات الرأي منهنّ وأشعارهنّ في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة مدرسة والده عباس الأوّل، القاهرة، ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م.
- ٦ - تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - مصر، الطبعة الثانية.
- ٧ - تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ)، طبع: مدينة ليدن - مطبعة بريل (١٨٨٣ م).
- ٨ - تجارب محمد جواد مغنية بقلمه وأقلام الآخرين، محمد جواد مغنية، إعداد: عبد الحسين مغنية، أنوار الهدى، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ.
- ٩ - جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري (ت ٢٧٩ هـ)، تحقيق: سهيل زكار، ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م.

- ١٠ - الحسين عليه السلام وبطلة كربلاء، الشيخ محمد جواد مغنية، تحقيق: سامي الغريزي الغراوي، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.
- ١١ - الخصال، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ١٤٠٣ هـ.
- ١٢ - السيرة النبوية، محمد بن إسحاق بن يسار المطليبي المدني (ت ١٥١ هـ)، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م.
- ١٣ - شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي (ت ٣٦٣ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم المقدسة.
- ١٤ - الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ)، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.
- ١٥ - المجالس الحسينية، محمد جواد مغنية، دار الكتاب الجديد ودار الجود، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.
- ١٦ - مجموعة وفيات الأئمة عليهم السلام ووليه وفاة السيدة زينب عليها السلام، مراجع من العلماء الأعلام، دار البلاغة - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م.
- ١٧ - محمد جواد مغنية فقيه مجدد، مهدي أحمددي، تعريب: عبد الحسن نجفي بهباني، تحقيق: محمد جاسم الساعدي، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، المعاونة الثقافية، طهران - إيران، الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م.
- ١٨ - المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ١٩ - مقتل الحسين عليه السلام، أبو المؤيد موفق أحمد المكي أخطب خوارزم (ت ٥٦٨ هـ)، تحقيق: محمد الساوي، دار أنوار الهدى، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.
- ٢٠ - مناقب آل أبي طالب، شير الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن شهر آشوب (ت ٥٨٨ هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م.

٢١ - ناسخ التواريخ (حياة الإمام سيّد الشهداء الحسين عليه السلام)، تحقيق: سيّد علي جمال أشرف.

المجلات

٢٢ - مجلّة الغد المصرية: العدد ١ و ٢، فبراير ١٩٥٩ م مقال: (مولد السيّدة وأعياد الأُمّة العربية).

المواقع الإلكترونيّة

٢٣ - زينب الكبرى عليها السلام، جعفر النقدي، نسخة الكترونية على موقع (مساحة حرّة):

<http://www.masaha.org/book/3360->

٢٤ - محمد جواد مغنبة.. الكفاح في رحلة العلم والعطاء، محمد طاهر الصفار، على الموقع:

<https://imamhussain.org/literature/26948>.

خُلُوصَةُ الْمَقَالَاتِ

بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ

الحضور القرآني في بيانات الإمام الحسين عليه السلام (٢)

آية الخوف والترقب أنموذجاً

الشيخ صباح عبّاس الساعدي

تناول الكاتب في هذا القسم من بحثه جانباً من الجوانب المهمة والمفصلية في سيرة أصحاب الحسين عليه السلام وموقفهم تجاه نهضته المباركة، فقد سلط الضوء فيه على مفردة الوفاء بالعهد والبيعة التي كانت للإمام الحسين عليه السلام في أعناق الأمة، وتجليات هذه المفردة في سيرة أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه مستنداً في ذلك إلى الآية الكريمة التي وظفها الإمام عليه السلام في وصفه لحالة الوفاء التي كانوا عليها، وهي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ، وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾، والتي وردت بشكل متكرر في بياناته عليه السلام، وقد تكوّن البحث من مقدمة وثلاث خطوات، وخاتمة، تناول في المقدمة الحديث عن نسبة الأصحاب الذين شاركوا الإمام الحسين عليه السلام في نهضته ووقفوا إلى جانبه، والخصائص التي أهلّتهم لهذه المهمة الصعبة، والتي استحقوا لأجلها الإطراء والثناء من قبل إمامهم وقائدهم، وبأساليب مختلفة أبرزها الآيات القرآنية التي طبّقها عليهم، ومن ثمّ ذكر في نهاية هذه المقدمة المبررات التي دعت به إلى البحث في هذه الآيات، لينتقل إلى موضوع بحثه عن الآية المباركة التي أطلق عليها تسمية آية قضاء النحب والانتظار، فاستعرض في خطوة أولى المعنى التفسيري لهذه الآية وما تضمنته من مفردات، وفي خطوة لاحقة انتقل فيها إلى سيرة أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الذين استشهدوا معه، وكان البحث منصباً على صفة الوفاء بالبيعة والعهد الذي كان بينهم وبين الإمام عليه السلام، ليتمم بحثه في خطوة أخيرة للمقارنة بين المعنى التفسيري للآية والمورد التطبيقي لها، ليتهي إلى نتائج مهمة

يعتقد أنّ الإمام الحسين عليه السلام أراد الإشارة إليها في كلامه . وفي نهاية المطاف ذكر خاتمة
حول المعنى التأويلي المستفاد من الروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام لبيان المعنى المراد
من الآية المباركة، محتملاً أن يكون ذكرهم لها من باب التأويل كما ذكر توجيهها آخر
لمرادهم عليهم السلام في هذه الروايات ليدخلها في دائرة الجري والانطباق أيضاً.

The Quranic Presence in the Statements of Imam al-Husayn (PBUH) – Part III

– The Verse of Fulfilling the Vow to the Death or Awaiting as a Sample

Shaykh Sabah Abbas al-Saidi

In this part of the research, the writer addresses an important aspect from the significant and conclusive aspects of the biography of the companions of Imam al-Husayn (PBUH) and their stance toward his blessed uprising. The writer focuses on fulfilling the vow and respecting the pledge that was made to Imam al-Husayn (PBUH) by the nation, in addition to the materialization of this term in the biography of the household of Imam al-Husayn (PBUH) and his companions.

He supports this with the noble verse, “. . . of them some have fulfilled their obligations (i.e. have been martyred); and some of them are still waiting, but they have never changed [i.e. they never proved treacherous to their covenant which they concluded with Allah] in the least.” A verse which the Imam (PBUH) repeated in his statements.

The article consists of an introduction and three objects of research and a conclusion, where he in the introduction mentions the number of companions who joined Imam al-Husayn (PBUH) in his uprising and stood by him and the characteristics which qualified them for this difficult task, making them deserve appraisal and appreciation from their Imam and leader. The writer applied different methods, of which the most prominent is the application of Quranic verses. After that, at the end of this introduction, he mentions the justification making him study these verses.

Thereafter, the writer addresses the subject of the blessed verse which he names *The Verse of Fulfilling the Vow to the Death or Await-*

ing. In the first object of research, he presents the interpretive meaning of the verse and what it contains of terms. Whereas in the second object of research he addresses the biography of the household of Imam al-Husayn (PBUH) and his companions who were martyred with him (PBUH). The focus was on the features of loyalty toward the pledge of allegiance and vow which existed between them and the Imam (PBUH). Then follows the third object of research in which he compares the interpretative meaning of the verse and the practical implementation of it reaching importing results which he believes Imam al-Husayn (PBUH) wanted to mention in his words.

In the end, he presents a conclusion regarding the hermeneutical meaning of the narrations from the Imams (PBUT) in order to articulate the desired meaning from the blessed verse. He finds it possible that the Imams (PBUT) mentioning of it, is more hermeneutical. He also mentions another possibility to their objective in these narrations, counting them under the category of the Quranic theory of Applicability and Implementation.



حوارية:

عوامل النصر الإلهي في القرآن الكريم

ودورها في نجاح النهضة الحسينية وديمومتها

العلامة السيّد صدر الدين القبانجي

أجرت مجلة الإصلاح الحسيني حواراً مع سماحة السيّد صدر الدين القبانجي في موضوع (عوامل النصر الإلهي في القرآن الكريم ودورها في نجاح النهضة الحسينية وديمومتها)، وقد تمّ طرح أسئلة عدّة في هذا المجال، وقد أجاب عنها سماحته، وهي باختصار:

السؤال الأول كان عن مفهوم النصر في ضوء الآيات القرآنية. وقد أجاب سماحته بأنّ هناك مفهومين للنصر: النصر الشكلي الظاهري، والنصر العميق الختمي، المتمثل بتحقيق الأهداف على المدى البعيد، وكلا المفهومين قد وردا في القرآن الكريم. وأمّا السؤال الثاني فكان عن المعيار الصحيح لتحقيق النصر في الرؤية القرآنية. وقد أجاب سماحته بوجود ثلاثة معايير لذلك، وهي: حقانيّة المشروع، والجهد البشري، والتأييد الإلهي.

ثمّ جاء السؤال الثالث عن الشروط التي تؤدّي إلى تحقّق النصر الإلهي لجهة الحقّ على جبهة الباطل حسب الرؤية القرآنية. وقد أوضح سماحته بلزوم تحقّق شروط عدّة، أهمّها: الجهد البشري، والإخلاص لله تعالى، والتضحية.

أمّا السؤال الرابع فقد كان عن مدى وجود جميع العوامل المتقدّمة في النهضة الحسينية المباركة. وقد ذكر سماحته بأنّ العوامل كلّها كانت متوفّرة في الثورة الحسينية، مبيّناً نماذج تاريخية لذلك، مع إضافة معيار آخر على ما تقدّم وهو الدقّة والالتزام في تطبيق الموازين الشرعية والأخلاقية.

وقد جاء السؤال الخامس عن حجم النصوص والبيانات الحسينية التي أشارت إلى حتمية تحقق النصر للإمام الحسين عليه السلام ومنهجه الإصلاحية. وقد ذكر سماحته أنّ الأمر كان واضحاً لدى الإمام الحسين عليه السلام أن لا نصر فورياً في تلك الظروف، وقد ذكر طائفة من النصوص الدالة على ذلك، بخلاف النصر العميق الحتمي، فإنّه كان من جملة حسابات النهضة الحسينية.

وأما السؤال السادس فكان عن مدى حضور عوامل النصر الإلهي في مسيرة سبايا أهل البيت عليهم السلام. حيث بيّن سماحته أنّ مقطع السبي كان من عوامل نصر القضية الحسينية، وقد ذكر نماذج لذلك النصر، ابتداء من الأحداث التي وقعت في الكوفة وفي قصر الإمارة بالذات، وحتّى وصولهم إلى الشام وإحضارهم في مجلس يزيد بن معاوية.

وأما السؤال الأخير فكان عن واقع أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام في سيرهم على نهج الإمام الحسين عليه السلام في مسيرته الإصلاحية. وقد أفاد سماحته بأنّ أتباع أهل البيت عليهم السلام ساروا على طريق أهل البيت عليهم السلام، سواء كانوا فقهاء أم جمهوراً، حيث صبروا مع كلّ تلك التحدّيات، وما انطفأ نور أهل البيت عليهم السلام أبداً ببركة هذا الصبر، مفنّداً الرؤية السلبية المظلمة تجاه شيعة أهل البيت عليهم السلام التي روّج لها الإعلام الأموي الحاقداً.

وفي ختام الحوار وجّه سماحته بتوصيات إلى كلّ العاملين بأن يبذلوا قصارى جهدهم في عملهم، وأن يطلبوا بذلك مرضاة الله، وأن يستعينوا به، ويثقوا ثقة مطلقة بالنصر الإلهي.

A Dialogue:

The Factors of the Divine Victory in the Holy Quran and its Role in the Success of the Husayni Uprising and its Continuance

The Scholar, Sayyid Sadr al-Deen al-Qubanchi

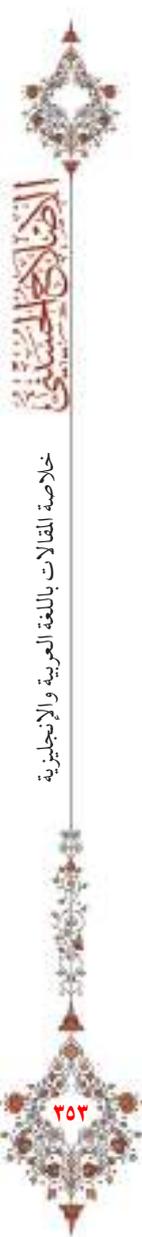
The al-Islah al-Husayni Journal conducted a dialogue with his eminence, Sayyid Sadr al-Deen al-Qubanchi about the subject, The Factors of the Divine Victory in the Holy Quran and its Role in the Success of the Husayni Uprising and its Continuance. Several questions were asked which his eminence answered. In short these are:

The first question was regarding the understanding of victory in the holy Quranic verses? His eminence answered that there is two understandings for victory: the apparent victory, and the deeper certain victory. The last one is obtained by achieving the goals on the long road. And both understandings have been mentioned in the Holy Quran.

The second question was about the right criterions for achieving victory in the Quranic view? His eminence answered that there exist three criterions which are: the legitimacy of the project, the human struggle, and the divine support.

The third question was about the conditions which led to achieving the divine victory for the righteous camp against the false camp in view of the Holy Quran? His eminence explained the necessity of meeting several conditions, such as: the human struggle, the sincerity to Allah, exalted is He, and sacrifice.

The fourth question was regarding the existence of the previous mentioned factors in the blessed Husayni uprising? His eminence mentioned that all the factors were present at the Husayni revolution, and he mentioned historical samples, while adding another criterion to what has already been mentioned, which is the precision, and adherence in



applying the religious and ethical measurements.

The fifth question was regarding the size of the Husayni texts and data, which addressed Imam al-Husayn (PBUH) achieving the victory, and addressed his reformative path? His eminence answered that the matter was clear for Imam al-Husayn (PBUH) that there would not be an instant victory at those conditions. His eminence, then mentions some texts indication this, whereas the deep certain victory was among the calculations of the Husayni uprising.

The sixth question was regarding whether the factors of the divine victory was present with the journey of the female captives of the Household (PBUT)? To which his eminence answered, that the stage of the female captivity was among the factors achieving victory for the Husayni case. He then mentioned some samples to that victory, beginning with incidents occurring in Kufa, and in the Palace of Governing in particular, and all the way till their arrival and presence in the court of Yazid son of Muawiya.

The final question was about the reality of the followers of the school of the Household (PBUT) whether they walked on the path of Imam al-Husayn (PBUH) in his reformative journey? His eminence said that the followers of the Household (PBUT) walked on the path of the Household (PBUT), regardless if they were jurist and scholars or simple folks, and they exerted patience towards all these challenges. The light of the Household (PBUT) did not go out due to this patience. His eminence denounce the negative story about the Shiites of the Household (PBUT) which the spiteful Umayyad propaganda spread.

At the end, his eminence presented some advice to all those whom work in this field to offer their best in their work, and use that work to ask for Allah's satisfaction, and to ask Him to support them, and to place their complete trust in the divine victory.



عاشوراء وحقيقة الخلاص

مقاربة قرآنية نقدية لنظرية الفداء

القسم الأول

الشيخ ثناء الدين الدهلكي

هذه الدراسة في حقيقتها قراءة نقدية بأدوات قرآنية لإحدى النظريات المطروحة في حقل الدراسات الحسينية، ألا وهي نظرية الشهادة الفدائية، حيث عقد الباحث - في هذا القسم من دراسته - البحث في مقدّمة وأربعة مطالب وخاتمة، تناول في المقدّمة التنوّع الحاصل في قراءة النهضة الحسينية وبيان فلسفتها، حيث انبرت نظريات متعددة، من جملتها نظرية الفداء، تلك النظرية التي تمثّل مقارنة للنجاة تشبه إلى حدّ كبير ما نُظّر له في علم اللاهوت المسيحي من كون المسيح عليه السلام هو القربان المقدّس الذي تكمن في جسده ودمه قوّة خلاص الإنسان من تبعات الخطيئة.

ومن أجل وضوح معالم هذه النظرية عقد الباحث المطلب الأوّل لبيان الإطار المفاهيمي، إذ تطرّق إلى مفهومين أساسيين هما: مفهوم الخلاص ومفهوم الفداء، حيث ذكر في تعريف الخلاص اصطلاحاً بأنّه: النجاة من العذاب الأخروي والفوز بنعيم الجنّة. مؤكداً أنّ هذا المعنى قد أخذ مجالاً واسعاً في التعاليم الدينية، كما شاع كذلك استخدامه في علم اللاهوت المسيحي، ويراد منه: تحرير الإنسان من الشرّ بواسطة بذل المسيح وآلامه.

وأما مصطلح الفداء، فقد بيّن الباحث وروده في القرآن الكريم بصيغتيه الاسمية والفعلية، وقد جاء بمعنى: عوض الأسر، والكفّارة (بالاصطلاح الفقهي)، وبدل الخلع، وعوض عن ذبح إسماعيل عليه السلام، والبدل عن العقاب الأخروي. وقد شاع ذكره كذلك في علم اللاهوت المسيحي بأنّه: جعل المسيح كفّارة لخطايا البشر.

ثم انتقل الباحث إلى المطلب الثاني مبيناً من خلاله الجذور الميثولوجية لنظرية الفداء، حيث أعرب عن كون الفداء (محلّ البحث) كانت له جذور تمتدّ في أعماق الوثنية والعادات اليونانية والإغريقية وغيرها من الأقوام السابقة.

ثم جاء الحديث في المطلب الثالث عن حيّز النظرية في فضاء الفكر الشيعي، حيث يظهر من خلال مطالعة بعض النصوص المتعلقة بالنهضة الحسينية وكتب المقاتل المتأخّرة أنّ القراءة الميثولوجية لعاشوراء يمكن أن نلمس لها حضوراً في الساحة الفكرية بعد القرن الحادي عشر الهجري، من كون آلام الإمام الحسين عليه السلام ومقتله يعدّ كفّارة عن ذنوب شيعته ومحبيه.

وقد ذكر الباحث تعقيباً على هذا، بأنّ فكرة الفداء لا تعدو كونها فكرة محدودة جداً على نطاق الفكر الشيعي المدرسي، ويقابلها نظريات معروفة ومشهورة تطرّقت إليها بعض الدراسات الخاصّة بفلسفة النهضة، وقد برزت في كلمات كبار علماء الشيعة ومفكرهم، موجّهاً النقد العلمي إلى من يريد إسقاط هذه النظرية على الفكر الشيعي وعدّها عقيدة أساسية عند الشيعة الإمامية، الأمر الذي يخالف الموضوعية والأمانة العلمية التي ينبغي للباحث التحلّي بها.

ثم انتقل الحديث إلى المطلب الرابع الذي تعلقّ البحث فيه عن القاعدة الأساسية للخلاص في القرآن الكريم، تلك القاعدة التي تجلّت في موضوعين أساسيين، حيث أكّد في الموضوع الأوّل منهما أنّ الخلاص هو حاصل الفعل الإنساني. وجاء الموضوع الثاني للحديث عن مقولة (تحمّل الذنب بالنيابة)، حيث يتجلّى العدل الإلهي في النصّ القرآني بنفي تحميل الذنب على شخص بالنيابة عن الآخر، الأمر الذي يتصادم تماماً مع مشروع الخلاص الذي قامت عليه نظرية الفداء.

ثمّ ختم الباحث القسم الأوّل من دراسته بإبراز بعض الأمور المعرفية في سياق النقد العلمي لهذه النظرية.

Ashura and the Reality of the Salvation

A Quranic Critical Approach to the Theory of Salvation

– Part One

Shaykh Thana al-Deen al-Dahlaqi

This research is in its essence a critical study, with Quranic tools, of one of the presented theories in the field of Husayni studies. Namely, the theory of sacrificial martyrdom, where the researcher – in this part of his study – divides his research into an introduction, four objects of research, and a conclusion. In the introduction, he addresses the occurring variation in the study of the Husayni Uprising and the elaboration of its philosophy, where several theories come to light, such as the Theory of Salvation. A theory that represents an approach to salvation that in many ways resembles that which exists in Christian theology believing that Isa (PBUH) is the blessed sacrifice where his body and blood encompasses a power that will grant humans salvation from the consequences of their deeds.

To elaborate the main features of this theory, the researcher dedicates the first object of research to articulate the conceptive frame. The researcher addresses two main concepts, the concept of salvation and the concept of sacrifice. He found the terminological definition of salvation to be the salvation from afterlife punishment and the granting of the blessing of Paradise. The researcher emphasizes that this definition is well spread in the religious teachings, while also being widely used in Christian theology where it means the liberation of man from evil with the offer made by Christ and the pains he endured.

While the researcher articulates that the term sacrifice has been mentioned in the Holy Quran in both verb and noun form, with the following meanings: captivity or the slaughter of Ismail (PBUH), atonement (the jurisprudential terminology), the Khula-divorce fee, and as

substitute for the afterlife punishment, it has also been mentioned in Christian theology as Christ's death being the atonement for the sins of man.

The researcher then addresses the second object of research, where he articulates the methodological roots of the theory of sacrifice, stating that sacrifice (the subject researched) has roots in the depth of idolatry and ancient Greece, and other such past nations' customs.

In the third object of research, he addresses the dimensions of the theory in the Shiite thought, where following some texts related to the Husayni uprising and the late Maqal books indicates that the methodological study of Ashura has presence in the intellectual field after the 11th century HE stating that the pains of Imam al-Husayn (PBUH) and his killing, is to be considered as atonement for the sins of his Shiite followers and lovers.

The researcher then follows up on this subject mentioning that the notion of sacrifice is nothing more than a very limited idea in the Shiite school of thought. It is opposed by some well-known theories addressed by some special studies related to the philosophy of the uprising and which have appeared in the words of the great Shiite scholars and intellectuals. The researcher directs some scientific criticism toward those who seek to force this theory on the Shiite thought and count it as a basic belief of the Imamite Shiites – completely disregarding scientific honesty any researcher must possess.

After that, the researcher enters the fourth object of research regarding searching for a general rule for salvation in the Holy Quran mentioning two basic subjects. In the first subject, the researcher stresses that salvation is the result of human actions, whereas in the second subject he addresses the rejection of the saying, “taking the guilt of a sin on behalf of others.” He states that the divine justice and mercy in the Quranic text is manifested with the rejection of the possibility of taking the responsibility and guilt of a sin for others – a fact that completely goes against the salvation project the theory of sacrifice is based upon.

The researcher then ends the first part of his research with the presentation of some epistemological matters in the context of scientifically criticizing this theory.



احتجاج الإمام الحسين عليه السلام بالقرآن الكريم

دراسة دلالية

د. الشيخ عبد المجيد فرج الله

يهدف الباحث في هذا المقال إلى إبراز موضوع مهمّ يصبّ في تدعيم الرصيد المحكم في عقيدتنا الحقّة، ألا وهو موضوع الدراسات الدلالية وتأثيرها في قراءة الحوادث التاريخية والنصوص الدينية، فقد ذكر الباحث وجود إثراء جديد في الدراسات الدلالية يدعّم ذلك الرصيد في ولاية الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وهذا الإثراء له جدّته المعاصرة من جهة، وطريقته في الإلفات إلى بؤر التقاط مفعمّة بالدلالات، من جهة ثانية.

وقد أكّد الباحث إمكان اكتشاف المغازي العميقة - من خلال الدراسة الدلالية - لكثير من النصوص الدينية التي غبّشت فهمها الآراء المذهبية، والتمحّلات الطائفية، والتكلّفات العقديّة.

ثمّ طرح سؤالاً مفاده: كيف تتأتّى لنا هذه القدرة الخارقة على التمييز والتحديد والتشخيص، وبكلّ ثقة ويقين؟

وقد أجاب عن ذلك بقوله: إنّ هذا بسبب ما توفّره لنا الحقول الدلالية من تحديد لا يقبل الشكّ والترديد، في كلّ مجال من مجالاتها، بما في ذلك الدلالة الصوتية، ونحن نتابع أيّاً من شخوص التاريخ الإسلامي، بالتتبع الدلالي لكلّ أقواله، وأفعاله، وأفكاره، ومواقفه، بل حتّى نبرة صوته، وإشاراته.

ثمّ أكّد الباحث أنّ حادثة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام لا تزال ساحة بكرّاً أمام الباحثين في العلوم المعاصرة، بكلّ ما رافقها من أحداث ومواقف لكلّ من حرّك

الواقع في ذلك الأوان، أو استطاع أن يجرّك واقع الوعي والتلقّي من أوانها المוגل في عمق التاريخ، وإلى زماننا هذا، وما تتلوه من أزمنة لا تجد أجيالها مناصاً عن التأثر بها، أو التعاطي معها.

ومن أجل التوضيح الدلالي، والربط التطبيقي (على سبيل المثال لا الحصر)؛ ذكر الباحث أنّ من الأهمية القصوى أن نعرف الدلالة القويّة جداً في ربط النبي محمد ﷺ كتاب الله بعترته أهل بيته ﷺ، وأئمّها لن يفترقا حتّى يردا عليه الحوض، ثمّ الانطلاق من هذه اللحظة الزمانية معرفياً ببحوث دلالية تضع حدّاً للتجزؤ والابتسار اللذين طغيا على الذهنيات المذهبية، والاختناقات الطائفية، التي عانى منها العقل العربي المكبّل بعبادة الأشخاص، ووثنية الارتباط بمن تسلّط وحكم، وبالتنمر على كلّ من ناضل فقتل.

وفيما يخصّ موضوع الدراسة، اختصر الباحث مادّته البحثية في عمومات المجال الدلالي المُفصّل عن مكنونات استدلالية ناعمة، أو نائية؛ لكي يخرج بنتائج بحث يفتح مجالاً معرفياً واسعاً، وإن كانت دائرة ارتباطه الأولى متمحورة باحتجاج الإمام الحسين ﷺ بالقرآن الكريم. وقد ذكر الباحث صوراً متعدّدة لهذه المادّة.

Imam al-Husayn's Argumentation using the Holy Quran – A Semantic Study

Dr. Shaykh Abdul Majid Farajullah

In this article, the researcher aims at highlighting an important subject aiding in the consolidation of the firm base of our truthful beliefs. The subject is semantic studies and their influence on reading the historical and religious events. The researcher mentions the appearance of new contributions in the semantic studies field solidifying the foundation in regard to the Guardianship of the Imams of the Household (PBUT). These new contributions enjoy both modernity and methodology in attracting attention to semantic goldmines.

The researcher confirms, that with the semantic study we discover the enigmas of many religious texts which the sectarian opinions, weak and enforced assumptions, and pretexts have blurred.

He then presents the following question: How can we obtain this unique power to differentiate, specify, and identify with absolute confidence and certainty?

The writer answers the question with the following statement: “With what the semantic fields provide us of limitations, which does not allow for doubt or hesitation, at every field of its fields. Among which, is the field of vocal semantics as when we study any which personality from the Islamic History by semantically following all of his sayings, conducts, thoughts, stances, and even the tone of his voice and gesticulations.”

He continues: “It seems to me that the incident of the martyrdom of Imam al-Husayn (PBUH), remains new ground for the modern studies researchers with all its related events, and all its stances of those that

were moved by the reality back then. Or those who were able to move the status quo of the awareness and reception from its deep-rooted time in the depth of the history till our present time and what follows of eras, whose generations have no choice but to become affected by that reality and status quo, or interact with it.

For the sake of semantic clarification and relating implementations (merely mentioned as an example and not limited to this); we find it of utmost importance to understand the powerful semantics of having the Prophet Muhammad (PBUH&HF) linking the Book of Allah with his family and Household (PBUT) and stating that they will not be separated until they return to him (PBUH&HF) at the Fountain of Kauthar.

We also find it important, to then epistemologically move from this periodic moment with semantic studies that will limit the fragmentation and extortion dominating the sectarian minds and the impediments the Arabic mentality – cuffed with adoring and worshiping people and the idolizing of whoever dominates and rule in addition to the harassment of anyone who rose and was killed – suffered from.”

Regarding the subject of the research, the researcher limited his study material to the general subjects of semantics which expresses soft or distant semantic secrets in order to reach research results opening up for a wide epistemological area, even though his primary scope was Imam al-Husayn's argumentation using the Holy Quran. The researcher mentions various samples of this material.



مفهوم الفتح في ضوء الآيات القرآنية والخطاب الحسيني

الشيخ عمّار الجويبراوي

تحدّث الكاتب في هذا المقال عن مفهوم الفتح في الخطاب الحسيني ومقارنته بمفهومه في الآيات القرآنية، منطلقاً من كتاب للإمام الحسين عليه السلام إلى بني هاشم ورد فيه: «فإنّ من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح».

وقد عقد الكاتب مقاله في ثلاثة مباحث، تطرّق في المبحث الأوّل إلى تعريف مفردة الفتح في اللغة والاصطلاح القرآني، وبعد أن ذكر كلام اللغويين بأنّ الفتح هو خلاف الإغلاق ومنه تُشتقّ سائر المعاني المعنوية، عرّج على معناه في القرآن الكريم، ذاكراً أربعة معان وهي: الفتح المادّي، الحكم والقضاء، النصر، إزالة الإغلاق والإشكال؛ مستنتجاً بأنّ الفتح قد جاء على معنيين أساسيين في الآيات القرآنية: الفتح المادّي الذي يُعدّ الأصل لمعنى الفتح لغّةً، والفتح المعنوي، وأكثر ما اقترن لفظ الفتح بالمعنى الأخير.

ثمّ انتقل إلى المبحث الثاني في بيان محتملات مفهوم الفتح في خطاب الإمام الحسين عليه السلام، وقد ذكر أربعة محتملات، هي: النصر المادّي، الشهادة، المراتب المعنوية وكشف الحجب، الإصلاح في الرسالة الخاتمة وإعادتها إلى سابق عهدها. وقد استبعد الباحث المحتملات الثلاثة الأولى من خلال جملة من الشواهد، وأكّد الاحتمال الرابع؛ ولذلك عقد بحثه الثالث في بيان المعنى الرابع تحت عنوان: المعنى الحقيقي للفتح (الإصلاح في الرسالة الخاتمة وإعادتها إلى سابق عهدها)، مستعيناً ببعض النصوص المؤيِّدة لهذا الاختيار. ومن ثمّ أنهى مقاله بخاتمة ذكر فيها أهمّ النتائج.

The Understanding of Triumph in Light of the Quranic Verses and the Husayni Speeches

Shaykh Ammar al-Juwaybrawi

In this article, the writer addresses the understanding of triumph in the Husayni speeches and the comparison with its understanding in the Quranic Verses. He begins with the letter of Imam al-Husayn (PBUH) sent to Bani Hashim in which he (PBUH) wrote: “Whoever follows me will be martyred, and whoever does not follow me will not achieve the triumph.”

The article consists of three objects of research. In the first object of research, he addresses the definition of the term *Fateh* (triumph) both linguistically and as a Quranic term. He presents the linguistics' opinion stating that *Fateh* (opening) means the opposite of closing and that all other meanings are derived from this conception. After that, he addresses its meaning in the Holy Quran mentioning four meanings which are: the materialistic triumph, the rule and the judgment, triumph, removing the complications and ambiguities.

The writer concludes that *Fateh* has two main meanings in the Quranic Verses: The materialistic opening, which is considered to be the origin of the linguistical meaning of *Fateh*, and moral opening, and mostly *Fateh* refers to the last meaning.

He then moves on to the second object of research, articulating the possibilities of the understanding of triumph in the speeches of Imam al-Husayn (PBUH). He mentions four possibilities: materialistic triumph, martyrdom, the spiritual stages and the uncovering of barriers, and the reformation in the final message and restoring it to its former status.

The writer finds the three first possibilities unlikely due to a series of indications, and he affirms the fourth possibility, due to which he

الدراسات
الاسلامية

العدد الحادي والثلاثون - السنة الثامنة - ١٤٢٠ هـ - ٢٠٢٠ م

dedicates the third object of research to the articulation of the fourth meaning. He named this section, *The Real Meaning of Fateh in The Reformation in the Final Message and Restoring it to its Former Status*. He supports his view with some texts that aids this view.

He then ends his article with an articulation in which he mentions the most important results reached.

الآيات المؤولة بالإمام الحسين عليه السلام .. دراسة وتحليل

(القسم الأول)

السيد شهيد طالب الموسوي

تطرق الكاتب في مقدمة هذا المقال إلى التعريف بمكانة علم التأويل القرآني، وكونه مورد اهتمام أهل البيت عليه السلام، إذ إنَّ المتبَّع لرواياتهم عليه السلام يرى جلياً التفريق بين التفسير والتأويل، معبرين فيها عن التفسير بظهور القرآن المرتبط بظاهر اللفظ، وعن التأويل بالباطن، أي المرتبط باللفظ والمعنى الظاهري بنحو خفي.

وقد ذكر الكاتب في المقدمة أنّ من ملامح المنهجية التأويلية عند أهل البيت عليه السلام أنّها أولت قضية الإمام الحسين عليه السلام ونهضته الخالدة وطبيعة العلاقة بينها وبين القرآن الكريم اهتماماً بالغاً، وذلك في مواطن وشواهد قرآنية عديدة، منها:

١- الآيات الخمس الأولى من سورة الفجر، حيث جاء في تأويل بعض مفرداتها أنّ الليالي العشر هي العشر الأولى من شهر محرّم الحرام، وجاء فيها أيضاً تأويل الفجر بالإمام القائم عليه السلام، حيث يتضح من ذلك أنّ أصل حركته عليه السلام وجوهرها إنّما هو ثورة سيّد الشهداء عليه السلام ونهضته المباركة، وغير ذلك من التأويلات.

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾، فقد ورد في تأويلها أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو المقتول ظلماً، وأنّ ولي دمه الذي يقتل به ويثأر له هو القائم من آل محمد عليه السلام.

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَدْ يَنْتَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾، حيث أوّلت الرواية الوحيدة المروية عن الإمام الرضا عليه السلام الذبح العظيم بأنّه الإمام الحسين عليه السلام، وهنا قام الكاتب بتقسيم

البحث حول هذه الرواية على قسمين: أحدهما يتعلّق بجانب السند، والآخر يتعلّق بجانب المتن، فخلُص إلى القول بصحّة الرواية، وأتّما دالّة تأويلاً على أنّ الدماء الطاهرة للإمام الحسين عليه السلام كانت فداءً لدين الله الذي يُعدّ بيته المشرف أوّل رمز له. وأخيراً، ختم الباحث مقاله بذكر خلاصة للنتائج التي تمّ التوصل إليها.

The Quranic Verses Esoterically Interpreted to Regard Imam al-Husayn (PBUH) – Part One: Research and Analysis

Sayyid Shaheed Taleb al-Mousawi

The writer addresses in the introduction the definition of the esoteric interpretation of the Quran, and that it was a subject the Household (PBUT) paid attention to, to such a degree that the follower of their narration clearly sees the distinction between interpretation and esoteric interpretation. Standard interpretation is regarded to be interpretation of the apparent meaning of the term, whereas esoteric interpretation is about the deeper understanding, meaning the term and the apparent meaning in a hidden manner.

In the introduction, the writer also mentions, that the traits of the esoteric methodology of the Household (PBUT) paid great attention to the project of Imam al-Husayn (PBUH), his eternal uprising, and the nature of the relation between it and the Quran, in various places in the Holy Quran:

1-The first five verses from Sura al-Fajr, where some esoteric interpretation believes that the 10 nights mentioned in the verses are the 10 nights of Muharram, and that the sunrise mentioned in the beginning of the verse, are in fact Imam al-Mahdi (MAHHR), which means that the origin and core of Imam al-Mahdi's movement is the revolution of the Master of the Martyrs (PBUH) and his blessed uprising, in addition to other such esoteric interpretations.

2- His words, exalted is He, “Do not take a life made sacred by Allah except with right. If anyone is killed unjustly, We have given their heirs the authority, but do not let them exceed limits in retaliation for they are already supported.” In the esoteric interpretation of the verses



العدد الحادي والثلاثون - السنة الثامنة - ١٤٢٠ هـ - ٢٠٢٠ م



it is mentioned that Imam al-Husayn (PBUH) is the one killed unjustly, and that his heir with the authority to retaliate is Imam al-Mahdi (MAHHR).

3-His saying, exalted is He, “And We ransomed him with a great sacrifice” , where the only narration from Imam al-Redha (PBUH) regarding this topic esoterically interpreted that the great sacrifice is Imam al-Husayn (PBUH). In this regard the writer divides the research into two parts. The first is regarding the narrator chain, and the other part regarding the text itself, where he concludes that the narration is authentic, and that it esoterically indicates that the immaculate blood of Imam al-Husayn (PBUH) was a sacrifice for the religion of Allah, which considers the blessed house, its first symbol.

At the end, the researcher ends his article, by mentioning a resume of the results he reached.

التناصّ القرآني في خطاب المسيرة الحسينية

مرحلة الأسر أنموذجاً

(القسم الثاني)

أ. م. د. زهراء البرقعاعي

تناولت الكاتبة في هذا القسم من بحثها التناصّ التحويري (غير التام)، أو التناصّ غير المباشر، معتبرةً إياه أحد أنواع التناصّ الذي يُقصد به: أن منتج النصّ لا يذكر النصّ المُتناصّ معه مباشرة في نصّه، بل يكفي بالإشارة إليه، كما أشارت إلى أنّها من خلال التناصّ - سيّما التحويري - تستطيع كشف النقاب عن شخصية الناصّ واكتشاف مؤثراته الفكرية.

بعد ذلك تطرّقت الكاتبة إلى هذا النوع من التناصّ في خطاب مسيرة الإمام الحسين عليه السلام من استشهاده حتّى العودة إلى المدينة - أي مرحلة الأسر الذي تعرّض لها أهل البيت عليهم السلام - مقسّمةً بحثها على ثلاثة محاور:

- 1- التناصّ التحويري في خطب السيّدة زينب عليها السلام.
- 2- التناصّ التحويري في خطب الإمام زين العابدين عليه السلام.
- 3- التناصّ التحويري في خطب السيّدة فاطمة الصغرى عليها السلام.

وفي هذه المحاور الثلاثة تناولت الكاتبة بعض النصوص من خطب مسيرة الإمام الحسين عليه السلام؛ لاستنطاقها وبيان موضع التناصّ غير المباشر فيها مع آيات القرآن الكريم، مستعينةً بذكر أقوال المفسّرين - من الفريقين - لبيان معاني تلك الآيات المباركة؛ لتتوصّل بعد ذلك كلّ إلى أنّ أهل البيت عليهم السلام هم انعكاس لهدي مبادئ القرآن الكريم، وأنّهم عليهم السلام قد عُجِنوا وتربّوا وتشربوا مفاهيم القرآن الكريم حتّى انعكست عليهم أسلوباً ومنطقاً.

The Quranic Intertextuality in the Speeches of the Husayni Journey – The Captivity Stage – Part II

Dr. Zahraa al-Barqaawi

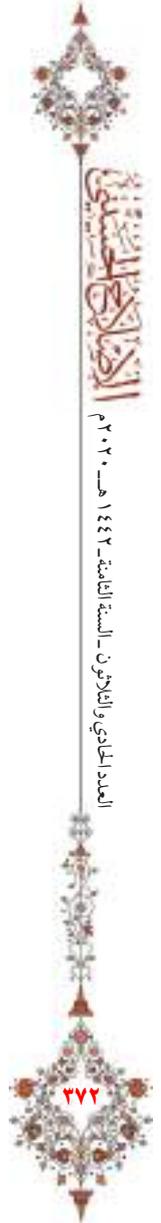
In this part of her research, the writer addresses the transformative intertextuality (the incomplete), otherwise known as the indirect intertextuality. She considers it to be a type of intertextuality where the author of the text does not mention the intertextualized text directly in his text, rather he suffices with pointing toward it. The writer also mentions that she can unveil the personality of the person behind the intertextuality and reveal his intellectual influences.

After that, the writer addresses this type of intertextuality in the speeches of Imam al-Husayn's journey from his martyrdom till the return to Medina – meaning the stage of captivity that the Household (PBUH) suffered – where she divides her research into three objects of research.

- 1-The Transformative Intertextuality in the Speeches of Lady Zaynab (PBUH).
- 2-The Transformative Intertextuality in the Speeches of Imam Zayn al-Abideen (PBUH).
- 3-The Transformative Intertextuality in the Speeches of Lady Fatima al-Sughra (PBUH).

In these three objects of research the writer addresses some texts from the journey of Imam al-Husayn (PBUH) where she elaborates the indirect intertextuality from the verses of the Holy Quran in it. She supports that with the views of the interpreters – from both sects – to articulate the meaning of the blessed verses. She then concludes that the

Household (PBUT) are a reflection of the guidance of the principles of the Holy Quran, and that they (PBUT) were raised and molded together with the principles of the Holy Quran so much that it was reflected on their conduct and logic.



الأثار المعنوية لنهضة الإمام الحسين عليه السلام في ضوء الآيات القرآنية

دراسة وصفية تحليلية

(القسم الأول)

د. الشيخ أسعد علي السلطان

شرع الكاتب في بداية مقاله هذا بمقدمة سلّط الضوء فيها على جملة من المقومات التي امتلكتها واقعة عاشوراء، وكانت السبب الرئيس وراء الانتصار المعنوي الذي حصل لجبهة الحقّ الممثّلة بالإمام الحسين عليه السلام، هذا الانتصار الذي جعل من هذه الواقعة نهضة معطاء تزخر بالآثار المهمّة والحيوية على الصعيدين المادّي والمعنوي. ولسعة البحث حول هذه الآثار فقد عمد الكاتب في المقدمة ذاتها إلى تحديد دائرة دراسته هذه بخصوص الآثار المعنوية، وقراءتها في ضوء الآيات القرآنية، مصنفاً هذه الآثار في محاور أربعة، تناول في القسم الأوّل من هذا المقال المحورين الأولين اللذين هما عبارة عن مجموعة الآثار المرتبطة بالجانبين: العقدي، والأخلاقي - التربوي؛ محيلاً الحديث عن الجوانب الأخرى إلى القسم الثاني.

أمّا مجموعة الآثار المعنوية العقديّة التي ذكرها الكاتب، والتي كانت من مخرجات النهضة الحسينية والآيات القرآنية في آن واحد، فقد تمثّلت بترسيخ وتدعيم عقيدة الإنسان المسلم فيما يتعلّق بأصلي المبدأ والمعاد، وكذلك بسائر الأصول الأخرى، ك(العدل، النبوة، الإمامة). وقد كان الحديث عن هذا النوع من الآثار هو المحور الأوّل من هذه الدراسة.

ثمّ يأتي دور المحور الثاني الذي عرض فيه الكاتب مجموعة من الآثار المعنوية الأخلاقية والتربوية المنبثقة عن النهضة الحسينية، والمدعّمة بالآيات القرآنية، فقد

كانت عبارة عن: العزّة، الصبر، الإيثار، الشجاعة، التوكّل، جهاد النفس.
هذا، وقد عمد الكاتب في هذه الدراسة الوصفية التحليلية إلى إيقاف القارئ
الكريم على أنّ النهضة المباركة لأبي عبد الله عليه السلام ما هي إلا امتداد للشمرات التي جاء
من أجلها القرآن، وسعى نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله إلى إيجادها في المجتمع الإسلامي.

**The Spiritual Effect of Imam al-Husayn's Uprising in
light of the Quranic Verses
– A Descriptive Analytical Study
Part One**

Dr. Shaykh Asad Ali al-Salman

The writer begins his article with an introduction in which he focusses on a series of constituents the Event of Ashura possessed. These constituents were the main reason behind the spiritual victory of the Camp of Justice represented by Imam al-Husayn (PBUH). A victory that turned the event into a benevolent uprising spreading important and vigorous materialistic and spiritual effects. Due to the wide field of these effects, the writer limits his research scope to the spiritual effects, and the study of them, in light of Quranic verses. The writer divides these effects into four objects of research, of which he will address two of in this part of the research. The two objects of research are both regarding the effects related to the theological, ethical, and educational aspects, whereas the other aspects are to be addressed in part two of the research if Allah wills.

Regarding the spiritual theological effects, mentioned by the writer – which were among the outputs of the Husayni uprising and the Quranic verses at the same time – the writer states that they played a role in solidifying and strengthening the belief of man in regard to the two pillars of Islam, Oneness and The Day of Resurrection. They also played a significant role concerning the rest of the pillars (Justice, Prophethood, and Imamate). Discussing this type of effects made up the first object of research of this study.

Then follows the second object of research in which the writer

presents a series of ethical spiritual educational effects born from the Husayni uprising, and supported by the Quranic verses. These effects were as follows: Pride and Nobility, Patience, Self-Sacrifice, Bravery, Reliance on Allah, and Contending the Self.

The writer also sought to present, in this descriptive analytical study, to the dear reader, that the blessed uprising of Imam al-Husayn (PBUH) was nothing less than a continuation of the results to which the Quran was sent and our noble Prophet (PBUH&HF) strived to implement in the Islamic society.



العدد الحادي والثلاثون - السنة الثامنة - ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

الحوار القرآني عند الإمام الحسين عليه السلام

دراسة تحليلية

الشيخ حيدر العريضي

يتناول المقال أسلوب الإمام الحسين عليه السلام في حوارهِ مع الآخرين، وما تمخَّض عنه من طرق استدلالية باستعماله لأيِّ الذكر الحكيم. بدايةً ذكر الباحث مقدّمة أشار فيها إلى بعض خصائص الحوار الحسيني، ثمّ عقد تمهيداً تطرّق فيه إلى معنى الحوار وأهمّيته.

بعد ذلك قسّم المقال على ثلاثة مباحث: تناول في المبحث الأوّل حوار الإمام الحسين عليه السلام لإثبات الصانع وصفاته، فبيّن أنّه عليه السلام قد انبرى إلى إثبات كمال الصفات للبارئ عز وجل، ونفي عنه ما لا يليق به كالجسميّة الماديّة والأحوال البشريّة؛ ليدحض مخططات آل أمية الرامية لعودة الناس إلى شرك الجاهلية وعبودية الأصنام الماديّة والبشرية.

ثمّ تطرّق في المبحث الثاني إلى حوارهِ عليه السلام لإثبات الخلافة الشرعية، واستعرض بعض الآيات التي استشهد بها عليه السلام لإثبات مقامي النبوة والإمامة وأهمّيتها في حياة الأمة الإسلاميّة، وضرورة اتّباع مَنْ أراد الله تعالى أن يكون خليفةً وحاكماً بين عباده باستحقاقٍ بعد توافر شروط الكمال والتنزّه عن كلّ رجسٍ.

وفي المبحث الثالث والأخير، استعرض مقاطع من خطب الإمام الحسين عليه السلام وكلماته، تضمّنت بعض الآيات القرآنية التي قرنت طاعة أهل البيت عليهم السلام بطاعة الله ورسوله صلّى الله عليه وآله، والتي استدلّ بها عليه السلام على إثبات شرعية نهضته المباركة.

ثمّ ختم الباحث مقاله باستعراض مجموعة من النتائج التي توصل إليها في بحثه.

The Quranic Dialogue of Imam al-Husayn (PBUH) – An Analytical Study

Shaykh Haidar al-Aridhi

The article addresses Imam al-Husayn's method of dialogue with others and what was derived thereof from deductive methods by using Quranic Verses.

To begin with, the researcher mentions an introduction in which he points out some characteristics of the Husayni dialogue, before addressing the meaning of debate and its significance.

Thereafter, he divides his research into three objects of research. In the first object of research, he addresses the dialogue of Imam al-Husayn (PBUH) in proving the Creator and His attributes. The researcher articulates that the Imam (PBUH) went on with proving the perfection of the attributes of the Lord, exalted is He, and at the same time rejecting what is unsuitable with them, such as materialistic embodiment and human states. By doing so, the Imam (PBUH) corrupted the plans of the tribe of Umayya aiming at bringing people back to the polytheism of the Age of Ignorance and the idolatry of statues and men alike.

In the second object of research, the researcher addresses the Imam's dialogue in proving the subject of the legal caliph, where he presents some verses that Imam al-Husayn (PBUH) cited as evidence in order to prove the two states, the Prophethood and the Imamate, and their importance in the life of the Islamic nation and in the necessity of following whom Allah, exalted is He, wanted to become the caliph and ruler amongst His worshippers, righteously and eligibly, after having encountered the conditions of perfection and after having remained aloof from all impurities of sin.



In the third and final object of research, the researcher presents phrases from the speeches and words of Imam al-Husayn (PBUH) which contained some Quranic Verses that set the obedience of the Household (PBUT) as a condition to obeying Allah, exalted is He, and His Messenger (PBUH&HF), and which he (PBUH) employed to prove the legality of his blessed uprising with.

He then ends his article with a presentation of a group of results reached in his research.

رمزية الحرف في توظيف الإمام الحسين عليه السلام للنص القرآني

الفاء والواو أنموذجاً

الشيخ وسيم راقم الوائلي

سلّط الباحث الضوء في مقاله هذا على بعض الدلالات المهجورة في عالم البحوث الأكاديمية، اللغوية، كاشفاً قابلية النصّ القرآني لإفادة معانٍ كثيرة في حقولٍ شتى، منها رمزية الحرف العربي، ويسعى البحث كذلك إلى الوقوف على شيء من إشارات القرآن الكريم ولطائفه عبر بعض الآيات التي وظّفها الإمام الحسين عليه السلام في ثورته التاريخية.

وقد اختار الباحث عيّنة من تلك النصوص القرآنية بقدر ما يسعه المجال، متمثلةً بحرفي (الفاء، والواو) من أوّل الآيتين اللتين قرأهما الإمام الحسين عليه السلام حين خروجه من المدينة المنورة، حتّى وصوله إلى مشارف مكة المكرمة؛ وذلك ليستجلي الدلالة الرمزية التي لا تنفكّ عن مقاصد ذوي المقامات العالية، كالأنبياء والأئمة عليهم السلام.

وقد عقد الباحث هذا المقال في مبحثين ونتيجة، تسبق ذلك مقدّمة وتمهيد:

تناول المبحث الأوّل التحليل الرمزي لحرف الفاء في أوّل قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أمّا المبحث الثاني فقد تناول: التحليل الرمزي لحرف الواو في أوّل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا توجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدِينِكَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وأخيراً، تضمّنت نتائج البحث أهمّ النتائج التي توصل إليها الباحث في ثلاثة نقاط مختصرة.

The Symbolism of the Letter in the Adaptation of Imam al-Husayn (PBUH) of the Quranic Text – The Letter Faa and Waw as a Sample

Shaykh Wasim Raqam al-Waeili

This research attempts to address some abandoned indications in the academic research world, which indicates the ability of the Quranic text to provide many meanings in various fields. Such as the symbolism of the Arabic letter. The researcher also attempts to address some of the Holy Quran's references and subtleties through some verses that Imam al-Husayn (PBUH) utilized in his historic revolution.

The researcher chose a sample from those Quranic Texts – as much as the article would allow – represented by the two letters *Faa* and *Waw*, from the first two verses that Imam al-Husayn (PBUH) recited when he left Holy Medina until he reached the outskirts of Holy Mecca. The Imam (PBUH) did so in order to depict the symbolic indication that does not detach itself from the objective of those of elevated statuses, such as the Prophets and the Imams (PBUT).

The researcher authored this article with two objects of research and a conclusion, precluded by an introduction and forewords.

The first object of research addresses the analysis of the symbolism of the letter Arabic letter *Faa* at the beginning of His words, exalted is He: “So he left it, fearful and anticipating [apprehension]. He said, ‘My Lord, save me from the wrongdoing people.’” While the second object of research addressed the analysis of the symbolism of the letter *Waw* at the beginning of His words, exalted is He, “As he headed towards Median, he said, ‘Perhaps my Lord will guide me to the right way.’”

Lastly, the conclusion followed including the most significant results the researcher reached in three short points.

النهضة الحسينية والبعثة النبوية

(القسم الأول)

دراسة مقارنة في الخلفية والأهداف

العلامة السيّد سامي البدري

البحث عبارة عن دراسة مقارنة تهدف إلى بيان التشابه الحاصل بين حركة النبي ﷺ وحركة الإمام الحسين عليه السلام في جميع المراحل، سواء الخلفية منها، أم الهدف، أم الفتح والتركة.

في مقدّمة القسم الأوّل من البحث تناول مساحته أهمّية الدراسات المقارنة في حقل التاريخ، وذكر أنّ هناك حقائق وقضايا جديدة لا يمكننا أن نحصل عليها إلاّ من خلال المقارنة.

ثمّ قسّم البحث على مبحثين، تناول في المبحث الأوّل الاشتراك في الخلفية، مبيّناً أنّ الخلفية الداعية لبعثة النبي ﷺ، هي تحريف دين إبراهيم عليه السلام من قبل قريش بعبادة الأصنام، وتحريف الإمامة الإبراهيمية بفعل إمامة قريش وبدعها، وكذلك الحال بالنسبة للإمام الحسين عليه السلام، فلولا نهضته عليه السلام لبقى الطريق إلى عبادة الله تعالى مُغلقاً أمام الناس جميعاً؛ لأنّ قريش - عبر بني أمية - عرضت نفسها للناس على أنّهم خلفاء الله، وأنّهم الهدى.

ثمّ تطرّق في المبحث الثاني إلى الاشتراك في الهدف، وذكر أنّ هدف البعثة النبوية هو تحرير دين إبراهيم عليه السلام، ومدينته (مكة)، وفتح الطريق إلى الله تعالى بتقديم الكتاب الإلهي الصحيح، كما أنّ هدف النهضة الحسينية هو فتح الطريق إلى الله تعالى بتقديم إمامة بني أمية الدينية، وتقديم حملة كتاب الله تعالى وهم الأئمة عليهم السلام.

بعد ذلك ختم هذا القسم من المقال بعنوان: (طريقة الإمام الحسين عليه السلام لإحياء

السنة)، وذكر أنّ الأمة كانت بحاجة إلى أمرين، الأوّل: أن يفتضح أمر الخلافة ببيان أنّها خلافة ضالة باطلة، والثاني: الجهاد - وإن لم تقم دولة - من أجل إزالة الطغمة التي ترعى هذا الضلال.

The Husayni Uprising and the Prophetic Emission

Part One: A Comparative Study of the Background and Goals

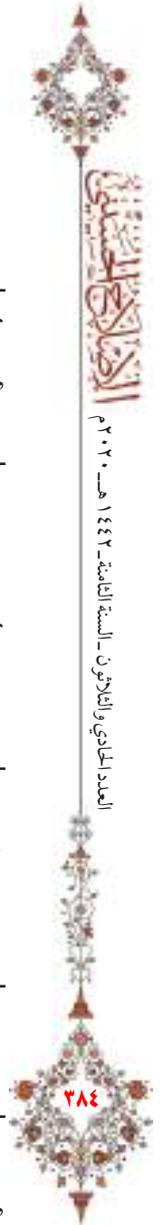
The Scholar, Sayyid Sami al-Badri

The research is a comparison aiming at articulating the comparison occurring between the movement of the Prophet (PBUH&HF) and that of Imam al-Husayn (PBUH), at every stage, be it the background, the goal, or the victory and aftermath.

In the introduction of part one of this study, the researcher addresses the significance of comparative studies in the history field. He also mentions that there exist facts and issues that we cannot obtain without comparative studies.

After that, the researcher divides his research into two objects of research, where he at the first one addresses the commonalities in the background of both movements, articulating that the background of the emission of the Prophet (PBUH&HF) was the deviation of the religion of Ibraheem (PBUH) at the hands of the tribe of Quraysh who implemented idolatry and deviated the Ibraheemite guidance with their own guidance and heretical innovations. Such was the case with Imam al-Husayn (PBUH). Had it not been for his uprising, then the path to worship Allah, exalted is He, would have been impassable for everybody, as the tribe of Quraysh – through the tribe of Umayya – presented themselves at the Heirs of Allah and the Guides of Righteousness.

The researcher then addressed the common goals in the second object of research, where he mentioned that the prophetic emission's goals were to liberate the religion of Ibraheem (PBUH) and his city, Mecca, and establish a path toward Allah, the Exalted, by presenting the true divine book. Similarly, the goal of the Husayni uprising was to establish a path toward Allah, the Exalted, by demolishing the religious leadership



of the tribe of Umayya and prioritizing the Carriers of Allah's Book, the Imams (PBUT).

After that, he ends this part of the article with a section he named, *The Method of Imam al-Husayn (PBUH) to Revive the Prophetic Tradition*, mentioning that the nation needed two factors. The first; to expose the ongoing caliphate and show its true nature as a deviating false caliphate. The second; to strive and fight – regardless if a new state is achieved or not – in order to remove the band that was caretaking this corruption.

قراءة في كتاب: (الحسين عليه السلام وبطلة كربلاء) للشيخ محمد جواد مغنية

م. م. هبة الأسدي

ابتدأت الكاتبة مقالها بمقدمة أشارت فيها إلى كثرة الدراسات التي كُتبت في الإمام الحسين عليه السلام ونهضته المباركة؛ لما لذلك من أهمية بالغة لبيان حقيقة تلك النهضة، وأنّ هناك جانباً يستحقّ الاهتمام، وهو دراسة الكتب والمؤلفات ذاتها؛ لبيان منهجياتها والأهداف التي كُتبت من أجلها.

وقد وقع اختيار الباحثة على كتاب (الحسين عليه السلام وبطلة كربلاء)، لمؤلفه الشيخ محمد جواد مغنية، وهو أحد أشهر العلماء والمفكرين في القرن الماضي، وقد ضمّ هذا الكتاب في الواقع كتابين للشيخ مغنية تحت هذا العنوان، وهما: (المجالس الحسينية)، وكتاب (مع بطلة كربلاء)، فصدر الاثنان معاً تحت عنوان واحد هو (الحسين عليه السلام وبطلة كربلاء).

تناول المبحث الأول من المقال المؤلف ومكانته العلمية، وذلك ضمن العناوين الفرعية التالية: ولادته، نشأته العلمية، أساتذته، مؤلفاته وآثاره، ثم وفاته ومدفنه. أمّا المبحث الثاني فقد تناول خصائص الكتاب العلمية والفنية، كتسمية الكتاب، وأبرز مميزات.

وقد خصّص المبحث الثالث للحديث عن منهجية المؤلف في كتابه هذا الذي اشتمل على ثلاثة أقسام رئيسة، هي:

القسم الأول: المجالس الحسينية، وقد تضمّن موضوعات عدّة، منها: الشيعة ويوم عاشوراء، مودّة أهل البيت عليهم السلام، رضا الله رضانا أهل البيت، روح النبي والوصي، خروج الإمام بأهله، يوم الطفّ يوم الفصل، بدرّ والطف، السيّدة زينب رمز لشيء عميق الدلالة.

وتحدّثت الباحثة في القسم الثاني - وعنوانه (مع بطلّة كربلاء) - عن نسب السيّدة زينب عليها السلام، وزواجها، ومصائبها وأحزانها. وفي القسم الثالث أشارت إلى مقالات تخصّ أهل البيت عليهم السلام لعدّة كتاب ومفكرين. وأخيراً، ختمت الكاتبة مقالها بذكر أهمّ نتائج البحث، ضمن عدّة نقاط مختصرة.

A Perusal of the Book:
Al-Husayn wa Batalat Karbala
By Shaykh Muhammad Jawad Maghniyya

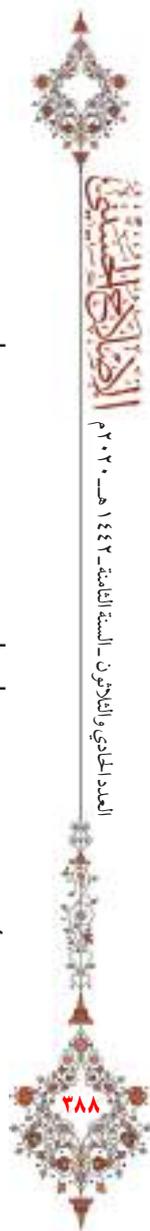
Heba al-Asadi

The writer begins her article with an introduction in which she addresses the number of studies on Imam al-Husayn (PBUH) and his blessed uprising, due to the great significance of articulating the truth of that uprising. She also mentions that there exists a field that deserves more attention. That is, to study the same books and writings, in order to present their methodology and goals behind them.

Eventually, she chooses the book, *al-Husayn Wa Batalat Karbala* (al-Husayn and the Heroine of Karbala) by the author, Shaykh Muhammad Jawad Maghniyya. One of the most prominent scholars and intellectuals of the past century. The book contains more than one book by Shaykh Maghniyya but are gathered under this title. Such as *al-Majales al-Husayniyya* (The Husayni Commemoration Ceremonies), and *Maa Batalat Karbala* (With the Heroine of Karbala), where both books were published under one title, and that is *al-Husayn Wa Batalat Karbala*.

The first object of research of the article, is regarding the author of the book and his scholastic position, under the following sub-topics; his birth, scientific uprising, teachers, and writings and heritage, and then his death and burial.

The second object of research addressed the scientific and technical characteristics of the book. Such as the name of the book and its main features. The researcher then dedicates the third object of research to the methodology of the author in his book, addressing three main parts, where each part represented a separate book. The respective parts are as follows:



Part one: *The Husayni Commemoration Ceremonies*; containing several topics such as; The Shiite Muslims and the Day of Ashura, The Love Toward the Household (PBUT), The Narration: “The Satisfaction of Allah is Granted With Our, the Household's Satisfaction”, The Soul of the Prophet and the Guardian, The Imam Rising With His Family, The Day of al-Taff – The Day of Reckoning, Badr and al-Taff, and Lady Zaynab – A Symbol of Something with Deep Semantics.

She then addressed, in the second part titled *With the Heroine of Karbala*, the lineage of Lady Zaynab (PBUH), her husband, and tragedies and sorrows.

In the third part, she presented some articles regarding the Household (PBUT) by several writers and intellectuals.

In the end, the researcher summarizes and presents the most important results reached in her study.



إِنَّمَا أُخْرِجَتْ لِطَلَبِ الْإِضْلَاحِ فِي أُمَمٍ سَجَدَتْ

الإضلاع الحسينية

مَجَلَّةٌ فَضْلِيَّةٌ عَلِيَّةٌ تُعْنَى بِالنُّهْضَةِ الْحُسَيْنِيَّةِ وَأَفَاقِهَا الْفِكْرِيَّةِ